

الكسي تولستوى

مؤلفات مختارة في خمسة مجلدات

المجلد الخامس

قصص



دار «رادوغا»
فرع طشقند، ١٩٨٥

الامير الاعرج

من عرش الجليد من اعالي الجبال
يفزل الناسك الطليق شلالا عارما
يخترق حجب الظلام ويحطم كل القيود.
وتعود السحابة الى الجبل على صدى الحب
كقربان الدم على مذبح ملغع بالثلوج.
(ف. ايفانوف «نجوم الهدى»)

ضوء القمر

- ١ -

اطل القمر على كوليفان ، في منتصف الليل، فانار من جهة
الشمال الزجاج المتعوج على نوافذ المنازل، وراح يطارد من اليمين
الظلال الكثيفة على اعشاب الحماض المدعوكة في درب القرية،
ثم اختفى وراء سحابة هائجة في سماء الليل. آنذاك كانت تنهب
الدرب على طول القرية ثلاثة جياذ تجر عربة بسقف مطوى ويتهادى
من جرسها رنين خفيف.
لم تبدأ الديكة، بعد، صياحها المعتاد، بينما كفت الكلاب عن
النباح. لا شيء سوى بصيص اصفر ينبعث من شق نافذة موصدة
في منزل على طرف القرية.

امام هذا المنزل تنتصب على سقف البوابة المقوس صارية
في اعلاها حلقة ملفوفة بالقش تقول لعابر السبيل من بعيد ان
المنزل خان للمسافرين. وراء الخان ينبسط سهب شاسع مستو
بدا رمادي اللون في ضوء القمر. الجياذ تسرع لاهثة بعدها نحو
السهب مجلجل رتيب في سكون الليل. التقط الرجل الجالس في

A. TOLSTOY

Собрание сочинений в 5-ти томах
ТОМ 6

ПОВЕСТИ И РАССКАЗЫ

На арабском языке

4702010200—398
T 031(05) — 85 074—85

طبع في الاتحاد السوفيتي
© الترجمة الى اللغة العربية - دار «رادوغا» فرع طشقند، ١٩٨٥

ISBN—5—05—000085—8
ISBN—5—05—000090—4

العربة عصاه ومس بها كتف الحوذى. فتماهلت العربة ثم توقفت عند الخان.

رفع الرجل البطانية عن قدميه وزل مستندا الى ضلع العربة. ثم خطا على العشب، وهو يعرج، وتوجه نحو المدخل الواطى. وعندما بلغه التفت الى الحوذى وامره بصوت خافت:
- اذهب. وعد الى هنا في الفجر.

ارخى الحوذى العنان فانطلقت الجياد الى السهوب، بينما امسك الرجل بمقبض الباب وراح يهزه، ثم مال الى ضلع المدخل البالى وكأنه غارق في تأملاته. كان وجهه النحيف شاحبا، وتحت عينيه المستطيلتين خطوط عميقة، وتلوح اسفل ذقنه بقعة عارية بين شعر لحيته القصيرة الجعداء. خلع قفازه الايمن على مهل وطرق الباب من جديد.

تهادت خطوات اقدم حافية وانبعث صرير من ارضية المدخل الخشبية، وفتح الباب قليلا في البداية، ثم فتح على مصراعيه بسرعة وظهرت على العتبة امرأة شابة، هتفت بفرح وانفعال:

- الكسى! لم اتوقع مجيئك.

ولمست يديه بتهيب وقبلت كتفه.

- اتسمحين بالدخول يا ساشا؟ سابقي عندك حتى الصباح - قال الرجل وهز رأسه ثم ولج المدخل المضمور بضوء القمر.

سارت ساشا امامه متلفتة، وانفجرت شفتاها عن ابتسامة فلاحت اسنانها البيضاء منضدة على محيا عاطر مليح.
- رايتك ظهرا عندما اجتزت القرية وظننت انك ذاهب الى ضيعة فولكوفو وستقضى الليلة هناك، لكنك، يا سيدى، عرجت على...

- هل عندك احد من المسافرين؟

- كلا. - اجابت ساشا وهي تدخل غرفة صيفية ذات جدران ملبسة بالواح خشبية. - توقف عندنا فلاحون بعرباتهم، لكنهم فضلوا المبيت في العراء. - وجلست على سرير عريض مغطى ببطانية مخرقة وابتمت بخنان.

ضوء القمر يتسرب الى الغرفة عبر نافذة صغيرة وقد استقر على محيا ساشا، على الشفتين المرتفعتى الزاويتين بعض الشيء، على الجيد الطويل البارز من فتحة الفستان الاسود، على الصدر الذى تتلعلل فوقه قلادة كهرمان رفيعة.
وقال الرجل.

- احضري نبيذا.

وقف في الظل ويديه قبضته وعصاه. نهضت ساشا برشاقة وخرجت. بينما ارتقى هو على السرير وشبك يديه تحت رأسه. بدا وجهه ينكمش ويلتوى. استدار على جنبه واحتضن الوسادة ودس رأسه فيها.

عادت ساشا تحمل طبلية مغطاة بشرشف. وضعت عليها قنينة نبيذ وقنينة خمر سكرى، ثم صعدت السلم الى الرف العلوى واحضرت طبقا من الجوز والحلوى والزبيب. كانت تتحرك بخفة ورشاقة وهي تنتقل من ضوء القمر الى الظل. اعتدل الرجل متكئا على كوعه وقال:

- تعالى يا ساشا. - جلست على السرير في الحال من جهة القدمين. - خبريني، لو اهنتك، لو اهنتك اهانة لا تغتفر فهل ستسامحينني؟

- تحت امرك يا الكسى بتروفيتش - اجابته بصوت مرتعش بعد صمت قصير - لكنني ممتنة لك كل الاهتمام على حبك لى. - اشاحت بوجهها وتنهدت.

ظل الامير الكسى بتروفيتش كراسنوبولسكي يتفرس في وجه ساشا في الظلام. وبعد برهة قال بصوت خافت متكاسل:

- لن تفهمي شيئا على اية حال. فرحت لمجيئي دون ان تسالي من اين جئت ولماذا ارقد عندك الآن؟.. في حين ان وجودى عندك في هذه اللحظة امر فظيع... اجل، يا ساشا، فطبع وسنبيع.

- ماذا بك؟! تمتعت مرتبة - كيف تقول هذا الكلام وانا
استقبلك بكل حب ورغبة؟! -

- اقتربي مني. هكذا... - واصل الامير كلامه واحتضن ساشا
من كتفها المكتنزتين. - قلت انك لن تفهمي، فلا تتعبي نفسك.
هذا المساء تحدثت حتى التخمة مع احد الاشخاص. وكان الحديث
ذا شجون.

- مع الاميرة فولكوف، اليس كذلك؟

- بلى. بالضبط. جلست قريبا فاخذت راسي يدور باشد من
نبضك. اتذكرها كما في حلم لذيذ. جئت الآن قادمة منها وخيل الي
ان كل شيء لدي على احسن ما يرام. وعندما دخلت كوليغان
فكرت: حالما اتوقف عند بابك ستسوء حالي. هل فهمت الآن؟ لم
تفهمي؟ لا يجوز لي ان اعرج عليك. حينذا لو فعلت شيئا كيلا آتي
اليك.

تهافت يدا ساشا خائرتين، واطرقت براسها.

- انت متألمة علي، يا ساشا، اليس كذلك؟ - سألها الامير
وجذبها نحوه وطبع قبلة على وجهها، لكنها ظلت متجمدة كالصخر
دون ان تنفتح جفونها او تنفجر شفاتها. فهمس في اذنها - كفك،
انا امزح.

وعند ذاك تكلمت بيأس وقنوط.

- اعرف بانك تمزح، ومع ذلك اتق بك، فلماذا تعذبني؟
لماذا تمزق فزادي؟ اعرف انك تتصدق علي بالحب. انا امرأة فات
اوانها، فاية سعادة تنتظرني؟!

في تلك اللحظة اطلق ديك صيحة عالية وراء الجدار. ورفس
حصان ناعس خشبة ما، وفي ضوء الفجر الخافت اخذت تتراعى شيئا
فشيئا ملامح وجه الامير النحيف الوسيم الموشى بالظلال. عيناه
الواسعتان تسلمان نظرات كثيبة جادة، وعلى شفقيه تجمدت
ابتسامة مريرة.

تطلعت ساشا الى الامير طويلا، ثم انهالت بالقبيل على يديه
وكتفيه ووجهه ورقدت جنبه لتدفئه بجسدها المكتنز المنتفض.

على الطرف الآخر من القرية رقد الدكتور غريغوري ايفانوفيتش
زابوتكين على تخت فوق رف منصوب عند السقف، بين الجدار
والفرن، في منزل جديد وسط حوش مهمل مسيح باغصان الصفصاف
تكسو ارضه حشائش طفيلية عالية.

ولا يرى من الطبيب، من تحت، سوى راسه. فقد اسند
بقبضتيه ذقنا نبت عليه شعر سبط اشقر. وانتشر مثل هذا الشعر
في كل جهات الراس، ابتداءا من اليافوخ، واستقر على الجبين
والعينين. لم يكن الطبيب قد غسل بعد وجهه المنتفخ من
النوم.

ضيق الدكتور زابوتكين جفونه وراح يبصق من التخت الى
اسفل محاولا اصابة شرح في الارضية.

وفي الفسحة بين النافذتين جلس قبالة على مصطبة تحت
قنديل من الصفيح قس قمى هادى، تلوح عليه امارات الرضا
والقناعة، وقد وخط الشيب شعره المتهدل الفاحم على العموم.
ردنا غفارته يلمعان مما تراكم عليهما من دهون واوساخ، ونشأت
عليهما طيات كطيات الاكورديون. دس الاب فاسيلي اصابع يده
في كم الاخرى وانكمش وجهه وراح يتطلع صامتا الى الطبيب الذي
واصل البصاق.

وقال الاب فاسيلي اخيرا.

- الى اي حال وصل هذا الرجل في ثلاث سنوات؟!

- ماذا؟ الا يعجبك؟ - اجابه الطبيب متكاسلا. - انا متعود
على البصاق منذ الطفولة. عندما يشتد الضجر اتسلق مكانا ضيقا
وابصق من هناك. لا تنظر الي اذا كان ذلك لا يعجبك. واقول لك
انه كان عندي مكان محيب، قرب المستودع، على العشب الطرى.
كانت كلبتنا تلد جرائها هناك. والجراء دافئة تفوح منها رائحة
اللبن. الكلبة تلعقها الواحد بعد الاخر والجراء تصاصى. والله،
ما احسن حياة الكلاب!

- احقق انت يا غريغوري ايفانوفيتش - قال الاب فاسيلي
بعد صمت قصير - الافضل ان اذهب.

- لا يحق لك، يا ابانا فاسيلي، ان تذهب قبل ان تبعت السلوى في نفسي، فالحكومة تدفع لك اجرا مقابل ذلك.

- كم عمرك؟

- ثمانية وعشرون.

- تخرجت من الجامعة، ولا تزال في ريعان الشباب، ولديك مهنة محترمة. لو كنت مكانك لصرت اضحك وامرح ليل نهار. اما انت... اسفي عليك. ما فائدتك بافكارك هذه؟ ما نفع رقادك وبصاقتك؟

- كانت عندي، يا ابانا فاسيلي، افكار رائعة - انقلب الطبيب فرقد على ظهره ومد يديه من التخت وطلق باصابعه وتناوب - لكنني لم اتعود على الفودكا.

- اسفي عليك - قال الاب فاسيلي واخرج من عب الغفارة بعناية حافظة سجائر معدنية واشعل ثقابا وطوق اللهب براحتيه على عادته عندما يشعل الثقاب في العراء ودخن ثم القى بعود الثقاب تحت المصطبة. - صدقني، لو كان في القرية منقفون غيرك لما جئت اليك ابدا.

هذا الحوار كثيرا ما يتكرر بين الطبيب والاب فاسيلي منذ ان شب الحريق في مستشفى كوليغان في الربيع. آنذاك سلم الدكتور زاپوتكين زعام الامور الى المضمد وقبّع في المنزل الذي استأجرته البلدية موقتا حتى يتم بناء المستشفى الجديد.

كان غريغوري ايفانوفيتش قد باشر عمله قبل ثلاثة اعوام منذ ان عين طبيبا في كوليغان. استولت عليه حماسة العمل آنذاك فاخذ يجوب القرى ويعالج المرضى، بل ويساعدهم ماديا. كان يخوض الدروب التي يبقب عليها الروث في فيضانات الربيع او يجوبها في ليالي يناير عندما تنخر الريح الجليدية العظام ويتجمد القصر ميتا فوق ثلوج موات، ويعرج على الاكواخ الضيقة التي يتصايح فيها الصبيان الجرب، ويكاد يختمق في الحمامات السوداء - على السفح - من صراخ الحوامل اثناء المخاض ومن الدخان الخائق، ويبعث رسائل الاستغاثة الى البلدية طالبا الادوية والاسعافات والنقود، ويرى ان كل ما يبذله من جهود خارقة يفوق في قعر سحيق من خراب القرى والفاقة والفوضى. ومن خلال ذلك ادرك

الطبيب اخيرا انه وحيد مع قنينة من زيت الخروع في قطاع يمتد ستين كيلومترا، حيث قلتهم الحمي القرمزية الصغار ويبتلع اليفوئيد الكبار، وانه لن يفعل شيئا بقنينته هذه على اية حال، فالقضية غير متوقفة عليها. في تلك الاثناء احترق المستشفى، فحطم الطبيب قنينة الخروع على الارض وتسلق تخته.

كان الاب فاسيلي متالما جدا للدكتور زاپوتكين بعد ان شهد، على هذه الصورة، عذاب ثالث طبيب في القرية. فصار يعرج عليه كل يوم تقريبا ويسعى على قدر الامكان - بسيجارة او نكتة طريفة - ليس الى بث السلوى في نفسه، (فكيف تجد السلوى سبيلها الى انسان لم يبق منه الا السخام؟)، بل الى تسليته بعض الوقت على الاقل. فقد يبتسم رغم كل شيء.

كف الطبيب عن التناوب وانقلب من جديد على بطنه وارخى يده وطلب سيجارة. فرد عليه الاب فاسيلي قائلا بانه اشترى التبغ اليوم من كوربينيف، ووقف على اطراف اصابعه تحت التخت ورفع حافظة السجائر وضغط على زنبرك خفي فيها.

تظاهر الطبيب بانه لا يتذكر ان هذه الحافظة المحيرة ذات جيبيين، ففتح جيبيها التمويهي الخالي من السجائر...

- ماذا؟ هل اخذت سيجارة فاخرة؟ - سال الاب فاسيلي ضاحكا، فقد اعجبته النكتة كل الاعجاب. - دخن، اذن، دخن. هل تعلم بانني كنت اليوم عند فولكوف؟

- يقال ان صاحبك فولكوف وحش فظيع، دابة من الدواب. - ابدا! لا تلق بالا للثرثرات. انه انسان رائع، وحياته

رائعة... ولو انك، يا غريغوري ايفانوفيتش، نظرت الى هؤلاء الناس جيدا لما رقدت طوال الوقت على تختك. اما ابنته كاتيا، فهي، صدقني، حسناء رائعة من اجمل ما خلق الله... لو كنت رساما لرسمت صورة ماريا المجدلية عنها وهي تبتسم ساخرة امام خطيبها.

- كيف تبتسم ساخرة امام خطيبها؟ - قاطعه غريغوري ايفانوفيتش بفتة.

- ماذا؟ الا تعرف ان الرسامين العظام جسدوا هذه الابتسامة الساخرة دوما في لوحاتهم؟ فالعذراء، قارورة الحب والحياة، تبتسم

دوما ابتساماة ساخرة وكأنها ترى ملاكا يشير باصبعه الى
بطنها. لا اقول ذلك مازحا، فلا تضحك. - رفع الاب فاسيلي حاجبيه
وراح يدخن وينفث الدخان من انفه، ثم قال - تلك اذن... -
وتنهد ولاذ بالصمت وانصرف.

الا ان غريغوري ايفانوفيتش لم يكن يريد ان يضحك اطلاقا.
سحب رأسه الى داخل التخت وورقدا وادعا - اغلق جفونه واصطكت
اسنانه، فهو في الثامنة والعشرين لا غير. ثم ان الكلمات التي
قيلت صدفة عن ابتسامات العذارى يمكن ان تصعقه كالرعد في
وضع الضحى.

- ٣ -

ضوء القمر ينساب على السماء الزرقاء القاتمة، وكأنه سيظل
على هذه الحال ابد الأبدين. يتسرب عبر الشقوق وعبر الجفون
المغمضة الى غرف النوم، الى حظائر الماشية، الى جحور الوحوش،
الى قاع البركة الذي تندفع منه سميكات مسحورة فتلامس بشفاها
المستديرة سطح الماء.

في تلك الليلة ظل القمر معلقا على شاطئ البركة الذي
داسته السنايك. واطل بجناح منير وضاء من وراء الاجمة على
طرف بستان آل فولكوف.

انبطح سائس ملتج عريض المنكبين على معطف فرائي قصير
مفروش على العشب قرب الماء، واستند رأسه الى كوعه وعلى
مقربة منه غفا صبي على السرج وراح حسانه الرمادي الناعس يهز
رأسه ويطلق بلجامه. اما الخيول الأخرى فهي تقضم اعشاب راعي
الحمام والشيح العالية في المرح المنخفض، في حين رقدت المهور
وابوازاها تلامس قوائمها الامامية الممدودة.

وعلى امتداد الشاطئ، تقدم عجوز يرتدي قفطانا وسار ببطء
من صفصافات السد العالية. وعندما اقترب من السائس توقف
وظل على وقفته هذه امدا طويلا وكأنه يتطلع الى شيء او يستمع
الى احد... وقال اخيرا:
- الليلة دافئة.

وسأله السائس بتكاسل:

- لماذا تتجول طول الوقت يا كوندراتي ايفانوفيتش، هل
يقلقك شيء؟..

- لا استطيع ان انام.

- تفكر دوما؟

- نعم، افكر... كل عمري قضيتته محوما في هذه الاماكن في
البيت وما حوله كما في دوامة. مسحت الارض حتى تعرت
صخورها... ولذا تجتذني آثاري القديمة. فهل قرب الاجل يا
تري؟

- انت بحاجة الى الاستقرار والهدوء يا كوندراتي ايفانوفيتش،
الى المعاش.

وقال كوندراتي بصوت كالهمس.

- ثم ان السيد غضب من جديد مؤخرا. فقد وصل الامير اليوم
عند الغروب وترك عربته على الضفة الثانية في البركة وجاء بالقارب
خلسة، كاللص الى التعريشة ودار هناك حديث بينه وبين كاتيا...
يا له من شخص لجوج، بل وخطر.

- ما العمل، يا كوندراتي ايفانوفيتش؟ فهو امير. انا واياك بعنا
انفسنا، وعلينا ان نصمت. اما هو فيفعل ما يشاء. يقال انه يودخ
ضيوفه باطلاق المدافع.

- لا اعترض على ذلك، ولكن لماذا يتردد عليها ولا يخطبها.
الا ترى كيف تغير حالها؟..

صمت كوندراتي ايفانوفيتش. ونهض السائس على ركبتيه
فوق المعطف المفروش فتطلع حواليا ثم نادى الصبي:

- لا تنم يا ميشكا. الخيول ابتعدت!

افاق الصبي في سرجه ونفض رأسه وتمطق وراح بسوطه.
خطا الحصان الرمادي خطوة ثم توقف وتدلّت رقبته. وغفا من جديد،
وغفا الصبي ايضا. فالليل دافئ هادي..

ظل كوندراتي صامتا، ثم تلفظ بهجة ذات دلالة «اجل هكذا
اذن»، وجرجر قدميه عائدا الى البستان.

الصنصافة المعمرة التي دمرتها الساعة والسياج المضفور
والساقية والقنطرة والماشى واشباح الاشجار - كل ذلك شيء.

معتاد، ولكنه كالمفاتح التي تفتح اقفال الذكريات القديمة وتستحضر الافراح والاتراح، مع ان الافراح نادرة، اذا استعيدت تلك الذكريات بدقة.

كان كوندراتي خادما في عهد فاديم اندرييفيتش وفي عهد اندري فاديميتش، وهو يتذكر رب العائلة الاول فاديم فاديميتش فولكوف الذي يخشاه حتى في المنام. فقد كان طويل الشاربين مخيفا لا يعرف ضبط النفس. وكان عنده مهرج وقح اسمه ايفان وكنيته «المنخل» ومهرجة حمقاء يستخدمهما خصيصا للسخرية من النبلاء ذوى الضياع الصغيرة. وكوندراي هذا هو ابن ذلك المهرج من تلك المهرجة. وقد رضع مع لبن امه الخوف من كل آل فولكوف والولاء لهم في وقت معا.

كان فاديم اندرييفيتش والد الاقطاعي الحالي الكسندر فاديميتش، من هواة المطالعة وممارسة الكتابة، حتى انه اصدر كراسا للفلاحين بعنوان «الكادح الفاضل»، لكنه كان من اشد معارضي الغاء نظام القناة. ذات مرة استدعى فاديم اندرييفيتش الراعي الاعور فيودور واجلسه على مقعد حجري وثبر وقدم له سيجارا وقال «ها انت الآن، يا فيودور ايفانوفيتش، شخصية مستقلة حرة، احبيك، واخبرك بانك معتوق وتستطيع ان تذهب الى اي مكان تريد، ولكن اذا كنت ترغب في البقاء للخدمة عندي، فارجوك ان تأمرهم بان يجلدوك في الاسطبل آخر مرة». فكر فيودور وقال «موافق».

في عهد اندري فاديميتش، والد فاديم اندرييفيتش، كان كوندراتي «صبييا» من الخدم والحشم. وكان سيده كسولا يعاني من الملل ويجب التردد على الحمام، وغالبا ما يفرط في الشراب هناك في شلة من الضيوف والغواني حيث يفتشون الاعشاب المحشوشة توا وهم عراة تماما. وهناك، في الحمام، احرقه خدمه.

اما الاقطاعي الحالي الكسندر فاديميتش فولكوف فهو يختلف عن اسلافه. انه اقل شأنا منهم، وقد نشأ في عهد تدهورت فيه احوال النبلاء ولم يبق مجال للبدخ والغفنة.

ربما ليس صحيحا القول بان كوندراي ما كان يخشى الكسندر فاديميتش، فالاصح انه لم يكن يحترمه بالقدر الكافي. ولكنه كان يعيل بكل جوانحه الى كاتيا كريمة الكسندر والحسناء الاولى في القضاء.

اجتاز كوندراي السد وهبط الى المنخفض وعبر سياج الصفصاف الواطي، ومضى في الممشى المعتم الرطب. الهدوء يعم البيستان سوى طير يتململ احيانا ثم يغفر من جديد على اغصان الزيزفون، وضفادع الشجر تنفق بانين كنيب رقيق والسميكات تلبط في مياه البركة.

طوقت اشجار الصفصاف المعمرة البركة البيضوية، وهي كثيفة خضراء، متهدلة الاغصان تحول دون تسرب ضوء القمر من خلالها. القمر يلعب بعيدا وسط البركة مع طير ينزلق على سطح الماء الزجاجي المتموج برفق، لعله بطة برية او زاغ لا يقوى جناحاه المنشوران على حمله بعد ان شرق بالما.

بلغ كوندراي نهاية الممشى والتفت الى الشمال، الى التعريشة المطلة على البركة والمائلة بفعل الزمن، وهي الآن تسبح في الظل.

حملق في الظلام فميز قامة امرأة في وشاح ابيض استندت بكوعيا الى الدرايزون. طقطق غصن يابس تحت قدمي كوندراي فالتفتت المرأة على عجل وتمتمت بانفعال:

- آ، هذا انت يا امير؟ عدت اذن.

- كلا، هذا انا يا كاتيا - قال كوندراي وسعل وتوجه نحو المرسي.

هبطت كاتيا بخفة ورشاقة على الالواح الخشبية الى الضفة. وكانت ملتفة بالوشاح حتى الفم. وقفت امام كوندراي وقالت:

- انت ايضا لا تريد ان تنام؟ هجم علي البعوض في الغرفة فلم اتم. رافقتي الى البيت.

- فلنتترك البعوض وشأنه. ولكن لا يليق بالفتاة ان تجيء الى البركة وحيدة في الليل... - قال كوندراي بلهجة متشددة.

ظل الدكتور زابوتكين، وهو على تخته عند السقف، يتفحص طويلا بعض الخرق والنفايات واعقاب السجائر ويستنشق الهواء المشغل بالغبار، ثم لمس رأسه الذي ازهقه الصداع ونزل من التخت ببطء شديد وكان بدنه كله ثقيل بلا عظام. نزل منكمش الوجه وراح يتحسس درجات الفرن برجليه.

وعندما هبط على الارضية شد سرواله وانحنى على كسرة المرأة المعلقة تحت القنديل. فحدق فيه منها وجه اصفر مدمن وعينان زرقاوان كايبتان ناعستان، وشعر متنافر متطاير في كل الجوانب.

- سحنة فظيعة! - قال الطبيب وانشب اصابعه في شعره وصففه الى الورا ثم جلس الى المائدة مسندا ذقنه بيده وغرق في تأملاته.

تصادف عند المرء بقايا من افكار يحتفظ بها لما يأتي من زمان، وهي بقايا مترسبة كوحل المستنقعات وعفنة كالصديد. واذا استطاع المرء ان يستحضرها من سراديب الروح وينتزعها من نفسه متحملا آلامها فسوف يفيق ويتطهر كل شيء فيه. واذا قلبها ودارها ولمسها كالضرس المريض وتنفس تلك العفونة مرارا وتكرارا واصيب بالحمى لذيذ هو الم القرف والتقرز والاشمزاز من النفس فسيغدو شخصا مینوسا منه، لان احب شيء لديه، والحال هذه، هو الخسة والبصقة في الوجه.

لم يكن الطبيب راغبا على الاطلاق في مفارقة افكاره المترسبة العفنة. فخلال ثلاثة اعوام ترسب لديه منها الكثير. زد على ذلك ان من الخطر جدا على النفس الغضة الا ترى غير المرضى والتعسا المعذبين. خلال تلك الاعوام الثلاثة مر امام غريغورى ايفانوفيتش جمع كبير من الفلاحات اللواتي مزقهن الوضع والولادة والضرب، وحشد كبير من الفلاحين الذين اسودت عروقهم من الفودكا، والاطفال الجرب الذين يتمرغون في الوحل يتضورون جوعا ويعانون

توقفت كاتيا امامه.

- ما هذه اللهجة يا كوندراتي؟!

- ما العمل عاتبنى والدك اليوم، وهو على حق فهل يجوز التجول في الليل؟ احكمى بنفسك... اشاحت كاتيا بوجهها وتنهدت ثم واصلت سيرها واذبال فستانها تلامس العشب البليل.

- لا تخبر بابا بانك رايتني الليلة، عزيزى - همست فجأة ولمست شفتاها خد كوندراتي المتغضن...

رافق الأنسة حتى الشرفة التي تنتصب عليها ستة اعمدة متصدعة في بعض الاماكن وبدت قممها زرقاء على بياض في ضوء القمر. انتظر حتى دخلت كاتيا الدار وسعل وانعطف وراء ركن المبنى متوجها الى مدخل الجناح الصغير الذي يقيم فيه وتطل منه نافذة على الشجيرات.

حالما جلس على الصندوق المغطى ببساط من اللباد تعالى في الدار صوت سيده غاضبا - كوندراتي!..

رسم كوندراتي، كعادته، شارة الصليب على صدره وهرع برماحة الشيوخ في الرواق الطويل نحو الباب الذي جاء صياح فولكوف من ورائه.

حالما ادار كوندراتي مقبض الباب تشمم رائحة الدخان. وعندما دخل رأى وسط الدخان الكثيف على بصيص الشععة الاصفر السيد فولكوف جالسا على السرير في قميص النوم المفتوح على صدره المتهدل المكسو بالشعر ورأى وجهه المحتقن بلون قرمزي. وقد انحنى على وعاء فخارى ينبعث الدخان من جمر فيه. رفع فولكوف الى كوندراتي عينين جاحظتين ناعستين وقال بصوت اجش:

- نهشني البعوض. اعطني عصيرا. - وعندما استدار كوندراتي نحو الباب، صاح به - سألقتك درسا يا ساقل! لم لا تغلق النوافذ في الليل؟

- آسف. - اجاب كوندراتي واسرع الى السرداب لاحضار

العصير.

من داء الزهري. ولذا يتصور الدكتور زاботكين روسيا كلها ممزقة مسودة جرباء. وطالما الحال هكذا ولا مخرج منها فليذهب كل شيء الى الجحيم. واذا كان الوحل والروائح الكريحة في كل مكان فذلك يجري بالضرورة؟ ولا موجب للتظاهر بانك آدمي اذا كنت خنزيرا. وفكر وهو يلوح بيده الهزيلة «حقا. كل شيء مكتوب ومقدر. لن انتحر بالطبع، لكنني ان احرك ساكنا لتغيير الامور. لماذا ذكرت لي، يا ابانا فاسيلي، ابنة فولكوف؟ الاجل ان تواسيني؟ لو اخذت معي هذه الانسة الى التيفوس الطفحي فهل «ستبتسم ساخرة امام خطيبها» يا ترى؟»

ضحك الدكتور زاботكين ضحكة خبيثة، لكنه ادرك بانه ليس معقا تماما...

«لنفترض ان هذه الانسة لم تر شيئا ولا تعرف شيئا، فهي ثمرة المشاتل الدفينة... ربما يشفع لها ذلك في نظري... ولكن القس يثيرني... فابن هي اموركم الطيبة؟ ارنى اياها. يرلد الشخص في الوحل ويعيش حياة الخنازير ويموت مشيعا باللعنات... ولا بصيص في هذا القاع الموحد. واذا كنت انسانا شريفا فعلي ان ابصق بنزاهة وصراحة على هذه الحقارة التي تسمى حياة. في البداية يجب ان ابصق على نفسي، على سحنتي...»

بصق غريغوري ايفانوفيتش بالفعل وسط الغرفة ثم استدار نحو النافذة ورأى بزوغ الفجر.

دهش لانه لم يكن يتوقع ذلك باية حال. ثم نهض وخرج الى الحوش واستنشق عطر الاعشاب والرطوبة النافذة وانكلمت اساريه لكان هذا العطر قد شوش افكاره. ثم مضى يجرجر اقدامه على طول السياج الى الجدول الذي يتلوى في المرح.

السياج يطوق المنزل والحوش من جهتين ويمتد منحدرًا الى حيث تنمو صفصافتان اجتثت قمة احدهما وتثأت بدلا منها اغصان متنافرة كثيرة، وانحنت الاخرى على الجدول الضيق حتى كادت تلامس الماء.

كانت السماء لا تزال موشحة بغلالة الليل، لكن نورا رقيقا انسكب على طرف الارض من جهة الشرق. وعلى خلفية هذا النور لاحت سطوح القش وقمم الاشجار بتقاطيع اوضح.

تعالى صياح الديكة في القرية. ورد عليها ديك في حوش الطبيب. وداعب الصفصافة نسيم مشبع برائحة الاعشاب النافذة فاهتزت اوراقها كالقوارب الصغيرة وانبعث منها حفيف رقيق.

- كل هذا خداع واهمية له. - دمدم غريغوري ايفانوفيتش وهو واقف قرب الصفصافة يتطلع طوال الوقت الى نجمة ضخمة تنللا على ارتفاع غير كبير في المشرق الذهبي الفاتح الذي جعل سماء الليل تتحول الى رمادية خضراء ولازوردية كالماء الرقراق.

ذهل الطبيب لهذا المشهد المدهش حتى فغر فاه.

كانت النجمة تدوب متلألئة في لهيب المشرق. وفجأة انطفت فقد ظهر قرص الشمس الساخن من وراء السهب.

تصاعد البخار محوما على الجدول. وانداحت على العشب الضبابي ظلال مائلة الى الزرقة تطاردها الريح. ونعبت الزيفان على الاغصان وراء الجدول وغردت الاطيوار مبتهجة في كل مكان، بين الشجيرات والاعشاب... وارتفعت الشمس فوق السهب... الا ان غريغوري ايفانوفيتش عنيد، فقد ابتسم بسخرية واستهانة وضيق جفونه من الشمس وعاد ادراجه الى منزله العفن.

عندما دخل المنزل رأى قنديل الصفيح يسكب ضوءا اصفر على الجدار. ورائحة الدخان تنبعث من كل الارزاء. فكل شيء مهيا للصداع.

- تفو. يا للشيطان. الجو خائق. لو علقت فيه فاسا لما سقطت على الارض. - دمدم الطبيب وعاد في الحال الى الحوش فمسح جبينه وفكر «ساستحم. لا شك انني لست بخير».

ارتجف الطبيب في الماء البارد عندما نط فيه مرتين نافثا الهواء بشخير. فارتدى ملابسه على عجل ودس يديه الواحدة في كم الاخرى وجلس على جذع الصفصافة الاملس يتطلع الى الشرق.

تعرجات الجدول اللازوردي يختفي بين البردي ثم تنساب من جديد في المرح الاخضر وتمضي بعيدا الى ما وراء اجمة البتولا.

وفي الجانب المقابل لاحت الاوز بيضاء كنتف الثلج على اعشاب

الحماض. وفي الماء العوشى بالبخار سبحت فراخ الاسماك وراحت
تتحرش بالاشنات. وفي القاع عند القدمين استقرت قرمة تشبه
سمكة الجري المشورية التي يخشاها الصبيان لانها تنهش القدمين.
وبين البردي تتراقص اطياف رمادية تتناغى بين حين وآخر.
كان الدكتور زا بوتكين يتطلع الى ذلك كله واسنانه تصطك،
بينما اخذت الشمس تسخن وجهه وقدميه العافيتين.

وفكر في نفسه «هذا يبعث الارتياح طبعاً. ولكنه سينتهي
قريباً، فهو مجرد صدفة». خفض رأسه وتصور هذه الليلة بالذات
ككابوس مقيت، افليس الرقاد على التخت الوسخ والهواء الفاسد
والصداع الشديد كايوساً مقيتاً؟

وارتعب فجأة لقوادة الاوز. فقد اندفعت نحو الضفة وذكرها
في مقدمة السرب. نشرت اجنحتها البيضاء وقفزت الى الماء
الواحدة تلو الاخرى وراحت تعوم محولة رؤوسها باستعلاء ذات
اليمن وذات الشمال...

سيطر غريغورى ايفانوفيتش على تنهدة كادت تنفلت من
صدره (حتى لكان روحه ارادت ان تطلق صرخة ولا يجوز الصراخ)،
ثم راح يتطلع الى الضباب المنبعث من الجدول وهو يرتفع الى
الجو.

الجدول طويل كثير الالتواءات والاخوار. وهذا الضباب
الشفاف ينبعث من كل مكان ويتجمع وراء الغابة في غيوم بيضاء.
حالما تشرق الشمس ترتفع الغيمة الاولى من وراء غابة البتولا،
وتعقبها ثانية وثالثة على نفس الطريق. وتحوم الغيوم فوق الغابة
وكانها محصورة في عش. وسرعان ما تمتلئ السماء الزرقاء بها
فتسبح ببطء في اتجاه واحد كطيور التم وهي تعرف بان عمرها
غير طويل. وتنزلق على السهب ظلاليها الباردة. وتتغير اشكالها
فتبدو بصورة وحش تارة وبصورة دمية تارة اخرى وتظل تلعب
على هذا النحو حتى تلتطمها الريح وتجمع اشلاها في سحابة ثقيلة
وتغرز سهام البرق في جسدها كي تحبل بالمطر الذي تسكبه على
الارض وتتلأشى.

- انني مجرد جرو، انني عنيد وكسول - تتمم الطبيب. -
وعلى كل حال ما اروع ذلك...

لم يتمالك نفسه فانساق للفرحة حتى ارتجفت يداه ورمشت
عيناه بانفعال، فتوجه نحو السياج وقفز من فوقه واخذ يتلفت
باحثاً عن شخص طيب مدهش ليحدثه عن ذلك كله.
في تلك الاثناء لاح في الشارع جنب السياج صببة يتدافعون
بالارجل ويشيرون الغبار الخفيف ويتشقلبون على الاذرع في مختلف
الحركات البهلوانية.

وخلف الصببة سارت فتيات متشابكات الايدي في فساتين
قطنية مزركشة ومناديل مبرقشة. وهن ينشدن اغنية لا تتميز
بالجدة والروعة. فهي اغنية غير معروفة.

وتبعهن فتیان راح احدهم، وهو شاب نحيف فارغ القامة في
سترة بالية، يعزف على ناي من القصب فتنتفخ شفته العليا
كالفقاعة. والى جنبه شاب آخر، قصير القامة ملتوى الساقين،
يرتدي صديرياً وسدارة، وهو يعزف على الاكورديون.

استدار الصببة والفتيات والفتيان وراء المنزل الواقع في
الركن ووراء السياج، فابتعدت الاغاني والموسيقى. ثم ظهروا جميعاً
مرة اخرى وعبروا القنطرة البعيدة واختفوا وراء التلة، خلف اعمدة
المستشفى المحروقة.

- ما اروع ذلك - تتمم الطبيب - اليس هذا اليوم فريدا
من نوعه؟

اقترب من السياج فلاح وقور في حلة جديدة جميلة بدون
قبعة وقد صفف شعره ودهنه. امسك بعود من عيدان السياج
ودس جزمته المطلية بالدهان بين تلك العيدان فقد علق بها
قش وعبار، وسأل:

- ماذا؟ هل تمشي؟

- مرحباً يا نيكيتا. الى اين هم متوجهون؟ - سأل الطبيب -
هل اليوم عيد؟

- نعم، اليوم عيد العنصرة - اجابه الفلاح بهدوء - عجباً لك
يا غريغورى ايفانوفيتش، اخذت تخلط بين الايام. الفتيات توجهن
لجدل الاكاليل.

لمس نيكيتا عود السياج ليتأكد من متانته وفجأة تطلع في عيني
الطبيب فانفرج فمه الذي نبتت حوله لحية صهباء جعداء.

وادرك الطبيب من هذه النظرة المتفهمة الغنبعة من عيني الفلاح الباهتتين بفعل الشمس ومن وجهه الاسمر وبدنه المتين الذي تفوح منه رائحة طيبة ان نيكيتا جاء اليه يوم العطلة ليرى اي سيد هو وماذا فيه من خيال، فالتقى عليه نظرة وكأنه عجلة ماء، وحدد فوراً هوية الدكتور زا بوتكين الذي هو، نيكيتا، في غنى عنه باية حال، لانه، رغم كونه طبيباً متعلماً - لا يستطيع تحديد هوية نفسه ولا يصلح لشيء.

ادرك الطبيب ذلك وضحك. فقال له نيكيتا:

- لي رجا عندك. تعال معي الى جدتنا فهي تحتضر من زمان، لكن الجياد كانت مشغولة طول الوقت، وانا ايضا كنت مشغولاً... هل ستأتي؟ استطيع الآن ان اشد الحصان الى العربة بسرعة.

- طيب! هتف غريغوري ايفانوفيتش. - اسرع وشده.

وبالفعل شد نيكيتا الحصان بهمة الى عربة جديدة مليئة بدريس طري وجاء بها الى باب المنزل.

صعد اليها الطبيب بارتياح ومهد لنفسه فرشاة من الدريس وجلس متربعا وقال:

- نيكيتا، اليوم عيد حقا. انت متزوج، اليس كذلك؟ هل تحب زوجتك؟

رفع نيكيتا حاجبيه مستغرباً، وتمطلق الحصان فتحركت العربة. كانت جزمته تتراقص قرب العجلة بفعل الاهتزاز على الدرب. وكان الطبيب يهتز على الدريس الندي وقد انطبعت على وجهه ابتسامة عريضة. وراح يتطلع فيما حوالبه بارتياح.

عندما اجتازت العربة الهادرة جسر الناحية قفزت الضفادع من جانبيه الى اعشاب السعد، وهرع البط من تحت الجسر لتصيدها...

- ما اكثر الضفادع - قال نيكيتا وغمز بطرف عينه.

خلف الجدول تنبسط مراعي ومرج، ووراءها غابة البتولا. كان نيكيتا يلتفت الى الطبيب بين حين وآخر ويحدثه عن صفائر الامور. ولما كان هذا الاخير صامتا اكثر الوقت ولا يبادره باسئلة حمقاء طفق نيكيتا يتحدث عن شؤون الفلاحة وعما فكر به طوال الشتاء، ثم قال فجأة بعد ان قلص عينيه الرماديتين الفلپنتين

- ساءت احوال الفلاحين الآن. كل شيء يباع بالنقود. فما قيمة الفلاح اذا قيس بالنقود؟ لم يبق ما يستحق الجهود. فما نفع...
تجهم وجه نيكيتا، ثم انتبه لنفسه في الحال دون ان ينتظر الجواب واثار بالسوط الى طرف الغابة وانفجرت شفثاه من جديد عن ابتسامة ساخرة.

فقد كانت الفتيات هناك يتجولن بين البتولا ويضفرن الاكاليل من الاغصان، وكان الصبية يتسلقون الاشجار، بينما ارتقى الفتيان على العشب منصتين الى انغام الاكورديون. وقال نيكيتا:

- في المساء سيسكرون جميعاً ويرتكبون كل الخطايا. في السابق كانت الامور افضل.

خرجت العربة من الغابة الى درب ضيق بين سنابل القمح المتوجة بفعل الريح الدافئة. وفاحت منها رائحة التربة والعسل. وانتشرت الغيوم بيضاء ملتوية كالصوف في كل ارجاء السماء الزرقاء. وامتد الدرب منحدرًا في المنخفض تارة وصاعداً على سفح الجبل المتعرج تارة اخرى. وعلى طرف الارض ربضت اكوام جديدة مائلة من الغيوم البيضاء. فهل فيها ما يشير الدهشة الا ان الطبيب راح يتطلع اليها وكأنه لم يلاحظ وجودها في السابق. تطلع اليها وكأنه تحسس الآن بالذات جمالها لأول مرة. وقال:

- انظر يا نيكيتا، ما اروع هذه الغيوم!

- حقا، انها غيوم - اجاب نيكيتا وهو يلتفت صوبها. - ولكنها خالية، فهي ذاهبة لاحضار الماء، وحالما تعود محملة بالماء تصبح قاتمة. قبل ايام مرت غيمة محملة بالضفادع... وضحكنا كثيراً.

قفز الى الارض وسار ازاء عريش العربة وهو يهز العنان فارتقت العربة كشيئا رملياً.

ومن فوق الكتيب تكشف امام انظار الطبيب سهل فسيح تكسوه مربعات فاتحة وخضراء غامقة وصفراء، من سنابل القمح وجناحان فضيان من البركة التي يطوقها الصفصاف كالاكاليل. القرية على هذا الجانب من البركة، وعلى الجانب الآخر البستان. ووسط الاشجار الجعداء سطح المنزل المطلي بالاحمر.

وقال نيكيتا وهو يشير اليه بالسوط:

فاحس غريغوري ايفانوفيتش بفرحة الحب الدافئة كالريح تمس شغاف فؤاده. وتمنى ان يطير بجناحين الى السطح الاحمر الواسع وينظر ولو لحظة الى ابنة فولكوف ليرى ابتسامتها الساخرة المدهشة.

- ٣ -

جدة نيكيتا المريضة تقيم على الضفة الثانية من نهر الفولغا. بذل الحصان المتعب جهدا كبيرا وهو يجر العربة على رمال شاطئ. بين شجيرات صفصاف تكسرت بعض اغصانها وطلبت بالقطران. واخيرا لاح السطح الباهت لسبني دائرة الملاحه النهريه وعلمها الذي نقشت عليه الاحرف الثلاثة الاولى من اسمها.

الجو ساكن فلا ريح هناك. والامواج التي خلفتها الباخرة تزحف ببطء نحو الرمال وتهز زورقين مليئين بالماء ومربوطين الى المرسى. سار الطبيب على رصيف المرسى المتداعى ودخل المبنى وجلس وهو يتطلع الى الضفة الاخرى الخضراء الشديدة الانحدار. وهناك على تلة بين الاشجار ينتصب منزل ابيض تعلوه قبة وفي واجهته اعمدة، ونوافذه مغلقة دوما بالواح مسمرة افقيا. تلك هي «ميلويه» ضيعة المرحومة الاميرة كراسنوبولسكايا. كان الطبيب قد تعود على هذا المنزل لكثرة مروره به، فلم يلاحظ هذه المرة ان كل النوافذ مفتوحة وان اناسا يتحركون بين الاعمدة ويبدون من بعيد صغارا كالذباب.

وفجأة ارتفعت امام المنزل غيمة بيضاء. وانداحت اطلاقا مدفع على النهر وبعد لحظات ابتعد عن الضفة قارب مسطح ثقيل.

فقال نيكيتا الواقف قرب درابزون المرسى:

- الامير يودع ضيوفه. كان مدفعيته تقصف الاتراك.

- نعم. فعلا. لم الاحب ان المنزل مسكون. منذ متى؟

- من الربيع. فقد جاء صاحبه الامير الاعرج. لو تعلم ما كان يجرى هنا في الفترة الاولى! كنا نظن بانهم سيحرقون المنزل. يقال ان الامير ينوي الزواج، ولذا يستهوى العرائس بمدفعه. عبر القارب المسطح النهر بخط مائل. وكانت المجاذيف بايدي

اربعة يرتدون قمصانا زرقاء وبدون طاقات. وتهتز على القارب مظلة حمراء تنعكس ظلها في الماء.

وبعد برهة صار بالامكان رؤية رؤوس البحارة الحليقة ووجه فتاة ورجل بدين يرتدي سترة طويلة ضيقة عند الخصر وطاقية بيضاء بحافة عريضة. اسند ذقنه الى عصاه وتدل على جنبها شارباه الطويلان الاشقران.

كانت الفتاة الجالسة قربه موشعة بالبياض، وقبعتها القس تستقر على ركبتها. وقد طوقت رأسها بضميرتين من شعرها الاشقر. وسكبت الشمس عبر المظلة ضوءا ورديا على مياها البيضوي الرائع الاسم وفمها الطفولي الصغير.

وقال نيكيتا:

- اقطاعي رزين يتمسك بالارض وبتقاليد الاجداد، لكنه يريد ان يزوج ابنته من الامير. ذلك هو فولكوف على حقيقته.

«تلك هي اذن!» - فكر الطبيب وابتعد عن درابزون المرسى باستحياء وانزوى وراء اكياس الدقيق واحتقن وجهه عن آخره، ودمدم: ما هذا الهراء الصياني؟.. - واخذ ينبش باصبعه في احد الاكياس.

تناهت طبطبة المجاذيف. واقترب القارب محمولا بالتيار. وسرعان ما تعالت من القارب صيحة «امسك»، واجاب ملاح من الرصيف «حاضر» وركض ليمسك بالجبل الذي التقى اليه. وارتطم القارب بالمرسى، وبعد لحظة سمع غريغوري ايفانوفيتش صوتا كالموسيقى «بابا، انجدني»، ثم سمع صرخة وطبطبة على الماء.

نغز رعب بارد صدر الطبيب، فتشبث بالكيس، ثم هرع الى الدرابزون...

كانت كاتيا واقفة في اسفل سلم المرسى وقد رفعت من الجانبين تنورتها المبللة وهي تضحك. اما فولكوف فقد خاطبها غاضبا:

- هل انت عنزة حتى تقفزي بهذه الصورة؟!

وصعد الاب مع ابنته الى الرصيف ومضيا الى الشاطئ بلا استعجال واستقلا العربة التي شدت اليها ثلاثة جياد دهم.

التفتت كاتيا صوب المنزل على الضفة الاخرى فلمسته بنظرة رقيقة من عينيها الرماديتين الواسعتين الجاحظتين بعض الشيء

كعيني ابيها. وامر فولكوف «تحرك»، وانطلقت الجياد في الجمتها المزرکشة واقتادت العربة الصقيلة الى ما وراء شجيرات الصفصاف. اما غريغورى ايفانوفيتش فقد شيعها بنظراته وظل واقفا امدا طويلا يتطلع صوبها ثم عاد الى المصطبة ورأى على الارضية ازاها اثرا رطبا لحذاء نسوي فابعد قدمه عنه بحذر. وبعد حين وصلت الباخرة. فاستقلها الطبيب الى اسفل النهر حيث عاد جده نيكيتا وقفل راجعا الى البيت في ساعة متأخرة من الليل. وكان خائر القوى ميالا للصمت. لم يدخل منزله، بل رقد على صندوق في الدهليز. واستولى عليه النوم في الحال، ولكن لامد قصير. فقد ايقظه صباح الديك، وراح يتطلع الى النجوم عبر مستطيل الباب المفتوح، ثم انقلب على جنبه، ثم على ظهره، وراح يتنهد ويبتلع لعابه منقبض الاسارير.

ذكريات خبيثة

- ١ -

فتح الامير الكسي بتروفيتش عينيه في مقعد وثير امام طاولة الزينة قرب النافذة العالية المرفوعة الستارة. اما النافذتان الاخريان في غرفة النوم فقد اسدلت ستائرهما وكان رصاص الساعة المعلقة فوق المدفأة الجدارية يتكتك متانيا في الظلام. لاحت عبر النافذة قمم اشجار البستان وعلى مسافة ابعد يترامى النهر البنفسجي ووراءه مبنى ادارة الملاحة وخمائل بالمياه وبحيراتها المائلة الى الحمرة ففي مرآتها البيضوية ينعكس الغروب الحزين وسجبه الرمادية. وفي ذلك الاتجاه، عبر الهضاب والحقول، يمتد الدرب كخط ضيق لا تكاد العين تراه. كانت اطراف السحب مصطبغة بلون احمر ينبعث من ضوء المغيب الغابي، اما الغيوم المعلقة في اعلاها فقد بدت وردية في سماء بلون مياه البحر، وفي بقعة اعلى تتدفا احدى النجوم. تطلع الامير الى هذه المشاهد ولمس باصابعه الباردة خده النحيف الشاحب.

في موقى عينيه زرقة كثيفة، وعلى وجنته المستديرة تجعدت شعيرات رفيعة من لحيته الكستنائية القصيرة. لم ينعكس في مرآة الزينة الا مشط يده الابيض وخده وعينه الجاحظة. كان الامير جالسا بلا حراك، وهو يلقي على نفسه احيانا نظرة في المرآة.

فهو يعرف ان كل وحل هذه الليلة سيثور في راسه حالما يتحرك، فيعكر عليه التأمل الهادى، في كل الاشياء الواضحة الشفافة كما لو صنعت من بلور. وكانت افكاره هي الاخرى شفافة كثيفة. تلك هي كآبة الغروب على الانهار الروسية. ويشير المزيد من الاحزان التطلع الى الدرب المسرع نحو المغيب. فالله وحده يعلم من اين يبدأ هذا الدرب واين ينتهي. وهو يقترب من النهر كأنما يريد ان يرتوي. ثم يسرع من جديد. ولكن ماذا هناك؟.. اتلك عربة تنهب الدرب؟ لا فرق، فهي لا ترى بوضوح من هنا.

في كآبة السماء والارض هذه ترتاح نفس الكسي بتروفيتش. ويخيل اليه ان كل ما مضى لا يعنيه، وكل ما هو آت سيمر به مر الكرام كشبح لا حاجة اليه. بعد حفلات السكر الصاخبة مع الخلان والاصحاب، وبعد اللقاءات القلقة مع كاتيا في البستان خلال الامسيات حيث يتوق الى لمس فستانها على الاقل بشفتيه ولا يجروء على ذلك، وبعد المداعبات الرقيقة في احضان ساشا، بعد الافراح والتوبة، واخيرا بعد ذكريات بطرسبورغ التى يقشع لها البدن، يمسح الامير الاصباغ من وجهه مرة اخرى كممثل متعب ويتمتع دواما، والى ابد الأبد، بمنظر هذا الغروب الذي يثلج القلب، بمنظر هذا الدرب.

ولكن ما ان فكر الكسي بتروفيتش بهذا الهدوء والاطمئنان حتى اخذت الافكار المتناقضة تقلقه خلصة وكانها السنة تجادله... بادرت احدى الافكار قائلة. «انت بارد وحيد كالصيت. لم تفعل شيئا غير تدمير نفسك وتدمير الآخرين. فمن هو بحاجة اليك انت المخلوق الصغير في مقعدك هذا؟.. ربما انت اكثر الناس كآبة وأسى، و احوجهم الى المشاطرة والحنان...» وردت عليها فكرة اخرى. «لا تأتي المشاطرة والحنان مجاناً».

وقالت فكرة ثالثة بلهجة مريرة. «الجميع يأخذون منك ويطالبونك ويدمرونك».

وقالت الفكرة الاولى من جديد «لم تكن تحب احدا، ولذا فانت منبوذ الآن، وقد جفت عروق قلبك».

- كلا، لقد احببت، واستطيع ان احب، بل اريد ان احب -
همس الامير متمللا في مقعده.

واضطرب الاستقرار والاطمئنان. في حين بهت الغروب وخبأ وراء النافذة، وداهمته الظلمة من الجناحين.

- يا الهي، ما اشد ضجري - قال الامير وضغط براحة يده على عينيه لدرجة الالم. فهو يعرف بان الوقت حان الآن ليشتوي في مقعده كما في المقلاة ويتعذب من الخجل ويفكر في بطرسبورغ...

لا مفر من هذه الذكريات، فهي متنبهة دوما، ولا يرونها الا الخمر والعريضة والليالي الحمراء.

- ٢ -

خدم الكسي بتروفيتش في احد افواج الحرس بعد ان نسب اليه قبل ثماني سنوات، في عام وفاة والديه.

انفق بدون تقدير المبلغ غير الكبير الذي كان معه، فهو واثق من ان احدا من اقربائه سيموت او ان شيئا سيحدث لامحالة عندما يصرف آخر ورقة من فئة مائة روبل.

وبسبب هذه الثقة كان من المستبعد العثور في بطرسبورغ على رجل خالي البال اكثر من الامير الكسي كراسنوبولسكي. النساء معجبات به اشد الاعجاب. وعلاقاته بهن سطحية قصيرة الامد دوما فلا تترك اثرا في نفسه ما عدا الذكريات الطيبة او المسلية.

قضى ستة اعوام من الخدمة في الفوج. وكانت الايام في تلك الاعوام تمر تباعا الواحد مثل الآخر في حياة عاصفة هائجة. ذات مرة انتبه الامير الى نفسه وخيل اليه انه كان يسير طوال هذه

الحقبة في رواق واحد رتيب، وليس امامه الآن غير رواق مماثل باهت اصم. اثار هذا الاحساس الجديد بالحياة دهشته واسفه.

وفي تلك الاثناء قابل في صالون الضيافة بمنزل الاميرة

ماتسكايا المضجر الذي لم يكن يتردد عليه كثيرا. امرأة ايقظت فيه على نحو مفاجئ، كالرعد، مشاعره واشواقه الغافية.

كان الامير واقفا مع شاب نحيل من السلك الدبلوماسي يستمع الى ارتجالات ونكات سخيفة معلوكة من زمان، وقد هم بالانصراف

خلسة عندما فتح الوصيف الباب المذهب ودخلت سيده فارعة القوام بتنورة من جوخ ينبعث منه حفيف وعلى كتفها فرو بني اشيب، فجلست مسرعة على الاريكة.

كانت حركاتها سريعة ومقيدة بتنورتها. ومن جبينها الواطء تحت القبعة لاح شعر بلون النحاس. محيها المخملي بعينيه الرائعتين وجفونه المرتخية وانفه الرقيق ينم عن القلق والاكتئاب.

- من هذه؟ - سال الامير على عجل.

- آنا سيميونوفنا موردينسكايا، وهي ذائعة الصيت - اجاب الدبلوماسي وقد سالت القهوة من فتجانه على السجادة.

على هذا النحو كان اللقاء الاول. وظل الكسي بتروفيتش يتذكره بأدق التفاصيل.

عندما قدموه اليها التقت عليه نظرة خاطفة بجفون ضيقة وكأنها تقيس مواصفاته.

أخذ الامير الذي رن مهماز جزمته وامسك قبعته بيده المستقرة جنب فخذه يبحث عن الكلمات اليسيرة المعتادة دوما، ولكنها بدت له الآن خالية من المعنى.

استمعت اليه آنا سيميونوفنا مشرئبة، وقد انتصبت اذنها الوردية بشكل لا يكاد يلحظ. وعلى تنورتها السوداء استقر منديل ابيض يفوح منه عطر متميز لعله عطر الانوثة، وربما كان هذا العطر يفوح منها بالذات. ثم ابتسمت وكان اللقاء الرسمي قد انتهى.

لم يقطن الامير الى ضرورة الانصراف في الحال، فنهضت بحفيف واستقام صدرها ومضت الى صالون الضيافة الثاني وحيث بعض معارفها مرفوعة الرأس باهرة الجمال.

بعد هذا اللقاء امضى الامير بضعة ايام في عالم عاطر رائع، لا مكان فيه لاي شيء تختلف رائحته عن عطر المنديل على ركبتى آنا سيميونوفنا. وكان بصر الكسي بتروفيتش يغمم وينتفض قلبه لادني اشارة او تلميح الى ذلك العطر.

كان يجلس في شقته الخالية بغيرها الثلاث في الدور الارضى في منزل بشارع فونتانكا، قرب الحديقة الصيفية، ويتطلع شاردا الفكر الى الجدران التي اصابت الطلقات بعض مواضعها في حفلات العزوبة. ثم ينهض ليجلس الى طاولة عليها كثير من صور النساء، ويضغط على اريكة جلدية ويدخن ويترنم صافرا بالحن من شوبان، ومن خلال ذلك كله يرى صفحة ذلك المحيا الشاحب والقم الرقيق العينين اللتين ينبعث منهما الدفء. ولم يعد يستثيره حتى الجندي القائم على خدمته والذي ينشد في المطبخ عادة اغاني الجنود بصوت انثوي كاصوات الفلاحات.

وعندما تساقط الثلج نتفا كبيرة وراء النافذة الصق الامير جيئنه بزجاجها وتطلع طويلا الى البساط الابيض الممتوج الهابط من السماء، وصاح بخادمه فجأة. «اعطني معطفي وقبعتي. اسرع.» تلك هي طبيعة الثلج. فعندما يلغع السماء والارض والمنازل، وتلف النساء معاطفنهم ويدفثن الفرو العاطر بدفء الاكتاف والصدور، وتنفرج الزوبعة الثلجية عن حصان منطلق وذنبه ملتو بفعل الريح، ثم تبتلعه من جديد بسرعة يتعذر معها على الرائي ان يلاحظ الشخص الجالس في الزحافة الواطئة التي يجرها الحصان، عند ذاك يتعين عليك ان تقبع في ركن الشارع وتنتظر: من التي ستاتي بها الزحافة فتلمع عينها السوداء وان من تحت قبعتها المشدودة الى وجهها المتورد؟ عند ذاك يتعين عليك ان تمتطي الجواد وتنطلق به مخبئا وجهك في ياقة معطفك وتفكر: من التي ستصادفها في هذا المساء وتترك عندها فؤادك؟

سار الامير الكسي بتروفيتش على الكورنيش بخطى متسارعة وقد فتح ازرار معطفه الفرائي. كان الثلج يذوب على خديه، ورنين مهمازيه العذب يداعب اذنيه. توقف على جسر الارميتاج وادرك بانه سائر في اتجاه منزل الاميرة ماتسكايا.

مز كتفيه واطلق ضحكة ساخرة وتطلع الى ما حواليه. حجب الثلج الكثيف نور القوائيس واستقر على كل الافاريز والتماثيل وغطى الجرائيت القائم بوسائد بيضاء. كان الشارع خاليا من المارة. وواقذ القصر معتمة، والحارس يقف متجمدا عند المدخل وقد التف بمعطف خشن من فرو الضأن، والتصقت البندقية بجنبه.

وفجأة دوت صيحة ومرق حصان ادهم بقوائم سريعة متباعدة عبر جسر الارميتاج وهو غارق في الزبد والثلج. ووراء ظهر الحوذي العريض في الزحافة الضيقة جلست آنا سيميونوفنا مائلة الى الامام في فرو السمور القاتم...

وضع الامير يده على قبعته القندسية العالية وظل على هذه الحال يحرق في الزوبعة التي ابتلعت الزحافة والحصان. انزلق المعطف من على كتفيه فتكشفت الاشرطة الذهبية على بزته. ونخر البرد عظامه ولسعه حتى الفؤاد...

في اليوم التالي قام الامير بزيارة الى آل موردينسكي. اوضح للزوج متلعثا محمر الوجه بانه يتشرف بتقديم آيات الاحترام الى آنا سيميونوفنا التي التقاها عند الاميرة، وظل اثناء تلك التوضيحات ينتظر ان تاتي هي من احدى الغرف استمع موردينسكي الى الامير ببرود ورفع حاجبيه مستغربا دون ان يتطلع اليه. كان بدينا طويلا محدودب الظهر.لقى الامير نظرة على وجهه الكالج بانفه النافر وشاربيه المتهدلين، وتصوره منكمش الاسارير منقبض النفس بعد انصراف الضيف لعلمه بضرورة رد هذه الزيارة التي هو في غنى عنها.

الا ان موردينسكي لم يود الزيارة. انتظره الامير عبثا طوال اسبوع، وعزم على اهائه في اول مقابلة واستدراجه للمبارزة... وبعد فترة قابل آنا سيميونوفنا في باب احد المنازل عندما كان خارجا منه. سلطت عليه نظرة من عينيها الزرقاوين وابتسمت ابتسامة ساخرة. ظل واقفا وكان قوة جبارة سمرة في مكانه.

ثم بحث عنها طوال شهر ونصف في الصالونات وصلات الرقص وفي الحفلات وصلوات المغرب في كنائس المجتمع الراقي. لم يكن يتصور ابدأ بانه يمكن ان يتالم الى هذا الحد. تعود التفكير فيها دوما وبشكل ممض كما يفكر المرء في المرض. وعندما يدخل صالات الضيافة كان يعرف مسبقا، ودون ان يراها، هل هي هناك ام لا. وعندما اقتربت منه ذات مرة من الخلف بصورة مفاجئة ارتجف واستدار على عجل واتسعت حدقتا عينيه...

فسالته:

- يبدو انك تخشاني، اليس كذلك؟

كانت تلك هي كلماتها الاولى التي لا تمت بصلة الى لغة المجتمع الراقى...

لعل أنا سيميونوفنا تعيره اهتماماً أكثر من الآخرين، بيد أنه كان يحتقر نفسه ويعتقد بأنه ليس أهلاً لها. فلم يعد يفرح لمشاعره، وهي تقيده وتلسعه وتفتت كيانه. ليس عيباً أن يقول المثل الشعبي: الحب ثعبان...

آنذاك اعترف الامير بكل شيء، فجاء (كعادته دوماً) لضابط معرفته به قليلة، لكنه من الذين يترددون على آل موردينسكى... استمع اليه الضابط باهتمام، وهو يعرض شاربيه، (وكانا جالسين في حانة يعوي فيها فيها العجر الرومانيون فيشوشون عليهما الحديث). وفي اليوم التالي نقل الضابط كل ما سمعه منه الى أنا سيميونوفنا. في تلك الامسية المشهودة تقابلا في احدى الحفلات الراقصة. كان الكسي بتروفيتش الذي غدا نحيفا رزيناً قد اندس بين اليزات العسكرية وبدلات الحفلات وفساتين النساء وهو ينظر شزراً ويطنطن بهمازيه وينحني محيياً ليشيح ببصره في الحال، ويبحث عنها جادا وكأنه ويخشى الا يتعرف عليها او يخطئ في معرفتها. وكانت هي واقفة قرب احد الاعمدة في فستان بسيط مفتوح من الحرير الاخضر، وقد نقشت على اذياله وردة كبيرة وردية اللون. - لي حديث طويل معك، - قالت أنا سيميونوفنا للامير عندما لمست شفاته يدها، لكنه لم يسمع شيئاً ولم ير شيئاً... كان الامر صعباً جداً عليه، فهو مرتعب وفرح في الوقت ذاته. وتمتم بصوت خافت.

- لا تغضبني علي.

اجتازا الصالة ومضيا الى الحديقة الشتوية المسقوفة. جلست أنا سيميونوفنا على اريكة صغيرة قرب حائط ملبس بصخور ناتئة... الصخور والنتوءات مكسوة باللبلاب، ومن فوق تتدلى خيوط النباتات المتسلقة. وعلى جانبي الاريكة تنتصب نخلتان حتى السقف الزجاجي. والضوء يتوزع متساوياً بلا ظلال في كل الارحاء فينير الخضرة والنافورة التي ينبعث منها خرير، كما ينير كل بدن أنا سيميونوفنا النحيبة الغاضبة. انطبعت على شفثيها بسمة ساخرة وضربت راحة يدها بالمروحة ثم قالت:

- سمعت انك تكلمت عني بما لا يليق، فهل صحيح ما سمعته؟ تنهد الامير واطرق براسه، بينما واصلت أنا سيميونوفنا كلامها.

- أنت لا تجيب، الا يعني ذلك انه صحيح؟..

انفجرت شفاته الجافتان بعسر عن تممة غير مفهومة...

- ماذا؟ ماذا؟! - تساءلت وازافت فجأة بصوت خفيض على

غير المتوقع: - الا ترى بانى لست زعلانة جداً منك؟! -

خيل اليه ان هذه الكلمات تنطوي على السخرية وعلى المشاطرة الانثوية الخالصة. في هذه الطريقة يسهل علاج الاكتئاب. واختلطت افكاره، واحس بأنه سيخل باللياقة، وعند ذلك سيضيع كل شيء. الا ان موردينسكى دخل الحديقة في تلك اللحظة وراى الامير فانقبضت اساريره وقال لزوجته:

- وصلتنى برقية، سأرتحل.

فاجابت أنا سيميونوفنا.

- صحيح؟ لكنني لا اقرا برقياتك. سيوصلني الامير الى البيت.

انحنى موردينسكى وانصرف. كان في كلمة «الامير» القصيرة

وعد... تابعت أنا سيميونوفنا ذراعه ودخلا صالة الرقص. وهناك

انتشى الامير فجأة فحدثها عن الايام الاخيرة وكيف قضاه. وكانت

أنا سيميونوفنا تحرك حاجبيها بعض الشيء عندما يحدق في عينيها

باصرار.

غادرا الحفلة في الثالثة بعد منتصف الليل. وعندما صعدا الى

السيارة رفعت أنا سيميونوفنا معطفها الفرائي الرمادي وكشفت

عن ساقها حتى الركبة في جورب ابيض لاحت بشرتها من خلاله...

وانغمض الامير عينيه. وعندما جلس ازاءها على المقعد اللين

المتقافز خيل اليه أنه رآها كلها من الجورب الابيض حتى عقد الماس

على جيدها، ولاذ بالصمت ومال الى الوراء واحس بان عينيها

الباردتين اللامعتين بضوء فانوس الشارع المسرع نحوهما تراقبان

كل حركاته وسكناته...

واخيراً اتقل الصمت عليهما لدرجة لا تطاق. قدس الامير

اصبعه في ياقته الفرائية عند الرقبة وسحبها فانفطرت الازيقات

والازرار على بزته.

- لا داعي للانفعال، - قالت آنا سيميونوفنا ومسحت بيدها في قفاها الأبيض الزجاج الذي عتمه البخار وازافت بصوت خافت. - سأسمح لك بكل شيء...

هل كان ذلك نزوة من نزوات آنا سيميونوفنا أم انها تمادت جدا في لعبتها، لكنهما ظللا حتى الخامسة صباحا، في السيارة اولا، ثم في شقة الكسي بتروفيتش، يلاطفان بعضهما البعض دون توقف...

حالما دخلت آنا سيميونوفنا غرفة نومها قالت مندهشة: «ما اضيق هذا السرير». وكانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي قالتها طيلة ذلك الوقت.

في غرفة النوم المضاءة بقنديل معلق امام الايقونة المذهبة اقلت على المقاعد والسجادة معطفها وقستانها والبستها الداخلية المعطرة. لمس الامير هذه الالبسة مترنحا كالشمع ثم رقد باستعجال على الوسائد من جديد وهو يتطلع بجذ الى المرأة اليافعة التي بدت اكثر بهاءا وروعة في الضوء الخافت، ولكي يتأكد بان ذلك ليس حلما، طبع على شفثيها بجفون مغلقة قبلة انسته نفسه.

غيرت تلك الليلة مجرى حياة الامير. فقد ذاق طعم الألم والفرحة المنقطعة النظير وفقد ارادته. وفي كل ساعة من اليوم التالي كان يتوق بمزيد من التعطش الى تكرار ما حدث... ولو الضرورة ان يعمل عندها حوذا او وصيفا لوافق في الحال... ولصار يلمس حاجياتها ويتطلع اليها وينصت الى كلامها ويقبل المقعد الذي تجلس عليه. بيد ان الامير لم يصبح حوذا ولا وصيفا. اما آنا سيميونوفنا فلم تحدد مكانا او موعدا للقاء جديد.

انقضى النهار وانقضت ليلة مسهدة، وتبعها نهار مشبع بالقلق... وفي المساء اقيمت في جمعية النبلاء سوق خيرية. حالما ولج الامير قاعة الجمعية الفسيحة لمح آنا سيميونوفنا في كشك المبيعات. كانت تبيع مطرزات ومخرمات فلاحية رخيصة. وقد وقف الى يمينها زوجها، والى شمالها استند الدبلوماسي النحيل الى رف الكشك ويده نظارته المنفردة.

عندما اقترب الامير من الكشك وانطبعت على محياها ابتسامة عريضة نور كل شيء حواليه وكان شمسا اشترقت هناك... اما آنا سيميونوفنا فقد اكفهر وجهها وتجهم حالما وقع بصرها عليه، فغضت

الطرف واستدارت نحو الفتى النحيل. وتعسرت انفاس الكسي بتروفيتش... فانحنى محييا، لكنها لم تمد يدها اليه. ورد زوجها التحية على مضض.

امضى الامير المساء كله تجولا في السوق الخيرية بين الزحام يشتري حاجيات لا داعي لها ويحملها معه ثم يتركها على رفوف النوافذ، وبعد كل دورة يقوم بها هناك يتوقف على مسافة من كشك المطرزات. حجبت جمهرة من الضباط آنا سيميونوفنا، وكانت ضحكاتها تتهدى اليه. وقبل ساعة من اغلاق السوق هبط الى مشجب المعاطف ووجد معطفها. وعندما ظهرت على السلم متأبطة ذراع زوجها اقترب منها دون ان ينظر اليها كيلا يرى عينيها الباردتين وطلق يتحدث عن مبيعات المطرزات... لم تجبه بشيء. وضع البواب جزمته القصيرة على الارضية واخذ يساعدها في ارتداء معطفها. انحنى الامير على الجزمة الرمادية وراح يساعدها في ارتدائها بعد ان ازاح بحذر طرف معطفها وهو عارف بان تلك فعلة لا تغتفر. كان رأسه يقترب اكثر فاكثر من الجورب الشفاف الأزرق فلمس ساقها بشفتيه على عجل ونهض محتقن الوجه ورأى موردينسكي يرتدي معطفه وقبعته ويتطلع الى قدمي زوجته بابتسامة ملتوية غريبة...

تلك كانت بداية الكارثة الفظيعة التي ترك الامير الفوج على اثرها وقبع في ضيعة «ميلويه» التي ورثها عن جدته كراسنوبولسكايا بعد ان توفيت هذا الربيع في مصح للمياه المعدنية في المانيا.

بتلك الكارثة انتهى شباب الكسي بتروفيتش، وهو يتصور الآن بان هذه الحياة العملة الوهمية لا مفر منها. ولعل حبا آخر ينقذه، لكنه يحس بان قلبه ممزق لا يكاد ينبض بالحياة. ولكي يحب مرة اخرى لا بد ان يولد من جديد.

- ٣ -

كان الامير يدعو ضيفا بعينهم كل مساء تهربا من البقاء وحيدا مع تلك الذكريات الخبيثة المسمومة. فيتقاطر عليه في الغسق

الاخوان رتيشيف في عربة خفيفة بعجلتين والعجوز اوبرازتسوف في عربة مشبكة السقف باربع عجلات واخيراً سوروبا الذي يصل بعد الجميع في مركبة صغيرة على النمط الانجليزي، وهو ابن تاجر كثير الاسفار. اجتمعت هذه الشلة اليوم ايضاً.

صعد الوصيف في الموعد المحدد الى غرفة نوم الامير وفتح الباب قليلاً فرآه وقد استقر راسه على رف النافذة.

لم يسمع الامير في الحال ووصيفه يدعوه لتناول طعام الغداء ويخبره بوصول الضيوف. عبت التيار المنبعث من الباب المفتوح بشعره، فالتفت وهو يضيق عينيه على نحو مؤلم في ضوء الشمعدان المائل اللهب بيد الوصيف، وقال:

«فليتناول الضيوف الطعام.»

جرت العادة على تناول طعام الغداء المتأخر في الصالة الكبرى، وعلى طول جدرانها الاربعة ينتصب على مسافة معينة من كل جدار صفان من الاعمدة المستديرة التي تشكل ممراً هناك، ووراءها ست نوافذ تطل على البستان، اما الجهة المقابلة فعليها نوافذ وهمية بمرايا بدلا من الزجاج. وبين الاعمدة رصفت ارائك صغيرة بدون مساند للظهر...

عندما دعا الرصيف الضيوف لتناول الطعام نهض من هذه الاراتك الاخوان رتيشيف وسوروبا واوبرازتسوف وهم يتنحنحون ويفركون ايديهم، ثم جلسوا الى المائدة وازاحوا باكواعهم الصحون والكؤوس البلورية على السفرة الناصعة البياض. الاخوان رتيشيف يجلسان دوما جنب بعضهما البعض، وظهراهما العريضان مشدودان في سترتين طويلتين رماديتين ضيقتين عند الخصر بازرار مستطيلة. وكلاهما بشاربين اشعثين وانف افنط ووجه مكتمز مترهل وعينين مستديرتين واسعتين. جلس الاخوان خجلين ينتظران حتى يتناول سوروبا اللقمة الاولى، فقد ارتقى على كرسي رب البيت في آخر المائدة. اما اوبرازتسوف الاصلح فقد دور شفقيه المعسولتين بشكل حلقة وراحت عيناه الشائختان الغائمتان بسبب داء النقرس تنبشان محتويات المائدة.

مطل سوروبا شفقه السفلى وامر باحضار شمبانيا من النوع

الذي احتسوه بالامس... يرتدى سوروبا بدلة سموكنغ وقد علق على صدره منديلا احمر كما لو كان اثناء القربان المقدس.

وقال اوبرازتسوف للوصيف.

«نسيت يا عزيزي ان تحضر نبيذ الكرز العسلي، طلبت منك ان تحضره كما في يوم امس، الا تتذكر؟»

«سمعا وطاعة - اجاب الوصيف عابسا.

احضر صبي المطبخ الحساء في تلك اللحظة. وقال ايفان رتيشيف واخوه سيميون متاملين:

«الافضل ان نشرب الفودكا العادية، فالبطن لا يقرقر منها كما يقرقر من الشمبانيا... ناولني، يا سيميون، الفطر والملح واملا الكاس...»

سوروبا يأكل قليلا، وهو صامت يطرف بجفونه الخالية من الرموش، فقد احتفظ بنكاته حتى يجيء الامير.

اما اوبرازتسوف فقد علق على صدره فوطة نظيفة وانهمك في تناول الحساء بشهية، والغضون المنتفخة تتراقص تحت عينيه. واوما براسه الى الاخوين وقال:

«معهما حق. فالمدعي العام عندنا اصيب بمرض خطير بسبب الشمبانيا، وانتفخ بطنه لدرجة لا تطاق. ولكن لا يجوز طبعا الافراط في شرب الفودكا وحدها...»

اطلق سوروبا ضحكة اشبه بالصرير وهو يعجن فن الخبز كرية لينة. ووضع الاخوان رتيشيف شوكتيهما وفغرا فميهما واطلقا هما ايضاً ضحكة كخريز الماء عندما ينسكب من البرميل. وواصل اوبرازتسوف كلامه.

«كان اخي منكنا حقاً. ويصادف ان يذكر نكات تجعل السيدات يشرفن...»

احضر الوصيف والصبي اطباق الطعام والنبيذ. وحومت حول الثريا فراشات اخذت تتساقط على المائدة باجنحة محترقة. اكل الضيوف الطعام صامتين، وكان ايفان او سيميون يطلقان احيانا زفرات ثقيلة بسبب الافراط.

واخيراً تهادت وراء الجدار الخطوات المتنافرة المعروفة. مسح سوروبا قمه بالفوطة على عجل واخرج من جيب صدره النظارة

المنفردة والصقها فوق عينه المستوي. ودخل الامير. كانت عيناه محتقتين. وقد سرح شعره الرطب الى الخلف توا. وراى سوروبا، ربما للمرة المائة، في حركاته المتأنية المكبوتة وفي تفصيل بزته اناقة يصعب فهم سببها. وفي محاولة للاقتداء به اقتنى سوروبا مرابا ثلاثية وطلب بزات والبسة داخلية من لندن، وطرد جميع اقربائه من التجار السخفاء كيلا يفسدوا عليه اناقته.

وقال الامير وهو يحييهم.

- اوه، لا تنهضوا يا اصدقائي، لا داعي لذلك. آمل بان الطباخ قد صحح غلطة امس.

اصططقت اقدام الاخوين رتيشيف تحت المائدة بباعث من حسن التربية. وامتد عنق اوبرازتسوف ليتبادل القبل مع الامير، اما سوروبا فقد قفز ولم يتمالك نفسه وربت على كتف الامير.

جلس الكسي بتروفيتش عند ركن المائدة وتناول قطعة من الخبز وبدا ياكل. صبوا له نبيذا احتساء بتعطش، ثم استند الى كوعه واصابعه تلامس وجنته.

- حدثونا عما استجد من امور. ارجوك صب لي نبيذا.

- الجديد الدائم هو انت نفسك، - قال سوروبا. - وبالمناسبة فقد جئت بناذرة...

مال على اذن الامير واخذ يحدثه وهو مختنق بقيقته. ابتسم الامير، وضحك الاخوان رتيشيف ثم تجعد جبينهما في محاولة لتذكر شيء ممتع، ولكن لم يحضرها شيء غير الكلاب والماشية التي عانت بالاعشاب في المروج والحضان الذي التوت احدى قوائمه فاخذ يعرج، اي كل ما لا يصلح لمقام هذا المحفل الرفيع. وقال اوبرازتسوف:

- اذا كان الكلام يدور عن البنات فهذا من اختصاص اميرنا العزيز... فليتحفنا اذن.

- اجل، اجل، من كل بد - تصايح الضيوف - فليحضر لنا الامير بنات مليحات!

- الافضل ان نذهب الى كوليفان يا سادة!

- هيا الى الخان! ساشا!

- ما هكذا يفعل الاصدقاء. يتمتع هو بكل شيء وليس من نصيبنا الا القشور. كلا، فلنذهب الى كوليفان، الى الخان!

تطلب الامير حاجبيه، واخذ الاخوان رتيشيف يضربان الارضية بجزمتيهما الضخمتين ويصيحان والعرق يتصبب منهما. «الى الخان!.. الى الخان!..» ومال سوروبا على اذن الامير هامسا. «عيب يا امير، والله عيب». ومسح اوبرازتسوف صلعته بالفوطة وتدلى طرف لسانه من فمه فقد ذاب وارتخى لذكر الخان. كانوا ثملين جميعا. اطرق الامير مستندا الى المائدة بكوعه. فالنبيذ الذي شربه، اضافة الى سهرة البارحة، قد خدره كسحابة مسكرة خائفة. وفكر. «ينبغي ان اسكر اليوم اكثر من اي وقت مضى»، ونهض. اسنده سوروبا من ساعده، فابتسم وقال:

- فلنذهب الى البستان.

فتح الوصيف ابواب الشرفة في الحال فاندفع الى الصالة نسيم المساء، وهبط الضيوف على درجات السلم الى البستان الرطب.

الممشى الرملي يمتد من الشرفة حتى المنخفض. وعلى حافة المنخفض يقوم درابزون يكاد لا يرى من وراء شجيرات العليق الكثيفة، وقد سلمت مزهرية حجرية واحدة فيه.

ومن نوافذ الصالة الست ينساب الضوء على هذه المزهرية وعلى عدد من قوائم الدرايزون بين الاوراق وعلى الاشجار والممشى. وفي اسفل الضفة العالية لمعت اضواء التحذير الحمراء والصفراء على نهر الفولغا العريض الذي لا يكاد يرى من هنا.

- يجب اقتناع الاخوين بان يتصارعا، - همس سوروبا في اذن الامير الذي اسند خده الى المزهرية وراح يتطلع الى الفولغا ويفكر: «اليوم، اليوم بالذات، هل يعقل ان الشجاعة ستخونتي؟»

واجاب الامير:

- اقنعهما.

لم يكن السكر يستولى عليه دفعة واحدة. في بادى الامر يشتد حذره وكأنما يتوجس شيئا، ثم يكتنفه الحزن حتى تكاد الدموع تتعطر من عينيه، وتغدو كل الاصوات واضحة وكل الامور مفهومة.

وكل شيء يزرع تحت ثقل النهاية المحتومة. ولكن على حين غرة، وكما يشق البرق الغيوم، يخزه الم حاد يبدأ من القلب ويخترق الظهر الى باطن القدمين الباردتين، فينتفض، وعند ذلك تبدأ العريضة.

عندما كان الامير واقفاً قرب الدرايزون شرع سوروبا ينغز الاخوين بكلمات كالشوك ليؤلب أحدهما على الآخر، فصار ايفان رتيشيف ينظر شزراً الى اخيه سيميون.

اشتهر الاخوان رتيشيف في القضاء كله بقوتهم، وكانا يتجديان في أسواق الخيل بين حين وآخر احد الرعاة التريين ويستدرجانه للمصارعة بين العربات في جمع من الاقطاعيين والفلاحين. وعندما لا يجد الاخوان احدا يصلح للمصارعة ينازلان بعضهما البعض.

هس سوروبا وهو يستحث ايفان:

- سيميون سيلقيك ارضا.

- طبعاً سألقيه راساً، - اجاب سيميون، بينما هم ايفان بالهجوم على اخيه الذي رفع صدره وتناقلت انفاسه.

- جينا! - هتف سوروبا دفعة شديدة الى ظهر سيميون، وغمز لاورازتسوف الذي اخذ يدفع ايفان بكتفه.

نخر الاخوان واشتبكا فامسك ايفان بسيميون من ابطيه.

- خلافا للقواعد، - هتف سيميون وبرك ورقع اخاه الذي فر فر

بقدميه. ثم اشتبكا وتلاحما واستدارا لاهتين. وكان سوروبا يحوم حولهما ويصفق. انزلق الاخوان متراجعين حتى طرف المنخفض.

ودس سوروبا رجله كي يتعثرا بها فاستطاع سيميون ان يقلب ايفان، وهوى الاثنان على الارض وتدحرجا نحو المنحدر وهما يزاران ويحطمان الشجيرات في طريقهما.

تهقه الامير وانزاح الهم عن فؤاده. وامسك بطرف المزهريّة الباردة وهو يقهقه.

هرع الوصيف والبستاني في الحال واحضرا حبلًا، وتم سحب الاخوين من المنخفض وهما يلهثان بمرح وفرقشة. واندفعا حالا لاصطياد سوروبا الذي فر منهما بجزمة قصيرة صقيلة على العشب البليل وهو يطلق صيحات حادة بصوته المتخشب...

في تلك الاثناء، كانت المركبة جاهزة عند المدخل. وضعوا عند الاقدام صندوق النبيذ واجلسوا عليه الاخوين ظهرا لظهر. واندرس اورازتسوف في المقعد بين الامير وسوروبا. وازاح الامير قبعته على جبينه وصاح سوروبا: «هيا». وانطلقت الجياد بالمركبة صاعدة في اتجاه كوليغان.

- ٤ -

كانت ساشا واقفة وسط الغرفة النظيفة، آنذاك، والمشبعة بدخان التبغ الآن، وقد وضعت يديها العاريتين حتى المرفقين تحت نهديها الناثين في اعلى مئزر اخضر.

التفتت الى الامير بمحياها المليح وحاجبيها المخمليين المستقيمين وغمرته بحب يتدفق من عينيها السوداءوين. كانت شفتاها منفرجتين بعد نغم في اغنية انشدتها توأ. والآن تلاحقت انفاسها بعض الشيء وتلملعل عقد الكهرمان على جيدها.

- استمري يا ساشا، غني! - صاح الضيوف. فابتسمت ساشا واومات برأسها ثم غنت بصوت منخفض وكان فؤادها ينتحب في صدرها.

يا شيخاً مرأ،

يا عشب العلقم،

لم ابذر حياتك

لم تزرعك يداي،

يا عشب الشيطان،

لم جنت الينا،

دمرت البستان؟..

استند الامير بكوعيه الى المائدة غير المطلية وامسك راسه الشمل بيديه وراح يستمع باهتمام. اخذ اورازتسوف يذرع الغرفة جيئة وذهاباً قرب ساشا، ويطلق باصابعه طرباً، وقد اسبل جفونه.

شخر المسكين
كما في المنام،
فرقرت قدماه
كما لو داسهما ابليس،
تشنجت يده
وكشر عن انيابه
كأنه يرقص
ويبتسم.

- الافضل، يا الكسي بتروفيتش، أن اغني اغنية راقصة، -
قالت ساشا معترضة على عجل.
ازاح الامير الطاولة واخذ يططب بقدمه ويصفق. وحويت ساشا
منشورة اليدين وهي تترنم برباعيات من الشعر الشعبي.
اتسعت تنورتها القطنية الحمراء من الاسفل فصارت كالتاقوس
وتراقصت قدماها بجوارب بيضاء وجزمة جلدية قصيرة...
وراح اوبرازتسوف يحوم حول ساشا بخطوات قصيرة متلاحقة
ويصيح «عظيم، عظيم!». أما ايفان رتيشيف فقد اشتد حماسه وفقد
هدوءه فامسك جنبه بيده وراح يرقص مقرصا واذيال سترته
تتطاير. وسحب سوروبا المنديل من على رأس ساشا مقهقها. فصاح
به الامير.

- لا تمسها يا سافل!

كان رأس ساشا الصغير يضغائره السوداء يدور على رقبتها
المكتنزة، كما يدور عباد الشمس نحو الشمس. وكان الامير هو
الشمس جلس على المصطبة شاحبا ثملا بشفتين متحسفتين. وفجأة
قامت ساشا بدورة مباغته وهوت عليه وعانقته وضغطت جسدها
الى كتفه. فجأرا الاخوان رتيشيف.

- احضروا لنا بنات، هيا احضروا البنات!

انسحب سوروبا مغتظا الى الغرفة المطلة على الدهليز. ورقد
على سرير ساشا جاهدا كيلا يدعك يدلته السموكنغ.

وتتمم وهو يمسح وجهه بالمنديل:

- موضوع شيق، سيكون للحديث عن ليو اميرنا وقع

وجلس الاخوان رتيشيف على المصطبة وفتح ازرار سترتيهما. اما
سوروبا فقد مد ساقيه ودس يديه في جيبي سرواله واخذ يتمايل.
واختتمت ساشا اغنيتها. فبادرها الامير قائلا بصوت اجش.
- وتلك الاغنية، هل تذكرين يا ساشا؟
- تلك اغنية سيئة كاذبة - قالت ساشا. - لا احبها. واذا
كنت ساغنيها فمن اجلكم فقط...
اسبلت رموشها وتنهدت وانشدت بصوت كئيب.

المصيبة في بطرسبورغ،
لا في موسكو،
في شارع ميشانسكايا
ذبحت الزوجة زوجها
بسكين حادة.

- ساشا! - صاح الامير مكررا الكلمات الاخيرة من الاغنية -
ما افضل هذه الكلمات «الساعد الايمن على رف الناظفة، والدموع
الساخنة تتساقط من الناظفة»، وخلص. اما الحبيب فينتظر هناك،
تحت الناظفة ويضحك على الزوج العجوز. انشدينا الآن الاغنية
الآخري التي فيها تفاصيل مدهشة...

شدت الحبل
على الرقبة
ومدت طرفه للحبيب
عبر الناظفة.

- اغنية تناسب المقام تماما، خصوصا اليوم، وكانها نظمت
ولحنت من اجلنا. هيا يا ساشا...
وانشدت ساشا مرتعبة بكل جد:

عقدة متينة

لن تنقطع،

على رقبة العجوز

لن تنقطع.

القنبلة... هذا العريس الذي امتدحوه... «سافل». ساريه من هو السافل. كلكم اوغادا!

في تلك الاثناء فتح الباب على مصراعيه، ومرق الضوء الى الغرفة، وظهر اوبرازتسوف وكأنه قد نط من دخان السجائر والصخب الهادر، وامسك بالضلع العلوي للباب ثم اندفع الى الخارج وابتلعه الحوش.

فواصل سوروبيا تمتعته.

- ذهب لاحضار البنات. تمهلوا. ساقيم حفلة ساهرة وسألني اليكم معظم كالكلاب. ساستدعي جوقه شيشكين من موسكو، بل سادعو شاليابين نفسه... كلكم تحبون المال رغم الفطرسة.

ظل سوروبيا يتأمل طويلا في الملاعب المثيرة التي سيبتدعها ليسخر من أنفة النبلاء. واخيراً سمع هسيساً وهمساً من جهة الحوش، ودخلت الدهليز بتردد أربع من زوجات الجنود الغائبين يدفعهن اوبرازتسوف هامساً بصوت عال:

- حقاوات، مم تخفن. لن ناكلكن، سنقدم لكن النبيذ الحلو وسنتدفأ.

واغلق الباب بعد دخول النساء. وتعالى من الداخل قهقهة الاخوين رتشييف التي تشبه الصهيل. في تلك اللحظة دخل الامير وساشا الدهليز وقالت له ساشا:

- الى اين انت ياعزيزي؟ لا تذهب اليها.

توجه الامير الى باب الخروج دون ان يجيبها. كان هناك غسال فخاري معلق على عمود. وكان واضحاً عبر الباب في الظلام الشفاف كيف صب الامير الماء على راحتيه ورشه على وجهه ثم تنشف. وامسكت ساشا بالعمود الثاني واستمرت على توسلاتها.

- انها فتاة شابة ولن تحبك طويلا. اما انا فلا اريد منك شيئاً، سافرش لك الفراش حتى اذا كنت سكران. لا تذهب... سترتجل غداً اذا كان ذلك لازماً يا حبيبي.

- ارجوك، اتركيني لحالي، ما هذا الكلام. يبدو انك نفسك سكرانة! - اجابها الامير.

لاذت ساشا بالصمت. التقط الامير أنفاسه ونادى الحوذي وهبط على السلم، بينما ظلت ساشا واقفة عند العمود. طبطب

الجياد في الحوش وراح الحوذي يلاطفها. ثم انبعث صرير تفيل من البوابة وجاء صوت الامير.

- الى فولكوفو...

وانطلقت المركبة. ابتعدت ساشا عن العمود وجلست على درجات السلم التي هبط عليها الامير. ورأى سوروبيا بوضوح في الظلام الشفاف عبر الباب المفتوح شبحها القاتم الجامد وكوعبها على ركبتيها ورأسها الخفيض العاري، والخطوط غير المتوازية لسطوح الاحواش وشادوف البشر.

وبدا له ذلك كله شيئاً مألوفاً كثيراً حتى انكمش وجهه واخذ يفكر. «هذا المنظر الروسي... الى الشيطان. سارتجل نهائياً الى باريس. حقا، اليس لدي ما يكفي من نقود؟ اما هذا الامير الصعلوك فسننقل اخباره كاملة الى من يهمهم الامر...»

وراء الباب اشتد وقع الارجل والصخب والقهقهة، فالابتهاج على قدم وساق.

كاتيا

- ١ -

رسم الكسندر فاديميتش شارة الصليب على ابنته وقبلها ومضى يخفه المنزلي الى الاريكة التي اعدوا له عليها الفراش. فتحت كاتيا باب المكتب وخرجت الى الصالة بعد ان لفت كتفيها بمندريل وبري. وعلى خشب الارضية العتيق استقر ضوء القمر مشبكا كزجاج النوافذ. وكانت اركان الصالة، والارائك قربها، قابعة في الظل. تطلعت كاتيا الى مربعات ضوء القمر على الارضية ورفعت راحة يدها الى وجنتها وابتسمت فجأة ابتسامة رقيقة جعلت قلبها ينتفض ويتجمد. وفكرت في نفسها. «لم يحن الوقت بعد! ولكنه ربما ينتظرنني؟ كلا، يجب ان اتمهل».

رفعت فستانها من الجانبين، ووسعت عينيها بشكل مخيف واخذت تدور محومة...

في تلك اللحظة اصطفق احد الابواب. فجلست كاتيا في

الحال. ورات كوندراتي يسير على امتداد الجدار حاملاً شمعة وبدلة فولكوف.

وعندما رأى كوندراتي الأنسة جالسة على الأرضية توقف وأخذ يلوك شفطيه. وقالت كاتيا بصوت خنقته ضحكة.

- ظننت ان جنيا قد جاء. هذا انت يا كوندراتي؟ اضع خاتمي، تعال نبحث عنه.

اقرب كوندراتي وانحنى بشمعته على الأرضية.

- اي خاتم؟ لا ارى هنا خاتماً.

قهقهت كاتيا وركضت الى الرواق... ووراء الباب لمظت بلسانها لكوندراتي واخذت تطبط بقدميها عمداً متظاهرة بانها ذاهبة الى غرفتها، لكنها اختبأت في تجويف النافذة قبل ان تبلغ نهاية الرواق التي علقت فيها سجادة، وغطت فمها بيدها كيلا تنفجر ضاحكة.

عندما هدأت جلبة كوندراتي المخدوع عادت كاتيا على اطراف اصابعها الى الصالة ومرقت الى البستان عبر باب الشرفة. وتوقفت هناك في عتمة الاشجار، فقد استولى عليها الحزن فجأة. وفكرت: "يبدو انه مل مني. واذا لم يكن قد مل بعد فسيمل لا محالة. فما الذي وجده في؟ وهل استطيع ان اروح عنه؟ لقد عانى الكثير، اما انا فاثقل عليه بالتفاهات. يا لي من بطلة!"

واشتد حزنها حتى جلست على المقعد المعشوشب.

"فالبطلة الحقيقية لا تاكل شيئاً، وفي الليل تنام طليقة والورود الفواحة على صدرها، اما انا فاغرز انفي في الوسادة..."

وضحكت كاتيا فجأة بصوت عال. الا ان حزنها لم يتبدد بعد... ومن بعيد تقنقت الضفادع في البركة. وبدت الاعشاب في ضوء القمر شيباء بين الظلال الطويلة السوداء وراء الاشجار.

اشرايت كاتيا فجأة وانصت لحظة ثم ركضت في الممشى ممسكة باطراف منديلها. والتصق خيط عنكبوت بخدها، فنفضته، وشقت لنفسها بصعوبة طريقاً اقصر بين شجيرات عنب الثعلب عند منعطف الممشى على ضفة البركة، ووصلت الى المرسي. اطل القمر على البركة من وراء التعريشة فانار الماء واوراق الزنبق الصقيلة. وفي التعريشة جلس الكسي بتروفيتش مسنداً خديه بكلتا يديه

الى الطاولة المثبتة في الجدار والتي يحتسون الشاي عليها مع الضيوف عادة. وخيل لكاتيا انه حملق واتسعت عيناه دون ان يرى شيئاً.

"ماذا دهاه؟" - فكرت على عجل ثم نادته.

- الكسي بتروفيتش!

انتفض الامير بشدة ونهض. فهرعت اليه كاتيا على الالواح المتزعزعة وهي تقول ضاحكة. "كنت نائماً، الا تخجل؟"

طبع قبلة على يدها وقال بصوت اجش بعد الصمت الطويل:

- شكراً، شكراً...

- كنت تفكر بنفسك من جديد. اليس كذلك؟ - سألته كاتيا برقة وجلست على المصطبة ووضعت مرفقها على اعلى الدرابزون. الم اطلب منك ان لا تفكر على هذه الصورة؟ ومع ذلك اعرف انك في منتهى الطيبة...

- كلا، - اجاب الكسي بتروفيتش بصوت منخفض ولكن بصلاية - كاتيا، يا حبيبتى، الامر صعب جداً علي. انظري الى سلوكي... هل تحبينني ولو قليلاً؟

ابتسمت كاتيا بسخرية واشاحت بوجهها دون ان تجيب. جلس الامير جنبها وهو يتطلع الى شعرها المستقر اسفل قفاها والى وجنتها البيضوية الواضحة القسمات على مرآة الماء. وتعلق عنكبوت في بيته باعلى الركن فوق رأسها.

- في الطريق الى هنا فكرت: هل اخبرك ام لا؟ واذا لم اخبرك فربما لن اتجاسر على المجيء الى هنا بعد الآن، واذا اخبرتك ستتركينني بنفسك، سيكون الامر صعباً عليك، ولكنك ستحاولين ان تنسيني... فما من حيلة اخرى؟

- اخبرني، - اجابت كاتيا بمنتهى الجد.

- ان تفكري بانني اكذب او اظاهر؟

- كلا.

- اقترفت الكثير من الكبار، ولكن احداها تعذبني، - قال الامير بصعوبة وبصوت اجش - هكذا هي الحال دوماً. تتصور بانك نسيت، لكن الدناءة التي اقترفتها من زمان تغدو محددة واضحة المعالم وتنفض عليك عيشك...

- ارجوك، تكلم، - كررت كاتيا وارتعشت يداها الممسكتان بطرف المنديل.

- فعلا، فقد فكرت بان من اللازم اخبارك. حدث ذلك من زمان بعيد. كلا، قبل حين، في العام الفائت... قابلت احدى السيدات... وكانت حسناء للغاية. لكن قوتها ليست في جمالها... فهي تتعطر بعطور مدهشة تفوح منها رائحة داعرة تفوق التصور. الا تسمعين يا كاتيا ما اقول؟ كلا، لا يجوز ذلك... قد احببت مرة واحدة في حياتي. وكان يخيل الي ان النساء مثلنا، من نفس الطبيعة. لكن ذلك غير صحيح... فالنساء، يا كاتيا، يعيشن بيننا ككائنات غريبة جداً وخطرة جداً. وتلك كانت اكثر دعارة واشد نهما كالحشرة. ما افزع ان تكون المرأة داعرة. عشت مسحورا كالمجنون بعد ذلك اللقاء، وكان شيء حاد يلسعني ويخز قلبي.

توقف الكسي بتروفيتش عن الكلام فجأة ورفع اصابعه الى صدغيه.

- انا لا اعني ما اقول، واعذبك. افهميني، كل ذلك مضى وانقضى. وانا اكرهها الآن بكل جوارحي... سحرتني وعاشرتني ثم هجرتني كقفاز ارتدته مرة واحدة. فقدت رشدي واخذت اطاردها واتعقبها... كنت كعطشان اعطوه ماء فلمسه بشفتيه ثم ابعده عنه، يمد عنقه ليشرب، لكن فمه جاف كما في اللهب... ذات مرة، بعد حفلة ساهرة، قبلتها يائسا على مرأى من الجميع، ربما تشفيا. وفي اليوم التالي صادفتني زوج هذه السيدة ودعاني الى بيته بخصوص بعض التذاكر. حدثت سبب هذه الدعوة، وذهبت. اتذكر ان الصقيع كان قارسا ذلك الصباح، فحزنت وانا اتطلع الى الثلوج! كان زوجها جالسا في مكتبه وعندما دخلت عليه خفض رأسه في الحال. كانت بيده حافظة سجائر فضية. لاحظت كيف حاولت اصابعه القصيرة المرتجفة ان تمسك بسجارة ولكن دون جدوى. وقد اشترت نفس هذه السجائر فيما بعد. وعلى الاوراق فوق المكتب رايت سوطا ملفوقا بسلك ابيض. وقفت امامه، بينما ظل هو يحرق في السجائر. وفجأة قلت باستهتار: مرحبا، اين تذاكر؟»

- ومددت له يدي حتى كادت تمس حافظة السجائر، لكنه لم يصافحني. اهتز وجهه المترهل بغضب وقال. «انني اعتبر تصرفك

مشينا وديننا...» وعند ذلك صحت به، ولكن بصوت خافت كما خيل الي. «كيف تتجرا على اهانتى؟!»، فارتعش كمن اثابته الحمى، واهتز وجهه وانتشل السوط وضربني به على وجهي. لم اتحرك ولم اشعر بالالم. لمحت على صديريه زريرين مفتوحين كما عند البدناء. اما هو فقد مال عبر المكتب ودمدم: «خذها ثانية» وضربني مرة أخرى على الياقة فقد كنت احرق في عيني. دسست يدي في جيبي على عجل واخرجت مسدسي. وظهر في يده هو الآخر مسدس فاندفع نحوي حتى لاحت عليه ابتسامة بسبب الغضب، اما انا فكنت احرق بالرصاصات وبفوهة مسدسه المعتمدة... يا الهي، ما افزع ذلك! واحسست بانني لا اقوى على الموت ولا اقوى على القتل، فتراجعت. وتعثرت بالسجادة المفروشة امام المرأة ورايت في المرأة الباب مفتوحا وقد وقفت فيه تلك السيدة بقبعة وقفاز طويل. ضمت شفيتها بشدة وراحت تراقب حركاتنا باهتمام. وقلت. «سابعث شاهدي المبارزة». عند ذلك ضرب الزوج الارضية بقدمه وجأر. «سأريك المبارزة الآن، اغرب عني يا جرو!». اغلقت عيني ورفعت المسدس فضربني على يدي ثم على عيني حتى سقطت على السجادة. وبعد ذلك نهضت وارتديت معطفي في الدهليز، بينما وقف هو عند الباب والسوط بيده يودعني كما يودع الضيوف، لكنه لم يضربني اكثر...

التقط الكسي بتروفيتش أنفاسه، ثم واصل الكلام على عجل:

- لم يبق امامي غير مخرج واحد. لازمت الفراش ثلاثة ايام وانا ارتعش ووجهي الى الحائط. لم يغمض لي جفن وكنت اتذكر كل التفاصيل. كيف جئت اليه وكيف امسك بحافظة السجائر، واية كلمات قلت له وكيف ضربني... اخذت اتقلب وافكر بما ينبغي فعله. ما الذي يجب ان افعله الآن مثلا... جلست على السرير واخذت اصبر باسناني... لكن ارادتي خارت... كنت اعلم بان علي ان انهض واذهب الى المتجر واشتري مسدسا جديدا (فقد بقي مسدسي عنده في الدهليز)، ثم اذهب الى هناك واقتله. لكنني لم اتمكن من القيام بذلك، فارتيمت على الفراش وبقيت احرق في الجدار. واخيرا ادركت بان من اللازم التفكير بشيء آخر. اخذت اتذكر الفيلق والقرية التي ارتحلت اليها في الاجازة. وشعرت بالاسف على نفسي

قبكيت ثم غفوت. استيقظت في الصباح يعترضني ذلك الاسف بعينه .
لم اكن اريد التصديق بان شرا قد حدث. وان علي ان اقوم بما
هو اسوأ. فقبل حين كنت حرا طليقا، ولكن لا بد لي ان اسير حتى
النهاية.. وافظع ما في الامر انني لم اعد حرا... ارتديت ملابس
وخرجت. رفعت ياقتي وناديت حوذا واخبرته بعنوان متجر الاسلحة،
لكنني غيرت رأيي في الحال. فليس يوسعي ان اختار مسدسا لهذا
الغرض. الافضل ان اطعنه بالسيف... نزلت من العربة في ركن
الشارع قرب مدخل بيته، واخذت اجوب الرصيف.

مر قربي، وانا اتذكر ذلك جيدا، جنرال عجوز بانف قرمزي
وفودين كثيفين. الجو صقيعي صاف. وفكرت. «ينبغي ان اعتذر
له فتعود الامور الى نصابها. كلا، ثم كلا. الناس لا يحبون احداً،
وهم اشراز متعطشون للشار والانتقام. ويجب اهانتهم وقتلهم والتمثيل
بهم...» في تلك اللحظة ارتطم بي ضابط من الجيش لا يزال فتيا متورد
الوجنتين. دفعني صدفة واعتذر بتأدب. لكنني فقدت رشدي وصحت
له. «احمق!..» ارتبك الضابط اشد الارتباك، لكنه لاحظ نظراتي
المسلطة عليه فقلب حاجبيه ورفع وجهه بانفه الافظ وقال:
«يا سيدي...» وازاف شيئاً لم اميزه، فاهنته ودعوته في
الحال للمبارزة. في الصباح التالي تبارزنا. اصاب ساقي برصاصة.
وجلس قربي يبكي من مرارة الحادث. يا له من فتى مسكين!
رقدت على الثلج ووجهي الى السماء الصافية الزرقاء... وكنت
في اطيب مزاج... تلك هي القصة...

ظلت كاتيا صامتة امدأ طويلا وقد خبات يديها تحت المنديل،
ثم سألت بلهجة حادة.
- وتلك المرأة؟

انزلق الامير من المصطبة وركع امام قدمي كاتيا ولمس
ركبتيها بجبينه وتمتم بياس وقنوط.
- كاتيا، يا عزيزتي، هل تسامحينني؟ هل فهمت؟ ليس ذلك
بسيطاً... الست بغيضا بالنسبة لك؟

- انا متألعة جداً، - اجابت كاتيا وهي تبعد ركبتيها عنه.
- ارجوك، اتركني لحالي ولا تات الي... عدة ايام.
نهضت ومدت يدها للامير مودعة واستدارت وهضت ببطء.

عبر المرسي الى الاشجار المعتمة على الضفة. ووراء الاشجار
التهمت الظلال فستانها الذي بدا ابيض في ضوء القمر.
ظل الامير ينظر الى تلك الجهة طويلا، ثم هبط على درجات
السلم الى الماء واخذ يرشه براحة يده على وجهه وقفاها.

- ٢ -

مضت كاتيا الى غرفتها على اطراف اصابعها، واشعلت الشموع
امام مرآة الزينة وخلعت المنديل الوبري وفكت ازرار بلوزتها ثم
خلعتها، وانتزعت الدبابيس فتناثر شعرها على الكتفين والصدر.
لكن المشط ارتجف في يدها وضغطت براحتها شعرها الناعم
الى وجهها وهبطت على مقعد شبه دائري.

فخلال الساعة الماضية سمعت الكثير وتأثرت اشد التأثر
وصارت تعرف وتحس بان مصيبة قد حلت، مع انها لم تفهم بعد لا
الحق ولا الباطل، لا الخير ولا الشر، بل لم تفهم شيئاً على الاطلاق.
قبل ساعة لا اكثر كانت تتصور نفسها مع الامير لوحدهما في
هذا العالم، ولا احد قبلهما، طبعاً، يعرف مثل هذا الحب الرقيق. وكما
ينوء الراس بالشعر الثقيل كانت كاتيا تحس في فؤادها بثقل الحب
الساخن. لم تكن حياتها حياة قبل هذا الحب. وهل يعقل ان تكون
حياة الامير حياة قبل ان يتعارفا؟ لقد جاء فجأة، جاء بكل جوارحه
من اجل كاتيا، وهو لها وحدها. كان الحال كذلك قبل ساعة لا غير.
وقالت كاتيا هامسة.

- آه، ما افظع ان يتحدث عن ذلك، وبكل هذه التفاصيل!
اللطفة لا تغسل... كان حزيناً على الدوام، وهذا هو السبب اذن.
طبعاً، فهو لا يزال يحب تلك... طبعاً، والا لما حزن ولما حدثني
عنها. ثم تلك الضربات على الوجه وعلى العينين، على عينيته...
يا الهي، على العينين اللتين لم اتجرا حتى على تقبيلهما... اما
هو فلم يفعل شيئاً، لم يهجم عليه ولم يقتله... عاجز، وضيع...
كلا، كلا، لو كان وضيعاً لما حدثني. ثم انه رقد ثلاثة ايام حزيناً،
عيناه حزينتان معذبتان. كنت استطيع ان اجلس على السرير
واخذ راسه بيدي واحتضنه... وحيد وحيد في الكآبة والالام... ولا

احد يفهمه طبعاً ولا يعطف عليه ... لكنني لن اسمح لاحد باهائه ...
ساذب الى تلك المرأة واقول لها صراحة من هي ... آه يا
الهي، يا الهي، ما العمل؟

بللت كاتيا شفيتها اليابستين بلسانها وحدقت طويلا في
المرأة بعينين غائمتين لا تريان شيئاً. ثم نفضت شعرها بحركة
متباطئة والقت به على ظهرها العاري. كتفاها المائلتان وذراعاها
واعلى نهديا الناقرين شبه المستورين بالذاتلا كانت بيضاء كقطع
منحوتة من مرمر... وخداها يتقدان. واخيراً رات صورتها في
المرأة وابتسمت باعتزاز.

وفكرت في نفسها. «هذه انا، لم يمسنى احد ولن يتجرا على
المساس بي. اما هو فقد ضربوه ولو ثوا سمعته».

نهضت بسرعة وخلعت بقية الثياب الداخلية وجدلت صغيرة بلا
استعجال، وعندما اتمتها توقفت متاملة ثم نفضت رأسها ورقدت على
السريـر.

في المرأة البيضوية الثانية على الجدار انعكس السريـر
العريض الواطيء على مساند بشكل قوائم الثيران، وهو سريـر
عتيق كانت جدتها ترقد عليه، كما انعكس وجه كاتيا المتورد
على الوسائد بغم مزوم بازدراء ثم ارتعشت شفاتها وهست:

- وبالإضافة الى ذلك اهيئه انا، - قالت وانقلبت على
وجهها بسرعة وانتحبت كبنت صغيرة وارتجفت كتفاها.

وغفت كاتيا بعد البكاء. في غرفتها البيضاء العالية تنير
شمعتان فتنسكب من الاثا على السجادة ظلال دافئة قاتمة.
السكون المطبق يخيم على الغرفة حتى يخيل للمرء ان الفستان
المعلق على الكرسي يمكن ان يتحرك من تلقائه. وفي الركن
صر جندب صريراً رتيباً جافاً.

وبعد ذلك ظهر من وراء السريـر شبح بشري احمر اللون
معروق وطويل كمود القش. اخذ يقفز دون ان يمس الارضية
ويطبطب بقدميه، وفي يديه اسلاك رقيقة. امتدت الاسلاك والتفت
حول كاتيا، بينما ظل الشبح يقفز وينط طوال الوقت.

ثم التفت البطانية وتكورت وربضت كالحجر على صدرها

فتجمدت قدماها. وحومت فوق رأسها اسلاك وحلقات حمراء
تلتقي تارة وتنفصل تارة اخرى... وقفز الشبح وربض على
صدرها واخذ بخناقها...

صرخت كاتيا ورفعت يديها على الوسائد. ارادت ان تدفع
الملل بيديها الممدودتين. اغشى ضوء الشمعتين بصرها، وانقلبت
من جديد... فقد انتابتها الحمى.

الوشاية

- ١ -

في تلك الليلة نام الكسندر فاديميتش نوما هادنا هنيئاً.
فالبعوض لم يلسعه. واستيقظ كعادته في ساعة مبكرة.
حالما فتح عينيه الملتصقتين مد يده الى قدح العصير
فاحتسأه وتنحج وانقلب على ظهره، وانبعث صرير من نوابض
الحشية، ثم عبس وزمجر. «هيا!»، ونهض فوقعت قدماه في الحال
على خف اللباد.

بعد ذلك عزم على الجلوس قليلا وراح ينقل انظاره في
ارجاء الغرفة. المكتب عتيق تقشر طلاؤه، ولم يغيروا شيئاً فيه
منذ وفاة والد الكسندر فاديميتش. على احد الجدران علق طوق
حصان وقوس مزخرف وعدة اهداها الكسي اورلوف لجدهم الاكبر
في حينه. وعند الجدار المقابل انتصب كلب منحط وسرج شركسي
على قاعدة خشبية. وفوق الاريكة علقت صور فوتوغرافية للافراس
المحبة وعلى طاولة الكتابة مجموعة مجلدة من اعداد الجريدة
الزراعية لعدة سنوات، ومختلف انواع البذور على وريقات،
بالاضافة الى فاتورات واكوام من مماسك السجانر وغير ذلك من
النفايات والحثالات.

كان الكسندر فاديميتش، عندما يستولي عليه الملل في
الشتاء ويغطي الثلج سطوح الاحواش وتعوى الزوابع وتزمجر،
يبترك مختلف الاشغال ويبعث في طلب اجهزة من برلين وموسكو
لهذا الغرض... ذات مرة اشترى آلة اوتوماتيكية لشحن الاقلام،

وراح كوندراتي يبحث في كل مكان عن الاقلام المكسورة الاسنان ويحملها الى سيده... ثم اولع الكسندر فاديمييتش بالتصوير الفوتوغرافي وعند ذلك استقرت في كل مكان افلام محمضة واوعية التحميص. وفي شتاء آخر انهمك في صنع موديلات من الكرتون لقرى نموذجية وطاحونات وآلات زراعية. وذات مرة علم من مساح عرج عليه ان بالامكان اىصال الكهرباء بطريقة منزلية فبعث في طلب كل ما يستلزمه ذلك واناار المكتب بعد جهد جهيد ووعد باىصال التيار الكهربائي حتى الى غرفة كاتيا، الا ان الصيف صرفه عن هذه الفكرة. فمع ذوبان الجليد وبدء خريف المياه في الربيع يشعر بالدم يغور في عروقه فيكرس كل اوقاته للاشغال النبيلة فقط. في مارس انهمك باخصاب الخيل، وفي ابريل انصرف الى انشاء السدود، وفي مايو انشغل في تدريب المهور، وبعد ذلك تواترت الاعمال في حش الاعشاب وجنى الغلة والدراس، ثم حل الخريف حيث تقام ولائم الاعراس والناس سكرى في كل مكان. هل الكسندر فاديمييتش من الجلوس على السرير فصاح منتعشاً:

- كوندراتي، احضر سروالي!
جاءه كوندراتي بسروال فضفاض وانحنى قائلاً:

- صباح الخير، يا سيدي.
- ماذا؟ كل شيء على مايرام؟ - سأل الكسندر فاديمييتش.
- الحمد لله، على مايرام.

- لم يحدث شيء؟ آ؟

- لا شيء، كما يبدو.

- هل جاء الفلاحون؟

- نعم.

- وماذا قلت لهم؟

- قلت لهم ان السيد امر بطردهم.

- وماذا قالوا؟

- لم يقولوا شيئاً. انصرفوا صامتين. لم يبق امامهم الا ان يحكوا رؤوسهم، طالما منعتهم من رعي ماشيتهم...

- ما هذا الكلام؟ اضبط لسانك يا كوندراتي...

القي الكسندر فاديمييتش نظرة غاضبة على كوندراتي فاستدار هذا وعلك شفته ثم قال:

- يبدو ان الانسة مرضت.

- كيف؟

- مرضت فعلاً. حامت طول الليل... وها هي النتيجة.

تهمد الكسندر فاديمييتش وقطب حاجبيه. لم يكن يصدق بان آل فولكوف يمكن ان يمرضوا. وطالما لم تنم ابنته الليل فان حماقة البنات استولت عليها ويجب علاجها بالزفاف. والزفاف هو الذي جعل فولكوف يقطب حاجبيه. فاين العريس المناسب؟ الشيطان وحده يعرف اين هو! ربما كان الامير هو العريس المطلوب. ولكن كيف تتم الخطوبة اذا كان يتردد على منزلهم ويأتي اليه حتى في الليل ليتقابل مع كاتيا في البستان، ومع ذلك لا يقدم على الخطوبة. ما اشد وقاحته! تلك امور مزعجة لحد الغثيان. وفكر فولكوف: «حبذا لو رقدت في المساء واستيقظت في الصباح لاجد كوندراتي يقول: الانسة تزوجت...»

- يا للشيطان! ساتعذب بسببكم، - قال الكسندر فاديمييتش اخيراً، والتفت وسعل وبصق. ثم مد ساقيه لكوندراتي وشد سرواله الفضفاض بزر عاجي ونهض واضاف، - اخبرهم كي يشدوا كلاوزا الى العربة - وتوجه الى الغسال.

الغسال عبارة عن ابريق من الخزف ينقلب على فوهته اذا لمست صنبوره فيصب على يديك ماءً وفيراً. اغتسل فولكوف واخذ ينخر وينفخ الماء من فمه ثم ارتدى قفطانه القطنى الغشن الذي اتخذ هيئة بدنه من كثرة الاستعمال حتى برزت من خلاله حلماً الصدر الصغيرتان، ومضى الى غرفة الطعام.

اثناء احتساء القهوة تذكر ابنته وقطب حاجبيه من جديد وذهب اليها عبر الرواق.

كانت كاتيا راقدة على السرير بوجه نحيل شاحب. رفعت رأسها وقبلت والدها، ويدها في يده، وقبلها هو ايضاً، ثم رقدت على الوسادة من جديد ودست راحتيها تحت خدها وانغلمت جفونها.

- يا لك من بنية ضعيفة! - قال الاب وداعب انفها بسبابته.

- هل نبعث في طلب الطبيب؟

هزت كاتيا رأسها ببطء دون أن تفتح عينيها. وعند ذلك امر
الكسندر فاديميتش، بداع من العناد، كوندراتي بان يرسل أحداً
في الحال الى كوليفان لاحضار الطبيب حيا او ميتا. ثم لمس خذ
ابنته ومضى الى المدخل ووضع يديه على جنبيه وراح يمتع
انظاره بالفرس الكميث المربوطة الى العربية.
غمزت كلاوزا بعينها الحمراروين وهزت اذنيها واقعت مرارا
منتظرة ان يطلقوا سراحها لتفعل ما تشاء.
وقال الحوذي بمرح وهو يمسك بلجام كلاوزا:
- فرس مأكرة، عضت يد السائس في الصباح. فما افظعها.
ودعم السائس وهو يخلع قبعته احتراماً:
- يا الكسندر فاديميتش، لا بد من كأس مقابل العضة.
- طيب، اذهب الى المطبخ، - اجابه سيده، ونزل من سلم
المدخل وشعر بارتعاش خفيفة ارتاح لها. ضبط نفسه وصعد الى
العربة ورتب العنان وشد طاقيته البيضاء على رأسه وقال بصوت
خافت: - هيا!
افلت الحوذي اللجام لكن كلاوزا لم تتحرك. نخرت بصخب
واتسع منخارها الورديان.
وخاطبها فولكوف: «هيا، يا لطيفة!» - ولمس جنبها بالعنان،
لكن كلاوزا تراجعت مقعية. اراد الحوذي ان يمسك بلجامها من جديد،
بيد ان سيده صاح به. «لا تمسها!» وضربها بكلا سيوري العنان.
اندفعت كلاوزا ثم اقعت ونهضت على قائمتيها الخلفيتين.
ضربها فولكوف مرة اخرى، وعند ذلك هزت عقيرتها قبلته وانطلقت
به... وركض السائس والحوذي في اثرها. لكنها خرجت بفولكوف
الى الطريق العام فحاول عبثاً ان يشد العنان وهو يبصق لاهنا وقد
جحظت عيناه. اما الحوذي والسائس فقد ركضا حتى طرف القرية ثم
ضربا على ركبتيهما غارقين في الضحك قائلين: «هذا ليس عصيراً
لتشربه...»
ظلت كلاوزا تعدو منحرفة عن الطريق على الاعشاب التي تضرب
القوائم، وهي تترافس وتسهل وتحاول ان تقلب العربية بكل الوسائل،
لكن فولكوف تسمر في مقعده والريح تعبت بشاربيه وهو يحاول
توجيه الفرس نحو الهضاب.

واخيراً تمكن من ذلك، الا ان كلاوزا ابتدعت حيلة اخرى بعد
ان صعدت التلة التي تقبع الضيعة وراهها. فقد توقفت عن العدو
فجأة وربضت مع العريشين في الحال.
لم يكن فولكوف يتوقع ذلك فنزل من العربية ليساعد الفرس
على النهوض.
الا ان كلاوزا قفزت بخفة وقلبت فولكوف وأسرعت تعدو في
الحقل ساحبة العربية كيفما اتفق.
واكتاب فولكوف اشد الاكتئاب وهم باللحاق بالفرس، لكن
وجهه احتقن في الحال فانبطح لاهناً على كومة من دريس الموسم
القانت.
في تلك اللحظة مرت على الطريق قربة عربية مشبكة السقف
- يجرها ببطء حصانان هزيلان في اعنة من الجبال...
وكان الجالسان في العربية قد شاهدا بام العين ما فعلته
الفرس بفولكوف والعار الذي جلبته له. فاقفا العربية وتعالى من
داخلها صوت معروف:
- الم تصب باذى يا الكسندر فاديميتش؟
القي فولكوف نظرة على الراكبين واطلق شتية خافتة. فقد رقد
في العربية او برازسوف ورأسه يتدلى. وهرع سوروبا على العشب
نحو كومة الدريس وهو في بدلته السمو كنج وجزمته الصقيلة...
وفكر فولكوف: «رآني الحقير. وسيشخر الخبر في القضاء كله،
سيقول ان فرسا جرباً غلبتني».
بلغ سوروبا الكومة راكضاً ورفع بنطاله الى اعلى وجلس منحنياً
على فولكوف.
- يا الهي! اغمي عليك!
جلس فولكوف في الحال.
- لماذا تنقل علي؟! تعبت من السفر وانبطحت لاستريح.
- اين فرسك اذن يا الكسندر فاديميتش؟
آه، ذهبت، يا للشيطان... شيء مزعج!.. كانت واقفة بهدوء
طوال الوقت. يبدو هربت من الذباب.
فقال سوروبا:
- هربت الفرس الى القرية. راينا ذلك من الهضبة. ولكن لا

تهتم... انامسرور جدا لاننا قابلناك. كنت اريد ان اذهب اليك بنفسى لاخبرك بشيء في منتهى الاهمية.

انحنى على اذن فولكوف وهمس قائلا:

- علي ان احذرك. والكلام بيني وبينك. الامير الكسى كراسنو بولسكي سافل ودنى.

- ماذا تقول؟ - سال فولكوف وقد نهض على اربع، ثم قام وعدل قفطانه واضاف: - وشاية جديدة؟

- آه، انا نفسى لا احب الموشايات - واصل سوروبا كلامه على عجل. - فهي لا تليق بالانسان المؤدب ولكنى افعل ذلك بدافع

من صداقتي لك. علما بان القضية تمس الشرف. بالامس جئنا اليه - انا اوبرازتسوف والاخوان رتيشيف - لتناول الغداء.

فانظر باي حال هو الآن. الافراط على مائدة الامير، طبعاً، فطيع الى حد مخجل. وبعد الغداء مختلف الحماقات. وفجأة اقترح علينا ان

نتوجه الى كوليغان، الى العاهرات. ما اسوا هذه العادة! ولما كنا شلة فقد توجهنا الى هناك. وفي كوليغان سكرنا حتى فقدوا الحشمة

والتهذيب، واحضروا اربع عاهرات غاريات.

- غاريات؟ - سال الكسندر فاديميتش.

- غاريات بالفعل... شيء فطيع، مقرف. وفكرت: فليكشف هذا الصعلوك عن نواياه حتى النهاية. فتصور ماذا فعل. - توقف

سوروبا لحظة وهو يتطلع في عيني فولكوف الذي تنحج فجأة وطرقت رموشه. - تصور. حوالى منتصف الليل ركض هذا الامير الى الحوش وصاح: «احضروا الجياد، انا متوجه الى فولكوف...»

- الي؟ - سال الكسندر فاديميتش.

- نعم، ولكن، كيف لاتفهم؟.. تلك مسألة حساسة جداً. طبعاً توجه اليك يا الكسندر فاديميتش، ولكن كيف اقول كيلا ازعجك:

الناس يمكن ان يفكروا بانه لم يتوجه اليك بالذات. وللمزيد من الوضوح نشر سوروبا اصابع يده امام انف فولكوف الذي فهم تلميحات سوروبا فجأة فانفجر به صائحاً:

- بليد، ابله.

الا ان سوروبا تمادى في الرواية فلم يزعل وواصل كلامه باستعجال اكثر:

- حقاً، توجه اليك، لكن الجميع اخذوا يطلقون اقوالاً غير لائقة، حتى صحت بهم أمراً: كفاية. شبعبنا من هذه المشاهد الدنيئة.

فلنرحل من هنا! لكننا تركنا جيادنا في ضيعة ميلويه، ولذا ترانا مع حصاني البلدية الهزيلين. كنت من زمان اقول: لا يجوز

استضافة هذا الصعلوك، ثم هل هو امير حقاً؟ اليس يهودياً؟ بيد ان الكسندر فاديميتش لم يعد يسمع كلام سوروبا. فقد

اشتد به الغضب، وهو منفعل اصلاً بسبب حادثة كلاوزا، حتى عجز عن النطق، وكان يشخر بقم مفتوح مما جعل سوروبا يرتعب.

واخيراً قال فولكوف بشق الانفس:

- اين هذا الحقير؟ احضروا الجياد! سابقر بطنه!

- طيب. رائع. سنصل الى منزلي بهذه العربة ومن هناك نباغت سووية ضيعة ميلويه وناخذ معنا الاخوين رتيشيف: فليدفع

الحساب. - همس سوروبا وركض، وهو يتلوى كاصل، خلف فولكوف نحو العربة فرحاً لانه ثار لنفسه من الاهانة التي تلقاها من

الامير يوم امس.

- ٢ -

غادر الفرسان ضيعة سوروبا متوجهين الى منزل الامير بعد ان تناولوا طعام الغداء واستعر النبيذ في عروقهم.

كان فولكوف يسرع، بكوعين متباعدين، على ظهر حسان سيبيري اشعث يشخر تحت ثقل راحته. ووراءه اندفع الاخوان

رتيشيف يلوحان بسوطيهما ويهتفان.

- تلك هي الحياة! تلك هي المتعة! اسرع، عجل!

لا فرق عند الاخوين رتيشيف بين الهجوم على الامير او الدفاع عنه. فاهم شيء بالنسبة لهما هو ان تصغر الريح في الاذنين. زد على ذلك انهما عزموا على اجتثاث التفسخ الخلقي بعد ان جهد

سوروبا في اقناعهما.

وخلف الجميع كان سوروبا يتقافز على ظهر فرس انجليزية وهو منكش الوجه ذاوي القسما، لكنه في سترة ممتازة وسروال وحذاء بغطاء على الكاحل.

اندفع الفرسان بين شجرات الصفصاف والرمال تنظير من تحت السنايك. وكلما اقتربوا من ميلويه ارتفع حاجب اشقر على عين فولكوف وهبط الحاجب الآخر على عينه الثانية واخذ فكه الاسفل يمتد الى الامام، وهو يتكر في كل لحظة تمر فنونا جديدة من التعذيب الذي سيسلطه على الامير.

وكان الامير الكسي بتروفيتش قد نام بقية الليل في هاجس مقلق، فاخذ حماما باردا وطلب ان يدلكوه بمنشفة ثم جلس الى البيانو في الصالة المستديرة الصغرى ذات النوافذ العالية المزججة بزجاج ملون.

البيانو بشكل قيثار من الخشب الوردي، وهو مهشم يبعث دويا. عزف الامير بيد واحدة ما يحفظه عن ظهر قلب - "chanson triste" وانسابت اشعة الشمس عبر الزجاج الملون على الارضية الخشبية فانتعشت عليها زخارف الزهور والاكاليل. وعلى قماش الجدران علق رسم محفورة كنيية، وقبالة البيانو علق صورة نصفية لشيخ وجهه مزين بالساحيق ويرتدي صديريا احمر وييده مخطوطة قديمة مطوية. كل ذلك، بالاضافة الى الارائك المتهرنة والموائد المستديرة المحكوكة ودفاتر النوات المستهلكة، حاجيات بالية موات تفوح منها العفونة. استدار الامير على المقعد اللولبي وفكر:

"كانوا ينظرون عبر هذه النوافذ المبرقشة ويستمعون الى الفالس ويضطجعون على الارائك ويمارسون الحب والقبلات خفية - وبعد ذلك ماتوا ولم يبق لهم اثر. فورث المنزل الذي آواهم وورث آنيتهم وذكرياتهم. لاي غرض؟ الكي اموت كالاخرين ولا يبقى لي اثر!"

داعب مفاتيح البيانو من جديد وتنهى فداهمه التعب مرة اخرى بعد ان طرده الاستحمام موقتا، وتقوست كثفاه - وتمتم ببطء:

- كاتيا، يا صغيرتي!

ولاحت كاتيا امام عينيه المغمضتين كما كانت بالامس، بصفحة وجهها الملتفت الى ضوء القمر وكتفها المنحدرتين تحت

المنديل الوبري. يا ليته يضغط خده على كتفها ويطمئن الى الابد!

"ليس بالامكان العيش مع كاتيا كاخ مغرم متميم؟ ولكن هل ستوافق هي على هذا النوع من الغرام؟ فهي تحس بانها امراة. طبعاً، لا بد وان تحس بذلك. فلتذق طعم السعادة المباغثة اللاذعة. يا ليتني اهيم معها يوماً او اسبوعاً! ثم ارتحل الى الابد. ويظل في نفسى مدى الحياة حزن لذيذ لان يدي امسكتا بكنز ثمين، كنز السعادة التي تخلت عنها طوعاً. فهذا اشد واقوى من اي شيء آخر. وهو يترك انطباعاً عميقاً. فما لذ الحزن حتى الدموع! ما اروعه! امس هرعت الي ومدت يديها. كان يجب ان انهال عليها بالقبيل، آه، يا الهي... بدلا من ذلك حكيت لها ابشع الغفائع... فلماذا؟ لن تفهمني... لن تتقبلني بعد الآن!"

مرر الكسي بتروفيتش راحته على وجهه ونهض من كرسي البيانو وتمدد على ظهره فوق الاريقة التي سخنتها الشمس وشبك يديه تحت راسه. وفي تلك الاثناء طرق الوصيف الباب بحذر وافاد بان الطعام جاهز.

- اغرب عني، - قال الامير. فقد انقطع حبل افكاره. اسف لذلك، ونزل الى صالة الاعمدة، حيث العائدة جاهزة، والقي نظرة خاطفة على الوصيف الواقف بوجه متحجر تعلوه مسحة الاحترام، وانكمش وجهه (فلا يزال الغثيان يلزمه بسبب سكر الامس) ثم توقف قرب العمود البارد وشبك يديه وراء ظهره. هبط قرص الشمس الهائل وراء قمم الشوح عبر الباب الزجاجي. وتهادى هدير حزين حنون لحمامة برية. وانبعث حفيف من اوراق الحور التي اخذت تترجرج وتدور على اعوادها ثم سكنت. كل شيء هنا ازلي قديم، كل شيء يتكرر من جديد.

وفكر الامير: «سأغير طبعي، سأحبها الى الابد. أحبها بشدة، ما اروعها، ما ارقها... كاتيا ستروضني وتجعلني استقر. يا الهي، اجعلني مخلصاً اميناً مثل الآخرين. خلصني من اضطرابي، وخلص افكاري من السموم. اريد ان اقضي حياتي كلها قربها. سانسى، سانسى كل شيء... ما عدا الحب... افليست لدي مقدسات؟..»

فلتكن ساشا هي المسؤولة. ساشا تتحمل العذاب. استطيع ان
اهجرها، فهي وديعة، تحترق وتموت وتباركني مع ذلك».

دس الكسي بتروفيتش يده في عب صديريه وكأنه يريد ان
يمسك قلبه الذي اشتد وجيبه حتى نفزه واوجعه. مال على
العمود والتصق به، ونبعت حبات العرق على جبينه. وفكر.
"يجب ان اشرب البروم"، وخطا نحو المقعد الواسع وهوى عليه
خائرا من النوبة التي اعتورت قلبه المرهق جدا.

في تلك الاثناء اصطلق باب المنزل وسمعت خطوات ثقيلة.
هرع الوصيف مرتعبا الى الباب البلوطي الثقيل الذي انفتح على
مصراعيه بضربة شديدة. واقتحم الصالة فولكوف وخلفه الاخوان
رتيشيف ووراهما سوروبا.

- احضروه الي! - جار فولكوف وهو ينقل عينيه الجاحظتين
ثم ركل المائدة برجله حتى جلجلت الاواني. - كل ذلك وهو يتجرا
على تناول الغداء! - ثم خطا نحو باب الشرفة وعندما رأى الامير
بين الاعمدة يتشبث بالمقعد وينظر من الاسفل الى الاعلى، دمدم
بفك ناتئة. - هذا التصرف، يا اخي، يستحق لطمة على البوزا!
- نعم، لطمة على البوزا! - زعق الاخوان رتيشيف من وراء
ظهره.

اما سوروبا الذي ظل واقفاً عند الباب فقد راح يكرر:

- على مهلكم يا سادة، على مهلكم.

شحب وجه الامير حتى اكتسى بمسحة خضراء. فقد ظن ان
كاتيا حدثت اباها بكل ما سمعته. وانه، هو المستضعف، سيتعرض
الآن للاهانة ثانية. سيسمع صوت السوط اللماع مرة اخرى،
وسيلازم الفراش ويعض الوسادة من جديد...

الا ان سعار فولكوف خمد حالما واجه نظرة الامير، وكان
ضميره بدأ يؤذيه. فهذه النظرة الكسيرة تشبه نظرة الكلب
المقتصوم الظهر عندما يقترب منه رجل بحبل ليجهز عليه باسرع
ما يمكن، فكل دفاعه يتركز في عينيه. واحياناً لا يتجرا الرجل على
خنقه والقاء الانشودة على رقبتة، بل يشيح بوجهه ويتصرف
ويكتفي برميده بحصاة من بعيد.

وهذا ما فعله فولكوف. فقد تراجع وهبط حاجباه ودمدم:

- لماذا تحدى في هكذا؟ هذا التصرف، يا اخي، غير جائز
ولو كنت من عائلة كريمة. ثم انني اب. يمكنك ان تسكر وتعربد،
ولكن لا تلوث سمعة البنت!

وعندما قال هذه الكلمات احتاج من جديد وصرخ مهاجماً:

- كلا، سأضربه، لن اتحمل!

- ماذا جنيت؟ - سأل الكسي بتروفيتش بصوت خافت
واخذ يرتعش على نحو غير ملحوظ لشدة فرحه، فقد مر بسلام
افضع الاحتمالات.

- كيف؟ تتهتك مع ساشا ثم تتباهى امام الجميع بانك
ذاهب الي في الليل. اما انا فلا علم لي ولا خبر، لقد شوهدت
سمعتي في القضاء كله.

نهض الامير على عجل ولم يتمالك نفسه فراح يقهقه، واخذ
فولكوف المندم من يديه واقتاده الى الشرفة:

- تعال يا عزيزي، يا حبيبي، - قال الامير ومال على الكسندر
فاديميتش فوضع خده على كتفه التي تفوح منها رائحة العرق
والخيل واضاف: - انا احب كاتيا، واطلب يدها منك. لقد تغيرت
طباعي يا عزيزي... وتبت نهائياً...

كاد الامير يخنق، بينما اهتز راس فولكوف بسبب الانفعال:
- هكذا اذن. انا فاهم، لقد حولت الامور الى مجرى آخر.

تلك قضية اخرى اذن. انا نفسي كنت اريد... لكنك، يا اخي،
فاجأتني، لماذا انت مستعجل الى هذا الحد؟ - مسح جبينه واختتم
كلامه بصوت خائر: - انا ذاهب لآتمشي في البستان، بين الشجيرات.
فالقضية هامة. ولا تخش شيئاً. دعني اهدي اعصابي قليلاً...

وهبط فولكوف من الشرفة بخطوات ثقيلة. وعاد الامير الى
الصالة وكور قبضتي يديه المعروقتين وقال مخاطباً سوروبا
والاخوين رتيشيف عبر اسنان مصطكة.

- اغربوا عني!

ما كان فولكوف يحب التماهل والتأمل اذا اشتدت رغبته في
القيام بشيء ما. ولذا فقد جلس بين الشجيرات برهة ثم عاد
واعلن للامير ان من اللازم اتمام كل الامور في هذا المساء بالذات.
وتوجه بنفسه الى الاسطبل وظل يلوم سائسي الخيل بعد ان

عشر بعينه الثاقبة على مواضع الاهیال فی عملهم. وخرج فی طریقہ علی جمیع الحظائر ومستودعات العربات، وعندما عاد ادراجه خاطب الامیر الواقف فی المدخل.

- معذرة، یا عزیزي، أنت مغفل علی ما يبدو. فهل يجوز اھیال الاسطیل الی هذا الحد؟ من حسن الحظ انی سارتب امور ضیعتك. وراح الامیر یكرر بقهقهة قصيرة متلاحقة لم یتمكن من التخلص منها. فقد كان یتوجس منه خیفة ولا یتوقع خیراً. ولذا فعندما اختار فولكوف افضل عربة وأمر بشد ثلاثة من الجیاد الدهم الیها واصطحب فیها الامیر الی ضیعته كان سلوك هذا الاخیر غریباً أثناء الطریق حتی القی علیه فولكوف نظرة شزراء عندما اجتازا نصف المسافة وقال:

- ماذا بك؟ أقول لك لا تتامل. كاتیا لن ترفض.

لكن انباء سینهة مبالغتة كانت تنتظرهما فی فولكوفو التي وصلها فی المغیب. وعجل ذلك فی الاحداث وترك اثرأ مؤلماً لیس لدى الامیر وكاتیا فحسب، بل ولدی الدكتور غریغوري ایفانوفیتش زابوتکین الذي تورط فی هذه القصة كما تورط الذبابة عندما تندفع الی النار.

- ٣ -

فی صباح ذلك الیوم ارسلت عربة لاحضار الدكتور زابوتکین. كان یغسل ارضیهة غرفته المدخنة بالماء الساخن والصابون وقد فتح الباب والنافذتین ویفرش المكان بالورق النظیف والكتب غیر الممتعة اطلاقاً التي وجدها تحت الفرش، وكان یتوقف احياناً والخرقة فی یده لیلقی نظرة علی الشمس التي جفت بسرعة المصاطب والارضیهة.

وفکر غریغوري ایفانوفیتش: «انا احب النظافة. فالروح تتطهر بها وتفرح. والنهار، ما اروع النهار! الاوز علی الماء والغیوم فی السماء، ما اروع ذلك».

خرج علیه الاب فاسیلمی لحظة ودهش اشد الدهشة فسأله. «ماذا؟ هل أنت بخیر یا غریغوري؟» لكنه ادرك كل شيء من اولی

الكلمات التي نطق بها الطیب فابتسم وانصرف بهدوء خشیهة ان یفسد الفرحة التي لم یشتد عودها (كما خیل الیه)، حتی ان غریغوري ایفانوفیتش لم ینتبه الی ذهابه.

وخیل الیه ان السعادة ستأتي الیه الیوم بالذات. واذا لم تأتي؟ كلا، ستأتي من كل بد.

فی حوالی الثانیة بعد الظهر وصلت الی منزل الطیب عربة یجرها حصانان ادهمان. دهش غریغوري ایفانوفیتش فمد عنقه من النافذة والخرقة بیده. قفز الحوذي من العربة وأسرع نحو النافذة وسأل:

- ماذا، یا اشعث، هل الطیب فی البیت؟ - والقی نظرة علی داخل المنزل ثم ضیق عینیة وتطلع الی غریغوري ایفانوفیتش. - ادع الطیب، ارجوك. الأنسة مریضة. قل له ابنة فولكوف مریضة. ابتعد غریغوري ایفانوفیتش عن النافذة فی الحال وسقطت الخرقة من یده. وانتفض قلبه وكاد یختنق. ولاحت فی مخیلته كاتیا عندما رفعت طرف فستانها «المبلل وصعدت السلم الی الرصیف وبان راسها المشع وكتفاها المكورتان وقدها الفارع المطوق بالحریر...

«ماذا لو اصیبت بالتیفوئید؟ كلا، مستحيل».

ورفض الی النافذة من جدید وصاح:

- اسمع یا هذا! انا الطیب، سارتحل معك فی الحال! - وتطلع فی كسرة المرآة المعلقة بین النافذتین وبیده طاقتیهة، وانعكس فی تلك الكسرة بشكل مائل وجهه العریض المحتقن والزغب علی خدیة، وقد تهدل علی جانبيه حتى الكتفین شعر كالالیاف. - ما هذا المنظر المرعب؟ - دمدم الطیب متراجعا - انا «اشعث» حقاً، لن استطیع الذهاب بهذه الهیئة.

جلس علی المصطبة بسرعة متحیراً وتغضن جبینة، ثم نهض فی الحال واخذ المقص وغرز طرفه فی راسه وقص خصلة شعر جانبیهة سقطت علی الارضیهة دون ان تتناثر. داس علیها وزم فمه وراح یقص المزید من شعره حتی قصر من كلا الجانبین، وادرك علی الفور ان المقص لن یطال شعره من الخلف، وانه، علی العموم، یکاد یجن.

كانت الاجراس وراء النافذة ترن بين حين وآخر، وصار الحوذي يتناوب عمداً ويحمد ربه بصوت عال. بينما أخذ العرق يتصبب من الطبيب الذي حنى ركبته ولوى رقبته وحلق قفاه. ثم القى بالمقص واسرع الى الغسال فلم يجد فيه ماء. ولم يكن يعرف أين سترته. طرق الحوذي على النافذة بسوطة وسأل: «متى سنتحرك؟» ضرب زابوتكين الارض بقدمه. ولم يحدث له شيء من هذا القبيل الا في الاحلام عندما يتعين عليه ان يركض لكن قدميه ملتصقتان بالارض، ويريد ان يلوح بيديه لكنهما ثقيلتان لا ترتفعان.

واخيراً قال الطبيب بعد ان قفز الى العربية:

- اسرع، بكل ما تستطيع.

ظل طوال الطريق يعدل هيئته. ويمسح وجهه بالمنديل ويتأوه. وعندما لاحت من اعلى التلة البرك والبستان وسقف الدار الاحمر في فولكوفو كاد يقفز من العربية. فكل ما كان يجري في دخيلته هذا النهار كانما يجري في الاحلام.

استقبل كوندراتي الدكتور في المدخل ورافقه الى المنزل. واستنشق غريغوري ايفانوفيتش الرائحة الرقيقة، العفنة بعض الشيء، لهذه الغرف العتيقة، ثم أخذ يسير على اطراف الاصابع مدركاً بان الواجب هنا يحتم عليه التحلي باللباقة والادب، فعلى كل لوح من اخشاب هذه الارضية سارت كاتيا، ووقفت امام كل نافذة. فهذا ليس منزلاً مثل سائر المنازل، بل هو المعجزة بذاتها. - تفضل الى هنا، - قال كوندراتي وتوقف امام السجادة التي تغطي الباب. ثم اضاف وهو يعلك - الفت انتباهك الى عدم الافراط في اعطاء المستحضرات.

واذاح السجادة عن الباب، فدمدم غريغوري ايفانوفيتش: «تمهل، تمهل، طبيب»، وسحب اذيال سترته ومسح وجهه براحته ودخل فالقى نظرة زائغة على الغرفة ثم استقرت عيناه في الحال على الوسائد والراس الاثنوي الراقد وقفاه الى الباب. التفت على الجيد صغيرتان يفصلهما خط المفرق، وامتدت يد عارية حتى الكوع على البطانية الزرقاء.

اغمض الطبيب عينيه ثم القى نظرة على الخف الاحمر على

السجادة وفكر، عرضاً، بانه، هو الدكتور زابوتكين، دجال لا اكثر، مجرد كومة من الخرق القذرة. ثم نسي افكاره في الحال. تنهدت كاتيا وانقلبت على ظهرها ببطء. فتراجع الطبيب مرتعباً. طرفت جفونها بسرعة واستيقظت نهائياً وتوقفت نظرتها المندمسة على القادم. ثم اسبلت جفونها وتورد محياها. وقالت:

- آه، هذا انت يا دكتور؟ مرحباً... معذرة لزعاجك... لكن باباً...

اقترب الطبيب منها بعد جهد جهيد. مدت له كاتيا يدها التي لا تزال دافئة اثر النوم، فامسك بها واحتقن وجهه بحمرة قانية ثم انتبه على نفسه واخرج ساعته، لكنه لم ير عقاربها فراح يحسب الثواني بضربات من قدمه، وفهم بعد لحظة انه اخطأ الحساب وانه هالك لا مهالة فترك يد الفتاة وسقطت الساعة منه. عند ذلك غطت كاتيا وجهها براحتها ببطء، وارتعشت كتفاها ولم تضبط نفسها فانفجرت ضاحكة.

انتابت الدكتور زابوتكين قشعريرة شديدة حتى شعر بالغثيان، بينما انفجرت شفثاه عن ابتسامة بلهاء، يا للنعنة! واخيراً قالت كاتيا بعينين مغرورقتين بدموع المرح:

- لا تزعل يا عزيزي الدكتور، ارجوك اوضح لي ما الذي حدث لشعرك؟ - واطلقت قهقهة عالية رنانة هذه المرة.

وعند ذلك تطلع في المرأة يائساً وراى وجهه المتشنج وراى البقع المحشوشة والتضاريس على راسه وراى ما يشبه الضفيرة من الخلف... ودمدم:

- ذلك بسبب الظلام. تعودت دوماً... - لم يتحمل فتراجع الى الباب وخرج راكضاً.

- ٤ -

كان كوندراتي ينتظره وراء الباب في الرواق. فصاح به الطبيب يائساً مستغيثاً:

- اسمع يا هذا، اخبرهم ان يعدوا لي الحصان بسرعة. سارتحل في الحال، لا أستطيع.

فاجابه كوندراتي بلهجة صارمة:

- أرجوك، لا تتبخر، فأنت لست في بيتك. تفضل واتبعني.
قال الطبيب، «طيب» وسار طائعا خلف كوندراتي في الرواق
ثم الى جناح الوصيف تحت السلم حيث جلس على الصندوق
المغطى ببساط اللباد. و بعد صمت قصير قال كوندراتي وقد مال
الى ضاح الباب:

- اسمى كوندراتي ايفانوفيتش وليس «اسمع يا هذا» وأنت
هل جئت الى هنا لتموت الأنسة؟ هل حلقت رأسك بهذا الشكل
الغريب عمدا؟
فصاح به الدكتور:

- اسكت يا كوندراتي ايفانوفيتش! فانا أفهم كل شيء!

- ينبغي أن تسمع النصيحة ولا تعقد الامور يا دكتور. فلن
اعطيك حصانا على اية حال. اما كاتيا فقد ربيتها بيدي ولن اسمح
لاحد، ما دمت حيا، ان يؤذيها. يجب ان تعالجها بالكلام الطيب
وليس بالمستحضرات. فمرضها هو مرض البنات لا اكثر. هل
أنت فاهم؟ طيب. منظرك الغريب اضحكها. هذا شيء جيد.
كنت انا نفسي في أيام الشباب، ابتدع النكات. وحالما يضحك
السيد من كل قلبه يحل النظام في المنزل ونؤدي نحن الخدم
واجبنا. تعال اعد لك شعرك. فالظهور مرة أخرى بهذا المنظر
المشوه جلافة لا تثير الضحك.

التقط كوندراتي المقص ومد له غريغوري ايفانوفيتش رأسه
طائعا وسأل:

- هل ربيت الأنسة بنفسك حقا يا كوندراتي ايفانوفيتش؟
- نعم، بنفسى، - اجاب كوندراتي ووضع المقص فجأة واصاح
السمع. فقد تهادت في الرواق خطوات شخص حاول أن يدير مقبض
الباب، وند عنه صوت لعله سعال أو بكاء مكبوت. وقال كوندراتي:
- شخص غريب على ما اعتقد. أليس كذلك؟
وهذا الضجيج، فخرج الخادم العجوز مهموما.

وسرعان ما ارتفع صوته: «كلا، غير ممكن، اذهبي»، وجاء
صوت نسائي متوسل مستعجل، لكن الطبيب لم يعد مهتما، فقد
اغتمسل ومشط شعره ونظف سترته وفكر في نفسه. «طبعاً، لست

جميلاً، ولست رشيقاً، لكن وجهي لا يزال نضيراً، وخصوصاً
تعايير العينين». وتنهى بتحفظ وخرج الى البستان وظل ينتظر
ان يستدعوه لعيادة المريضة.

استدار في البستان وراء ركن المنزل وسار على العشب ثم
جلس على مصطبة حديدية مقابل النوافذ ووضع يده على رشاشة
زهور خضراء قربه.

حرم النحل فوق الاعشاب قرب قدميه وفاحت رائحة البرسيم
العسلية، فانفعل غريغوري ايفانوفيتش لهذه الرائحة وللشمس
الدافئة المنخفضة جدا والمنسابة عبر الاوراق على جدار المنزل
المطلي، ولنافذة كاتيا بستائرهما المسدلة (فمن الستائر بالذات حزر
ان هذه النافذة نافذتها) - انفعل لذلك كما ينفعل للموسيقى،
فضيق جفونه وعرض قفاه للشمس واحس بأن كل ما في داخله
يرتخي ويخور (وما حاجته الى ما في داخله؟)، فهو كأنما يذوب
في الضوء، في السكون، ويحتوى كل شيء - السماء وعمومها
والماء والاشجار والمرج - كل هذا في داخله. ثم يخيل اليه ان
بدنه ينصهر ويتجزأ، فيقدم عينيه للسماء، وروحه للغيوم ودمه
للماء ويديه للاشجار وجسده للارض. تلك حالة تشبه الموت
او الحلم او الحب. وفكر في نفسه: «انا مستعد للتنقل مدى
العمر في الطرق والدروب، بين الاكواخ النتنة، وما عدا بشاعة
منظري، وعدم قدرتي على الموت والتضحية بالنفس من اجلها،
كلا، فانا استطيع ان اضحي بنفسى حالما تأمرني، ما عدا ذلك
فما الذي يعوزني؟ لا شيء! لا اريد غير العيش والاحساس
والتنهيد...»

في تلك الاثناء ظهر الامير الكسي بتروفيتش على الشرفة
بين الاعمدة التي تساقط طلاؤها في بعض الاماكن حتى بان الطابوق
داخليا. كان يرتدي سترة سوداء وبنظالا مقلما. وقد استند بيده
اليمنى الى عصا، وامسك باليسرى قفازه ينش به خائفا نحلة
كانت قربه. حلقت النحلة مبتعدة. ونزل الامير على عجل الى
البستان وراح ينظر الى النافذة المسدلة الستائر بانفعال شديد
وقد وقف على اطراف اصابعه دون ان يرى زايرتكين. ثم قال
بصوت عال:

- مستحيل! هذا يتعدى كل الحدود! - لوح بعصاه واستدار ومطّ شفته السفلى حالما وقع نظره على الطبيب.

«من هذا؟» - فكر الطبيب وهو يلقي نظرة متفحصة على الامير. وسأله الكسي بتروفيتش.

- انت الطبيب؟ من عند كاتيا الآن؟ الا تعرف شيئا؟

- ماذا حدث؟ هل حدث مكروه؟

- كلا، الاصح اني لا ادري - اجاب الامير وجلس على المصطبة، ولمس يد الدكتور وقال بمنتهى الرقة: - لا اسرار امام القسس والاطباء، اليس كذلك؟ اخبرني هل هناك وسيلة للتخفيف من آلام القلب او السيطرة عليه؟

- البروم، - اجاب الطبيب.

- طبعا، لكنني لا اقصد ذلك. عندما يفتح باب السجن امام السجين ويرى الشمس من العتبة يقولون له:

«تذكرنا جناية قديمة من جناياتك، فعد الى السجن...» -

«لكنني اصلحت ما بنفسى...» - كلا، عد. يا دكتور، زوج كاتيا يجب ان يكون حرا طاهرا، اليس كذلك؟

- تريد ان تتزوجها؟ - سال غريغوري ايفانوفيتش وهو يحدق في شفتي الامير المحمرتين جدا وفي عينيه القلقتين.

وفكر: «يداه بيضاوان تماما»، واستولت عليه فجأة كآبة شديدة. وواصل الامير كلامه:

- لست عدوا لنفسى، واريد ان تصدق كاتيا ايضا بانى لست عدوا لنفسى. انا اتعذب اكثر منها. ولم اكن اتردد على

كوليفان من اجل الافراح... وبالمناسبة فانت لا تدري... جئت لاطيها... ولكن... يا دكتور، اذا وقعت مصيبة هل ستساعدني؟

وراء هذه النافذة تحاك الآن وشاية اخرى عندي. انا اعرف ذلك. التقط انفاسه وتنهّد وتطلع الى عيني الطبيب وابتسم ابتسامة

المستكين.

- كاتيا تستحق ان يتألم المرء من اجلها - تمتم الطبيب دون ان يعرف لماذا يقول مثل هذا الكلام وارتبك فأخذ يشغل نفسه

بالرشاشة ويحنيها حتى سال الماء من صنوبرها. في تلك اللحظة دوت من وراء نافذة كاتيا صرخة ذابت في

صيحة من صوت اجس، وهرع شخص ما الى النافذة المفتوحة فارتجت الستارة وانقذف من الداخل رأس امرأة عار على رف النافذة. وامتدت يدان عاريتان في محاولة لانتزاع اصابع قصيرة مكسوة بالشعر تطبق على رقبتها.

ثم دوت صرخة انثوية يائسة اخرى اقشعر بدن زاپوتكين لها، بينما امتقع لون الامير فقفز من المصطبة مرتعبا وهو يكرر بالمر بالمر: «لا تمسها، لا تمسها...» تركت الاصابع المكسوة بالشعر الرقبة فانزلق رأس الامراة من رف النافذة. هم غريغوري ايفانوفيتش بالتهوؤ لكن الامير تشبث بركبتيه باصابع خائرة وهوى عليه فتدلى رأسه.

- لا بأس، طيب، لا بأس سيمر ذلك بسلام، - تمتم الطبيب وراح يبذل جبهة الامير بماء الرشاشة.

الدوامة

- ١ -

اسند غريغوري ايفانوفيتش الامير من ابطنه واقتاده عبر الشرفة الى الصالة وهو يبحث عن مكان مناسب يمدده فيه. الباب الجانبي في الصالة يؤدي الى المكتبة. فقال الامير وهو يضغط على يد الطبيب: «الى هناك». وفي تلك اللحظة تهادت من داخل المنزل اصوات وصرخات ووقع اقدام.

ما كاد الامير وزابوتكين يصلان المكتبة حتى فتح باب الصالة من جهة الرواق على مصراعيه ولاح في العتبة السانس والحوزي يقودان ساشا من ابطيها. كان قستانها الاسود مزقا وشعرها مشعنا ووجهها ملتويا بحاجيين مرفوعين وائر الدموع على العينين. وهي تكرر بصوت خافت يائس:

- لماذا؟ لماذا؟..

ومن الخلف كان كوندراتي يدفعها، بينما راح فولكوف يسب ويلعن الشيطان ويضرب الباب بجمع كفه صائحا:

- احبسوها في العنبر، واقفلوا الباب على هذه الساقطة!..

- ولم يكن قد رأى الامير وزابوتكين اللذين تمكنا من دخول المكتبة قبلئذ.

دفعوا ساشا الى خارج الصالة. واغلق فولكوف باب الشرفة بصخب ومضى الى غرفته شامتا.

ظل الطبيب والامير جالسين على الاريكة قرب خزانة الكتب وقد غرقا في صمت طويل. ارتعشت ركبتا الطبيب، بينما تجهد الامير واغلق عينيه ومال برأسه الى ظهر الاريكة.

- لماذا حبسوها؟ - اخيرا سأل الطبيب بهمس وتطلع الى الامير. كان وجهه الذي لا يكاد يرى في الظل المعتم جميلا للغاية. وفكر الطبيب. «هذا هو الحب الانيق القوي الذي يؤدي الى الاعماء والى الاشواق الخارقة! الامير زوج حقيقي يليق بكاتيا. حتى الكتب تتحدث عن امثاله». مال الطبيب على الامير بحذر ولمس يده، فسأله الكسمي بتروفيتش بصوت خافت:

- هل ستبقى معي يا دكتور؟

هز الطبيب رأسه بالاجاب. وواصل الامير كلامه:

- اخرجوها؟ ما افطع ذلك. الحياة معقدة عزيزي الدكتور. مسكينة ساشا!

انتصب الامير فجأة وعدل قامته كمن يخلع القناع عن وجهه. وقال:

- انني اعرف ما هو نبيل ونزيه، لكنني اتصرف بدناءة وبلا نزاهة، وكلما كان تصرفي افطع شعرت بلذة اكثر... هكذا يمكن ان اجن. ما الذ ان ينظر المرء الى نفسه عن كثب، ليرى صورته، ساقلا دنيئا يجلس في العربة ويرتدي قبعة رمادية وقفازا ابيض ولا احد يضربه على وجهه، الجميع يحترمونه، وهو معجب بنفسه. يكاد المرء يختنق عندما يفهم اعماق هذه الحقيقة. افليس غريباً ان اعود في الليل من هنا، من كاتيا، واتطلع الى السماء والقمر (الى السماء المقمرة من كل بد) واضحك من فرط السعادة بصوت خافت كيلا يسمعني الحوذى. وفي الحال انظر الى نفسي عن كثب وارى ان اقتراف الكبانر امر فظيع في حين يفوح عطرها من راحة يدي. وعندما اكاد اختنق اوقف الجياد امام خان ساشا وادخله وامسك بيدها واميل براسي على صدرها واتمتم: «ساشا، عزيزتي،

ريحيني» - وترىحني قدر ما تستطيع. وبعد ان ارتاح وتهدأ نفسي احدتها عن سبب مجيئي اليها، وتلك أعلى درجة من الدناءة. انا اكذب عليها من جديد، بينما قلبها يتفطر... وعلى هذا النحو شددت النايض اقوى فاقوى، حتى انفجر الآن.

- اسمع، هذا تصرف فظيع يبدو انك جننت. - همس الطبيب وابتعد قليلا عن الامير. لم يكن قد ادرك تماما، لكنه احس مجرد احساس بان الامير، وهو يتخبط ويتملص، قد تعرى وانكشف. وشعر الطبيب بتقزز غامض. فراح ينتف لحيته القصيرة ثم نهض واخذ يجوب الغرفة جيئة وذهاباً.

- اجل، هذا تصرف فظيع، - واصل الامير كلامه، وكان صوته معتدلاً وكانما هو يتفحص نفسه بعين ناقبة. - والافطع منه اني كذبت الآن عليك أيضاً... فمن الصعب جداً ذكر الحقيقة كما هي. يلف المرء ويدور حولها، ويكاد يذكرها بالكامل، ثم يلتفت فلا يراها، لقد هرب من الحقيقة بطريق متعرج منحرف، وكأنه يكتب يومياته... هل حاولت كتابة اليوميات؟ لا تجرب. صورت نفسي امامك الآن وكأنني انسان يحمل اعباء ثقيلة... اي انسان؟! واية اعباء؟! انا مجرد شخص فيه عيوب، وعاء مثقوب، مثل رجلي هذه. اخترقتها الرصاصة هنا، ويخيل الي اني استطيع ان امدتها بالكامل، لكنها لا تطاوعني الا ترى كيف التوت من جديد؟. احاول دوما الا اعري ما هو اساسي في مكنون نفسي... نعم، ربما يلزم المرء ان يشرب الكثير ليستطيع ان يعري نفسه... صدقني، يا عزيزي الدكتور، انا احب كاتيا اكثر من حبي للحياة، واذا رفضتني الآن ستكون تلك نهايتي. تلك هي الحقيقة... عرفت ذلك يوم امس، ففي الامس كان الامتحان الاخير، ولم اتحمل، مع انه لم يكن هناك طبعاً اي امتحان. مجرد تهور بسيط. جئت الى هنا ليلا واغتسلت بجمال كاتيا وبضوء القمر وتطهرت عندما كشفت لها قلبي... انها فتاة رائعة، بينما القيت على كاهلها كل ما كان ينقل كاهلي. وفي الصباح ارسلت الحوذى الى ساشا وامرته بأن يقول لها: «لا تفكري بالامير، فهو مقبل على الزواج...» لم تتحمل ساشا، فجاءت الى هنا سيراً على الاقدام... وكنت اعرف بأنها ستشي بي.

العنبر الخشبي ينتصب منعزلاً في العرعى بين الساقية التي تبدأ منها حدود البستان وبين اكداس القش المستطيلة. وتحت سقيفته رصفت الزحافات والمسالف. ويتدلى قفل ضخ من الباب الذي نجرت في اسفله كوة مربعة للمقطط. وتناهت من وراء الباب تاوهات ونحيب خافت. ركضت كاتيا في العرعى من الساقية حتى العنبر وتوقفت لاهثة قرب بابه ثم هبطت على ركبتيها وقربت وجهها من كوة القطط وهتفت:

- ساشا، أنت هنا؟ أنت تبكين؟

توقف النحيب وراء الباب واحست كاتيا بانفاس ساشا تلمح وجهها، بل ورات عينيها. وقالت:

- لو كان عندي مفتاح لاطلقت سراحك.

تهدت ساشا، فمدت كاتيا يدها اليها وداعبت وجنتها.

- ساطلب من كوندراتي ان ياخذ المفتاح من بابا خفية، وسنطلق سراحك بعد فترة. ساشا، خبريني... قربي خدك لاقبله... ياعزيزتي خبريني هل أنت متألمة جدا؟ سأجعله يعود اليك من كل بد. فانت لم تفهميه، كان يمزح معك. ما قاله عني سخافة... فهو لم يتردد علي وحدي، كان يأتي الى ابي ايضاً. لكنك انت المذنب... لعاذا ذكرت كل شيء بحضور بابا... ساشا، ياعزيزتي، لم يحدث اي سوء. فكري في الموضوع بهدوء. سيعود اليك غداً. لكن ساشا بكت بكاءً مرأً وهي تدق الباب برأسها. ولمست كاتيا صدغيها باصابعها واخذت تتلفت، فكيف تهدئها؟ وتمتمت ساشا:

- انا اتعس خلق الله. ساتحمل التعذيب من اجله. كنت اعرف انه يكذب علي ويسخر مني، وان عذابي يهدد كبرياءه. لكنني لم اتحمل... عندما جاء السانس وقال وهو يضحك: «سيدي يامرك بان لا تفكري به ويامرك ايضاً ان تنامي معي». تجمد الدم في عروقي... وفقدت عقلي، وركضت من البيت وأنا افكر: هل اذهب اليه ام الى النهر لانتحر؟ وفي تلك الاثناء مرت بي ابنة

- كل هذا كذب! - هتف الطبيب فجأة واراد ان يضيف شيئاً لكنه تلغتم وانعقد لسانه فاخذ يجوب غرفة المكتبة من جديد وينتف لحيته.

- يا دكتور، - قال الامير مستعظفا بصوت لا يكاد يسمع - اذهب الى كاتيا وحدثها بكل شيء، وستفهم...

- لن اذهب ولن احدثها! - صاح غريغوري ايفانوفيتش. - حدثها بنفسك. انا لا افهم شيئاً، ولا اطيق المجانين.

مال براسه الساخن الى الزجاج. خيم الظلام حالكاً، ومن وراء الاشجار بزغ القمر البرتقالي قرصاً كائياً غير مكتمل و كأنه مرآة تعكس شجون هذا العالم الكئيب.

وفكر الطبيب: «ماذا أستطيع ان اقول لها؟ هل اقول لها انه اناني ومجنون؟ كيف اقول ذلك وهو يحبها؟ لا ادري... انا لا افهم مثل هذا الحب. لو كنت في مكانه لتطلعت اليها وبكيت دون ان اقول شيئاً... فهل يستطيع المرء ان يقول للغيمة انه يحبها؟»

حينما كان الطبيب غارقاً في تأملاته تكثف ضوء القمر وانساب بارداً على ندى الاوراق ورسم ظلالاً طويلة. وحوم فوق الاعشاب ضباب خفيف. وانا ضوء القمر عبر نافذة المكتبة شطراً من وجه الامير ويده التي دس ابهامها في صدريره. ولمعت الزوايا النحاسية لخزانة الكتب.

وانتفض الطبيب فجأة. فقد مرت كاتيا مسرعة امام النافذة (عرفها من كتفيها المكورتين ومن رأسها الانوف) والتفتت قرب منعطف المشى ثم ركضت فتطاير الشال الابيض وراء ظهرها...

التفت الطبيب وقال بسرعة:

- وخرجت راكضة الى البستان.

قفز الامير وفتح النافذة على مصراعها، وهمس:

- هيا، فلنسرع!

وخرجا على عجل.

فولكوف لم يدم طويلا، وكيلا يتمادي في التفكير بالاهاة قرر في الحال ان يقدم مهراً مدهشاً للعريس وكاد يعلن عن قراره هذا، بيد ان امرأة حمقاء اثار الفضيحة فورا وصولهما الى فولكوف، وافسدت عليه الامور.

وعندما صب الكسندر فاديميتش جام غضبه على ساشا ادرك ان التهور والهياج لن يجديا نفعاً، لكن السيل بلغ الزبي، فانزوى فولكوف في مكتبه كنييا وجلس الى طاولة الكتابة.

«سازوجها من هذا المحتال حتى لو كلفني ذلك حياتي» - فكر وراح يلوم الامير اشد ملامة، ثم غضب على ابنته ايضاً.

واخيرا قادته التأملات الطويلة الى فكرة غير متوقعة هي ان كل ما حدث سخف في سخف ولا توجد اية كارثة في العلاقات بين كاتيا والامير. فهل هو الشخص الوحيد الذي زنى؟ ليس عبنا ان العالم منقسم الى قسمين، فبدون ذلك يقتلنا الملل والضجر. عند ذاك ضرب بقبضته على الطاولة وهتف «ساصالجهما!» ولكي يتهيأ لهذه المهمة ويحسن مزاجه اخذ يفكر عمداً بأمور قد تبعث على السرور.

التقط قلما ويحث عن الورق فعثر على ورقة ذرق عليها الذباب فرسم ارنبا.

- لماذا تهرب يا احو؟ - تتمم فولكوف - الا تريد ان ارسم لك ثعلبا؟ - ورسم ثعلبا خلف الارنب، وراح يكلمه. - الا تريد لحم ارناب؟ انت ماكر، ولكن الا تخاف من الذنب؟ ها هو الذنب السميك الجبهة، ها هو يركض وذنبه منتصب كالخشبة. سياتكلكما معا يا عزيزي. لكني ساطلق الكلاب عليك يا ذنب، كلابا اصيلة حادة الانياب. هيا يا كلاب، اصجمي عليه، هيا! رسم فولكوف كلابا وتحمس لها حتى انه نهض قليلا عن مقعده وضربه بيده حتى قالت، متصورا ان المقعد حسان رهوان ثم التقى بالقلم جانبا وضحك وخرج من المكتب راضيا وامر، في طريقه، بدعوة الجميع لتناول العشاء.

اسرع ابنا الطباخة يبحنان عن الضيفين، بينما توجه فولكوف الى ابنته. كانت جالسة بملابسها على السرير. - يا بنتي، انتهى الهرج والمرج على ما اعتقد، فتعالى نتعشى.

عمي على العربية واخذت تضحك علي وتقول: «ماذا؟ الم يات الامير اليك؟ اذهبي الى الطريق وناديه...» لا ادري من اين جاءني ذلك الحق... فقررت ان اطلعك انت، ياسيدتي، على حقيقة الامير... هبت كاتيا ناهضة ثم جلست على العتبة ووجهها الى البركة. كانت خيول قاتمة تقف على ضفتها، والقمر يسبح وحيداً في السماء الشاهقة الخالية بعد ان اطفأ كل النجوم حواليه.

اسندت كاتيا حنكها براحة يدها واخذت تفكر مبتلعة دموعها: «ما هذا الهراء؟! لقد تلتقيت عقوبة صارمة، ويجب ان انساء». وبدا لها ضوء القمر قطنيا ضبابيا في صحراء زرقاء.

- يا آنسة، - نادتها ساشا - ياعزيزتي الحلوة، اصبري عليه، تحلمي، حاولي ان تحبيه، فانت ايضاً امرأة. ولو كنت قادرة لما تنازلت لك عنه. صعب علي. لكن ربيع عمري انقضى، وجاء دورك في معاناة الآلام...

نهضت كاتيا دون ان تسمع خاتمة هذا الكلام، وتطلعت الى باب العنبر وارادت ان تجيب، لكنها لاذت بالصمت وابتعدت ثم استدارت وراء ركن العنبر، فندت عنها صرخة خافتة وتوقفت متحجرة. كان الامير جالسا على المسالف المرصوفة واسنانها الى الارض. وتمتمت كاتيا عندما رات الطبيب من بعيد في المرعى يبعث الى الامير اشارات بالسة:

- كم الساعة الآن؟ اعتقد ان بابا ينتظرني على العشاء. تحمل الامير وهم بالنهوض، فاستدارت كاتيا على عجل ومضت الى المنزل.

- ٣ -

اختص الله فولكوف بطباع متميزة كثيرة، لكن العناد الشديد كان في مقدمة تلك الطباع. ثم ان خطوبة الامير كراسنوبولسكي بددت قلقه في الحال، لاسيما وانها تداري كبرياءه، لان عائلة الامير تتحدر من سلالة ريوريك، وكانت في حينه من حاشية القيصر. حالما تذكر فولكوف سلالة ريوريك (عندما عاد مع الامير من ضيعة ميلويه) شعر بالامتعاض متصورا ان الكسي بتروفيتش يمكن ان يتغطرس ويتكبر، فدفعه بكتفه وضغطه الى ركن العربية كي يؤلمه، الا ان الامير لم يفهم هذا التصرف الرقيق. لكن امتعاض

ارادت كاتيا ان ترفض، لكنه زمجر على نحو جهلها توافق في الحال.

- طيب، سأتى يا بابا.

وجد صبيا الطباخة الضيفين يجوبان المسافة بين العنبر والساقية جيئة وذهابا. عندما سمع الامير صوتا يناديه استدار بسرعة متوجها الى المنزل، اما الطبيب فاخذ يقنع الصبيين بانه لا يرغب في الاكل ويرجو ان يعدوا له الخيول. ومع ذلك اسرع ليلحق بالامير.

في غرفة الطعام الصغيرة استقبل الكسندر فاديميتش الضيفين قائلا:

- اعتقد، يا سيدي ان القوة كلها في البطن مهما جرى من احداث. تفضلا.

واوما بيده الى المائدة المستديرة وجلس قبل الآخرين ولف الفوطة حول عنقه.

دخلت كاتيا شاحبة جدا والظلال تحت عينيها. جلست الى المائدة بسرعة قبالة ابيها دون ان تنظر الى احد. كان محيها هادئا انوفا، بيد ان عرقا كان يدق وينتفض بالكاد قرب الحنجرة على جيدها المكشوف.

- ها هي ابنتنا المريضة، - قال فولكوف، - لكنك، يا كاتيا لم تسلمي على الامير...

- سلمت عليه، - اجابت كاتيا بعبء.

اشراب الكسي بتروفيتش واستطال في مقعده وكأنه يختنق. اما غريغوري ايفانوفيتش فقد خفض رأسه وأخذ يغرر الشوكة في السفرة.

الا ان فولكوف عنيد شديد المراس وليس من السهل امتطاؤه. امسك بشاربيه واستند الى المائدة واحتوى الجميع بنظرة من عينين مرحتين. واستمر الصمت. وزع كوندراتي الاطباق وصب النبيذ في الاقداح دون ان يسمع لخطواته خفيف، وكان الطبيب الذي تئدت راحته، اول من تطلع الى رب الاسرة. كانت عينا فولكوف تومضان بضحكة لم يستطع السيطرة عليها.

- سخافة! - صاح وطبطن على المائدة - ما لكم منتفخي

الخدود كالقثران. فماذا حدث؟ اية مصيبة؟ لا داعي للاحزان يا كاتيا. طالما الدكتور موجود هنا فانا اصرح اني بحاجة الى حفيد! اجل، هل انتما خجلان ايها المحتالون ها هي الامور تترتب... ولا جدال بعد الآن!

وبغية المزيد من التأثير غرق في قهقهة عالية حتى خيل اليه ان الجميع، حتى كوندراتي، سيمسكون بطونهم من شدة الضحك. الا ان عيني فولكوف شبه المغمضتين لاحظتا تماما ان القهقهة اخفت. فقد ابتسم الامير ابتسامة متوترة، وهم الطبيب بايصال فخذ الدجاجة الى فمه، وظل جامدا على هذه الصورة وتجمدت جبهته بغضون عميقة تنم عن الالم. اما كاتيا فقد سلطت على ابيها عينين مغمضتين بالغضب والكآبة وقالت وهي تضبط نفسها بالكاد: - كفك يا بابا. ساذهب اذن - واحتقنت وجنتها في الحال بلون وردي داكن. ثم نهضت.

- قفي! لاتذهبي! - صاح فولكوف بغضب شديد - ها انا اعلن الخطوبة. هذا هو العريس وهذه هي العروس. تعال ايها الامير واركن امامها واعتذر.

بهت لون الامير وشحب وجهه. نزع الفوطة على مهل ونهض ورفع كتفيه بتظاهر فارغ واقترب منها بمشية وقحة وانتشل يدها وضغط عليها وقال بصوت بغيض.

- آمل، يا عزيزتي، ان تسامحيني على ماضي.

سحبت كاتيا يدها ببطء، كما في الاحلام، وامتقع لونها حتى الاخضرار صفعت الامير على خده بكل قواها.

- ٤ -

على هذا النحو غير المتوقع اضطرب العشاء الذي اعد له فولكوف بكل دهاء. ظل الامير واقفا مطاظا الرأس ووجهه الى الباب الذي خرجت منه كاتيا على عجل. وغطا الطبيب وجهه براحتيه. بينما احتاج فولكوف والشوكة والسكين بيديه وراحت عيناها تتراقصان.

وقبحة دخل كوندراتي. شفتاه ملتصقتان بحزم وعيناه تتطايران شررا، أو ما بابهامه عبر كتفه ودمدم:
- يقول السائس الصغير ان المرأة التي في العنبر هربت، وهي تتخبط في الماء...

- فلتذهب الى الشيطان، - زعق فولكوف في سورة من الغضب - اذهب انت واياها الى الشيطان! هل فهمت؟
هز كوندراتي رأسه وانصرف في الحال. وسحب فولكوف الفوطه من رقبته وفكر قليلا ثم رماها وركض بساقين متباعدين للحاق بابنته في الرواق.
اما الامير فقد جلس الى المائدة وصب لنفسه نبيذاً واستند خده المحتقن وابتسم بمرارة، وقال:
- كل ذلك تفاهات.

تنحى الطبيب عن المائدة فوراً وهو يرتعش حتى اصطكت اسنانه. ومن بعيد تهادى وقع خطوات فولكوف الذي بلغ نهاية الرواق وتناهى من هناك صوته المكبوت.
وقال الامير:

- «تتخبط في الماء»، اليس ذلك مضحكا؟
ابتسم وارتجت كتفاه واقترب من العتبة على اطراف اصابعه، ومال على ضلع الباب فقد خائنه قواه للحظة، ثم خرج.
وفكر الطبيب: «سيهلكون جميعاً اليوم بالذات. ترى، ماذا يفعلون؟ كل ذلك بسبب الامير، فهو كالعدي. لماذا لا يطردونه؟.. لا بد من طرده. ساقول لكاتيا. لا تحزني، فانا احبك مثل... مثل ماذا؟ انا احق! ساذهب من هنا سيراً على الاقدام، في الحال. انني لا افهم شيئاً. فاي حب يريدون؟ انهم يريدون ان يتعذروا ولا يجيوا. اما انا فساعيش بدونها. لدي الكثير، وهو يكفي مدى العمر... ستتحرر متسمة، ستتحرر من كل بد، اما انا فاهتم بنفسي. ما الذي يفرحني؟ انني نذل لنيم، اذا كنت افكر بنفسي فقط. الكل يفكرون بانفسهم فقط. الامير، وفولكوف، وانا، عذبنها جميعاً بتفكيرنا هذا... عذبنك يا قديستي المسكينه... اختلط الامر على غريغوري ايفانوفيتش واستوات عليه الكتابة حتى لم يعد يدري هل يتعين عليه ان يذهب ام ينتظر. وكيفا

يسمع تلك الاصوات الفظيعة في آخر الرواق مضى الى البستان ووقف قرب الشجيرات القاتمة وهو يستعيد في ذاكرته ما حدث من امور مهولة اخرى، ثم توجه عبر المرعى نحو العنبر وفكر وهو يتطلع الى باب المفتوح: «وقعت ساشا ايضاً في هذه الدوامة التي يشتد دورانها فتبتلع كل ما في الوجود...»

وعند ذاك فهم قول الامير: «تتخبط في الماء، اليس ذلك مضحكا؟» لقد اقت ساشا نفسها في البركة... لا شك... هربت من هذا الباب، عبر المرعى، الى البركة!
صرخ الطبيب وركض ملوحاً بيديه. على ضفة البركة حيث الماء اسود في ظل الصفصاف وقف كوندراتي وسائس الخيل. واماها على العشب ساشا ممددة على ظهرها. وجلس السائس الصغير القرفصاء وراح يتطلع في وجهها الابيض الجامد وفمها المفتوح.

وقال السائس للطبيب الذي جاء راكضاً:
- لا بأس، ستعود الى رشدها. كانت تتنفس عندما سحبتها من الماء. ستعيش اذن.

- ستعود الى رشدها. مجرد اغماء، - قال كوندراتي.
جثم غريغوري ايفانوفيتش قرب ساشا وفتح بلوزتها السوداء فتطايرت ازرارها ووضع اذنه تحت نهدها المتصلب النافر. كانت لا تزال دافئة. فآخذ بنشر يديها ويطويهما ضاغطاً على بطنها، ويرفع جسدها الثقيل ويخفضه. وحدته السائس وهو يساعده في رفعها وخفضها فقال:

- راينا امرأة تركض. ففكرت انها هي ولا بد. وناديتها «ساشا، ساشا». فاقتربت مني وهي ترتجف كالمحمومة. وسالته: «السيد اطلق سراحك؟» فاجابت: «نعم» وهي تنظر الى الماء. وسالته. «الى اين ستذهبين يا ساشا؟» فاجابته: «وداعاً، وبكت بكاء شديداً وتوجهت الى السد. وقد ضحكت آنذاك لبكائها الشديد. لكنها وصلت الى السد ونادته «يا سائس، انت هنا؟» وصحت بها: «اذهبي، اعبري السد»، وارتعبت... وقبحة رمت نفسها الى الماء...

وقال السائس الصغير:

- يا عم، كانت تنادي غيرك من السد.
- اخرس، ايها الصبي المزعج! - نهره السائس وتقر
باصبعه على قفاه الحليق.
انحنى الطبيب على فم ساشا وحاول ان ينفخ الهواء فيه
وهو يوسع صدرها ماسكا كتفيها بيديه. وفجأة ارتعشت شفاتها
الباردتان، فاشاح الطبيب بوجهه على عجل وكأنه يخجل من قبلة
مفاجئة. ودبت الحركة في بدن ساشا، فرفعوها واجلسوها. وسال
الماء من فمها المفتوح. وزاغ بياض عينيها، وند عنها انين. فقال
كوندراتي.
- ينبغي ان نقلها الى كوخ البستاني. يا لها من حمقاء...

- ٥ -

في آخر الرواق الابيض وقفت كاتيا وظهرها الى الباب المغطى
بالسجادة وقد ضغطت شفيتها بعناد كيلا ترد على ايها وهو
يحاول ان يمسك بيدها التي خباتها خلف ظهرها. ووقف الامير
تحت القنديل المعلق على مقربة منهما.
- سارغمك على الاعتذار له، - كرر فولكوف متلعثما
لشدة الغضب. - من أين لك هذه العادة الجديدة؟ من علمك
الضرب على الوجه؟ اعطني يدك. هيا. اقول لك. اعتذري له!
الا ان كاتيا التصقت بالسجادة الملونة وانفرطت ضميرتها
وتناثر شعرها على الكتف وبرزت ركبتيها المكورة فشددت حرير
الفستان الرمادي الذي طوق خصرها تحت النهدين الناتنين.
لاحظ الامير ذلك والقي نظرة على ركبتيها فشعر بالالم
المعهود في الصدر. شعوره بالالم شديد وواضح. فالركبة التي
برزت صدفة قد عرت امامه كل الاغطية، ولاحت كاتيا في تصوراته
زوجة وامراة ومعشوقة. عض شفثيه اليايستين وتحرك على
امتداد الجدار.

- هل تمزحين؟ ام يتراى ذلك لي في المنام؟ - واصل
فولكوف اقناعها. فلم يكن صادف ابدأ مثل هذا القدر من المنغصات
دفعة واحدة. وخيل اليه للحظة ان هذا حلم من الاحلام، و ضرب

الارض برجله وصاح: - اجيبي يا صخرة خرساء! - الا ان البنت
ظلت صامته، فكرر الاب قوله وهو يرتعش: - اعتذري، اعتذري!
- كلا، ابداء، اموت ولا اعتذرا - قالت كاتيا بسرعة.
وانظرت الى الامير وهو يقترب ببطء فتحرك حاجباها. لم تفهم
نظرته. على اي شيء، يسلمها؟ ولماذا يقترب؟ فراحت تراقبه
حتى اشراب عنقها، ثم فهمت في الحال وترردت وجنتها ورفعت
يدها...

هرع الكسندر فاديميتش نحو ابنته كي يمسك بيدها، لكنه
افلتها فندت عنه صيحة غاضبة، اما الامير فقد اقترب منها وتمتم
بصوت مكبوت:

- يا كاتيا، ارجوك، استعطفك. لا ترفضني طلبي.
كانت عيناه جامدتين متخشبتين فظيعتين، وكان وجهه متحشفا.
وهتف فولكوف:

- الا ترين يا كاتيا؟! آه. اتركا الحماقات، يا عزيزي، وقبلا
بعضكما!

لكن كاتيا خفضت راسها ولم ترد عليه. وعندما اراد ابوها
ان يستحث الامير على التقدم نحوها تملصت وانزوت خلف السجادة
على عجل وصفقت الباب واغلقتة بالمفتاح.

- عجيب، كلا، لن تهربي! - زعق فولكوف.
مال بنقل كتفه على الباب، لكنه لم يفتح، فراح يطرق عليه
بقبضتيه، ثم استدار ورفسه بكعب حذائه.

- اتركها، لا داعي لذلك، فلنذهب، - همس الامير بانفعال
شديد. - انا اعرف بم ستجيب. فلنذهب، لوجه المسيح.

وتعين على الامير ان يبذل جهداً كبيراً في اقناع فولكوف
العنيد. واخيراً مسح هذا العرق من وجهه وقال:

- هكذا، يا اخي، ليس من اليسير تزويج البنات. تلك قضية
صعبة تجعل الانسان يتصبب عرقاً. لكنني ارجوك ان تسكت ولا
تتدخل. سادير الامر بنفسي.

عندما انتهى الطرق على الباب وخفتت الخطوات ارتمت كاتيا
على السرير وغرزت وجهها في الوسادة واحتضنتها بكلمات يديها.
- لقي ما يستحقه. حسنا فعلت، - كررت كاتيا وهي ترى

ورأت وجهها جديدا تماما في المرأة العميقة التي سلط عليها الضوء من الجانبين وهست متمعنة فيه بياس وقنوط. «ما أجملك يا كاتيا المسكينة!» وفيما بعد ظلت جالسة أمام المرأة حتى ساعة متأخرة من الليل وهي تفكر بنفسها بحزن وهدؤ وكان فرحتها في الحياة انتهت بانتهاء هذا اليوم.

القصة والنصيب

- ١ -

بقى الامير في ضيعة فولكوفو، خصصت له الغرف الامامية واحضرت حاجياته المنزلية من ضيعة في ميلويه. لازم هذه الغرف ولم يفادرها الى أي مكان. كان منذ الصباح يضطجع على الاريقة حليق الذقن، مهندها، بكامل بزته، ويقضي الوقت في التفكير وفي تفحص اظافره. وعندما يلوح من الباب رأس الكسندر فاديميتش العائد بأبناء عن سير المفاوضات مع ابنته يتظاهر الامير بالنوم.

كان الكسي بتروفيتش يدرك تماما ان بقاءه هنا، قرب كاتيا، هو ملاذ الوحيد والوسيلة الاخيرة لخلاصه. وكان يدرك أيضا ان كل يوم جديد من مكوثه في فولكوفو يزيد من الامل في موافقة كاتيا. فقد أخذت اللسن في القضاء كله تلوك نبا الصفحة ونبا ساشا وتضيف اليهما تفصيلات تجعل النساء يهربن من الغرف لدى سماعها. ثم ان هذا الوضع بدأ ملانما جدا لالكسندر فاديميتش نفسه. كان يتوجه في الصباح الى ابنته ويجلس على المقعد قرب النافذة ويقول:

- تفو. راحة المساحيق تزكم الانف. ماذا؟ تتجملين؟ - وكان يتأوه ردا على نظرة كاتيا اللامبالية. ويواصل كلامه: - لا ادري ماذا تريد هؤلاء الفتيات؟ هل تريدن ملاكا من السماء؟ لناخذ المرحومة والدتك. كانت امرأة انيقة للغاية بتربية انجليزية، لكنني الحمت عليها فتزوجتني مع انها بكت كثيرا بالفعل. تلك هي القضية يا بنتي. ستبكين قليلا، لكنك ستصبحين اميرة.

عيني الامير المتخشبتين الفظيعتين (وكان الوصادة شفافة يرى ما وراءها). كانت تخشى فهم ما قرأته فيهما فراحت تكرر تلك الكلمات الغاضبة، لكن هذه الكلمات فقدت حداثها ومغزاهما، حتى لكان غضب كاتيا كله تجسد في التلوحة البشعة من يدها التي صفعت خد الامير، فصارت تلك الصفحة عروة وثقى ربطتها به باشد من رباط الحب.

«يا الهي، امح هذا اليوم من الوجود» - راحت تكرر بانزعاج، فهي لا ترى طريقا للخلاص. لقد تهشم حقدتها وغضبها وغيرتها وارادتها السماء، كما يتهشم الزجاج، بتلك الصفحة. والآن صار في مقدور الامير، طبعاً، ان يأخذها كجارية له او يتركها، فهو الآن حر يفعل ما يشاء...

ولسعتها الذاكرة كاللهيب عندما ومضت فيها صورته وهو يشد ازرار سترته ويقترب منها قائلا. «آمل، يا عزيزتي...» - «طبعاً، كل ذلك تصنع الم يكن يتعذب آنذاك، عندما حدثني في التعريشة؟ ام انه كان يكذب؟ فهو لم يذكر ساشا آنذاك بكلمة... ثم هل هي جديدة بالحب؟!.. ليس ذلك حبا، بالطبع، بل تهتكاً فظيلاً لا يطاق! ابي كاد يخنق ساشا، وليس ذلك صدفة بالطبع». ودوى صراخ ساشا في اذني كاتيا من جديد. فجلست بسرعة على السرير. «ثم ما قيمته اذا كان يسبب مثل هذه الآلام؟ قيم، يكذب؟ ماذا يريد؟ ماذا يريد من تلك ومن ساشا ومني؟.. من يحب منا؟ ما حاجته الي؟ هناك حاجة اذن، اليس كذلك؟ هل هو غريب علي؟ الم يحبني اطلاقاً؟ ما العمل؟ اعرف بانه سيبقي مصراً، وساتزوجه، انا اعرف ذلك. نعم، ساتزوجه، اتزوجه رغم انف الجميع، اتزوجه وآخذ تاري، حتى لا يتجرا على المقارنة بيني وبين هذه وتلك... ساتحمل الآلام عمداً. حب فاشل، فلا داعي له... لا اريد أي حب». دلت كاتيا ساقها بجواربها البيض من السرير واسندت خديها بيديها فتساقطت دموع غزيرة على فستانها وعلى ركبتيها. واحست بشدة اكثر ان لا مخرج لها الآن ولا حياة. كادت تصرخ لكنها كتمت صراخها وراحت تنتحب بحرقة ومرارة.

واخيراً روح البكاء الطويل عنها. ففتحت ببطء ازرار فستانها المدعوك وهي لا تزال تتأوه واقتربت من المرأة وكتفها تنتفضان.

اعتاد الناس من قديم الزمان على تناول «الطرشي» بعد
الولائم.

الا ان اي طبق من هذا النوع ما كان يوسعه ان يطفىء اوار
وليمة الزفاف في ضيعة فولكوفو، حيث اجتمع كل اهالي القضاء
تقريبا. تقاطرت العربات من كل شاكلة وطراز وهي تنهب دروب
القرى وطرق البريد كما لو كانت مسرعة الى سوق حافلة بالمرح
والمسررات. من اين للقضاء، يا ترى، بهذا العدد الكبير من النبلاء؟
لم تتسع كنيسة كوليغان الصغيرة الا للشيوخ والعجائز
والسيدات والبنات. اما سائر الضيوف فقد توزعوا على جانبي
مدخل الكنيسة حاملين الزهور والهرطمان لينثروها على
الامير والاميرة.

كان الاب فاسيلي في غفارة مذهبة يرتل الكلام بصوت معسول،
بينما وقف العروسان جنبا الى جنب على منديل ارجواني، وحل
الايقونة قريبا غلام بقميص ازرق. وسرت بين السيدات همهمة
ولغظ خافت. وكانت كاتيا، والشمعة بيدها، تتطلع الى اللهيپ
يرزاة واطمئنان. وهمست السيدات: - ما اروعا! ملاك!

وبدا الامير الشاحب قمينا في البدة السوداء الطويلة، ولاح
عليه امارات الجد وهو يؤدي مراسيم القران بكل اهتمام.

عندما قدم له القس كأس النبيذ لمس حافتها بشفته، بينما
تجرعت كاتيا الكأس حتى الثمالة، دفعة واحدة، وكان العطش الم
بها وانشد الكورس «ابتهج يا اشعيا»، واخذ القس يد العريس
ويد العروس وربط بينهما. دفعت كاتيا بركبها ثوب الحرير
ومضت بسرعة حول المقرأ وهي تجرر اطراف ثوبها، وجهد الامير
للحاق بها فانتبه الجميع الى انه يعرج بشكل ملحوظ تماما.

وتوصلت السيدات الى استنتاج قاطع:

- كلا، انه ضئيل بالمقارنة معها.

تحرك الركب والعروسان في مقدمته من الكنيسة الى فولكوفو.
وعندما خرجوا من قرية كوليغان رأت كاتيا الدكتور زابوتكين يتسلق
السياج ويلوح لها بمنديل. فاشاحت بوجهها على عجل.

كان يترك ابنته ويتوجه الى الكسي بتروفيتش ويجلس على
الاريكة قرب رجله، اذا لم يكن هذا يتظاهر بالنوم، ويهزه من
ركبته قائلا:

- مقاومتها تضعف. شيطانة، والحق يقال. لماذا افطرت
بالتهتك؟! طالما اخطات كان يجب عليك ان تصمت. الشيء
الوحيد الذي لا افهمه هو لماذا لم تخطبها حتى الآن؟ لو فعلت
لعقدنا القران حتى تتمكننا من السفر الى الخارج.

- حقا، انا ايضا لا افهم لماذا لم اخطبها سابقا؟ - كان الامير
يجيب، ثم يضحك مع نفسه بعد ذهاب فولكوف.

جرى اللقاء الاول بين الخطيبين على مصطبة في البستان. جاء
فولكوف بالامير في البداية، ثم جاء بكاتيا، وهتف: اودا،
العجول دخلت توت العليق»، وانصرف راكضا كأنما ليطرده
العجول.

ظل الامير وكاتيا صامتين امدأ طويلا. فهي تعبت باطراف
منديلها، بينما انشغل هو بالتدخين. واخيرا التى بالسيجارة
واشاح بوجهه وقال:

- لو رضيت بي طائعة واجيتني من تلقاء نفسك لما
تزوجتك. - بهت لون كاتيا وشحب وجهها وتشوشت اهداب
المنديل بين اصابعها المضطربة. ظلت صامتة.

وقال الامير بصوت خافت كئيب.

- فلننه المسالة، ونعقد القران.

طغت صبغة الخجل والغضب على وجنتي كاتيا، فاستدارت نحوه
بحدة وصرخت فيه:

- اكرهك! انت تعذبني! تقتلني عمدا! الم تجد غيري في
هذه الدنيا؟

- كاتيا، انت ذكية جدا، ويجب ان تفهمي كل شيء -
قاطعها الامير على عجل - هل نعقد القران في الاسبوع
القادم؟

- نعم، - اجابت بصوت يكاد لا يسمع ونهضت. وقفت لحظة
ثم مضت - لا تلوي على شيء.

في انصالة الكبرى استقبال الكسندر فاديميتش العروسين
بايقوه قديمة عليها وجه المخلص. باركهما وامر باحضار المهر
على مرأى من الضيوف. جلب اربعة فتیان يرتدون قمصانا حمراء
قانية صينية فضية كبيرة عليها قطع نقدية ذهبية مرصوفة بشكل
اعمدة. وقال فولكوف:

- هذا ما لدينا، فلا تعتب علينا يا امير.

وبعد التبريك مضى الامير والاميرة الى بايين مختلفين
واستبدلا ملابسهما هناك، ثم التقيا في البستان وجلسا على ضفة
البركة حتى تم تجهيز عربتهما. هرع بعض الضيوف متزاحمين من
داخل المنزل واشرايت اعناق البعض الآخر من النوافذ وودعوا
العروسين بصيحات وهتافات صاخبة وترقرقت الدموع في عيني
فولكوف. استمرت الوليمة حتى الغروب. وفي الصالة المجاورة
التي حوت فيها كاتيا قبل شهر في ضوء القمر تعالت انغام
الموسيقى في الغسق...

الا ان عدد الرجال القادرين على تحريك سيقانهم تضائل
تماما. واضطرت الفتيات الى الرقص مع بعضهم البعض. وانزوى
المنكثون في غرفة التدخين وتعالق قهقهتهم هناك. وجلس الشيوخ
والعجائز الى مائدة القمار الخضراء. وعند منتصف الليل تعب
قائد جوقة الموسيقيين من التلويح بعصاه حتى تارجح وهوى على
الطبل وتشبث به فتدحرج معه كالجثة الهامدة.

وبذلك انتهى الرقص. وارتحلت السيدات مع بناتهن، بينما
ظل الشبان والازواج (بدون زوجاتهم) ليبيتوا الليل في الضيعة.
لكنهم لم يعرفوا للنوم سبيلا حتى الصباح، بعضهم صرف الوقت
في لعب الورق، وبعضهم اخذ يجوب المنزل في هرج ومرج. وفي
البستان استعرض الاخوان وتيشيف عضلاتهما، ولم يعد الكسندر
فاديميتش يعرف ما يتعين عليه ان يفعل، فراح تارة يفصل بين
الاخرين الهانجين وتارة يجلس الى مائدة القمار ويتطلع سدى
الى ورق اللعب والشموع ويستعيد على الدوام شيئا ما من
الذاكرة.

ولم يهدى عربدة الضيوف لا بزوغ الفجر الشاحب ولا نهار
يوليو القانظ. ولم يغادر آخرهم منزل فولكوف الا في اليوم

الثالث، حيث ركبوا عرباتهم بجيادها المتكاسلة وانطلقوا بها دون ان
يميزوا الدروب والطرقات، وراحت نواقيسها المجلجلة تثير
رعب الفلاحين الذين يخلعون قبعاتهم ويشيعون كل عربة بنظرات
طويلة ويقولون:

- يا له من شيطان عجول!

- ٣ -

تسلق الدكتور زابوتكين السياج وظل يلوح بالمنديل
مشيعا ركب العروسين وانطبعت على وجهه امارات الارتياح
الصادق لان الامور سارت في آخر المطاف كما يرام. عاش الطبيب
كل تلك الفترة عيشة الحنان والرضا من نفسه ومن الآخرين.
تحسس هذه الحالة النفسية منذ ان نقل ساشا الى كوخ البستاني
ووضعها على السرير الخشبي وظل جالسا لوحده قرب هذه المرأة
الشابة النائمة. كان البصيص المنبعث من ذبالة شمعة في قنينة
وضعت على اليرميل ينير جدران الكوخ الخشبية وبيوت العناكب
في اركانها والنافذة المحطمة التي يغطيها لبلاب صقيل قاتم، كما
ينير ساشا الراقدة تحت معطف فرائي قصير بين الفرن والجدار،
وهي ترتعش احيانا وتسحب المعطف لتتدثر به جيدا فتتكشف
ساقها العاريتان او يزاح طرف المعطف، وعند ذاك ينهض الطبيب
ليعدل لها وضعيته بكل حرص وعناية. كان ينحني عليها ويتفرس
في وجهها طويلا. وهو وجه مطواع حتى في النوم، وخيل اليه انه
راى واحب في زمن ما هذه القسمات الواضحة العزيزة على
القلب. وشعر بالاطمئنان وانحسرت كل احداث هذا اليوم الى
خانة بعيدة في الذاكرة، وضحى من الغريب التفكير الآن بعالم آخر
غير هذا الكوخ البالي وساشا النائمة فيه.

كان يعاود الجلوس قرب الذبالة ويحجب الضوء براحته
وينصت الى ساشا وهي تتنفس او يستمع الى تملل طير
يستيقظ بين الشجيرات، او الى اوراق الحور الرجراج التي
تبعث حفيفا غير متوقع. وكان النسيم يهب من النافذة فيضطرب
لهيب الذبالة، وعندذاك يبدو وجه ساشا متجهما في الظلال

المنزلة على موقى العينين. ويخيل للطبيب انه ملزم بحب هذا الهدوء الذي ينطوي على مغزى سحري خفي، وان عليه أن يصبح هادئا رقيقا مثل الظلال على وجه ساشا.

وفكر غريغوري ايفانوفيتش: «يبدو ان ياسها والمها شديدان جدا طالما هرعت، دون ان تتشكى، والقت بنفسها في البركة لتواجه النهاية بأسرع ما يمكن. فمن انا، ياترى، بالمقارنة مع هذه الآلام؟ مجرد بعوضة تافهة. كيف تطاولت على اناس اثرياء سعداء حتى التخمة؟ كيف جئت اليهم بسحنتى المحقنة وكبريائى الفارغة؟.. شيء مقرف للغاية! اما هي فسوف تستيقظ وتسالنى: كيف يمكن العيش الآن؟ فبم اجيب؟ ساكون عبدا لك طول العمر. هذا ما ينبغي ان اجيب به. تلك هي المسألة اذن بسيطة واضحة. امامك واجب في الحياة: اخدم هذه المرأة، ابذل جهدك لتجعلها تنسى...»

لم ينتبه غريغوري ايفانوفيتش الى نفسه ولم يلاحظ انه يفكر بكلام مسموع. تلملمت ساشا فالتفت وراها تتطلع اليه بعينين سوداوين واسعتين. فهل ارتعبت من هذه التمتمة يا ترى؟ ام انها تذكرت ما حدث لها قبل حين؟ او انها لا تزال ضعيفة جدا؟ وعلى اية حال فقد ننت ساقيا وسحبت المعطف حتى الحنك وند عنها انين.

جلس الطبيب قرب رأسها في الحال ومسد شعرها وحدتها بكل ما كان يفكر به.

- سيدي العزيز، الافضل ان تتركنى. لست بحاجة لشيء، وانا ممتنة لك كل الامتنان، - اجابته ساشا وانتحبت، وبكى غريغوري ايفانوفيتش ايضا. بكت هي بلوعة ومرارة، وبكى هو عطفًا عليها.

قضت ساشا الايام الاولى بعد عودتها الى الخان، وكانها نسيت كل شيء. كان الطبيب يتردد عليها يوميا ويسألها هل هي بحاجة الى مساعدة منه، ثم يجلس على درجات المدخل ليذخن سيجارة. اما ساشا فتقول له عندما تمر قربه: «ادخل الغرفة يا غريغوري ايفانوفيتش، والا ستأكلك البراغيث». كانت آنذاك

تمارس على الدوام شؤون الحوش والمنزل. وذات مرة وجد الطبيب ساشا قرب سياج الحديقة. كانت تتطلع الى السهب شاردة البال ووجهها ساكن وعيناها كئيبتان وعلى رأسها منديل اسود. وقالت:

- اريد ان ارحل، لم اعد اتحمل.

عندذاك احس الطبيب بان حياته فقدت مغزاها. فحزن اشد الحزن وحار في امره فلم يستطع الا ان تتمم:

- ساشا، اذا كنت لا تنفرين منى كثيرا فاقبلي بي زوجا. ساشا تتذكر بغموض ما حدثها به الطبيب في تلك الليلة، واتضح لها الآن «انه تعيس». اسفت له واحست فجأة بالعطف عليه كطفل صغير.

اخذت تتردد على منزل الطبيب كل يوم. غسلت ارضية المنزل والنوافذ والابواب، وصارت ترتق له الشراشف والبياضات واصلحت بنفسها فرن الحمام المتداعى على الشاطئ المنحدر. سخنت الحمام وطلبت من غريغوري ايفانوفيتش ان يستحم. وعندما عاد دافئا متعبا سعيدا كانت ساشا تنتظره والسماور يغلي والارضية مفسولة والمنزل نظيف يفوح فيه عطر القصعين ورائحة الشمعة المشتعلة في الركن.

لكن ساشا عزت رأسها عندما شرع يتكلم عن الزفاف، وقالت:

- لا داعي لذلك يا غريغوري ايفانوفيتش، حرام، حرام.

وفيما بعد لاحظت ان نومه ساء، وانه متالم، يرتجف حالما تلمسه صدفة. فوافقت على الزواج.

بكت وانتحبت حتى كاد رأسها يتفطر الماء، ومع ذلك وافقت. فلا احد، على ما يبدو، يقادر على مقاومة النزعة الانسانية. وافر الصيف عقد الاب فاسيلي قرانها وهو راض كل الرضا. وفي حفلة الزفاف احتسى ثلاثة اقداح، بل وادى رقصة شعبية: كان الطبيب يصفق له، بينما راح الاب فاسيلي يطبطب بقدميه وينشد: «ارقصي يا دار، ارقصي يا نار».

بحفلتي الزفاف انتهى الصيف على نحو موفق حسب الظاهر.
اقام غريغوري ايفانوفيتش مع ساشا في منزله منتظراً انتهاء
بناء مستشفى الناحية.

اجرت ساشا الخان لشخص آخر وكرست كل اوقاتها لزوجها
جاهدة ان تفهمه وترضيه ولا تستثيره بمظهرها القروي ومع ان
اهالي القرية صاروا في الحال يسمونها «عقيلة الدكتور»، فقد
ظلت ترتدي المنديل وفساتين الشيت القاتمة. فهم غريغوري
ايفانوفيتش ذلك ولم يلحف عليها بالتبديل. كان يقرأ عليها
شيئا ما كل يوم ويحاول ان لا يخفي عليها اية قضية واية فكرة.
لقد بذل جهده ليكونا جناحين لطير واحد.

اما الاميرة والامير كراسنوبولسكي فكانا يتجولان في اوربا
ويبعثان بطاقات البريد من مختلف المدن، الامر الذي ادهش
فولكوف القليل المعرفة في الجغرافية. بالامس، مثلا، وصلت رسالة
من ايطاليا، واليوم من فرنسا. وقال فولكوف لكوندراتي: «يقفزان
كالبراغيث»، فاجاب كوندراتي معبرا عن احترامه للاميرة والامير:
«تس...».

بعد ان فرغ فولكوف من مشاغل الحصاد شرع بترميم دار
الامير في ضيعة ميلويه. انهك عدد من عمال الطلاء والملاط
ولصق ورق الجدران والنجارين بضرب المطارق في الصالات
العالية السقوف، وفاحت في كل مكان رائحة الصمغ والجير
ونشارة الخشب. كان فولكوف نفسه يأتي الى ضيعة الامير منذ
الصباح، ويطلق صيحات عالية بغية احلال النظام، حتى نعته
العمال «بالمدفعي» دون ان يخشوا شيئا على الاطلاق.

في اواخر سبتمبر، حيث ينتعش القضاء كله بافتتاح سوق
الخيال المركزية وتبدأ الحفلات الساهرة ورحلات الصيد وولائم
الزفاف، انجز الكسندر فاديميتش بسرعة اعمال الترميم في
مليويه واخذ ينتظر العروسين. وفجأة توقفت الرسائل من الخارج.
فكر فولكوف: «ربما ارتحلا الى امريكا». وبعد بضعة ايام استلم
البرقية التالية: «انا عائدة. كاتيا».

اضطرب فولكوف اشد الاضطراب وانتقى ثلاثة من افضل
الجياد البيضاء كالتلج (هدية منه للعروسين بمناسبة العودة)
وظل مترددا امدأ طويلا، فقد كان راغيا جدا في الذهاب بنفسه
الى محطة القطار لاستقبالهما، لكنه عدل عن ذلك واوصى الحوذي
قائلا بلهجة صارمة وهو ينقر باصبعه على جبهة هذا الاخير: «خذ
بالك. اسرع بكل ما تستطيع، وحالما توصل الامير والاميرة الى
منزلهما عد باقصى السرعة. ولا تنس ان تقول لهما ان هذه
الخيول هدية مني». ولكن حالما اختفت الجياد وراء الهضبة اكتأب
فولكوف وجلس قرب النافذة محزونا. فقد شعر بالاسف لابنته؛
زوجتها بلا تفكير، بينما هي بنت طيبة طيبة يتيمة... اغواني
الشياطان آنذاك. يا الهي، واضح ان الامور ليست على ما يرام...
ما كان يجب ان ازوجها من هذا الرجل...»

في المساء عاد الحوذي على ظهر حصان من اسطبل الامير.
قفز حالما وصل المدخل ومضى مباشرة الى فولكوف الذي كان
راسه يهتز من شدة الانفعال:

- ماذا؟ هل اوصلتهما؟
- نعم يا الكسندر فاديميتش، بالسلامة والحمد لله.
- هل وصلا مسرورين؟
- لا بأس، والحمد لله...
- والامير، كيف حاله؟
- اعتقد اني لم اراه...
- كيف لم تراه؟ لماذا انت صامت؟! اجب والا قطعت رقبتك!
- الامير لم يعد. اوصلت الاميرة وحدها.
- فغر فولكوف فاه دون ان يتزحزح من مقعده. ودخل كوندراتي
حاملا الشموع. فحول فولكوف بصره اليه وقال:
- مصيبة يا كوندراتي ايفانوفيتش...
- ماذا حدث؟
- اذهب الان الى هناك واستفسر بنفسك... آه، يا الهي،
حدث ما كنت اتوقعه واخشاه...

عادت كاتيا فعلا بدون زوجها. استقبلها وكيل الضيعة، فتوجهت الى الصالة وخلعت معطف السفر والقبعة والوشاح، وظلت واقفة عند النافذة تتطلع طويلا الى المنتزه والى نهر الفولغا في الاسفل والى المروج فيما وراء النهر. ظلت واقفة وقتا طويلا، ثم تنهدت والتفتت الى الوكيل الذي كان ينتظر بمهابة وقد شد جاكيتة الازرق بقدر المستطاع على بطنه المترهل كيلا يقذي العيون.

- سيعود الامير بعد فترة، - دمدمت كاتيا غابسة - تاخر لاداء بعض الاعمال. فقدم تقريرك بخصوص المزرعة والمنزل الي، ارني كل السجلات...
وسالها الوكيل:

- هل ترغبين، يا صاحبة المعالي، في تفقد المنزل اولا ام ينبغي لي ان احضر السجلات؟

- كلا، السجلات فيما بعد. - قالت ومضت تتفقد جميع الغرف والصالات مستفسرة عن مكتب الامير وغرفة نومه وغرفة الاستراحة المحببة اليه...

الصالات في الدور الارضي باردة عالية السقف. صعدت كاتيا الى الدور الاول لتتفقد غرف الامير، لكنها اكتفت بالقاء نظرة خاطفة عليها، وامرت بغلق جميع الغرف السفلية والعلوية، ما عدا صالة الطعام، حتى الربيع، واختارت لنفسها صالة بنوافذ ملونة وفيها بيانو والى جانبها غرفة صغيرة بيضاء تماما. واعدوا لها سريرا وغسالا قرب مدفأة حجرية مزخرفة اسطوانية الشكل كالبرج...

عندما انصرف الوكيل والصريير ينيعث من جزمته عادت كاتيا الى الصالة وجلست الى منضدة صغيرة وراء الاعمدة واستندت بكوعيا على سطحها الصقيل كالمراة (فانعكست عليه يداها الجميلتان بردنين ضيقين حتى المرفق) ولمست وجنتها باصابعها المتشابكة وراحت تتطلع من جديد الى المنتزه والنهر والمروج. غدا وجهها نحىلا واسود شعرها الوفير المصفوف بتقلية

تاجية حول الراس. وبدا فستان السفر القاتم المزين بالدانتيل حول العنق رزيننا دافنا كما تعودت المراة التي لا تسمح لنفسها لا بحركة طائشة ولا بفكرة خطيرة اذا كان ذلك يعكر صفوها وهدهوها.

اشجار البستان وراء النافذة زاوية بدأت اوراقها تتساقط. بين صفوف الشوح القاتمة تنموج برقة اشجار البتولا باوراقها المخدخلة الصفراء واغصانها الرفيعة المتدللية التي تلوح من خلالها السماء. وامتدت اغصان القيقب العتيق في الفسحة العريضة وبدت كقوائم الوحوش، واكتست الشجرة كلها بلون ارجواني صارخ كما لو كانت ستغطف، متجهمة، في سبات عميق. وكانت اشجار اليزفون لا تزال خضراء، لكن اشجار الحور العالية نزعت اوراقها تماما، فاستقرت تلك الاوراق البرنزية على الماشي وعلى الاعشاب المحشوشة. تطلعت كاتيا الى هذا الذبول العام والى عبارة تزحف على النهر الازرق في الاسفل وفكرت بان هدهوا طويلا، طويلا جدا، سيحل.

استقر رايها نهائيا على عدم تذكر الاشهر الثلاثة الماضية. صممت على حبسها في صندوق مقفل، وقررت ان تعيش حياة رشيدة صارمة.

تنشقت روائح الذبول مع الهواء الذي تسرب من النافذة المواربة، واحست بقطرة ساخنة سقطت على وجنتها. وقالت:
- لا داعي للبكاء. طالما عزمتم فلا مجال للتراجع.

التفتت بسرعة وهي تبحث عن المنديل، ثم نهضت واخذت حقيبتها واخرجت منها المنديل ومسحت عينها وصبت عطرا على اصبعها ورطبت صدغها ودقت الجرس، فدخل الوصيف. طلبت منه ان يجلب لها ملف الاوراق من حقيبة العفش.

حل الغسق. وهو ما تخشاه كاتيا اكثر من سواه. وقفت وظهرها الى النافذة تنتظر متى يشعلون الشموع. احضر الوصيف الملف المصنوع من جلد احمر فاخر، ثم صعد على الكرسي واخذ يشعل الشموع الواحدة تلو الاخرى في الشريا المعلقة فوق الطاولة.

وفي الحال غمر الضوء السقف المزخرف والجدران البيضاء

والقى ظللا مائلة الى الزرقة وراء الاعمدة وانا بلع دافىء
الطلاء الذهبي على تعاريجها.

جلست كاتيا الى الطاولة الكبيرة وفكرت قليلا ثم كتبت:
«الكسي، انا اسامحك. فكرت مليا طول الطريق وقررت بان
نعيش معا، فهذا ضروري من اجل استقرارى وهدوئى. سنعيش
كصديقين، كاخ مع اخته».

قرأت ما كتبتة وطرقت بكعب حذائها على الارضية الخشبية
ورفعت الورقة المشخشة كي تمزقها، لكنها عدلت عن رايها
ودستها في الطرف.

في تلك الاثناء فتح باب البلوط العالي ببطء ولاح بين دفتيه
وجه متغضن حليق. وهتفت كاتيا:

- كوندراتي!

هرع اليها مكفكفا دموعه ومال على كتفها.

فاخذت كاتيا رأس العجوز من صدغيه وقبلته قائلة:

- اهلا بك. كيف حالكم يا عزيزي؟ وبأبأ؟

- يا كاتيا الحبيبة، اوحشتنا. كيف تكون حال العجوزين
بغيا بك؟ نفكر فيك طول الوقت.

- صحيح؟ هذا ما تصورته. طبعاً، كان يجب ان اذهب الى
بأبأ رأساً، وليس الى هنا. لكن الامر صعب علي جداً يا كوندراتي.

- والامير العزيز، اين هو؟ - سال كوندراتي هامساً.

- لا ادري، يا كوندراتي، لا ادري. استولى الحقد على بعض
الشيء.

اخرجت المنديل من الحقيبة مجدداً وانتحيت. داعب كوندراتي
شعرها وهو يتفرس في وجهها. فقالت له.

- هجرني، يا كوندراتي.

- يا الهي!..

عندما هدأت بعض الشيء حدثته بكل ما جرى. غرق كوندراتي
في صمت طويل وشفتاه ترتعشان، ثم قال وهو يقضم اصبعه.

- ها هو على حقيقته اذن! كلا، يا عزيزتي، لن نسكت عنه.
لم ترغب كاتيا في قضاء الليل في منزل الامير، فوصلت مع
كوندراتي الى ضيعة ابوها عند منتصف الليل. انفلتت كاتيا منذ

ان وصلت السد وتنشقت روائح البرك واعشاش الزيفان التي
تعودت عليها. وانا مصباحا العربية القنطرة على الساقية، ثم ركن
العنبر قرب المدخل الذي بدا لها صغيراً ضيقاً. كانت النافذتان
الاولى والثانية مضيئتين، فلمحت كاتيا في احدهما رأس ابوها
منحنياً.

- خذ بالك، لا تخبره بشيء، هل انت فاهم؟ - همست على
عجل وهي تسحب رذن كوندراتي.

- ٦ -

هرع الكسندر فاديميتش مسكاً بردائه لاستقبال ابنته في
المدخل، وعندما سألتها: «يا بنتي، يا فرحتي، ماذا حدث؟» كذبت

عليه وقالت ان الامير تخلف في بطرسبورغ لامر لا يقبل التأجيل.
صدقتها فولكوف، فهو انسان لا يعرف الريبة ولا يفهم تحايل

الآخرين. ثم انه لم يسأل عن تفاصيل القضية التي جعلت الامير
يتخلف عن المجيء. فتلك امور لا تخص فولكوف نفسه، ولا يعرفها

الا الله، ولو سأل عنها لربما وقع في ورطة كما تقع الحشرة
في بيت العنكبوت.

خاطب ابنته في الحال «بالاميرة العزيزة» ورافقها الى غرفة
الطعام الصغيرة، حيث ينفث سماور ضخماً بخاره حتى السقف.

- ما احلاك، انت، والله، بنت من ارومة اصيلة، - قال
الكسندر فاديميتش وادار ابنته من كتفها. وصب لها الشاي

بنفسه وعرض عليها مختلف المأكولات.
كادت الدموع تترقق في عيني كاتيا، لكنها حبستها بان

ضيقت جفونها بشدة. وقال الاب:

- استولت على الكتابة طول الوقت لغيا بك. فانا لم اعود
على البقاء وحيداً... لم اتردد على احد حتى زعلوا مني جميعاً.

ثم حدثت مصيبة اشترت آلة بخارية، وسحبناها عبر جسر كوليغان،
لكنه لم يتحمل فانخسف بها، ولا تزال مدخنتها بارزة من تحت الماء

حتى الآن. ولكن حدثيني انت يا عزيزتي، كيف كانت رحلتك؟
لقد نعتكما بالبراعيث. والامير؟ آ، نسيت. ماذا؟ هل ستنامين على

سريرك السابق؟ اظنك تعبانة بعد السفر اليس كذلك؟ والله ،
يا كاتيا، انا مسرور جداً لرؤيتك.

بعد احتساء الشاي اقتاد فولكوف ابنته الى غرفة صباها وهو
يثرثر منفعلا. واخذت الكآبة تنتاب كاتيا بعد ان كانت فرحة جدا
في الطريق. فان اباما وكلماته وكل ما حواليا بدا لها كالحا
كابيا. فاما انها تعودت على حياة اخرى، واما انها خرجت عن
ذلك العمر. وعندما تمتن لابيها نوما هادئا وهي تقف عند الباب
المغطى بالسجادة ادركت تماما انها وحيدة ولا احد ينقذها من
وحدتها القاتلة.

لم تطرا على الغرفة اية تغيرات. انتفض قلب كاتيا بشدة
عندما دخلت الغرفة ورات مستلزمات الزينة والمقاعد والسريير
من خشب بتولا كاريليا، وحتى خفها لا يزال على السجادة. وبدلا
من الارتياح السابق ورائحة العطور وطراوة الماء المنسكب اكنفت
منكبها قشعريرة موات عندما خلعت فستانها وجلست على
السريير وراحت تتطلع في النافذة المعتمة.

خيل اليها ان فتاة اخرى مرحة عذراء عاشت هنا، وماتت،
فشعرت بالاسف الشديد عليها. وتذكرت اباما بشكل يثير الشفقة
ايضا. فقد حاول قدر المستطاع ان يرضيها، وثرثر مضطربا عن
صغائر الامور، لكنها اغاظته، على ما يبدو، بلامبالاتها وذهابها
للنوم في ساعة مبكرة، فلم تقبله، ولعله يتنهى الآن في مكتبه.
نهضت كاتيا وهمت بالذهاب الى ابيها لتقول له انها تحبه
حيا جما وانها نفسها بحاجة الى الملاطفة والحنان. لكنها هزت
راسها ثم رقدت تحت الشراشف الندية.

وفكرت. «ليس عندي اخت مع الاسف. والا لمنت معها الآن
وقبلت شعرها الناعم واوضحت لها» ان الحياة عسيرة جداً، جداً،
على المرأة».

قضت كل الايام التالية في كآبة وادعة هادئة. كانت تسير
في المنزل ببطء، وتان وتستمع باسمه الى ابيها وقد عاد اليه
بعض من مرحة وعرض عليها الرسائل واليوميات التي يراجعها
(وتلك هواية جديدة من هواياته الغريبة). كانت تجلس على
مصطبة في البستان وترفع راسها وتتطلع الى ورقة ذابلة تعلقت

بسنسج عنكبوت وراحت تتأرجح عليه دون ان تسقط. وبدت
الاشجار مسبوكة من الذهب على خلفية السماء الزرقاء الداكنة،
كما يحدث عادة في ايام الصحو الدافئة النادرة في بداية الخريف.
وبعد ذلك ارتحلت الى ضيعة ميلويه. فقد كان صعبا عليها ان
تخفي الحقيقة عن ابيها. انقضى الوقت بشكل رتيب لا يعكسه شيء.
واستعد الاقطاعيون لزيارة الاميرة الشابة، فقيل لهم بانها مريضة.
زعل الاقطاعيون. بينما اخذ سوروبا يروج مختلف الاشاعات
خفية.

-٧-

كانت كاتيا تنتظر جوابا من زوجها. وكيفا تفكر به ولا تضجر
كثيرا، اخذت تتردد على مرافق الضيعة كل يوم في معظم مخملي
مذيل بفرو رمادي.

زحف الخريف. في الصباح يتساقط ندى متجمد على الاعشاب
الذاوية ويجعل خضرتها رمادية اللون. ويظل هذا الندى امدأ
طويلا على السطوح وعلى درابزونات الشرفة وعلى اوراق
الاشجار وعند البئر التي يستقون منها بدلاء خشبية غميقة، ماء
باردا جدا تفوح منه رائحة الطين والطحالب.

كانت كاتيا تعرج على الاسطبل كل صباح فيرد السواس على
اسئلتها بمرح ويبتسمون لها كما لو كانت بنتا صغيرة. وعندما
يراهم الوكيل في الحوش ينحني باحترام من بعيد ويمضي مهموما
الى العنبر، مثلا، والمفاتيح تجلجل في يده. (لقد كرهته كاتيا،
بينما حمل هو غيظا عليها لانها لم تدعه الى مائدتها). وبعد ان
تسال كاتيا الراعي عن الغنم وعما اذا اختطف الذئب واحدة منها
ليلة البارحة تلقى نظرة على حظيرة الماشية وارضاها المغظاة بالسرقين
والروث. وكانت الحالبة تجلس على مصطبة واطنة وتحلب احدى
البقرات فيشخب اللبن ساخنا في وعاء معدني، ثم تترك حلمات الضرع
وتمسح فمها وتحني راسها تحية لسيدتها. ذات مرة سالت الحالبة من
كاتيا عن عمرها وخاطبتها قائلة. انت. انت. يا آنسة، كالشجرة الريانة.
وفي الحوش، قرب جناح الخدم، انهمكت ثمان من خادمت
المياومة بفرم الملفوف في طست خشبي مستطيل. واستمر قرع

السكاكين بشدة طوال النهار. كانت رؤوس الملفوف ملقاة على سفرة، بينما جلس القرفصاء قربها صبيان قدران يقضمان باسنانهما الحادة سيقان الملفوف الباردة.

لمحت الخادemat السيدة قادمة فالتفتن نحوها بخدودهن الموردة وصدرت عنهن همهمة. تطلعت كاتيا في الطست الذي تفوح منه رائحة الملفوف العسلي والثوم وسالت هؤلاء الفتيات المكتنزات هل فرمن الكثير ثم ابتسمت لهن قائلة:

- كلكن غير متزوجات، اليس كذلك؟

- كلنا، ما عدا فروسكا الحولاء، فهي ستتزوج قريبا. لكن كل العريسين هربوا، فهم يخافون ان لا ترى زوجها في الظلام بعينها الحولاء.

وتعالت فقهتهن على فروسكا الدميمة. وبعد ان ابتعدت كاتيا عنهن فكرت بحزن بانها ستقضي هذا اليوم ايضا وحيدة.

وفي البيت تجوب الغرفة جيئة وذهابا وقد شبكت يديها وراء ظهرها، او تجلس قرب المدفأة وتلامس بظهرها وقفها قرميدها الدافئ وتطلع في النافذة الى السماء التي تسبح فيها غيوم محملة بالثلوج قادمة من الشمال.

سقط الثلج دفعة واحدة. ففي الصباح التالي غطى كل الاعشاب ومصاطب البستان وارتفع كالوسائد على القرم والجذامير. ورادت الاشجار حلة من الندى المتجمد الناصع. وانسكب على الفرف العالية السقوف ضوء ابيض بارد كالحليب. وسخت الافران والمدافئ. وفرشت البسط على الارضية، وتركت جزمات اللباد آثارا على الثلج امام الباب الخارجى.

افاقت كاتيا في ذلك الصباح وفرحت اشد الفرح لهذا الضوء الصافي، وللثلج على النافذة، وللنار المشتعلة في المدفأة، فاسرعت في ارتداء معطف الفرو وجزمة اللباد وخرجت راکضة من الباب الزجاجي الى البستان.

قرصها الصقيع من وجنتيها. وخلفت الجزمة آثارا عميقة على الثلج تعرت فيها الاعشاب المتجمدة. والتقطت كاتيا حفنة من الثلج وضحكت.

- ما اروعه، يا الهى، ما اروعه!

واوحى لها هذا الثلج، والاشجار المرحة البيضاء التي تلوح قممها الساكنة المكسوة بالثلج والمغمورة بضوء الشمس من وراء السفوح، ان المصيبة ستمر بسلام.

وكما كانت سابقا، في ضيعتها، لملمت اذيال معطفها وتنورتها واختارت موضعا امنس وانزلت على المنحدر الثلجي الى النهر. ارادت ان تتسلق المنحدر من جديد وهي تضحك لكن ضحكها تحولت الى لهاث واقتربت من النهر. الضفاف متجلدة تماما. وما بعدها، على امتداد النهر كله، قطع جليدية رمادية بلون الرصاص، تجرى مزبدة مخشخشة. ارتجفت كاتيا من البرد وجلست تحت شجرة ووجهها الى النهر. ثم نبج كلب في الاعالي. وسمعت صوت الرصيف يدعوها لتناول الطعام.

على اثر النباح فر ارنب من بين الشجيرات على مقربة منها. فضحكت من جديد وهي ترى الكلب ينداح من التلة، كشليمة، ويلحق الارنب الرعيد.

كل شيء في هذا النهار يفرح كاتيا، وهي تنتظر وصول ابيا في اول طريق يشق على الثلج. الا انه لم يصل، فتعين عليها ان تقضي المساء وحيدة في مقعد قرب المدفأة.

وشعرت كاتيا بقشعريرة ربما كان سببها الدوار الذي الم بها في الصقيع او شدة تسخين المدفأة دبت تلك القشعريرة في بدنها بعد ان سرت من القفا الى الظهر... غرزت كاتيا نفسها في اعماق المقعد واتقدت وجنتاها. ووضعت ساقا على ساق وهي تبتسم وتطلع الى اللهب... تذكرت الكسي بتروفيتش عندما قبلها لاول مرة (في موسكو)، وكان شاحبا عنيدا، وقال لها كلمات لا داعي للتفكير فيها الآن بالطبع، في وحدتها القاتلة.

انتبهت كاتيا الى نفسها وهمت بالنهوض، لكن الخدر استولى عليها وقيد حركاتها، فانسأقت للذكريات وكان شخصا اخذ يفتح الضوء امامها ويحجبه ليعرض عليها صورا مختلفة. تلاحقت الذكريات والروائح التي تثير الانفعالات، عاد الى الذاكرة كل ما كانت تكتبه في دخيلتها امداء طويلا بالترويض الصارم. اغلقت عينيا بشدة ووضعت يدها على صدرها، فلسعته الاحلام كالزوبعة واغشت بصرها.

حل الشتاء الحقيقي واخذت الزوابع الثلجية تعصف بالنهر المتجلد وتلوي اشجار الصنفاص العارية وترغمها على الصغير، ثم تنداح الى الحقول والسهوب وتعبث بالثلوج وتكومها اكواما على شجيرة متجمدة او كدس من الدريس او على عابر سبيل تعثر وسقط.

في هذا الشتاء انكب غريغوري ايفانوفيتش على المطالعة، فقرأ الكثير من الكتب والمجلات التي اوصى عليها من بطرسبورغ. كان في بادئ الامر يتصفح المجلات ويلقي نظرة على المقالات فيها ويضع خطوطا بالقلم الرصاص تحت بعض السطور يفكر كثيرا بهذا الخصوص، وبعد ذلك يتلو على ساشا الاقاصيص ويبحث فيها عن جواب للسؤال. كيف ينبغي للمرء ان يعيش؟

وبعد ان اقدم في الصيف الماضي على التضحية اطمان باله ولكن لامد قصير. فالتضحية لم تكن حقيقية في الواقع بل كانت شبيهة باللذة والارتياح. اما هو فيريد القيام بالكثير.

كان ذلك عهد القلاقل والاضطرابات، عهدا لا يشبه العهد السالفة. وكانت الجرائد تنشر احيانا مقالات جريئة تحبس لها الانفاس. وبالمقارنة معها بدت سنوات الحياة الطلابية في قازان لهو صبيان، حتى ان مقالة في احدى الصحف، (وهي صحيفة لم يستلمها في الناحية الا المشتركون، بينما بيع العدد الواحد منها في بطرسبورغ بخمسين روبلا) فتحت عيني غريغوري ايفانوفيتش فراى ان هناك طريقا قويا يصلح لمن عنده ضمير. وهو طريق ان يضحي المرء بحياته في سبيله.

اضطرت ساشا، ساعتها، ان تسهر الليالي وهي تستمع الى زوجها الذي يجوب الغرفة ويدلي بالادلة والبراهين على نمط الحياة التي ينبغي للانسان ان يعيشها. كان ظله يلاحقه على الجدار، وكانت ساشا، بين الحين والآخر، تنظر الى الظل مرتعبة وهي تنصت الى اقوال زوجها المتحمس جدا للبدء بالحياة الجديدة دون تأخير. لكن ذلك انتهى بغتة على نحو مؤسف.

في ليلة باردة عاصفة جلس غريغوري ايفانوفيتش يقرأ امام

طاولة من خشب الصنوبر. وكانت ساشا منهمكة باعداد الشاي خلف الستار. حزر الدكتور ذلك من فرقة الصحن والاكواب. في الخارج كانت الزوبعة تلتطم ركن المنزل فينبعث صغير حاد وكان ابليس جالس القرفصاء على السطح يتشكى ويتذمر من شدة البرد.

وقالت ساشا من وراء الستار.

- ما اشد الزوبعة، قد تدفن احدا في السهب والعياذ بالله. تطلع الطبيب الى النافذة المتجلدة بعد ان حجب ضوء القنديل براحة يده. كان الجليد الشائك الملتصق كالريش على الزجاج يشع احيانا بلمع ازرق منبعث من القمر وهو يغوص ثم يحلق في الفجوات بين الغيوم التي يتناثر منها الثلج في عنان السماء... وقال غريغوري ايفانوفيتش:

- افكر طول الوقت بان شخصا ذكيا نزيها يجلس الى مكتبه في بطرسبورغ ويسجل افكاره بينما انا هنا، على بعد الف كيلومتر، اشاطره تلك الافكار، شيء مدهش، اليس كذلك؟ فهل يحق لي، يا ترى، ان اظل متفرجا مكتوف الايدي؟

- من هو؟ - سألت ساشا - هل هو من ابنا الناحية، ام انك تعرفت عليه بالصدفة؟

- آه، انت لا تفهمين. - اجابها الطبيب ووضع يديه على الكتاب. - اسمعي يا ساشا انا لا اعيش بصورة صحيحة. اسباب الراحة كثيرة والهدوء اكثر. انني اعيش بلا نراهة، بلا ضمير! هل انت فاهمة؟ لا يحق لي ان اعيش بارتياح، في حين يهلك الآخرون هناك بدلا عني. يجب ان «نرفع رؤوسنا». هذا ما يقوله الكتاب... وواجبك هو ان تشجعيني وتلهبي حماسي بدلا من ان تسحبيني الى الورا، الى المستنقع. على هذا النحو تتصرف النساء الحقيقيات... ارتجف صوت الطبيب من شدة الانزعاج. خرجت ساشا من وراء الستار ووقفت قرب كرسي زوجها وشبكت يديها واسبلت جفونها وقالت بصوت خافت:

- اعذرني يا غريغوري ايفانوفيتش...

كان ينبغي له آنذاك ان يبتسم ويوضح الامور لساشا، فلو فعل لفهمته تماما. لكنه لم يفعل ذلك، بل زعل على نفسه لسبب

ضعفه وراح يتهم زوجته بانها، كما يعتقد الآن هي التي وفرت له
"اسباب الراحة المبتذلة".

في تلك الاثناء حملت الزوبعة زنين اجراس، وصر الثلج
وتناهدت انفاس جياذ تقترب. فقالت ساشا وهي تمضى من جديد
الى ما وراء الستار.

- هل ستذهب يا غريغوري ايفانوفيتش في هذه الزوبعة؟
المصيبة انك قد تطمر بالثلج.

- تظنينني مرتاحا لهذه الطلعات؟ ربما اصيب احد الاقطاعيين
بالتخمة لا اكثر. - دمدم الطبيب وازاح شعره الى الخلف واغلق
الكتاب ونهض، ثم دفع بركبته الباب الملتصق حتى فتحته
بصعوبة.

اندفع بخار كثيف الى الدهليز ولم يعد بالامكان رؤية شيء
الا ان شخصا ما قد دخل. تفرس غريغوري ايفانوفيتش في وجهه
فتراجع وندت عنه صرخة. كاتيا واقفة امامه على العتبة.

معطفها الاسود مغطى بالثلج، ووجهها يوهج تحت القلنسوة،
واهدابها بيضاء. اغلقت الباب وخلعت القفاز الدافئ وطبطبت
بقدميها وقالت.

- لم تتوقع وصولي، اليس كذلك؟ كدت اضل الطريق. كنت
ذاهبة الى والدي، لكن العاصفة اشتدت ولم يعد بالامكان عبور
جسوركم. رايت ضوءا في منزلك فخرجت. ممكن؟

فكت ازرارها الكبيرة. وانتبه الطبيب اخيرا فساعدتها في خلع
معطفها كان دافئا في الداخل وتفوح منه رائحة الفرو والعطور،
ثم اخذ منها القلنسوة.

كان شعرها مضغوطة تحت القلنسوة، فعدلته وشففته ثم
جلست الى المائدة. وسألت:

- اين ساشا؟

- هناك، - اجاب الطبيب واوما براسه الى الستار. - كنا
نطالع واردنا ان نشرب الشاي. - وتطلع الى كاتيا بنظرة جانبية
وكانه على استعداد للاختباء او الهرب.

- ساشا، هذه انا، تعالي، - قالت كاتيا وهي تعدل الدانتيل
على فستانها القاتم، وضحكت فجأة.

فتح الطبيب فمه وتنفس بعسر.

ظهرت ساشا اخيرا وعلى كتفيها بلوزة سوداء وقد شبكت
يديها تحتها، وحيث كاتيا بان حنت رأسها فقط ببطء وتادب
ولياقة، فطوقت كاتيا عنقها بيدها وقبلتها وقالت:

- لا تزالين جميلة كما كنت! كيف حالك؟ بخير؟

- شكرا لك، الحمد لله، بخير، - اجابت ساشا على مهل
دون ان ترفع بصرها.

قبلتها كاتيا مرة اخرى، ساشا ظلت جامدة كالصخر، فرفعت
كاتيا يدها عنها والقي الطبيب نظرة الى المرأتين وانكمش وجهه
متألما، فقد ادرك مدى ثقل هذا اللقاء على ساشا. ومع ذلك

استطاع، وهو منكمش الوجه، ان يقارن بينهما: ساشا غليظة ثقيلة،
وكاتيا رشيقة في كل شيء، في حركاتها وشعرها الناعم المصفوف
الى اعلى وفستانها الرقيق الرائع وحتى صوتها متميز كالموسيقى..

استنكر غريغوري ايفانوفيتش افكاره هذه ورفضها، لكنه عجز
عن التصنع والتظاهر بمظهر اللامبالاة، فقد رأت عيناه تلقائيا ما لا
داعي لرؤيته، وما يعتبر خطيئة - تجعدات الشعر وزاويتي الفم
المرتفعتين وطيات الفستان المللمة على صدرها.

واخيرا بدا عرق ما يرتعش تحت ركبته ويدغدغه كالفأرة. شعر
بامتعاض شديد حتى قال بصوت خشن:

- ماذا؟ هل ستحضرين السماور اخيرا؟

استدارت ساشا ببطء ومضت الى ما وراء الستار. وكان واضحا
انها اخذت تعدل وضعية مدخنة السماور وتنفخه ليستعر. وفاحت
رائحة الدخان. انشغلت كاتيا بتصفح كتاب ثم ألقت به على
الطاولة، واستندت اليها بمرفقها وقالت:

- كتبت لك مرتين ورجوتك ان تحضر. كنت متوعدة. فلماذا
لم تاتي؟

- لم اتمكن، - اجاب الطبيب.

احضرت ساشا السماور ومسحت الاكواب بهدوء وتركيز دون
ان ترفع بصرها.

- انا وحيدة اياما بكاملها، اسمع صفيح الريح... وافكر،
افكر... يا الهي، لم افكر بهذا القدر طول عمري! اما في منطقتكم

حتى الريح اخف والطف. والله... تعجبني اماكنكم هذه... بل واحسدكم عليها، - ضحكت كاتيا فجأة وتطلعت في عيني غريغوري ايفانوفيتش مباشرة حتى انكمش عنقه وغاص راسه بين كتفيه عاجزا عن التخلص من النظرة المنبعثة من عينيها الرماديتين الباردتين الغريبتين وقالت: - هل تتذكر كيف حلقت راسك بشكل مضحك؟ حدثني كوندراتي فيما بعد كيف قص شعيراتك النافرة بالمقص...

احس الطبيب بان وجهه يحتقن ويلتهب وبانه يكاد يسلم الروح. واخيرا قالت له ساشا وهي تلتفت الى الباب: - احضر قلة اللبن التي في طرف الدهليز فانا في الشيشب - ثم خاطبت كاتيا قائلة: - عندنا بقرتان، واحدة مبقعة والثانية بنية، وعجل صغير. حظيرة كاملة.

«الا ترين؟ الا تفهمين؟» - قالت عينا الطبيب. خرج الى الدهليز البارد وراح يتحسس الرف عشوائيا. كان يعرف موضع القلة المطلوبة، لكنه اراد متعمدا ان يسقط شيء ما من الرف، لكن شيئا لم يسقط، فاخذ القلة وهمس واقفا في الظلام: - «آه، يا للشيطان!» واراد ان يهشم القلة الفخارية اللعينة، لكن وجهه انكمش واكتفى بان تملق بلسانه عارفا بان الخطيئة اقترفت وان التعاسة (وربما السعادة؟) قريبة.

- هذه القلة ام غيرها؟ - قال بصوت غليظ ووضعها امام ساشا وانزوى وجلس في الظل.

عندما دخل الطبيب الغرفة من الدهليز اشتم روائح عطرية مركزة. وفكر بان تلك ليست عطورا، وانما هي رائحة شعر كاتيا ويديها وفستانها.

كانت تحتمي الشاي على مهل، وشفتاها حمراوان، حمراوان جدا. وانزوت ساشا خلف السماور منهمة بمسح الاكواب. وفكر الطبيب بان ساشا غدت بدينة وعنيدة وموتورة.

«وقيا بعد ستزداد بدانة. ثم انها تعتبرني ملكا لها. وتتصور بانها شرفتنني. تظل جالسة موتورة، وانا احضر القل. آه، يا للحقارة! وانا ايضا سافل دني، اذا اردنا الحقيقة!»

وسالته كاتيا عما اذا كانت اشغاله كثيرة فاجاب وهو يتطلع بنظرة جانبية منحرفة بان اشغاله كثيرة فعلا: - اجوب القضاء طول الوقت حتى لم اعد شبيها بالبشر. حياتنا، كما تعلمين، ليست مثل حياة الامراء. فنحن نفوص في السرقين حتى الركب. ولا مجال للبطر.

سقط صحن من يد ساشا في تلك اللحظة وتهشم. فقالت كاتيا متأوهة:

- يا للاسف! - قالت ذلك بمشاطرة متكلفة مفتعلة جعلت

الطبيب يتفعل ويخاطبها فجأة بصوت مرتعش:

- الم تشاهدي الفقر في السابق؟ انظري اذن، هذا هو الفقر!

- ماذا بك؟ ماذا؟ - همست ساشا ورفعت بصرها نحوه مرتعبة.

ارتعشت ملعقة الشاي في يد كاتيا وطلقت على الكوب.

انسحب الطبيب الى المدفاة واستدار وزم شفتيه.

- الفقر في كل مكان، اكثر من اللازم، ومع ذلك فالحناس

ملتهب، ولن تطفئوه به، لن تطفئوه! لا اريد ان اغيظك يا كاتيا،

ولكن يؤلمني انك جئت لتضحكي علينا. اسمحي لي ان اقول

بانه لا موجب للضحك. يوجد شيء اهم بكثير، وهو عصب حياتنا!

نعم، حياتنا فوارة كاللهيب! فنحن نعيش بالافكار! وهذا الفقر كله

تفاهة بالمقارنة معها. لا يهمني اطلاقا ان حياتي الشخصية غير

موقفة. ليكن ولكنك ترين امامك مناظلا جديدا.

واسترسل غريغوري ايفانوفيتش في الحديث وقال الكثير من

هذا القبيل. استمعت اليه كاتيا منكسة الرأس. واخيرا، عندما

جلس على المصطبة وكأنه يريد ان يجد بنفسه رأس الشليلة

في هذه الكلمات المشوشة، نهضت كاتيا وتمتمت:

- اخطأت فهمي. فانا اعيش وحيدة تماما، ولا احد اتبادل معه

كلمة. واليوم تذكرتك مع ساشا وتصورتكما من اعزائي فجننت

بزيارة الود والصدقة، ولكن يبدو ان محاولتي ذهبت عبثا. فودعا

يا صديقي. الاقدار ارادت غير ما اردت.

ارتدت معطفها وشدت ازواره ببطء ودست يديها في القفاز

الربري الابيض وابتسمت بحزن واومات براسها مودعة وخرجت.

ظل الطبيب عاجزا عن النطق. فكل ما قاله قبل لحظة فر من

دماغه كالاعصار. وشبكت ساشا يديها تحت بلوزتها من جديد وقالت بصوت خفيض:

- ما كان ينبغي ان تسمى اليها، يا غريغوري ايفانوفيتش، فهي ضيفة على اية حال.

وعند ذاك هرع الى الحوش بقميصه الاسود حاسر الراس. كان القمر قد فرغ من جولته السماوية واخذ يسبح ببطء، بدرا صافيا، في لجة باردة شاهقة. وكانت الجياد الرمادية الثلاثة المشدودة الى الزحافة المسقفة ترن باجراسها بين حين وآخر. وتكدست كومة كبيرة من الثلج الازرق الفاتح عند مدخل المنزل. ركض الطبيب نحو كاتيا واقدامه تغوص في الثلج حتى الركبتين. وكانت هي واقفة قرب الزحافة تنظر اليه.

- كاتيا، ما كنت اريد ان اسىء اليك... يا الهي، يا ربي، افهميني، ارجوك.

- انا افهمك، - رفعت راسها وتطلعت الى القمر.

- كاتيا، هل تسمحين بمرافقتك؟

- نعم.

عاد الطبيب الى المنزل راكضا والقي بمعطفه القصير على كتفيه وقال لساشا بصوت خائف مستعجل:

- اريد ان ارافق كاتيا، فلا يجوز ان تذهب لوحدها، لا سيما واننا اسانا اليها. ساعد في ساعة متأخرة، ربما في الصباح. -

وظل منكمشا في الباب. لمت ساشا الاواني ولم تجبه. فسألها:

- لماذا انت صامتة؟ الا تريد ان ارافقها؟

- انت حر، يا غريغوري ايفانوفيتش، افعل ما تراه ضروريا.

- اية حرية هذه؟ - تنحى عن الباب وارتعش صوته. - لا اطيق مثل هذه الاجوبة... افلا يمكنني ان ارافقها؟ ها؟

- ما الذي يزعلك في اجوبتي، يا غريغوري ايفانوفيتش؟

جلس على المصطبة في الحال وضغط صدغيه بقبضتيه. - شيء لا يطاق!

رنت الاجراس وراء النافذة، فقد صعدت كاتيا الى الزحافة. قفز الطبيب وقال بيأس وقنوط:

- لا تزعلي، لوجه المسيح، لا استطيع ان اذهب وانت بهذه الحال.

- لا تهتم. سأتحمل - اجابته ساشا ومضت الى ما وراء الستار.

- يا للشيطان، لن اذهب! - جار الطبيب، ومع ذلك قفز الى الخارج فوراً.

كانت الجياد قد تحركت، فصاح غريغوري ايفانوفيتش. - تمهلي، تمهلي! - وركض للحاق بمؤخرة الزحافة العريضة وهو يغوص في الثلج.

- ٩ -

تسرب ضوء القمر من كوة الزحافة عبر حبات الجليد الملتصقة بالزجاج ولاحت قفاز الثلوج الباهتة المنبسطة حتى الافق. صرير الثلج ينبعث من تحت الزحافة. والاجراس ترن بصوت رتيب كما لو كانت من زجاج. وفي المنعطفات يلوح من العتمة محيا كاتيا الرقيق القسمات والمطوق بفرو اشيب، وتومض في عينيها شرارات القمر. كان غريغوري ايفانوفيتش يتطلع اليها ويفكر بانه قضى عمره كله من اجل هذه اللحظة بالذات. والآن، ليس هناك ما يحول دون التطلع الى هذا الوجه الساحر، ولا شيء يمنعه من ان يعب من روائح الثلج والعلطور والفرو الدافئ التي تجعل النفس تنتشي والراس يدور.

ولاح وجه كاتيا من جديد في الضوء الازرق وهي تقول له:

- الا تدري بان زوجي هجرني؟

انتفض غريغوري ايفانوفيتش وفكر فيما يتعين عليه ان يرد به على هذا السؤال، وبدأ فجأة، كما لو كان ينتظر مجرد اشارة للبدائية، يتحدث بصوت جديد، بصوت خاص متميز، لكنه صوته الحقيقي - وهو واثق من ذلك - وقال لها انه راى في الصيف الماضي كيف تصاعدت الغيوم من النهر وسبحت الى ما وراء الغابة، وعند ذاك امتلا قلبه بالحب، وراى كاتيا تقترب من الضفة في الزورق وادرك بانه يحبها هي بالذات. وتحدث عن النحل الذي حوم على الاعشاب، وقال ان حبه كان كبيرا وضاءا لدرجة تفوق تحمل

الانسان، كما خيل اليه، فاراد ان يوزعه على السماء والارض والبشر.

- وساشا؟ - سألته كاتيا فجاء بصوت خافت.

كان وجهها في تلك اللحظة غريبا، باهر الجمال لحد مؤلم جعل الطبيب يئن ويميل الى داخل الزحافة. لمست كاتيا كتفه فاخطف يدها والصق شفتيه بالتفاز الناعم الفواح. وتمتم:

- احبك. اسمحي لي ان اموت من اجلك...

امسك بيدها وظل يكرر هذه الكلمات بصوت مكبوت، والزحافة تتراقص على تضاريس الطريق فتجعل رأسه يهتز، يعلو وينخفض وكأنه يحيي احدا. وبدا وجهه منفعلا دميما.

استولت الكتابة على كاتيا. ارادت ان تضحك على غريغوري ايفانوفيتش وتقول له بانها لم تكن متوجهة الى ابيها، بل جاءت اليه خصيصا لتعذبه بسبب الغضب والضجر الذي اتانها، وهي تشفق عليه لانه شخص تافه، وحبه مضحك مثل هزات رأسه هذه، وهو حب لا يستحق في الواقع الا الموت. لكنها لم تقل شيئا من هذا القبيل. كل ما كانت تريده هو ان تبكي بلوعة ومرارة...

وتمتم غريغوري ايفانوفيتش:

- انظري الي... احبيني ولو للحظة.

عند ذاك سحبت كاتيا يدها منه بشدة. فلم يقاومها وانزلق منحنيا حتى قدميها ولمس ركبتيها بوجهه. فأظلمت الدنيا في عينيها واشتدت كآبتها.

لم يلاحظا كلاهما ان الزحافة اخذت تميل ثم انحدرت مسرعة الى اسفل. عجز الحوذي عن جعل الجياد الفتية تنعطف الى الطريق العام اثناء الهبوط، فارخى لها العنان لتنتقل من التلة مباشرة الى جليد النهر.

اخترقت الجياد كئيبان الثلج شاقة لنفسها الطريق بصدورها حتى وصلت النهر المتجلد. فطلق الجليد متكسرا ومالت الزحافة وانغزت فيه وبقبق الماء الاسود في داخلها.

صرخت كاتيا. وفتح الطبيب بسرعة الباب الايمن الذي لم يمسه الماء بعد. وراحت الجياد البيضاء تفرط في الماء الجاري الازرق الذي تتراقص عليه بقع من ضوء القمر بين الكتل الجليدية الرقيقة.

كان الحصان الاوسط قد تشبث بالجليد بسنكيه الامامين، ثم سهل فجأة بصوت مستجير كسير. وشخر الحصان الايسر الذي لم يظهر فوق الماء الا رأسه. واخذ التيار يجرف الحصان الايمن.

وصرخ السائس وهو ينهض على مقعده:

- غرقنا!

احتضن الطبيب كاتيا في العتمة وكانها كنز ثمين ودفعها من الزحافة قائلا: «لا تخافي، لا تخافي...» امسكت بضلع في اعلى هيكل الزحافة وسحبت نفسها اليه فمالت الزحافة بشدة وغاص غريغوري ايفانوفيتش في الماء حتى الخصر.

العودة

- ١ -

استقل الكسي بتروفيتش الباخرة من ميناء ريبينسك، وشغل قمرة من الدرجة الثانية ولم يفادرها منذ عدة ايام. لازم الفراش ليس بسبب توعك في صحته او اضطراب بل لمجرد عدم الحاجة الى التحرك والكلام. كل ما كان يفعله هو الشراب والنوم.

كانت آخر مائة روبل لديه ملفوفة بقصاصة من جريدة في جيب سترته المدعوكة. حاول ان يخدع نفسه بانه لا يدري لماذا استقل الباخرة ولماذا يرتحل عليها. استسلم لكآبة شديدة واحس بقذارة نتنة كأنه كلب مريض ينسلخ شعره نتفا.

بعد عام من حياة التهتك والفجور هبط الكسي بتروفيتش الى الدرك الاسفل الذي لا يوجد تحته الا الموت في ماوى المشردين. وصار يشعر الآن ببعض الارتياح، وبشيء من اللذة اللاذعة. ضميره لا يؤذنه وذاكرته لا تثقل عليه بشيء، ثم انه لم يعد لديه وقت للذكريات. كان يستيقظ في قمرة ويسعل مرارا ليتخلص مما ترسب في الحلقوم، ثم يتجرع الفودكا ويجلس الى الطاولة امام المرأة يتشاب أو يشغل نفسه بورق اللعب حتى يستولي عليه النعاس من جديد بفعل السكر...

قبيل الزفاف قال الامير لكاتيا في البيستان وهو يكلمها بخصوص عقد القران انه ما كان ليتزوجها لو انها رضيت به طائعة. في تلك

اللحظة فهمت كاتيا انه بحاجة الى «ضحية». كان الامير بحاجة الى «ضحية» فعلا، ولكن من نوع متميز خاص (لم تتأكد كاتيا من ذلك بشكل تام). كان بحاجة الى «ضحية» حية دافئة ومتكررة على الدوام. هناك ضحايا هائلة ما انزل الله بها من سلطان. يضحى المرء بنفسه بالكامل فيهلك ويختفى. وعندما تطفو ذكرياته على السطح تغدو مبعثا لتقريع الضمير والشعور بالوضاعة. الا ان هناك ضحايا ملتبهة تومض بالفرحة الخاطفة وتظل ذكرياتها مدعاة للاسف على عدم تكرارها مرة اخرى. اما الامير فما كان يوسع ان يعيش الا يقرب امرأة محبة بقلب معذب وارادة ضعيفة، امرأة على استعداد دائم لتستسلم له كليا مقابل كلمة فيها رقة وحنان. ولا بد له ان يتحسس، على الدوام، ملامة رهيفة وثقلا لذيذا وحرنا خفيفا لعجزه عن ان يمنحها بالقدر الكامل السعادة التي تستحقها. وهو يغوص بكل جوارحه في هذا الحب الحزين وتتسبب به كل مساماته كشراب شيطاني مر رائح.

على هذا النحو كانت علاقاته مع ساشا. لكنها عندما تحولت من ضحية هادئة وادعة الى ضحية هائلة مینوس منها ارتعب جدا. وخيل اليه آنذاك ان كاتيا هي المنقذ الوحيد. كانت فتاة محبة رقيقة رائعة. وكان الامير يتصور ان زواجهما سيغدو ملاذ الاخير على الارض، ملاذ حزيننا حزن مياه الخريف الراكدة. لكن الصفة التي تلقاها فجرت فيه الحقد والهباج. فهي تذكره بماضيه مع فارق واحد هو ان القول الفصل بيده هذه المرة، فهو المسيطر وهو الذي يقرر المصير.

في الايام الاولى لرحلة شهر العسل كان الكسي بتروفيتش كانما يخشى ان تفيق كاتيا وتدرك فظاعة زواجهما، فالتزم بالتداب واللياقة والمجاملة التي تبلغ حد الاهانة. ولكنها عندما غدت امرأة شعرت فجأة، ودون توقع سابق، بانها متيمة بزوجها وكانما خرجت قوا من عتمة الغسق الى نور يغشى الابصار. كان ذلك احساسا ساخنا بذاتها وبانوثتها ودمها الذي يغلي ويفور. بهت الماضي كله امام هذا الشعور وصار رمادا لا يستحق الذكر.

وجذبت كاتيا زوجها الى دوامة الحب الانثوي الاول. وحلت بالنسبة للامير، دون توقع ايضا، ايام الهيام والفرحة المنفعلة

والاهتمامات المحببة السعيدة بصغائر الامور. وخيل اليه ان حياة ثانية بدأت لديه فلا يرى غير عيني كاتيا المغمتمتين بالاعجاب يقرب من الجنون، ولم يعد الماضي بالنسبة له ماضيا ولا المستقبل مستقبلا، لا شيء هناك غير تلك النظرة الانثوية المنفعلة التي لا تعمر لها ولا قرار.

لم تستمر طويلا تلك السعادة التي تفقد المرء رشده. اخذ الكسي بتروفيتش يفهم بانه لن يتحمل هذا التوتر الشديد فارتبك وتحير. وحدث اول شجار بينهما. شعرت كاتيا بالاهانة والنجس لان حبها قوبل ببرود يقرب من السخرية. وادركت بان الشقة بينها وبين زوجها واسعة وكانها شخصان غريبان. حدث ذلك مساء في فندق قديم في البندقية. كان الامير واقفا قرب النافذة المطلة على قناة ضيقة اصطبغت بحمرة المغيب المطير. وكاتيا تبكي مستلقية على الارصفة.

- بالله عليك يا كاتيا، لا تبكي. فلم تحدث اية مصيبة، - قال الامير بصوت خافت. - اردت ان تقبليني اما انا فكنت شاردا الذهن. ذلك كل ما في الامر. كنت افكر باننا لم نر شيئا في البندقية ما عدا الملاهي. اليس كذلك؟ اعتقد ان ظلام المساء جعلك حزينة لا اكثر. او اننا تعبنا...

كل هذا صحيح، ولا يستحق البكاء. لكن كاتيا نفسها لا تدري ما هو سبب حزنها الشديد وكان الشمس غابت الى الابد وراء الافق البحري البعيد وكان هذا الغسق الكئيب سيظل مخيما طول العمر ولا امل في انجلاته.

في الاسفل انزلت جندول اسود بلا ضجيج. وراى الامير وهو متكى، بمرفقيه على رف النافذة كيف يشق القارب بصدرة المدبب صفحة الماء المائل الى الاحمرار. رفعت السيدة الجالسة فيه رأسها بعد ان خلعت نظارتها والتفتت الى صاحب القارب فعرفها الامير. كانت تلك السيدة هي موردينسكايا.

ابتعدت عن النافذة كالمسحوق ونظر الى كاتيا. كانت جالسة مطاوعة الرأس. وبدا المنديل على ركبتيها ابيض في الغسق. احس الامير بعطف شديد على هذه الشابة الطاهرة التي لم تفهم شيئا على الاطلاق. جثا على ركبتيه امام الارصفة واخذ يدها وضغط

شفتيه عليها، لكن اليد كانت جامدة وكانت شفتاه باردتين. وفهم انه لم يكن يحبها، بل يحب تلك، وليس بوسع اية ضحية ان تفرق هذا الحب وتذوبه.

في اليوم التالي غادر الزوجان كراسنوبولسكي البندقية الى روما ومنها الى جنوة ونيس وباريس.

لم يكن الامير قادرا على الجزم بان التي مرت كالشبح في الجندول الاسود هي موردينسكايا. اذ ربما انخدع بشبه جاء صدفة. ورغم ذلك انفتح في دخيلته باب المخبا السرى الذي اغلق باحكام وطواه النسيان منذ تلك الليلة التي طوقته فيها آنا سيميونوفنا بشراك الملاطفة والاغراء وسمته بالقبيل. صار يعرف الآن انه كان كل تلك الفترة يخدع نفسه، وان ذلك الخداع المتفطن انهار من نظرة واحدة اقلت بها امرأة وانه سيسكت على كل شيء، حتى ضربة السوط على العينين، وينسأه في مقابل لقاء مع موردينسكايا، وانه لا يمتلك ارادة ولا انفة ما عدا القلب المعذب المستعد في كل لحظة ليشتمل بنار الحب القاتلة.

في تلك اللحظة صار سواء بالنسبة له اذا كانت كاتيا ستتركه او ستبقى حتى الرمق الاخير تعاني الآلام تحت جناحه او تتحول، مثل ساشا، الى ضحية هالكة. ظلت صامتة تنتابها الاحزان، لكنها لم تجرب بعد على ان تسأله عن سبب تغييره المفاجيء هذا.

في باريس كان الامير احيانا يترك كاتيا اياما بكاملها وحيدة في الفندق كانت تجلس عند النافذة وتنتظر. في ساحة الاوبرا، في الاسفل، تتقاطع مسيلات العربات والمركبات، ويسرع المارة ويتعالى صغير ودوى وضجيج العجلات ولغط الناس. لا يفصلها عن هذا الهرج والمرج الا فضاء قليل، لكنها تتحسس الوحدة والاهانة بشكل اكثر شدة وقساوة.

عاد الكسي بتروفيتش، عدة مرات، في ساعة متأخرة جدا. وكانت كاتيا تنظر باكتئاب الى وجهه النحيل وعينييه المعذبتين وكأنما لا تبصران. كانت تضغط على اصابعها وتكرر مقنعة نفسها: «لا احبه، لا احبه، ليكن ما يكون، فليهلك». وكان الامير يعتذر ويطلب الصفح ويقول لها انه طاف المدينة طول النهار، وكانت كلماته مشوشة مضطربة غامضة... وبعد ذلك يرقد، عادة، على

السريير ويمد يديه فوق البطانية ويغمض عينييه متظاهرا بالنوم.

فهمت كاتيا من كل هذه المتأمة شيئا واحدا هو ان زوجها يسعى باصرار الى مقابلة شخص ما وهو يبحث عنه في المطاعم والمسارح والحانات والحوانيت وينتظره في مختلف المقاهي ويتجول في الشوارع على امل اللقاء به. حاولت كاتيا ان تعرف ذلك الشخص فسألت الامير عنه واستعطفته ان يخبرها وهددته وبكت لكنه كان يلوذ بالصمت. ذات مرة قبيل اثبلاج الفجر جلست كاتيا على السريير وتطلعت الى وجه الامير الذي كان اقرب الى الخضرة بسبب انعكاسات الفجر ونظرت الى عينييه الغائرتين الكابيتين، ثم امسكت راسها بكلتا يديها وتمتمت: - انا لا افهم شيئا، لا افهم على الاطلاق... كل ذلك شبيه بالجنون... كذب في كذب!

- نعم يا كاتيا، جنون وكذب...

لم تضبط كاتيا نفسها اكثر، وانهارت انفتحا امام المذلة. قفزت من السريير وركضت حافية الى النافذة وصاحت مهددة بانه اذا تركها وحيدة في هذه الغرفة ولو مرة فسوف ترمي نفسها الى الشارع تحت عجلات المركبات. كان ياسها شديدا غير متوقع حتى بدا وكان الامير قد استعاد رشده واخذ يهدئها ويقول بجهد كبير ان الوقت حان للعودة الى الديار، الى روسيا...

السبب في ذلك كله هو ان الكسي بتروفيتش راجع السفارة عندما وصلا الى باريس واستفسر عن آنا سيميونوفنا فقالوا له هناك «نعم، موردينسكايا موجودة لوحدها في باريس، لكن عنوانها غير معروف». وعند ذلك بدأ يبحث عنها في كل ارجاء المدينة، وراها بالفعل مرتين من بعيد، لكنه لم يتمكن من الاقتراب منها: فقد كانت مع شاب فارغ القامة يبدو من مظهره انه صاحب اسطبل لخيول السباق.

وخلال الاسبوع الاخير لم يصدفها الكسي بتروفيتش في اي مكان. لعلها سافرت الى الجنوب، الى بياريس او نيس، فقد بدأ الموسم هناك.

اما في بطرسبورغ فقد حل الخريف وسبحت الغيوم البليدة فوق المدينة. وفاحت رائحة الحديد والصدأ. حتى ان المارة

بوجههم الجادة العابسة والذاوية بسبب الارهاق العصبي لم يفتحوا
مظلاتهم. لقد تعودوا على البلب: فلتمطر السماء ما شاء لها
ان تمطر.

في احد هذه الايام نقلت العربية الزوجين كراسنوبولسكي من
محطة فارشافسكي الى الفندق على شارع مورسكايا. لم تكن كاتيا
راغبة بالتوقف في بطرسبورغ لكن الامير ادعى بوجود اشغال لديه
هناك فبدات ايام رتيبة مملة. المطر يتساقط رذاذا، والضوء
الكهربائي الاصفر ينيير الغرفة طول النهار، والامير يغيب فترات
قصيرة، ويقضي ما تبقى من الوقت على الاريكة صامتا تارة،
ومتفعلا لاتفه الامور تارة اخرى. وحيانا يقترح على كاتيا زيارة
اقربائهما، لكنها ترفض ذلك رفضا باتا. ذات مرة خرج الكسي
بتروفيتش منذ الصباح ولم يعد لا في النهار ولا في الليل ولا حتى
في اليوم التالي.

واليكم ما حدث. عندما خرج من الفندق في الصباح استأجر
حوزيا كعادته وتوجه الى شارع شبالييرنايا. وعند ما سارت العربية
بسحاذاة دار موردينسكي اغلق الامير عينيه من شدة الانفعال:
فالنوافذ التي كانت بالامس مطلية بالطباشير صارت اليوم مغسولة
نظيفة والستائر مرفوعة وقد نورت عدة مصابيح كهربائية في داخل
الصالة. صرف الامير الحوزي عند الركن الى مدخل الدار. انتفض
قلبه بشدة حتى امسكه بيده. دق الجرس ودخل الدار وسلم
بطاقته الشخصية الى الوصيف. ولم يكن يفكر في ما سيحدث فيما
بعد - هل سيخرج اليه زوجها ام ستاتي بنفسها؟ وكيف يتعين
عليه ان يتصرف في الحالتين؟

تاخر الوصيف ولم يعد طويلا. ففكر الامير: «حقير، ابقاني في
الدمليز متعمدا». ظهر الوصيف بعيدا، في داخل احدى الغرف والقي
على الامير نظرة - وقحة طبعا - واختفى. فار الدم في راس
الكسي بتروفيتش، فالتقط من رف المرأة قفازا نسائيا اسود ومزقه
شطرين. وظهر الوصيف من جديد وبيده منشفة ملونة ينفض بها
الغبار. وصاح به الامير: «مغل!»، وانداح صوته في الغرف
الواحدة تلو الاخرى. وتناهى رنين جري من مكان ما واختفى الوصيف،
فصفق الامير الباب الخارجي بكل ما اوتي من قوة وخرج راكضا.

المطر يتساقط رذاذا في الخارج، وتسبح سحب من الضباب
على السطوح، والهواء الصدي، ينخر العظام. راح الامير يجرجر
قدميه على الرصيف. كان يتوقع كل الاحتمالات ما عدا الوصيف
والمنشفة.

وفكر الامير: «يجب ان انسى نفسي الآن واغوص في لجة اقذر».
لقد ادرك بوضوح ان تلك هي النهاية. فان سنة ونصفا من التوتر
الفظيح تكلمت اخيرا بمنشفة الغبار والمطر الصدي ما كان بالامكان
طبعا. توقع نهاية اخرى لانه هر نفسه قمي، نحيل قافه، واذا اشتد
المطر سيجرفه الى الساقية جنب الرصيف ويحمله الى انايبب
المجاري تحت الارض. آنذاك تذكر كاتيا، ولكنه فكر: «كلا، فهي
بعيدة، مستحيل. يجب ان اذهب الى الخمارة».

عند المفترق التفتت اليه امرأة مرعبة في وشاح بلبيل فرائي
وكان احد نثر الدقيق على وجهها. وخاطبته بصوت اجش:
- لماذا انت مهموم الى هذا الحد يا عزيزي. تعال الي.

اشماز الامير حتى الغثيان، لكنه تبعها في الحال.
اقتادته المرأة الى غرفة تثنه متصدعة الجدران. جلس دون ان
يخلع معطفه وقبعته الى طاولة بلا شرشف وراح ينظر الى صور
جنود متطوعين معلقة على الجدار فوق اريكة حمراء بالية. وراى
عبر شق الباب امرأة اخرى شبه عارية بشعر مرسل. وعندما
لمحت الامير ينظر اليها كشفت عن اسنانها المسوسة وخرجت.
وظهر على اثرها شاب فارغ القامة في قميص احمر قان، شعره اجد
وتحت عينيه جيوب منتفخة. وعلى كتفه سير تدلى منه اكورديون.
انحنى محببا ونفض شعره ووضع رجله بجزمته الصقيلة على كرسي
وبدا يعزف. فقال الامير:

- نعم، انشدونا، وسادق لكم.

لملمت المرأة ذات الشعر المرسل اطراف رداها الاصفر وطلقت
باصابعها وانشدت بصوت جهوري غير متوقع. التفت الامير اليها
واخذ قنينة لا يعلم الا الله كيف ظهرت على الطاولة. جلست قربه
الامرأة ذات الوجه المرطب بمساحيق بيضاء وراحت تحنق في فمه.
عينها مدمعتان بلا اهداب. عدلت تسريحتها المضغوطة، ففرت بقه
من تحت شعرها المستعار.

كانت كاتيا واقفة وسط الغرفة ملفعة بمنديل وبري ابيض.
وجهها شاحب تماما وعيناها متسعتان لا اثر فيهما للدموع.
- اين كنت تتسكع؟ - سألته واثقت عليه نظرة متفحصة ثم
اشاحت بوجهها - يا للفظاعة!

تمتم الامير دون ان يجتاز العتبة:
- كاتيا، عزيزتي، تبللت حتى العظام. ولا استطيع الجلوس،
اخشى ان الوث شيء في غرفتك... ولكن من حسن الحظ ان ذلك
حدث على هذه الصورة. - نقل بدنه من ساق الى ساق وابتمسم
بمرارة. - لا ادري هل سالتقى بك مرة اخرى. ولكنني تخلصت يا
كاتيا.

- انت تهذي، ينبغي لك ان ترقد - غمغمت على عجل.
- كلا، تظنينني سكران؟ ساشرح لك كل شيء الآن.
تهدد الامير وجال ببصره في الغرفة وتطلع الى جزمته الوسخة،
وبعد ذلك القى على محيا كاتيا نظرة خاطفة بحنان بالغ يقرب من
الاستغاثة ثم غض بصره وشرع يقص عليها كل ما حدث اولا باول،
وبدا بشيح المرأة التي رآها في الجندول في البندقية.
مضت كاتيا، وهي تستمع اليه. نحو الاريسة وجلست، فقد
خانتها قدماءها. فهمت كل شيء، حتى ما كان صباح اليوم. لكن ما ظل
غامضا بالنسبة لها هو سبب اختفاء موردينسكايا من ذاكرة الامير
وكيفية نسيانه لها. اما بالنسبة للكسي بتروفيتش فان ذلك وحده
هو المهم الآن. تحدث عن نفسه وكأنما يتحدث عن انسان جديد،
وكان ذاك الذي كان بالامس قد تلاشى الى الابد بعد ان كان عدوا
غريبا. وبدا له ذلك كله واضحا طيبا فاطمان وصفا ضميره ولم
يعد يفهم لماذا تحدث كاتيا في وجهه بمثل هذا الغضب الشديد.
- ولكن هل فكرت في انا؟ - صاحت به اخيرا فتورد وجهها.
- ماذا يتعين علي ان افعل؟ كيف ساعيش معك؟
- انت؟ آه، نعم...

حقا، كان كل هذا الكلام يجري وكان القصد منه ان تغدو كاتيا
الآن، في هذه اللحظة بالذات، ضحية ملتبهة وتقدم كل طهارتها، كل
طاقاتها الانثوية الرائعة، لتملأ بها فؤاد الامير الخاوي.
فهم الكسي بتروفيتش ذلك وشعر بتقرز شديد من نفسه لم

ضحك الامير باشمزاز وقال، - «طيب» - وشرب قدحا حتى
الثمالة. كان للنبيد تاثير فوري شديد. ودوى صوت المغنية.
«لن اعكر بالاغنية الصاخبة نوم الصبية الفاتنة الهنيء...» اخذ الامير
يحتسي قدحا بعد آخر من نبيد حلو مقرف. واخذت اصوات
الاوكرديون تبتعد. حاول ان ينهض لينتزع، اخيرا، هذا الشعر
المستعار الملىء بالبق، لكنه ترنح ثم هوى على الارضية
متشبها بالمرأة.

عندما استيقظ وجد نفسه على سرير حديدي في غرفة غير
غرفة الامس. ألم به صداع شديد. وظل يتذكر طويلا، وهو
جالس على الحشية القذرة، ما حدث له بالامس، ثم خرج مترنحا الى
الدهلين الغاص بالصرور والحقائب. وعلى احد الكراسي رأى صورة
نصفية لجنرال. وبدافع من الفضول فتحت عجز متفضنة الوجه
باب المطبخ ومدت رأسها من شق الباب ونظرت اليه ثم توارت.
خرج الامير من المنزل ولاحظ انه متعدد الادوار مبني من الطابوق،
بينما منزل الامس خشبي. وقال: «الشيطان وحده يعرف ما حدث».
ظل يجرر قدميه امدا طويلا وكان عاجزا حتى عن استدعاء حوذي
وعن التفكير بالوجهة التي يسير فيها. وفي الامام اسرع مشعل
الفوانيس فأولعها الوجد تلو الآخر. تطلع الكسي بتروفيتش الى
اللمع الاصفر عند قدميه وهز رأسه ومال حزينا الى الجدار البليل.
ثم دس يده في جيبه ليخرج السجائر فلم يجد فيه لا السجائر ولا
حافضة النقود.

تذكر زوجته من جديد. ولاحظ بارتياح هذه المرة ان التفكير
فيها غدا يسيرا لذيذا لانه غاص في الاقدار والاوساخ حتى العنق.
اما موردينسكايا فقد امحت من الذاكرة وكان صورتها ذابت في
وحل الشارخ. ولعل كل ما كان مرتبطا بها قد انتهى ومات في تلك
الليلة المقرفة. فانار ذلك غيظته وسروره حتى لكأنه اجتاز قسما
من الطريق العسير وتجاوز اصعب مرحلة مؤلمة.

اخيرا وصل الى الفندق ملوثا بالاوحال ومبلا حتى العظام، لكنه
هادى تماما. لم يعرفه البواب فقهقه الامير. ذلك يعني انه تغير
كثيرا في غضون ليلة البارحة. عند عتبة الغرفة خلع قبعته
الاسطوانية المدعوكة ومسد شعره براحة يده وطرق الباب.

يشعر بمثله فيما مضى ابدا. فمن هو في الحقيقة يا ترى؟ هل هو خفاش يمتص دماء الآخرين حتى يشبع ويهوي على الارض؟
- كاتيا، انني اتركك، اتركك الى الابد. فيما بعد سنتهمين كل شيء. - غمغم بهذه الكلمات ثم استولت عليه فجأة حالة من الاعجاب المنفعل الشديد حتى انعقد لسانه وتعذر عليه الكلام لحظة - عزيزتي... تذكري، تذكري انني مخلص دوما، مهما حدث، مخلص لك حتى الموت. وداعا.

انحنى الامير حتى كاد يلامس الارض وخرج. وفي اليوم ذاته سلم زوجته كمبيالات بقيمة ضيعته كلها وتخويلا كاملا بالتصرف. ولم يأخذ الا بضعة آلاف. وفي نفس تلك الليلة سافر الى موسكو. لم يكن يعرف على وجه التحديد ماذا سيفعل في موسكو. نزل في فندق متواضع، وظل في الايام الاولى ينتظر تكرار لحظة الاعجاب المنفعل الذي يتحول الى فرحة عارمة لامتد طويل. لكنه اخذ يتضح شيئا فشيئا ان المعجزة لن تحدث، وان حياته الماضية التي تساهلت معه لحظة لا تزال معلقة فوق رقبته كالسيف الذي يمكن ان ينهال عليها في اية لحظة. عندذاك حلت ايام الكتابة التي لا تطاق ولم يعد يرى مخرجا آخر سوى الموت. فالعودة الى زوجته مستحيلة، ثم انه لم يكن يعرف اين كاتيا وماذا جرى لها بعد ان هجرها.

استدت الكتابة، حتى صار يوسعها ان يشير الى موقعها على وجه التحديد تقريبا - وسط الصدر تحت العظم الاوسط بين الضلوع. ففي هذا الموضع شعر بالضيق في الصباح وبتقل كمثل الرحي في المساء.

ولا يخف الألم الا بعد كأس من النبيذ. بدأ الامير يشرب الكونياك ثم انتقل الى الفودكا. وعندذاك صار يتردد عليه معارف جدد غريبو المظهر، لكنهم جميعا طيبون. وهو لا يتذكر اسماءهم، اما ملامحهم فكانت تتبدد في آخر النهار على اية حال. كان صعبا عليه ان يميز بين الرجال والنساء، ثم ما اهمية ذلك؟ كانوا يلعبون القمار كثيرا وكان الامير يخسر حتى لم يبق معه من النقود الا القليل.

اثناء هذه الغيبوبة والنسيان المطبق حدث لقاء خاطف غير ذي بال، لكنه انطبع في ذاكرته. كان الامير قد مر نهارا قرب كنيسة

ايفيرسكايا التي بدت وكأنها جزيرة يلتقط العارة انفاسهم عليها فيخلعون تبعاتهم ويرسمون شارة الصليب على صدورهم وينظرون الى الايقونة القاتمة الشموع. توقف الامير هو الآخر واخذ يتذكر الصلوات لكنه لم تحضره ولا واحدة منها، فظل يتطلع الى لهيب الشموع المتراقص والى لمعانعكاسه الدافئ على اطار الايقونة. وفي تلك الاثناء تناهى اليه من الخلف صوت مرح: «لوجه المسيح تصدق على ابن السبيل». اخرج الامير قراطة والتفت. فرأى راهبا متدروشا يبتسم له بوجه مجدر نحيل وعينين صافيتين بزرقة فاتحة. نظر الامير فيهما وابتسم هو الآخر، وخيل اليه ان الراهب يعرف شيئا في منتهى الاهمية ولا بد له هو ايضا ان يعرف ذلك الشيء...
- خذ هذه القراطة، - قال الكسي بتروفيتش - تعال الي فيما بعد وساعطيك رويلا كاملا.

لا يتذكر الامير جيدا. هل جاءه هذا الدرويش ام لا، لكنه تصور ان العينين الزرقاوين الفضوليتين لمعا لحظة بين لاعبي القمار عبر سحب الدخان.

حل الربيع. كان الامير تواقا الى التفكير في كاتيا، وكيليفكر بها ادمن على الشراب باشد من السابق. ذات مرة جاء اليه بغرفته في الفندق تاجر قال انه من اهالي منطقة الفولغا وادعى بانه يعرف الامير وضيعته هناك واخذ يسأله عن احواله وحدثه بالمناسبة عن الفاجعة التي وقعت شتاء قرب الضيعة.

كان حديث التاجر مشوشا جدا، ومع ذلك امكنه ان يفهم منه ما حدث على شاطئ الفولغا آنذاك، في تلك الليلة الشتوية.

هوت الزحافة من التلة وانزلت الى النهر المتجمد فتكسر تحتها جليده وغاصت حتى منتصفها دون ان تنقلب، اذ امسك بها الحصان الاوسط بعد ان تشبث بالجليد بقائمتيه الاماميتين. تسنى للسائس ان يقطع المشدات. غرق احد الحصن وظل الحصان الآخر يصارع الغرق. زحف السائس على العريشين حتى بلغ الجليد الصلب وامسك بذيل الحصان فتمكن من انقاذه. امتطاه واسرع به في خط مستقيم الى ضيعة ميلويه طلبا للنجدة.

ظلت كاتيا مغفيا عليها فوق سطح الزحافة. ووقف غريغوري ايفانوفيتش على ضلع مقعد الحوذني والماء يغطيه حتى الخصر

(فالمقعد غاص في الماء ايضا، الا ان الطبيب، على ما يبدو، كان يخشى الصعود الى السطح) واحتضن كاتيا ووضع رأسه على صدرها وهو يحملق في عينيها المفتوحتين.

تساقط الثلج غزيرا من جديد واشتدت الريح، وانداحت كالدخان على امتداد النهر، وترسب «الغبار» الثلجي على وجه كاتيا الجامد كوجوه الموتى. ارتعب الطبيب حتى رفع رأسه وصرخ، وحاول الحصان الاوسط ان يتملص من اسار الجليد لكن قواه خائفة. وكانت الزحافة تهتز وتمايل في الريح القارسة. وفجأة رفعت كاتيا اعلى بدنها وخفضت ساقيها بجواربها الخفيفة ونشرت يديها ثم احتوت رأس الطبيب وضغطته الى صدرها وكأنها تخشى ان تغلته. ظلا صامتين بهذه الوضعية حتى هرع اليهما الخدم من ضيعة ميلويه ومعهم حبال واوتاد. نزلوا من جيادهم قرب الفجوة المائية في النهر المتجلد طائنين بان الاميرة والطبيب ماتا متجمدين لكنهم لاحظوا ان كاتيا تحرك رأسها قليلا وتنظر اليهم وهم يغرزون الاوتاد ويلقون الحبال الى ما وراء الزحافة ويسحبون الحصان الاوسط من الماء الى الجليد.

وفجأة حدث شيء غير مفهوم: عند حافة الجليد وبعد ان امسك الرجال الاميرة بايديهم القوية رفع غريغوري ايفانوفيتش رأسه وفتح فيه وقال كلاما متقطعا فهم منه الجميع: «كلا، لا تمسوها» ومد بدنه ويده نحو كاتيا وان وهوى على الماء بصيحة مرعبة دون ان ينحني ويلتوى، وغاص في الحال تحت الجليد وكأنه جلود صخر. وضع الرجال الاميرة في زحافة صغيرة وغطوها بمعاطف الضان واوصلوها الى ميلويه. وفي اليوم التالي نقل فولكوف ابنته الى ضيعة.

كان مصرع الدكتور زاپوتكين اشد ما صعق الامير في هذه الحادثة. وكلما اطال التفكير فيه ازداد قناعة بان مقتله لم يكن صدفة بل تضحية واعجابا بالموت.

انفعل الامير اشد الانفعال، ولم يكن واثقا من ان كاتيا لا تزال على قيد الحياة. وبدا له ان البقاء في موسكو مستحيل. لف المائة روبل الاخيرة في قصاصة جريدة وتوجه الى ياروسلاف، ومن هناك استقل الباخرة.

- ٢ -

فكر مرة بان يتسلل الى احدى القرى المجاورة لضيعة ميلويه كي يتقصى اخبار كاتيا، ولكنه عدل عن هذه الفكرة فيما بعد. كل ما كان يتوق اليه هو ان يمر بالضيعة ويتنشق ذاك الهواء ولو مرة واحدة، ومن ثم فليكن الطوفان. واهلا بالموت حتى وان كان اثر ادمان شديد.

الكسي بتروفيتش راقد على جنبه في قمرة انفرادية جدرانها ملبسة بالصفيح ومطلية بدهان جوزى. قرب الباب يسيل الماء في الغسال. وستارة النافذة المعدنية تهتز. وضوء الشمس المنعكس على الماء يتسرب عبر شقوق الستارة ويتراقص على السقف الابيض بقعا متموجة مضطربة.

على الطاولة الصغيرة امام المرأة دورق فودكا وصحون وتبغ في قصاصة جريدة، وعلى الارضية حقيبة مفتوحة خالية تقريبا ومعطف عند القدمين.

تكتكة الماكينة الرتيبة تبعث النعاس في قيظ الصيف، وسرعان ما يتسلم المرء للنوم على الفراش الناعم يدهده النسيم المنساب من النافذة. الكسي بتروفيتش يشخر بين حين وآخر، ووجهه متورد كوجوه السكارى. لم يأكل شيئا تقريبا خلال الآونة الاخيرة. كان يشرب طوال الوقت ويتذوق طعاما لا يجد لذة فيه. وعندما يلهب الكحول معدته ويجف حلقه يستيقظ منكمش الوجه ويمد يده الى قنينة العصير ويمتص جرعة ثم يستدير نحو الجدار ويشن ركبتيه. في الرحلات النهرية تفتتح شهية الانسان، فما يكاد ينتهى غداء الظهر حتى يبدأ طعام العصر. وعندما سمع الامير طرقا على باب القمرة فكر في نفسه «حبذا لو تناولت الآن شيئا مملحا» وهتف بصوت ناعس. «آوو» وفتح عينيه.

الا ان الطرق على الباب تكرر. وقال الامير بصوت مرتج، - احضر لي، يا عزيزي، دورقا ابرد وشيئا مما يؤكل.

وفكر من جديد: «حبذا تناولت شيئا مملحا، قطعة من السلمون المتبل مثلا، حتى اوصل الشراب». الا ان الطرق على الباب استمر.

- ماذا تريد يا شيطان؟ - صاح الامير وخفض قدميه من السرير
وازاح مزلاج الباب.

فتح الباب بحذر ودخل الدرويش يرتدي قلنسوة تتدلى منها صغيرة
على قفاه. ولاحظ اطراف اصابعه من ردى غفارتة وخطب الامير.
- وتقول اني شيطان! مرحبا! - انحنى قدر ما يتمكن البدن
من الانحناء ثم جال ببصره باسما في القمرة ومحتوياتها المبعثرة.
تطلع الامير مرتعبا في العينين الزرقاوين الصافيتين على الوجه
المجدور الضئيل. وعلى العموم كان الراهب المتدروش ضئيلا
مهلهلا لم يبق في مظهره ما يستحق الذكر.
وتابع الدرويش كلانه:

- جئت اطلب الصدقة. قبطان السفينة رجل طيب قال لي: «اجمع
الصدقات ولكن لا تسرق شيئا». فما الذي يجعلني اسرق اذا كان
الناس يتصدقون علي؟ وقال عنك انك مدمن. لكنك لست مدمنا
ميثوسا منه، اليس كذلك؟ فانا اعرفك جيدا.
جلس جنبه ووضع يده على ركبتي الامير فابتعد هذا قليلا
وجحظت عيناه المنتفختان.

- لو لا الكتابة لما تحول الانسان الى خنزير، اليس كذلك يا
عزيزي؟ - سألته الدرويش فجاءه.

هز الامير رأسه وندت عنه تنهدة قصيرة واجاب:
- لا حياة اسوا من حياتي! - ثم انبته الى نفسه وقال غاضبا.
- يا هذا، هل دعوتك انا؟ فلماذا تتطفل؟ اذهب، ارجوك، فالدنيا
ضيقة حتى بدونك.

- لن اذهب اجابه الدرويش - يبدو انك افطمت في الشراب.
لن اتركك اطلاقا.

نفذ الكسي بتروفيتش رأسه واختلطت عليه الامور وغامت
عيناه. ثم قال بصوت كئيب:

- هل يعقل انك مجرد خيال في تصوراتي؟ ذلك يعني ان اموري
سيئة. اسمع، انت تشرب الفودكا؟

- ما الداعي لشربها؟
رفع الكسي بتروفيتش بصره الغائم من جديد، وكان وجه
الدرويش يعوم في جو القمرة.

- اشرب والا قتلتك! - صاح الكسي بتروفيتش بهياج، لكن
الدرويش ظل يبتسم. خارت قوى الامير فرقد واغمض عينيه.
- عجيب! الى اي حال وصلت؟! - قال الدرويش بعد لحظة
بصوت عال متشدد على غير المتوقع: - ساسقيك خمرا من نوع آخر.
ستبقى شبهان من خمري وستظل على قيد الحياة... اسمع
ما اقوله لك... اعطتك الاقدار كثير، لكنك ضيعت كل ما اعطتك.
ضيعته لتجد الكثير، بل لتعثر على الغلود. انهض واتبعني حيشا
اشير عليك.

«لا ترفع صوتك، سافعل كما تقول، ولكن الافضل ان تذهب»
- فكر الامير. انحنى عليه الدرويش ومسد رأسه، فضيق الامير
جفونه. وازاف الدرويش:

- تعال معي يا عزيزي. اقول لك صادقا. - انذر نفسك.
ستصل الباخرة قريبا الى اوندوري، وهناك انزل، وستجدني على
الشاطئ. فكر في الامر جيدا وتعال الي. هل انت فاهم؟
ظل واقفا بهدوء، ولعله انصرف فيما بعد. فقد طلق مزلاج
الباب.

بقي الكسي بتروفيتش راقدا يستجمع افكاره بشق الانفس كي
يفهم هل كان الدرويش يتكلم معه حقا ام ان ذلك مجرد رؤيا؟
سرف وقتا طويلا وهو على هذه الحال. البقع الضوئية على
السقف انطفت من زمان وخيم الظلام في القمرة، وسرعان ما اشتعل
مصباح خافت فوق المرأة واخذ يتوهج. وقال الامير:
- سخافة. بالامس رايت على هذه الصورة ايضا فارسا في
طاقة صفراء.

هبط من السرير والقي نظرة على نفسه في المرأة ومضى
يجرر قدميه بصعوبة الى استراحة الدرجة الثانية. جلس في الركن
دون ان ينظر الى احد. ثم استند الى الطاولة يرفقيه واغلق اذنيه
براحته كيلا يسمع لغف الحاضرين. احضر الوصيف دورق فودكا
باردة وطبقا من سمك السلمون. صب الامير الفودكا في قدح ترسب
عليه البخار وخلطها بقليل من الفلفل وشرب على مهل ثم زفر
نفسا مخمورا والقي نظرة شزراء على طبق السلمون.

زارت الباخرة آنذاك وبدأت تستدير. ازاحت الريح ستارة
النافذة وقال احد الجالسين عند الطاولة المجاورة بلهجة واثقة:
- اوندوري...

نهض الكسي بتروفيتش في الحال وسال بصوت خافت: - حقا؟
- ثم خرج الى متن الباخرة المظلم.

اضطرب الماء الاسود تحت الباخرة وهي تستدير نحو المرسى.
وفي ضوء كوتها تهادى على الموجة قارب فيه صبيان، احدهما
يجذف، والآخر يعزف على البالالايسة. ثم ابتلع الظلام القارب.

مال الامير الى عمود الدرايزون وراح ينظر الى مبنى ادارة
الملاحة الذي اقترب، وراى كيف التقوا بحبال المرسى على سقفه
فانارت دويا، وكيف مد ملاح وثلاثة رجال باسمال بالية السلالم
الخشبية فتراكض عليها بخطوات واسعة حاملون على رؤوسهم
اكياس كفلنسوات الرهبان.

ثم هرع من باطن الباخرة مسافرون على اكتافهم حقائب وعلى
ظهورهم صناديق واخذوا يدسون التذاكر في يد الملاح.

حدق الكسي بتروفيتش باهتمام وارتعش فجأة عندما راى بين
الرجال والنساء العينين اللتين يعرفهما جيدا. وفي الحال حجبتها
بالة صوف.

هبط الامير مستعجلا واندس بين الجمهور وهو يتلفت بنقاد
صبر ويعض شفتيه.

اسرع من المرسى الى الشاطئ. حيث جلست فلاحات قرب
صينيات تنيرها فوانيس واخذن ينادين المسافرين ويعرضن عليهم
بالحاح خصوصا محمرا او رغيف خبز.

وعلى رمال الشاطئ اختلط الامر على الكسي بتروفيتش في
الزحام بين الناس والاكياس والعفش. الشيء الوحيد الذي يتذكره
هو ان يجد شخصا ما ويساله عما ينبغي فعله. خيل اليه مرة ان
شخصا يعرفه تمام المعرفة انحنى الى احدى الصينيات. وبعد ذلك
خيل اليه ان احدا لوح له بيده من بعيد، بين العربات.

- يستدرجنى - همس الكسي بتروفيتش وتوجه محني الظهر،
بطريق ملتو، نحو تلك العربات.

وفي تلك الاثناء زارت الباخرة مبتعدة، واطفئت الانوار فيها.

- هيه، تمهلوا، انتظروا! - صاح الامير في اثر الباخرة
المبتعدة وهو يعرج على المرسى.
اعترض طريقه حمال قصير القامة عريض المنكبين.
- الباخرة اقلعت يا سيدي!

واقترب منه الملاح والبائعات ورجل قمى مهموم بلحية مدبية.
احاطوا به من جميع الجهات وامطروه وابلا من الاسئلة. من اين
جاء والى اين هو مسافر؟ الم يترك تقودا في الباخرة؟ هل هو
متزوج؟ تاوهوا وهزوا رؤوسهم. وكان الرجل المهموم اكثرهم تالما
وكانه هو الذي تخلف عن الباخرة. وقربت امرأة وجهها من انف
الامير واعلنت فجأة بصوت ملؤه الفرح والدهشة.
- سكران!..

عاد الهدوء اليهم جميعا في الحال واخذوا يعاملون الامير باريحية
ومشاطرة.

الا انه اشماز وانقبض من تلك التساؤلات الحمقاء، وشق
لنفسه طريقا بين الجمهور وابتعد سائرا على الشاطئ.

وفكر: «سأسقط في مكان ما وانفق. يا ليت. فلا احد بحاجة
الي. سامشي ما دمت قادرا على المشي. يا للاسف! آه، لم اكن
اتوقع هذه النهاية».

سار الامير في بادى الامر على امتداد الشاطئ الرملي الذي
داعبته ببطء امواج خفيفة خلفتها الباخرة. وسرعان ما واجهته رمال
متوجة فتعثر واستدار من النهر باتجاه الهضبة ومنها الى المروج.
وعندما تسلق الهضبة بشق الانفس راى النجوم المنتثرة بكثرة
على صفحة السماء. العشب محشوش ومكدس في اكوام. توقف لحظة
وانصت الى قرقرة سمانة في مكان قريب، ثم اغذ السير باسرع مما
على الشاطئ فالقدمان لا تفوصان هنا في الرمال.

وفكر اخيرا: «لم هذه العجلة وكان احدا يطاردني؟» وتذكر فجأة
بانه لم يلتفت الى الورا، ولا مرة واحدة. فارتعب لهذه الفكرة حتى
جلس القرفصاء في الحال والتفت ببطء والقى عبر كتفه نظرة الى
الورا.

غفوت قليلا
في مرفأ الاحلام السحرية
ورأيت في المنام
حصانا يعدو بي في السهوب
سقطت قبعتي
وواجهت الموت
فلا مفر من المصير...
وقالت امي.
حصان غريب
يعدو،
عليه عروس
في فستان ابيض،
اليس عروسك؟

٤

انغرز شعاع شمس الصباح في جفون الامير المغمضة فاستيقظ
واعتدل معتمدا على ساعديه، فند عنه انين، لان بدنه كله
يؤلمه.
والى جانبه جلس الدرويش على الدريس وقد وضع سكيناً
ورغيفاً وبصلتين على فوطة.
راح يقضم البصلة الثالثة باسنانه البيضاء، وتراقصت غضون
مرحة على وجهه المجدر حول العينين الزرقاوين وتحت الشاربين
المنتوفين. وسأله:
- هل زايك الغثيان؟ خذ، تجرع. احتفظت بها لك خصيصاً،
ولن اعطيك اكثر، والله...
خلع قلنسوته واخرج من باطنها قنينة صغيرة فيها جرعة من
الفودكا الدافئة وسلمها الى الامير، فأخذها منه وهو يحاول بصعوبة
ان يتذكر ما حدث. عندما تجرع الفودكا صفا ذهنه وتحرك دمه.
نهض وعدل بدلته المدعوكه ولمس رقبتة التي حكته الياقة المركبة
فخلعها والقى بها جانبا. وقال له الدرويش:

لاح من وراء الهضبة خلفه، على الحقل الرمادي في ضوء
النجوم، شبح قاتم في قلنسوة مديبة. كان ذاك هو الدرويش.
«يلاحقني. يجب ان اختبئ» - فكر الامير واسرع محني الظهر
الى اقرب كومة من اكوام الدريس وانبطح هناك وثنى ركبتيه وحاول
ان يحبس انفاسه. فاحت من الاعشاب الذابلة رائحة البنج والبصل
البري. كاد الامير يختنق. وفجأة مر الدرويش قربه على عجل،
وخيل الى الامير انه رأى لمعان عينيه الازرق.
وفكر الامير خائفاً: «يا للشيطان. وقعت في داهية! هل سيراني
أم لا؟ مر والحمد لله... كلا، عاد من جديد. يتحاشاني كأنني
وحش... ليبتني لا اصرخ... ربما هذه رؤيا تتكرر من جديد. ربما
وانا راقد في قمرتي وارى حلما... كلا، هذه ارض، وهذا دريس...
وتلك هي النجوم. يا نجوم، يا نجوم، يا عزيزاتي، كنت دوما مغرماً
بكن... يا الهي، انني اؤمن بك الآن».

امسك الكسي بتروفيتش قلبه وادار رأسه وند عنه انين.
في تلك اللحظة ظهر الدرويش من خلف كومة الدريس وجلس قرب
ومسد كتفه. نهض الامير بحدة واطلق صرخة مرعبة ثم سقط على
ظهره في الحال. كانت عيناه المفتحتان الواسعتان مغممتين بالجنون.
- لا تخف، - خاطبه الدرويش بصوت خفيض - الا ترى كيف
انقلبت سحتك؟ لماذا اختبات عني؟

- لن اختبئ بعد الآن، - غمغم الامير بصعوبة. - انني
اعرفك. التقينا قرب كنيسة افيرسكايا. وقد فعلت ما امرتني به...
ابتسم الدرويش، وخيل للامير ان شاربيه الصغيرين ازيجا
الى الجانبين وظهر من تحتها لسانه، كما عند الحرذون، ظهر
واختفى...

نهض الامير في الحال وهم بالفرار الا ان الدرويش امسك به
وجعله يرقد على الدريس من جديد وقال:
- احمق، والله، احمق. لا حيلة في الامر، سننام على العشب.
حاولت في البداية ان ندير امورنا في احدى العربات، وكان بالامكان
ان ننام فيها... ولكن، نم، يا عزيزي، وساغني لك.
رقد على الدريس قرب الامير، وبعد قليل انشد بصوت متان
رفيع:

- سترتاح نفسك. تنشق الآن الهواء الطلق، الا ترى الى اي حد اصفر وجهك؟

- هل اقتدتني انت من الباخرة؟ - سأل الامير.
- انا.

- لماذا؟ فانا مسافر لقضاء بعض الشؤون.

- سخافة. اية شؤون يمكن ان تكون لديك؟

- لماذا اقتدتني؟

- لتعيش. فما الذي تفعله في الصيف؟ انت لا تستطيع ان تعمل، لانك اعرج نحيل. اما في الشتاء، عندما يشتد البرد، فالعيشة تصبح اصعب. وعندذاك ساحاول، يا عزيزي، ان ادخل السجن. ساخفي الهوية واقول لهم اني لا اعرف اقربائي وليس عندي ماوى. وسوف يطعمونني. وعندما ياتي الربيع اقول لهم الحقيقة. لقد ضربوني مرارا على هذا التصرف. تلك هي الحياة!

استمع اليه الامير باهتمام بالغ وقطب حاجبيه، فقد بدا له الدرويش بغیضا، لكن في كلماته وضوحا وقوة. وفكر: «فليذهب الى الشيطان. ولو ذهب، فماذا بعد؟ هل اعود الى الباخرة؟ والى اين ارتحل؟ ولماذا؟ هل اذهب معه؟ شيء مضحك مع ذلك. فكيف يمكن لي ان اتسكع في الدروب؟». وسأله مقلصا جفونه:

- هل تعرف مع من تتكلم؟

غمز الدرويش بغیث وقال:

- لو كنت السلطان العثماني نفسه فهذا سواء بالنسبة لي. وفكر الامير: «الشيطان وحده يعرف ما هذا، سخافة. يبدو انني ساتسكع معه فعلا. وسانفق في مكان ما، انا السلطان العثماني!». وقال بفتور.

- حدثني اكثر. كيف سنتسكع؟

وهكذا سارا عبر الحقل المحشوش متوجهين الى ما وراء الغابة البعيدة التي شهقت فوقها غيوم بيضاء.

كانت الغيوم تسبح ببطء من وراء الغابة وتحوم فوق الحقل وتلقى عليه ظلالا باردة ومتنقلة، ثم تلتف حول سمائه وتتكوم على الطرف المقابل من الارض. ارتفعت الشمس مشيرة الى الساعة

التاسعة تقريبا. وفي الافق الرمادي تراقص الشرر على صفحة النهر الازرق الممتد الى ما وراء التلال الطباشيرية.

وقال الدرويش وهو يستدير باتجاه النهر ثم باتجاه الغابة:

- لن يستطيع احد ان يطردني من هنا. فانا كالجرذ، لي حق مشروع ان اعيش حيث اريد. هل تعرف كيف يعيش جرذان الحقول؟ وطفق يتحدث عن حياة جرذان الحقول. واصطاد جندبا ولمس لعابه. وصفق لسमानة طارت من تحت قدميه، وهتف:
- خذي، يا قصيرة الذيل!

سار الامير خلفه على بعد خطوات، وضيق جفونه، فقد خيل اليه ان الارض ستنتهي قريبا وانهما سيحلقتان في الهواء البلوري حتى الغيوم، واعلى منها، الى حيث الريح والشمس، ولا شيء غيرهما.

وسرعان ما تعب من المشي فجلس على حافة الدرب وطلب طعاما.

رقد على ظهره بعد الاكل وفكر: «شيء مدهش، مدهش جدا. السماء صافية زرقاء. فلاتجول حقا، الا يتجول الناس في كل الارحاء... الريح ستبدد كل ما يزيد عن الحاجة. نعم، الريح والغيوم! اما انهم ضربوني، فما اهمية ذلك؟ ضربوا الدرويش ايضا. لحظة، فلاتذكر. ماذا قال لي قرب كنيسة ايفيرسكايا؟ طبعاً، بدأ هذا التجوال انذاك، من هناك، وبدات هذه الحرية وهذا اليسر، وهذا العالم البلوري كله. مدهش: لا داعي لتذكر شيء ولا التعود على شيء...»

بلغا الغاية مع حلول المساء، وباتا الليل في مستودع القش عند فلاحه اكتفت بان سألتهما عما اذا كانا من اللصوص ام لا. وفي الصباح تيمما شطر الحقول من جديد. الجودار الناضج يتموج على الجانبين، والجنادب تقفز من تحت الاقدام ملتجئة اليه. بدأ الامير يتشكى من ألم في رجليه. فخلع الدرويش الجزمة منهما وخباها في المخلاة ولف قدمي الامير بلقائف صوفية. فالمشي فيها سهل ومريح. كان الامير يفعل كل ما يقوله له الدرويش. يسير برجله العرجاء متعكزا على عصا ويفكر بان حياته كلها ظلت هناك، في القمرة الصفراء، وليس امامه هنا الا الريح التي تصفر بين السنابل واعمدة الغبار المتصاعد بعيدا. وعلى طرف الحقل عربة

يتصاعد قربها الدخان، ووراء الافق الرمادي المثلج كبحر سرايبي
تقيم كاتيا ولا يرى لها اثر من هنا.

- هل تعلم ان لي اختا اسمها كاتيا تقيم في هذه الانحاء؟ -
قال الامير ذات مرة وهو راقد في حقل الجودار يتطلع الى السنابل
الذهبية التي تتمايل فوق راسه على صفحة السماء.

- سنذهب اليها هي ايضا، - اجابه الدرويش. - الصيف
طويل، والانسان، يا عزيزي، كالسحابة، ما عليه الا ان ياخذ عصاه
ويسير كيلا يتعول على المنزل، ولا يمتلىء دناة.

الا ان الامير لم يسمع هذه الحكمة حتى نهايتها. فقد راح يكرر
مع نفسه "سنذهب اليها هي ايضا". وسيذهبان اليها معا، معا من
كل بد.

كان الدرويش يتحاشى القرى الكبيرة التي يوجد فيها شرطى او
مامور شرطة. فاضطر الامير الى النوم ليلا في الوهاد التي يوقظه
فيها صباحا صياح الخفاف المدبب الجناحين، او في البيادر او تحت
عربة ما في الحقل.

وصار الامير يدهش من نفسه ويتعجب لانه لم يعد يشمئز
من القمل والاوساخ وروث الخيل عندما يهوي متعبا في اي مكان
يصادفه وينهض في الصباح مرحا بقوى متجددة.

وفي كل مكان حظي الجوالان بمعاملة بسيطة من الناس الذين لم
يسألوهما عن هويتهم، بل كانوا في اغلب الاحوال يستمعون الى
احاديث الدرويش ويفهمونها كل على طريقته الخاصة: بعضهم
يضحك منها ولا يصدق بها، وبعضهم يدهش «لسعة العالم»
وبعضهم يكتفي بهزة من راسه. ويصادف ان تتهد فلاحا ما دون
ان تعرف السبب. كانوا ينعتون الامير «بالسيد» ويشفقون عليه،
في حين يدهش الكسي بتروفيتش كذلك لكثرة هذه الشفقة عند
بسطاء الناس.

وقال الدرويش ذات مرة:

- امثالنا كثيرون يجوبون الدروب. يعيش الواحد منهم ولديه
كل ما يحتاج اليه، ومع ذلك يشعر بالملل. انا نفسي مررت بهذه
المرحلة. كنت اشرب الفودكا بشكل مرعب. وكان يحدث ان انبطح
على الارضية وقربي خايبة وقدح اشرب ولا اكل شيئا حتى اسود

جلدي. ادمنت على الشراب وصرت ارى ما لا يقبله العقل: يخرج
من تحت السرير، مثلا، حصان عار بقرنين وبوزه كراس الطير.
تعذبت كثيرا، ورايت الكثير. وفي مثل الحال يصل الامر بالبعض الى
الانتحار بطلقة مسدس، طلقة واحدة، وكفى. فما اكثر الذين ينتحرون.
قد يحدث ان يقدم البعض على القتل بسبب الضجر. فيتصور
الواحد منهم ان حياته فيما بعد ستكون مثلما هي اليوم: يأكل وينام
ثم يموت، ولا يبقى له الا ان يفسق بجنون لكي يؤثر عليه الفسق
اشد التأثير وينغزه كالابرة. فما الذي يمنعه في هذه الحالة من ان
يطعن شخصا بسكين؟.. ويطعنه، والله، بالفعل. اذ ان ذلك بسيط
للغاية اذ استولت عليه الرغبة لجد الجنون. اما البعض ممن تعز
عليهم انفسهم فياجاون الى التطواف والتجوال. ثم انني شخصا
اصطحبت كثيرين. في الصيف الفائت تبعتني شخص مثلك. ظل يطوف
معي فترة طويلة ثم التجأ الى السلطات واعترف لها بانه قاتل.

- صحيح، كل هذا صحيح، - اجاب الكسي بتروفيتش
(كانا يتحدثان قرب كومة عالية من قش الموسم الفائت على تلة
يتطلعان منها الى قرية في الاسفل لاحت على صفحة المغيب كخط
قاتم من سطوح المنازل والمداخن واعواد بيوت الزراير). - فانا
الآن، اعرف على ما يبدو، لماذا اطوف. ربما انظر وتصفو
سريرتي، وعندذاك...-لاذ بالصمت فجأة واشاح بوجهه واغرورقت
عيناه بالدموع. ولكي يستر اضطرابه اضاف بضحكة فاترة،
- اما انت فتسكع عمرك كله كالطقيلي، انت طقيلي حقا.

- في رأيي هذه اقوال سخيفة. - اجابه الدرويش - فلكل
ماله. هناك اشخاص يشعرون بفرح كبير وهم جلوس على
كراسيهم، وهناك اشخاص يشعرون بفرح كبير أيضا عندما يجوبون
المدينة في العربات ويعزفون على الاكورديون. لا ضير في ذلك.
الضرر كل الضرر في اضطراب الذهن وتشوشه. ما ادراك؟ ربما
انا ايضا هارب من ضميري؟..

في اليوم العاشر وصلا الى الفولغا من جديد. وبعد الحوار قرب
كومة القش لم يعد الدرويش يفتني. بل غرق في تأملاته مطاطا
الراس. وغرق الكسي بتروفيتش هو الآخر في تأملات واضحة مفرحة.
خيل اليه ان العاصي كله هوس وهلوسة، ككابوس خائق وما هو

الآن يسير في الشمس بين الجودار، ويشعر بحب غامر لم يشعر
بمثلها في السابق ابدا...

في قرية مطلة على النهر، تبعد عن ضيعة الامير زهاء ثلاثين
كيلومترا، احتجز الشرطي الدرويش وتفحص هوية الامير وهز رأسه
وقال:

- طيب، اذهب، لكننا لا نسمح بالتجول دون عمل... فخذ
بالك، يا ابن الكلب، اذا وقعت في يدي مرة اخرى صاحبك.

اخذ الكسي بتروفيتش الهوية وترك القرية الى اجمة البلوط
على ضفة النهر. وعندما خيم الظلام لمعت انوار المدينة كالنجوم
على تلال الضفة الاخرى.

كل شيء هادي، مألوف: سكون الاجمة وخرير الماء وهذه الانوار
اللماعة كالنجوم. رقد الامير على العشب في الظلمة واستسلم
للبيداء. «عزيزتي كاتيا، يا زوجتي الحبيبة».

الفصل الاخير

- ١ -

في مساء اليوم التالي اندفع الناس من مبنى فندق كراسنوف
الذي يشغله مسرح المدينة. بلبل المطر الرصيف المعبد بالاسفلت
والمضاء بمصباح معتم. لفظ باب الفندق جمهورا متعاشكا سرعان
ما توزع على الرصيف. اسرع البعض عائدين الى بيوتهم، وتوجه
البعض الآخر الى المطاعم ظل عدد من الرجال هناك للتفرج على
السيدات والآنسات. شق الاقطاعيون القادمون من الارياف النائية
طريقهم بخشونة وهم يتدافعون بالمرافق ويكررون: «معذرة، معذرة».
اما اقطاعيو الناحية فقد تنحوا بتأدب وراحوا يتجادبون اطراف الحديث
بشأن موضوع المسرحية. وعندما خرج كبير النبلاء الذي يتحلى بكل
مزايا التربية الانجليزية بالاضافة الى البدانة ترك البواب موقعه
وهرع صانعا باعلى صوته. «احضروا العربية!»

وقف الموظفون على جانبي المدخل يتفحصون الوجاه بفضول.
وتزاحم طلاب في قبعات بروسية الطراز عند الباب ليمتعوا انظارهم

برؤية الاوانس ويهتفوا للممثلة التي ادت الدور الرئيسي في
المسرحية.

وعلى الرصيف البليل سارت السيدات والاونس وزوجات
الموظفين والتجار متلفعات بالوشاحات والشيلان رافعات اطراف
التنورات.

واخيرا ظهر في الباب فولكوف وكاتيا. فهمس الطلاب:

- انظروا، كراسنوبولسكايا!

حتى موشينكين، وهو موظف قصير القامة بشارين طويلين
للغاية، قفز مرتبكا وكأنه ظهر من تحت قدمي كاتيا ورفع رأسه
مندمعا.

حقا، كانت كاتيا في منتهى الجمال بمعطفها الابيض وقبعتها
الصغيرة المصفورة من بنفسج اصطناعي. محيها العاجي صارم
التقاطيع وشفتاها مزهومتان بانفة واستعلاء وعيناها متسعان
متقدتان.

كانت منفعلة للمسرحية. فكل كلمة فيها تتحدث عن ماضي كاتيا
نفسها. وكان الرجال ينظرون من المقصورات ومن القاعة الى
مجلس كراسنوبولسكايا بوقاحة وخسة. فكانت تتعذب لهذه النظرات
التي ظنتها متعمدة.

خلع البواب قبعته وسأل من فولكوف:

- على من اناذي يا صاحب المعالي؟

- بيوتر، يا اخي، بيوتر. ناده باعلى صوتك - اجاب فولكوف،

فزق البواب في طول الساحة وعرضها:

- بيو.. ترا احضر العربية!

عندما صعدت كاتيا العربية بعد ايها علق فستانها بالمقبض
والتفتت. «كاتيا!» - سمعت صوتا يناديها عن كسب فانتفضت
وحملت في تلك الجهة ثم رفعت راحتها في الحال وغطت عينيها
وهبطت في المقعد العميق. وتحركت العربية.

كان الامير واقفا قرب عمود المصباح الكهربائي حاسر الراس في
ثياب بالية مهلهلة وفي بقية من حذاء ممزق. اشراب بعنقه وشيع
العربة المنطلقة بنظراته وراح يكرر كلمة واحدة لا غير: «كاتيا...»
وقال له شرطي:

- ماذا تفعل هنا؟ اذهب، هيا.

ما ان ابتعد الامير عن عمود الكهرباء حتى رأى سوروباً يتطلع فيه عبر نظارته المنفردة بفضول ما بعده فضول.

- لم هذا الزى المتكرر؟ - يا امير هتف سوروباً وامسك بذراع الكسي بتروفيش ثم نادى حوزيه وحمل الامير بالقوة على الصعود الى المركبة الانجليزية الصقيلة رغم محاولته للتملص من قبضته. وغمغم الامير: «هذا يلزمني، اتركني وشأني لا اريد الذهاب». وامر سوروباً الحوزي بالاسراع في اتجاه الهضبة كي يتمكن من بلوغ الضفة الثانية من النهر مع آخر عبارة.

هذا الكسي بتروفيتش وسكن محني الظهير في المركبة. كان يرد على الاسئلة باقتضاب ويحاول ضبط نفسه كيلا تصطك اسنائه من شدة القشعريرة التي انتابته. وادرك الامير ان سوروباً والآخرين سيفعلون بكل بساطة، طبعاً، ما لن يتجرا عليه هو ابداً. وقال فولكوف لابنته وهو يتمايل في العربة.

- الحقيقة انها مسرحية سخيفة. فعم كانوا يتصايحون؟ ذلك ما لا افهمه. واقول لك انني غفوت قليلاً. اما انت، يا عزيزتي، فلا يجوز لك ان تنفعلي. هل تشعرين بالتعب؟

- كلا، ابداً، يا بابا. - اجابت كاتيا، وضغطت قبضتيها بشكل غير ملحوظ. - الا انني لا اريد المبيت في المدينة. فلنذهب الى البيت.

- انت مجنونة! العمة اولغا تنتظرنا على العشاء. فكيف يجوز ان تغضب العجوز؟ ولكن لا تنفعلي، سناكل لقمة ثم نعتذر بسبب الاشغال ونرتحل. آه يا كاتيا، لا افهم شباب اليوم. رؤوسكم مليئة بالهوس والباطيل. في السابق كانت الحياة ابسط.

- ٢ -

ما كان فولكوف يجانب الصواب عندما قال ان شباب اليوم مهووسون او «هوائيون» على حد تعبير العمة اولغا. فالعام الحالي كان عاماً اسود بالنسبة له. ظلت كاتيا مريضة الشتاء كله، وما كادت تتماثل للشفاء حتى فلت لسان كوندراتي وقال لها ان الطبيب غرق آنذاك تحت جليد النهر، وعند ذلك بدا «الهوا» او الهوس

يجول ويصول في رأسها، حتى ان فولكوف اراد ذات مرة ان يترك المنزل ويهيم على وجهه... بعد ان نفذ صبره ولم يعد يتحمل.

في الليل تأتي كاتيا الى والدتها شبه عارية وهي ترتعش وتحقق في الاركان المظلمة وتجلس على الاريكة متربعة دون حراك وتحملق في لهيب الشمعة. ثم تجتاح وجهها رجفة متشنجة فتنتفض كالصروعة وتصطك اسنانها. ثم تحدث اباهاً للمرة المائة عن كل ما جرى في تلك الليلة المشؤومة. ولكي يصرف انتباهها ولو قليلاً عن تلك الاحاديث قال فولكوف لابنته بعد تفكير:

- اعتقد ان غريغوري ايفانوفيتش لم ينتحر بمحض ارادته، ولا علاقة لك انت بذلك. كان مقدر له ان يموت.

- ماذا تقول؟ - سألت كاتيا وبدنها كله يختلج ويهتز - كان مقدر له؟ يعني انه ضحية، اليس كذلك؟

وهذات فجأة وعاد اليها اطمئنانها. وذات مرة ذكرت الامير، ببساطة، بابتسامة مريرة على الشفتين لا اكثر. اطلق فولكوف شتيمة فلم تواصل كاتيا كلامها، ولكنها، على ما يبدو، كانت تفكر كثيراً ويحدثها قلبها بشيء. حل الربيع. وقال الاب مرة.

- كاتيا، عزيزتي، الا نזור العمة اولغا؟

- لم لا؟ - هزت كاتيا كتفيها.

اما ساشا فكان لتلك الفاجعة تأثير آخر عليها. عندما غادر غريغوري ايفانوفيتش البيت مع الاميرة ادركت ساشا بانها لن يعود، واذا عاد فسيكون غريباً عليها. وستكون هي غريبة عليه. وادركت كذلك ان حياتها معه كانت غلطة، فقد توجب عليها آنذاك، عند سياج البستان، ان تنصرف ولا توافق على الزواج. رقدت وراء الستار وطفقت تفكر برداء العجائز الذي ستلبسه وبالدروب التي ستسكع فيها ملتزمة الصدقة لوجه المسيح. واحست بانها لن تعيش في خضم العواطف كما كانت حتى الآن، بل في هذا التائر المستكين الدائم امام السماء والارض والبشر.

عند الفجر سمعت طرقاتاً على الباب فاقشعر بدنها وارتعشت كورقة حور. التقت انفاسها وفتحت الباب فدخل الاب فاسيلي والقي عليها نظرة صارمة وقال.

- غرق، غرق غريغوري ايفانوفيتش.

طاطات ساشا راسها وغمغمت:

- رحمتك يا رب! - رسمت شارة الصليب وجلست على المصطبة، فلم تعد قدماها تحملانها.

قص عليها الاب فاسيلي كل ما حدثه به فلاح من قرية كوليفان كان قد شارك مع خدم الامير في انقاذ الاميرة من برائن النهر. استمعت ساشا الى القصة بهدوء وقالت اخيرا:

- خذ، يا ابانا، هذه النقود واقم القداس على روح عبد ربه غريغوري، فهو لم يفرق، بل اغرقه.

قضت ساشا الشتاء كله في منزلها دون ان تغير من عاداتها في رعاية الماشية والالتزام بالنظافة والترتيب. وفي المساء كانت تجلس الى الطاولة وتتطلع الى الكتب التي احبها غريغوري ايفانوفيتش، وعندما يشتد صغير الزوبعة الثلجية على السطح تقطب ساشا حاجبها ظانة ان هذا الصغير هو نقيب روح غريغوري ايفانوفيتش التي لم يتسع لها الوقت كي تعلن التوبة.

وعندما حل الربيع غادرت القرية وقد شددت على راسها منديلا قطنيا اسود على طريقة الراهبات. ومنذ ذلك الحين لم يصادفها احد.

- ٣ -

اصرت كاتيا على الرحيل الى البيت فور انتهاء العشاء. ولم تجد نفعا لا توسلات العمة اولغا ولا غمزات الاب وتلميحاته. وعند الفجر جلست على سريرها متعبة للغاية وقد اخذ الانفعال منها ماخذه. جلست تنتظر عودة كوندراتي الذي انشغل باعداد الفراش لابنها. كانت كاتيا تتصور وتتوقع دوما ان الامير يعد لها اهانة اخيرة، فصارت تستعد للدفاع. وهو في تصوراتها شخص يسخر منها دوما، بينما هي انسانة مهانة لا جريرة لها. وافضل وسيلة للدفاع طبعاً هي اللامبالاة والاستهانة والهدوء «البارد» اثناء اللقاء. لكن كل هذه الابتكارات السخيفة لم تعد تصلح لشيء الآن.

فالامير التعيس النحيل بشبابه البالية عكر صفو افكارها واثار فضولها. لم يكن ظافرا منتصرا يسخر منها، بل كان يستجدي،

يستعطفها بان تتصدق عليه بنظرة وكان في تلك النظرة حياته او موته.

هذا ما تتصوره الآن، وقلبيها يتفطر من اللوعة والالام. واغرب ما في الامر انها لم تعد تشعر بالاهانة الحاقدة كالسابق مع انها ترغب في هذا الشعور.

واخيرا جاء كوندراتي. فتح الباب برفق وسأل بلهجة مشوبة بالالغاز.

- ماذا تريد يا سيدتي؟

- كوندراتي، لقد رايت الامير. (سعل كوندراتي). انا لا افهم شيئا على الاطلاق... كان يستجدي، تعيسا نحيلاً... ماذا؟ هل قتل احدا؟ ولماذا يتخفي؟

- محتمل انه قتل احدا - اجاب كوندراتي.

- ارجوك لا تقل شيئا لبايا. اذهب الآن الى ميلويه او الى المدينة... اذهب الى اين تريد... - تعذر عليها الكلام لحظة. - ابحت عنه ولا تقل له اني ارسلتك... آه، لا فرق، قل له ما تريد... ولكن فليكن عن تعذيبي.

انصرف كوندراتي. ظلت كاتيا جالسة على السرير تنظر الى اشعة الشمس التي خلفت من خلال الاوراق لمعا على الارضية الخشبية العتيقة. وتناهى من البستان عبر النافذة المفتوحة صوت صفارية وهديل حمامة وزقزقة عصافير. كان البستان الاخضر المتفتح لا يزال نديا. وفي القسم العلوي من النافذة راحت ذبابة حمقاء تتخبط على الزجاج دون ان تنتبه الى ضرورة الهبوط الى اسفل. ولعل الذبابة تتصور ان السماء الزرقاء خلف خيشومها المنزلق على الزجاج والاشجار والفراشات البيضاء كالزهور والاطيار والندى مجرد حلم لن يبلغه الا بعد ان تضرب جداره براسها حتى الموت.

- ذبابة مزعجة! - قالت كاتيا وانزلت من السرير وطبقت على الزجاج بالمنشفة حتى طردت الذبابة الى البستان، ثم اشبكت يديها خلف ظهرها وراحت تذرغ الغرفة جيئة وذهابا.

مر بذاكرتها شريط كامل لهذا العام المؤلم العسير. ولا اثر للفرحة فيه. لكنها الآن، وهي تستعيد الذكريات، لم تشعر بالالام

والقنوط، حتى لكان كل ما حدث استكمل مساره وانحسر الى غياهب الضباب وتحول الى كآبة لذيدة، وظل باقيا لديها شعور بالحرية وبفرحة لا تعرف سببها كالتى تصادف عند اناس في عنفوان الشباب والحماسة.

دعت كاتيا وجهها وعينيها براحتها ونفضت رأسها وتطلعت فجأة بمنتهى الوضوح الى اعماق الروح.
وبعد تلك الاطلالة في الاعماق عاد اليها الاطمئنان وانطبعت على شفيتها ابتسامة رقيقة صافية. وتمتمت:
- طيب، انا مستعدة.

- ٤ -

تجمع كل خدم ضيعة ميلويه في المطبخ ليستمعوا الى الوصيف فاسيلي وهو يحدثهم عن معالي الامير الذي وصل بصورة مباغتة ليلة البارحة ولا يعلم الا الله من اين جاء.

- رايت متشردا يدخل المنزل فصحت به: الى اين انت ايها الاشعث؟ اما هو فقد انحنى لي وقال «مرحبا، يا فاسيلي. كيف الحال؟ كل شيء عندنا على ما يرام؟» وتسمرت في مكاني. فانا اراه امامي بشباب اسوا من ثياب راعينا يفيمكا. وبعد ذلك رافقته الى الدور الثاني، الى غرفة النوم. اشار الى المقعد وسأل: «الاميرة جلست في كل مكان». واخذ ينظر الى المقعد وكانما ينظر الى امرأة. لم اضبط نفسي وكدت انفجر ضاحكا. ثم قال: «اذهب، سادبر امرى بنفسى، ولكن سخن الحمام». واخذت ابص من شق الباب. فالى اي حد وصل. هوى على سرير الاميرة وعائق الوسائد. جاء متعطشا بعد ان نهشته نسوان المدينة. وهو الآن نائم. سينام يومين بكاملهما اذا لم نوظفه. نعم، خدمت عند اسياذ كثيرين لكنني لم ار مثل هذه العجائب.

عدل فاسيلي صديريه الذي تتدلى منه سلسلتان واخرج حافظلة السجائر التى اهداها له الامير في حينه واشعل سجارة ووضع رجلا على رجل.

- لا ادري كيف سيواجه الاميرة. سيكون ذلك صعبا جدا وستحدث عجائب كثيرة.

كان الفضول ينهش الجميع في المطبخ. وهرع آخرون من غرفة الخدم للاستماع الى فاسيلي. اما الامير فيغط في نوم عميق. وفجأة ظهر كوندراتي معبسا متربا من الباب الخلفي وسأل لاهثا:
- هل وصل.. صل.. الا.. مير؟
- وصل، ولكن ليس لدينا امر بايقاظه، - اجابه فاسيلي.
- هذا لا يهمني، يجب ايقاظه.

اضطر كوندراتي الى السعال طويلا قرب عتبة غرفة النوم وطرق على الباب مرارا حتى غمغم الامير بصوت ناعس:
- ماذا؟ سانهض. نعم، نعم... - وبعد ذلك جلس على السرير فترة طويلة، على ما يبدو، ليستعيد حالته الطبيعية ثم قال بصوت آخر. - ادخل.

دخل كوندراتي مزوم الشفتين. حلق فيه الكسي بتروفيتش عدة دقائق، ثم قفز من السرير وهرع اليه واجلسه على كرسي وشحب لونه وارتعش لدرجة جعلت الخادم العجوز ينسى كل الكلمات الشائنة التي اراد ان ينهال بها على معاليه، فاشاح بوجهه وعلك بفكيه واكتفى بان قال:
- الاميرة طلبت مني ان اسأل عن صحتك. كادت تموت في الشتاء. وهي لا تريد ان تراك ابدا.

- كوندراتي، هل ارسلتك بنفسها؟ - امسك الامير بيده.
واضح انه ليس لدي ما اجيبك به طالما تصرفت بنذالة. كل ما امروني به اسأل عن صحتك.
لاذ الامير بالصمت طويلا. ثم استند بمرفقيه على الطاولة وانتحب. اعتصر الالم قلب كوندراتي، لكنه ضبط نفسه وقال متراجعا نحو الباب:
- هذا كل ما عندي.

- لا تذهب، تمهل - غمغم الامير واشرب بعنقه عبر الطاولة - ساكتب لها.

واخذ يسطر حروفا مرتعشة بريشة صدنة:
«عزيزتي كاتيا... (كتب هاتين الكلمتين ثم شطبهما) لا اطلب منك شيئا ولا اتجرا على شيء... لكنك الانسان الوحيد الذي احبه في هذا العالم. كان لي رفيق، وهو الآن في السجن، وقد

علمني كيف احب... عندما افكر فيك يمتلئ فؤادي بالنور والفرحة
وبسعادة لم اعرفها في السابق ابدا... واضح انني لا املك الحق
في... ومع ذلك سامحيني... اذا كنت تستطيعين ان تسامحيني...
فسأتي زاحفا على الركبتين...

- 5 -

قبيل المساء وصل سوروبا الى ضيعة فولكوف (فقد تردد
عليها كثيرا الصيف) وتوجه مباشرة الى مكتب الكسندر فاديميتش
واخذ يتحدث عن الامير بمنتهى الاستياء. الا ان فولكوف القمه
حجرا:

- اعرف كل شيء، واعتبر ذلك مصيبة كبرى شاب لها شعري،
لكنني ارجوك، يا سيدي، ان لا تذكرني بعد الآن بهذا الفاسق. -
اقترب من النافذة وغير مجرى الحديث وطقق يتكلم عن الزراعة.
في تلك الاثناء دخل كوندراتي الحوش على عربة بعجلتين
«اين كان هذا العجوز العبيط؟» - فكر فولكوف ومد يده
عبر النافذة وصاح به:

- اين كنت؟

هز كوندراتي راسه واقترب بعربته من النافذة واوضح لسيدة
بانه جاء برسالة الى السيدة. فقال فولكوف: «هكذا اذن!» واغلق
النافذة ومضى الى ابنته.

اضطرب سوروبا اشد الاضطراب، فقد حزر ان الرسالة من
الامير.

وما ان مرت دقيقة حتى دخل فولكوف مهرولا لاهثا محتقن الوجه
في حالة من الهياج الشديد.

- خالية! - صاح وهو يهز المحبرة - اين القلم؟ - التقط
بسرعة القلم الذي قدموه له وكتب في الحال: «س.م» (سيدي
المحترم) على نفس الورقة التي رسم على صفحاتها الاخرى قبل عام
ارنيا وتعلبا وذئبا وكلابا. ثم غاص في المقعد ومسح حبات العرق
على جبينه.

وسأله سوروبا يحذر:

- ماذا حدث؟ خبرني، فربما استطيع مساعدتك.

- وقاحة، ابعد حدود الوقاحة! - زعق فولكوف - كلا، لا بد
ان ارد على هذا السافل. - وكتب. «س.م. تعوزني الكلمات
المناسبة للتعبير عن وقاحة تصرفك». بعث قصاصة يعتذر فيها
وكان شيئا لم يكن! سارد عليه من كل بد: «ابنتي ليست خادمة
حتى ترسل لها قصاصة ورق. افلا يمكنك ان تأتي بالفعل زاحفا
(ووضع خطأ تحت هذه الكلمة) وتركع تحت نافذتها وتطلب الصفح
منها؟»

- اليس في ذلك خشونة كبيرة؟ - قال سوروبا وهو يقرأ
عبر كتف فولكوف بنظارتة الفردية المتقافزة على عينه. - مع ان
امثال هؤلاء الاشخاص القليلي الادب لا يمكن وقفهم عند حدهم بغير
هذه الصورة. انصحك ان توكل محاميا. ولكن كيف حال كاتيا؟ هل
هي متألمة؟

- ماذا؟! - زعق فولكوف بصوت اعلى - تبكي طبعا. وانت؟
ما شأنك انت؟ اغرب عني!

الا ان كاتيا لم تبك. كانت تنتظر عودة كوندراتي، فتقف ازاء
النافذة وتشد قبضتها تارة او تجلس في المقعد العميق تارة اخرى
وتأخذ كتابا وتقرأ فيه طوال الوقت جملة بعينها: «عند ذلك نهض
يوري المغمم بالغضب النبيل وعدل قامته وهتف. - كلا، ثم كلا».
وتلقى بالكتاب جانبا وتكرر مع نفسها: «يجب ان اكون متشدة». وفي
تلك الاثناء تحلق افكارها وتهوم بعيدا، وترى من جديد كرة
المصباح الكهربائي وتحتها، على الاسفلت البليل، ذاك الشخص
في حالة يرثى لها بعينه السوداوين المتسعيتين في جنون... كانت
كاتيا تغطي وجهها بيدها وتنهض وتجوب الغرفة من جديد وتأخذ
الكتاب وتقرأ: «عند ذلك نهض يوري المغمم بالغضب النبيل...» يا
الهي، متى يعود كوندراتي، النهار يمتد كالدهر ولا اثر لكوندراتي!
واخيرا تناهت من الرواق خطوات الاب الثقيلة، وفتح الباب
بصخب على مصراعيه ودخل كوندراتي مع فولكوف والرسالة بيده.
شحب وجه كاتيا حتى غدا كالليمون، وضغطت شفيتها. مزق
الاب الظرف ودس الورقة بيدها. فاخذت تقرأها ببطء. وقبل ان
تتم قراءتها فهمت كل شيء... كل المشاعر التي اعتملت في قلب

الامير عندما حبر هذه السطور المعوجة الباكية. ومدات اعصابها
واطمانت نفسها. سلمت الرسالة لوالدها. فقرأها على عجل وسال
بصوت جاف من شدة الانفعال:

- هل ستردين عليه بنفسك؟

- لا ادري. كما تشاء. بالنسبة لي سواء...

- سارد عليه انا اذن - جار فولكوف - سارد عليه...
فليزحف على ركبتيه... يتفاخر بانه سيزحف على ركبتيه...
فليزحف اذن!

- معاليه في اسوا حال، - تدخل كوندراتي بحذر - فهو
متألم جدا.

- اخرس!... اعرف بنفسى ما يلزم! - زعق فولكوف ودس
رسالة الامير في جيب سرواله وخرج من الغرفة راكضا...
ونادته كاتيا:

- بابا، تمهل... سارد عليه بنفسى! - وهمت بالتوجه الى
الباب راكضة، لكنها توقفت واسبلت يديها، وخاطبت كوندراتي
قائلة: - كل شيء، سواء، فليكن ما يكون.
واجابها الوصيف العجوز:

- سيأتي اليك زاحفا على ركبتيه. فهو في حالة ستجعله
يزحف اليك.

بعثوا الجواب الى الامير مع تباشير فجر اليوم التالي. وكانت
كاتيا تعرف ما كتبه ابوها، ومع ذلك فهي مطمئنة صافية الذهن.

- ٦ -

سبحت فوق ضيعة فولكوف منذ الصباح، غيوم رمادية كال دخان.
وفاحت روائح مركزة من السنابل والاعشاب، وتصاعدت اعمدة
الغبار على الدروب، وانداحت الرعود منسحبة الى ما وراء
الهضبة، ولمعت البروق، لكن المطر لم يهطل بعد، فلعله ينوي
مباغته سطح المنزل والبستان والحقول بوابل غزير دافى...
جلس فولكوف عند نافذة العلية المطلة على مدخل الدار

والمحفوفة باغصان البتولا واغلق احدى عينيه وحملق بالآخرى
في منظار مسلط على الطريق.

تسلق الصبيان من ابناء الخدم سطح مستودع العربات
وراحوا ينظرون في نفس الاتجاه الذي يمتد فيه الطريق مطوقا
الهضبة كالحزام ثم يضيع في بحر السنابل.

في بوابة المستودع المفتوحة على مصراعها ينتظر حسان
رمادي مشدود الى عربة خفيفة جلس حوذها على جذع قرب الجدار
وهو يربت على جزمته بالسوط. خرجت العالبة من السرداب
ووضعت دلو اللبن على العشب واخذت تتطلع هي الاخرى وقد
شبكت يديها في اعلى منزرها.

وصل فلاح في حنطور وخلع قبعته وانحنى لسيدته في النافذة
ثم نزل وظل واقفا دون حراك. كان الجميع ينتظرون.

تمددت كاتيا بملابسها على السرير وغرزت وجهها في الوسادة.
فقد عاد الرسول الذي حمل الجواب الى ميلويه وافاد بان الامير
بدا زحفه.

وقبل ثلاث ساعات توجه كوندراتي للقاءه. في تقدير فولكوف
لا بد للامير الآن من تسلق الهضبة الرملية التي يأتي بعدها
صنصاف الشاطيء، وهي هضبة الجياد تلاقى صعوبة كبيرة في
سحب المركبة اليها.

وفجأة صاح الصبيان على السطح:

- ها هو قادم، قادم!

اسرع فولكوف الى ابنته وهو يحف بخفه. الا انها كانت قد
خرجت الى المدخل، وقد انفرطت ضفائرها وانساب شعرها على
ظهرها. تشبثت بعمود المدخل واخذت تحدق بتوتر في ابعد جزء من
الطريق.

وسال الفلاح الواقف قرب الحنطور من العالبة:

- من ينتظرون يا عمى؟ القائم مقام؟

- ربما. الله اعلم! - اجابت المرأة ورفعت الدلو وانصرفت.
ظهر على الطريق من وراء الهضبة شخص يسير ماشيا، فصاح
الصبيان من جديد.

- امرأة، امرأة متسولة...

وعندذاك تركت كاتيا العمود وهبطت الى الحوش ونادت
الحوذي: - اسرع بالعربة!

اندفع الحصان الرمادي من بوابة المستودع وجلجلت العربة
فقفزت كاتيا اليها وانتزعت العنان من يد الحوذي وساطت به
الحصان فانطلق مخلقا عاصفة من الغبار.

ظلت سحابة الغبار معلقة فوق الطريق امدًا طويلًا ثم غيرت
اتجاهها وتحولت الى عمود حلزوني راح يدور في الحقل مثيرا
الرعب في قلوب الوسواسيين، فهم يعتقدون بأنه لو ضرب احد
هذا العمود الدوار بسكين لتناثر في الحال مخلقا قطرة دم عليها.

في منتصف الطريق الصاعد الى الهضبة الرملية بين شجيرات
الصنصاف المتباعدة ركع الامير الكسي بتروفيتش على ركبتيه
ويداء على الرمل وقد تدلى رأسه ووجهه يتصبب عرقا وانفاسه
تتلاحق بصفير وعروق رقبتة منتفخة زرقاء.

ووقف كوندراتي خلفه ممسكا بلجام حصان اشقر يهز رأسه
ليتخلص من ذباب الخيل. وقف كوندراتي يتنهد ويتحسر ويتطلع
الى الامير بنظرة ملؤها الشفقة والعطف.

حوم الذباب حول الامير ايضا، الا ان كوندراتي كان ينشه
ويمنعه من ان يحط عليه. وقال:

- كفاية، يا سيدي، انهض، فالهضبة عالية. اركب الحصان
وعندما تلوح فولكوف من بعيد يمكنك ان تزحف من جديد، فالطريق
هناك منحدر.

قوم الكسي بتروفيتش ظهره بصعوبة وحرك ركبته المحكوكة
التي تغتر عليها الدم في سرواله الممزق ومضى بسرعة زاحفا الى
الامام. وما كاد يتقدم بضع خطوات حتى سقط من جديد. كان وجهه
رماديا وعيناه شبه مغمضتين وقد التصقت خصلة شعر بوجهته
وتعمقت الغضون حول شفثيه.

وكرر كوندراتي:

- لا تزال المسافة بعيدة، اركب الحصان، ارجوك، لخطر

المسيح!

تطلع الامير باكتئاب الى الهضبة الرملية و... تسمر.
فقد اندفعت كاتيا هابطة من الهضبة وهي تستحث الحصان
الرمادي بسيور العنان. وما ان رأت زوجها حتى انحرفت بالعربة
بشدة وقفزت منها قبل ان تتوقف وهرعت اليه. جلست القرقصاء
امامه ورفعت وجهه على عجل، فاعتدل الامير وامسك يدها بقوة
وقرب وجهه من وجهها قدر ما يستطيع وحدق في عينيها الرائعتين
المغرورقتين بالدموع...

- احبك، احبك طبعًا، - قالت لزوجها وساعدته على النهوض.

سنة ١٩١٢

طفولة نيكيتا

الإعداد

الى ولدي

نيكيتا الكسييفيتش تولستوي
مع وافر الاحترام.

المؤلف

صباح شمس

تنهد نيكيتا وفتح عينيه الناعستين. الشمس مشرقة عبر دانتيلا الجليد على زجاج النوافذ. عبر النجمات الرائعة والاوراق العريضة المرسومة عليه بالفضة المتجددة. الضوء في الغرفة ناصع البياض كالثلج، ومن طست الغسال قفزت بقعة ضوئية الى الجدار وظلت ترتعش معلقة هناك.

حالما فتح نيكيتا عينيه تذكر ما قاله النجار باخوم مساء امس: - سأطليها جيدا واصب الماء على اسفلها حتى يتجمد وعندما تستيقظ في الصباح ستكون جاهزة، فخذها.

مساء امس اعد النجار الاعور المجدد الوجه مصطبة - زحافة تلبية لطلب ملح من نيكيتا. وقد صنع الزحافة على النحو التالي: في مستودع العربات، على منضدة التجارة، بين نشارة الخشب الفواحة الملتوية في حلقات لا تعد ولا تحصى، نجر باخوم لوحين بينهما اربع قوائم وعالجها بالمسحل حتى غدت صقيلة. قطع حافة اللوح الاسفل بشكل مائل من طرفه البارز الى الامام كيلا

ينفرز في الثلج، وفي اللوح العلوي حفر ثقبين للساقين كي يسهل الجلوس عليه. وطلّى اللوح الاسفل من تحت بالسرقين وصب عليه الماء ثلاث مرات في الصقيع حتى تجمد وغدا كالمرآة، وربط حبلا الى اللوح العلوي يستخدم في سحب الزحافة وفي توجيهها عندما تنزلق بسرعة من المرتفعات.

الزحافة جاهزة الآن طبعا وهي تنتظر عند المدخل. تلك هي عادة النجار باخوم اذا قطع على نفسه عهدا «بكلام شرف».

جلس نيكيتا على حافة السرير واخذ يتسمع السكون يعم المنزل. لم يستيقظ احد بعد على ما يبدو. واذا ارتدى ملبسه على عجل، دون ان يغتسل وينظف أسنانه طبعا، فيمكنه ان يخرج الى الحوش من الباب الخلفي. ومن هناك الى النهر. على ضفاف النهر المنحدرة اكوام ثلج كثيرة، فأجلس على زحافتك واهبط بها محلقا...

ترك نيكيتا سريره وسار على اطراف اصابعه في المربعات الشمسية الساخنة على ارضية الغرفة...

فتح الباب آنذاك ولاح منه رأس في نظارة وحاجبين اشقرين نافرين ولحية شقراء صارخة. غمز الرأس باحدى عينيه وقال: - نهضت يا شيطان؟

اركادي ايفانوفيتش

كان ذو اللحية الشقراء، اركادي ايفانوفيتش معلم نيكيتا، قد عرف كل شيء منذ الامس، فاستيقظ هذا الصباح قبل المعتاد. وهو داهية وحازم الى حد مدهش. دخل غرفة نيكيتا ضاحكا وتوقف عند النافذة ونفخ الهواء الحار من فمه على الزجاج حتى غدا شفافا وعدل نظارته وتطلع الى الحوش. وقال: - قرب المدخل زحافة ممتازة.

لاذ نيكيتا بالصمت وعبس، فلا مهرب اذن من تنظيف الأسنان وغسل الاذنين والرقيقة فضلا عن الوجه. ارتدى نيكيتا ثيابه واغتسل فعانقه اركادي ايفانوفيتش من كتفيه واقتاده الى غرفة الطعام. جلست ام نيكيتا عند المائدة وراء السماور، وكانت

في فستان رمادي دافئ. لمست وجه نيكيتا وتطلعت بعينيها
الصفائيتين في عينيه وقبلته.

- هل نمت نوما هادنا يا نيكيتا؟

ثم مدت يدها الى المعلم وسالت برقة:

- وانت يا اركادي ايفانوفيتش، كيف نمت البارحة؟

نمت، بالطبع، نوما جيدا - اجاب باسمي لشيء لا يعلمه الا
الله وتحرك شاربايه الاشقران وجلس الى المائدة وصب القشدة
السائلة في الشاي وقذف قطعة سكر في فمه وامسك بها بأسنانه
البيضاء وغمز لنيكيتا من وراء النظارة.

اركادي ايفانوفيتش شخص لا يطاق، فهو يمزح ويغمز بعينه
دوما ولا يتكلم بصراحة ابدأ، بل بتلميحات ينقبض لها القلب.
سألته ماما، مثلا، بوضوح تام «كيف البارحة؟» فيماذا اجاب؟
«نمت، بالطبع، نوما جيدا». وتعني «بالطبع» هذه «ان نيكيتا اراد
ان يفر الى النهر بدون شاي الصباح تهربا من الدروس، وانه
بدلا من ترجمة النص الألماني جلس مساء ساعتين مع النجار
باخوم في مستودع العربات».

صحيح ان اركادي ايفانوفيتش لا يتشكى ابدأ، لكن نيكيتا
مضطر دوما الى الحذر والاحتراس.

أثناء احتساء الشاي قالت أمه ان الصقيع امتد في الليل
وتجمد ماء البرميل في الدهليز، ويتعين على نيكيتا ان يرتدي
القلنسوة الواقية من الثلج عندما يذهبان للترجمة.

فقال نيكيتا:

- ماما، الحر شديد، والله.

- أرجوك، البس القلنسوة.

- انها تقرص خدي. اختلفت بها، يا ماما وسأصاب بالبرد.

ألتت الأم نظرة صامتة على المعلم وعلى ابنها.

وقالت بصوت مرتجف:

- لا أدري كيف وصلت الى هذا الحد من المشاكسة.

- حان وقت الدرس، فلنذهب - قال المعلم ونهض بحزم
ومسح يديه على عجل وكانما لا يوجد على وجهه البسيطة شيء. امتع
من حل مسائل الحساب واملاء الحكم والأمثال التي تجلب النعاس.

في غرفة واسعة بيضاء على احد جدرانها خارطة لشطرى الكرة
الأرضية جلس نيكيتا الى مكتب تغطيه بقع الحبر ومختلف
الرسوم. فتح اركادي ايفانوفيتش كتاب الحساب وقال بصوت
نشيط:

- طيب، اين توقفنا أمس؟ - ورسم بالقلم الرصاص الحاد
السن خطا تحت رقم المسألة المطلوبة.

«باع يزاز عدة اذرة من القماش الأزرق بـ ٣ روبلات و ٦٤
كوبيكا للذراع الواحد ومن القماش الأسود...» - قرأ نيكيتا،
وتصور في الحال، كما هي عادته دوما، هذا اليزاز الذي اطل عليه
من كتاب الحساب بسترة طويلة متربة ووجه أصفر كثيب، وهو
نحيل باهت أغبر. حانوته معتم كجحر في الأرض، وعلى الرف
المسطح المغبر قطعتان من القماش. مد اليزاز يديه العجفاوين الى
الرف واخذ القطعتين وتطلع الى نيكيتا بعينين كاييتين جامدتين
كعيون الموتى.

- بم تفكر يا نيكيتا؟ - سألته اركادي ايفانوفيتش - مجموع
ما باعه اليزاز ثمانية عشر ذراعا، فكم ذراعا باع من القماش الأزرق
وكم من القماش الأسود؟

انكمش وجه نيكيتا وانضغط اليزاز على الجدار حتى غدا
مسطحا. وغطى الغبار قطعتي القماش ثم اطبق عليهما الجدار...

وقال المعلم: «يا عيب الشوم!»، وأخذ يشرح ويكتب الأرقام
بالقلم الرصاص بسرعة ويضربها ويقسمها ويكرر: «باليد واحد،
باليد اثنان» وخيل لنيكيتا ان رقم «واحد» ورقم «اثنان»، خلال
عملية الضرب، قفزا بسرعة من الورق الى اليد واخذوا يدغدغان
راحتها، كيلا ينسأهما. وأزعجه ذلك كل الأزعاج، في حين يلعب
شعاع الشمس في نافذتي غرفة الدراسة المتجلدتين ويدعوه: «الى
النهر، هيا».

وأخيرا انتهى درس الحساب، وبدأ الاملاء. سار المعلم على
امتداد الجدار وطفق يملي بصوت متميز ناعس لا يتكلم الناس به
مطلقا:

- «... كل الحيوانات الموجودة على الأرض تكدح وتعمل على
الدوام. التلميذ مجتهد ومطيع...».

انهك نيكيتا في الكتابة وقد تدلى طرف لسانه، وراحت
الريشة تصر وتقفز حبرا.

وفجأة اصطفق باب المنزل وتناهى من الرواق وقع جزمة
متجلدة. خفض أركادي ايفانوفيتش الكتاب واخذ ينصت. تعالى
صوت الأم فرحامن قريب:

- ماذا؟ جلبت البريد؟

دس نيكيتا رأسه في الدفتر كيلا ينفجر ضاحكا. ثم كرر مرتلا:
- مجتهد ومطيع كتبت، «ومطيع».

عدل المعلم نظارته:

- وهكذا، كل الحيوانات الموجودة على الأرض مجتهدة
ومطبعة... لماذا تضحك؟.. هل نفلت حبرا؟.. بالمناسبة سناخذ
فرصة قصيرة للاستراحة.

ضم أركادي ايفانوفيتش شفثيه وهدد الصبي باصبعه الطويل
كالقلم وخرج من الغرفة على عجل. وفي الرواق سال ماما:

- هل هناك رسالة لي الكسندرا ليونتييفا؟

حزر نيكيتا ممن ينتظر المعلم رسالة. لكن الوقت ضيق ولا
يجوز تفويت الفرصة. ارتدى معطفه الفرائي القصير وجزمته اللباد
وقبعته ودس القلنسوة تحت الخوان كيلا يعثر عليها احد وخرج
راكضا.

اكوام الثلج

الحوش الفسيح ملغع عن آخره بثلج هش ناصع لماغ عليه
آثار بشرية عميقة زرقاء، وآثار متكررة لقوائم الكلاب. الهواء
الصقيعي الحاد يلسع الانف وينغرز في الخدين كالأشواك. بدت
الحظائر والعنابر ومستودع العربات أوطأ من المعتاد وكأنما نبتت
في الثلج وارتدت قبعات بيضاء. امتد خطان زجاجيان خلفتهما
زحافة ساعي البريد من المنزل عبر الحوش الى الخارج.

هبط نيكيتا على مدرج المدخل والثلج يصر تحت قدميه، ووجد
في اسفله الزحافة الجديدة المنجورة من خشب الصنوبر
والمشدودة بحبل مقتول من الألياف. تفحصها وتأكد من متانتها

وجربها فإذا هي تنزلق ببسير ثم حملها على كتفه واخذ معه المعول،
فقد يحتاج اليه، وركض في الطريق على طول البستان حتى السد
الذي تنتصب ازاءه صفصافات ضخمة شاهقة الى عنان السماء
وعريضة باعضان مكسوة بالندى المتجلد و كان كل غصن منها
مصنوع من الثلج. استدار نيكيتا نحو اليمين، الى النهر، وحاول
ان يسير على آثار خلفها آخرون في الطريق، اما في الأماكن المغطاة
بثلج لم تمسه قدم فقد سار نيكيتا بالمقلوب، الى الخلف، كي
يضلل أركادي ايفانوفيتش.

على ضفاف نهر تشاغرا الشديدة الانحدار تجمعت خلال الأيام
الفائتة اكوام كبيرة من الثلج الهش. وفي بعض الأماكن اطلت تلك
الأكوام كالرؤوس على النهر. حالما يضع المرء قدمه على احدها
يتهاوى ويسقط متدحرجا الى الاسفل شلال من الثلج وسط عاصفة
من «الغبار».

والى اليمين يتلوى النهر كالظلل الأزرق بين الحقول الغالية
البيضاء. وعلى ضفة النهر العالية الى اليسار تلوح المنازل السوداء
وشواديف الآبار في قرية سوسنوفكا وفوق السطوح يتصاعد دخان
أزرق ويذوب في الأعلى. وعلى المنحدر الثلجي الذي تنتشر فيه
بقع صفراء وخطوط من الرماد الذي جرفوه صباح اليوم من الأفران
والمدافئ، تحركت اشباح صغيرة. اولئك هم اصحاب نيكيتا
اولاد «طرفنا». وفي مكان ابعده، عند منعطف النهر، لاحت اشباح
باهتة لصبيان آخرين، هم اولاد «راس القرية» الخطرون جدا. القى
نيكيتا بالمعول جانبا ووضع الزحافة على الثلج وامتهاها وامسك
بالحبل بشدة واعطاها دفعة برجليه او دفعتين وراحت الزحافة
تتزلق هابطة من تلقائها. صفرت الريح في اذنيه وتساعد نثار
الثلج من الجانبين. وانطلقت الزحافة الى الاسفل كالسهم. وفجأة
حلت في الهواء عند نهاية الثلج فوق المنحدر ثم حطت على جليد
النهر وتضاءلت سرعتها بالتدرج وتوقفت.

ضحك نيكيتا ونزل من الزحافة وسحبها الى الشاطئ المرتفع
وهو يفوص في الثلج حتى الركبتين. وعندما تسلق الشاطئ شاهد
في الحقل الثلجي ليس بعيدا من هناك شبح أركادي ايفانوفيتش
أسود وأطول من البشر العاديين كما خيل اليه. التقط نيكيتا المعول

رسالة الاسرار

اخيرا قرأت ماما الرسالة اثناء الغداء. وهي من بابا.
«عزيزتي الكسندرا، اشتريت ما اتفقنا على اهدائه لذلك الصبي
الذي لا يستحق، على ما اعتقد، ان نهدى له هذا الشيء الرائع.
- اخذ اركادي ايفانوفيتش يغمز بعينه ويكرر الغمز لدى سماع
هذه الكلمات. - والشيء المذكور كبير فارسلوا زحافة اضافية من
اجله. واليك نبا آخر: آنا ابولوسوفنا بابكيينا تنوي زيارتنا مع
الأطفال في العيد...»

- اما الباقي فلا اهمية له. - قالت ماما وردت على كل اسئلة
نيكيئا بان اغمضت عينيها وهزت رأسها: - لا ادري.
وصمت اركادي ايفانوفيتش ايضا ولوح بيديه ولسان حاله
يقول: «لا ادري». وعلى العموم كان اركادي ايفانوفيتش طول النهار
مرحا أكثر من المعتاد ويتكلم لا على التعميم ويخرج من جيبه بين
الحين والآخر رسالة يقرأ منها سطرين وي زم شفتيه. يبدو ان لديه
هو الآخر سرا.

قبيل حلول الظلام هرع نيكيئا عبر الحوش الى جناح الخدم
الذي يتبعث من نافذتيه المتجمدتين ضوء يستقر على الثلج
البنفسجي. كان الخدم يتناولون العشاء. صفر نيكيئا ثلاث مرات،
وبعد دقيقة خرج صديقه الحميم ميشكا كورياسونوك حاسر الرأس
في جزمة لبادية ضخمة ومعطف فراني قصير القاه على كتفيه، وفي
الحال، وراء ركن الجناح، حدثه نيكيئا همسا عن الرسالة
وساله عن نوعية الشيء الذي يمكن ان يجلبون من
المدينة.

قال ميشكا كورياسونوك واسنانه تصطك من البرد:
- شيء كبير جدا، وليقبض الله وروحي ان لم يكن كما أقول.
البرد شديد، انا ذاهب، ولكن، اسمع، نريد ان نضرب اولاد راس
القرية غدا. هل تذهب معنا؟
- بالطبع.

عاد نيكيئا الى المنزل وجلس يطالع «الفارس المقطوع
الرأس».

والقى بنفسه على الزحافة وتزحلق الى الأسفل وركض على الثلج
الى المكان الذي تطل فيه اكوام الثلج كالرؤوس فوق
النهر.

صعد الى قاعدة احد الرؤوس واخذ يحفر فيها كهفا. لم يبذل
جهداً كبيراً في حفر الكهف، فالثلج يتقطع بيسر تحت المعول. دخل
الكهف وسحب الزحافة اليه واخذ يرصف المدخل بكريات ثلجية
متراصة نشأ منها جدار. انسكب في داخل الكهف ضوء خافت ازرق
من شق في الجدار وشعر نيكيئا بالمتعة والارتياح.

جلس هناك يفكر: مامن احد غيره من الصبيان يمتلك مثل هذه
الزحافة الرائعة. اخرج سكينه الصغيرة واخذ يحفر بها على لوحها
العلوي اسم «فيفيت».

- نيكيئا، اين اختبأت؟ - سمع صوت معلمه.
دس السكين في جيبه وتطلع عبر الشق في جدار الثلج فرأى
اركادي ايفانوفيتش واقفا على الجليد في الأسفل ورأسه الى
الأعلى.

- اين انت يا شيطان؟
عدل المعلم نظارته وتقدم صاعدا صوب الكهف، لكنه سرعان
ما غاص في الثلج حتى الخصر.
- اخرج، ساجرك من هناك على اية حال.
صمت نيكيئا، فحاول اركادي ايفانوفيتش ان يتقدم نحوه لكنه
غاص في الثلج من جديد. ودس يديه في جيبه وقال:
- ترفض الخروج؟ ابق اذن. لكن ماما استلمت رسالة من
سامارا... فودعا، انا ذاهب...
- اي رسالة؟ - سأل نيكيئا.

- هيه! يعني انك هنا.
- خبرني، ممن الرسالة؟
- انها حول مجي بعض الأشخاص في العيد.
تطايرت كريات الثلج في أعلى الجدار في الحال. وبرز رأس
نيكيئا من الكهف. وضحك اركادي ايفانوفيتش مرحا.

وعند المنضدة المستديرة تحت المصباح الكبير جلست ماما
واركادي ايفانوفيتش يطالعان ايضا. ووراء الفرن الكبير اخذ جندي
يشتر حطبة: - تر - تر - تر، وانبعث صرير من خشبة
الارضية في الغرفة المجاورة المظلمة.

الفارس يجوب البراري مقطوع الرأس وترطم رجلاه بالاعشاب
العالية. بزغ القمر احمر فوق البحيرة. واحس نيكيتا بان الشعر
يتحرك على قفاه. التفت بحذر فراى ظلا رماديا يمرق وراء النوافذ
السوداء. رآه، والله رآه. رفعت ماما رأسها عن الكتاب
وقالت:

- الريح تشتد، تهب زوبعة في الليل.

الحلم

راى نيكيتا حلما في المنام، نفس الحلم الذي راه عدة مرات.
انفتح باب الصالة بيسر وهدوء. على الارضية ظلال مائلة الى
الزرقة تنعكس من النوافذ السوداء التي تعلق القمر وراها بدرا
منيرا كبيرا. تسلق نيكيتا طاولة لعب الورق عند الجدار بين
النافذتين وراى:

قرب الجدار المقابل الابيض كالطباشير يتمايل رقاص مستدير
في هيكل ساعة مستطيل. الرقاص يتمايل و ينعكس عليه ضوء القمر.
وفوق الساعة في اطار على الجدار شيخ عابس يدخن غليوناً، والى
جنبه عجوز تتطلع، مزومة الشفتين في قلنسوة خفيفة ووشاح.
وعلى امتداد الجدار من الساعة حتى الركن اقامت مقاعد عريضة
مخططة كل منها باربع قوائم ويدين ممدودتين. وفي الركن انبطحت
اريقة واطنة كجذع شجرة. المقاعد والاريقة جلوس بلا وجوه ولا
عيون وهي تحديق في القمر دون حراك.

خرج قط من تحت الاريقة، من بين الشراشيب. مطط ظهره
وقفز على الاريقة ومضى طويلا اسود بذيل متدل. قفز من الاريقة
الى المقاعد وتمشى عليها، على امتداد الجدار، وهو يتلوى ويدس

رأسه تحت مساندها. وعندما بلغ المقعد الاخير قفز منه الى
الارضية الخشبية واقعى امام الساعة وظهره الى النوافذ. والرقاص
يتمايل. القى الشيخ والعجوز نظرة شذراء على القط. وعند ذلك
نهض القط واستند بقائمه الامامية الى هيكل الساعة وحاول ان
يوقف الرقاص بقائمه الاخرى. الهيكل غير مزجج. والقط يكاد
يلمس الرقاص.

يا ليت نيكيتا يصرخ! لكنه لا يستطيع. فقد تجمد بلا حراك،
يا للظفاعة، ستحل الحصيبة، يا للظفاعة...

استقر ضوء القمر على الارضية بمستطيلات جامدة. كل ما في
الغرفة ساكن هادى، على قوائمه. اما القط فقد استطال وخفض
رأسه وضغط اذنيه وهو يحاول ان يمسك بالرقاص، واذا لمس
بقائمه سيتوقف. نيكيتا متأكد من ذلك، وفي تلك اللحظة سيتحطم
كل شيء، ويتمزق ويدوي ثم يختفى كالغبار، ولن تبقى هناك لا
الصالة ولا ضوء القمر.

ومن شدة الخوف اخذ الزجاج يرن ويفرقع في دماغ نيكيتا،
ودبت القشعريرة كالرمل على بدنه كله... استجمع نيكيتا قواه
وهرع الى الارضية بصراخ مستغيث! وفجأة انخسفت الارضية
وغارت في الأعماق. جلس نيكيتا وتطلع حوالياً. في الغرفة نافذتان
متجلدتان يلوح عبر زجاجهما قمر غريب اكبر من المعتاد. وعلى
الارضية قاعدة وجزمة.

«الحمد لله!» - رسم نيكيتا شارة الصليب على عجل ودس
رأسه تحت الوسادة. كانت الوسادة دافئة ناعمة محشوة عن آخرها
بالاحلام.

وما ان اغمض نيكيتا عينيه حتى راى نفسه من جديد واقفا على
الطاولة في تلك الصالة. والرقاص يتمايل في ضوء القمر والشيخ
والعجوز ينظران شذراء. ورأس القط يلوح ثانية من تحت الاريقة.
الا ان نيكيتا مد يديه هذه المرة وقفز من الطاولة وفرط. محركا
رجليه بمنتهى السرعة وكأنه يطير محلقا او يعوم فوق الارضية.
ما اروع التحليق في الغرفة. وعندما لمست قدماء الارضية فرط
بيديه وارتفع ببطء الى السقف واخذ يطير بتحليق متعرج على

انهالت على راس نيكيتا اربعة عشر يوما من الحرية يفعل خلالها كل ما يشاء، حتى شعر بالملل بعض الشيء.

اثناء احتساء شاي الصباح خلط الحليب والخبز والشاي والمربي فيما يشبه العصيدة، فشمع منها حتى اضطر الى الجلوس صامتا بعض الوقت. حلق في صورته المنعكسة على السماور وظل مندهشا امدا طويلا لوجه المشوه الطويل على امتداد السماور كله. ثم فكر بانه لو اخذ ملعقة شاي وقطعها قسمين لنشأ من احدهما قارب ومن الآخر عود ينبت به شيئا ما.

واخيرا قالت ماما: «الافضل ان تذهب للتنزه يا نيكيتا».

ارتدى ملابس متهللا وسار في الرواق الطويل المريح الدافئ الذي تفوح منه رائحة الافران واخذ يرسم باصبعه خطا على امتداد الجدار المخصص. في القسم الجنوبي من المنزل، الى يسار الرواق، تقع غرف السكن الشتوية المدفأة، والى اليمين من جهة الشمال، خمس غرف صيفية فارغة لحد النصف وبينها صالة. افران التدفئة الضخمة المزخرفة في هذا القسم لا يسخن الا مرة في الاسبوع، والثريات البلورية هناك ملفوفة بالشاش، وعلى ارضية الصالة كومة من التفاح الذي تفوح رائحته العسلية العفنة بعض الشيء فيعج بها كل النصف الصيفي من المنزل.

فتح نيكيتا بصعوبة باب البلوط بدفتيه الثقيلتين وجاب الغرفة الخالية على اطراف اصابعه. لاح البستان المملع بالثلج عبر النوافذ نصف الدائرية. كانت الاشجار تنتصب ساكنة باغصان متدللة بيضاء، وعلى جانبي سلم الشرفة تنوء شجيرات الليلاك بشقل الثلج. وفي الفسحة الخالية بدت آثار زرقاء لارانب برية، وعلى غصن قرب احدي النوافذ جثم غراب اسود يشبه الشيطان براسه الكبير. نقر نيكيتا باصبعه على زجاج النافذة فمال الغراب على جنبه ثم حلق نائرا ثلج الأغصان بجناحيه.

بلغ نيكيتا ابعد غرفة. وهي غرفة ركن المنزل، وفيها تنتصب على امتداد الجدران خزانات ملفعة بالغبار تلمع عبر زجاجها مجلدات

طول الجدار. وراى الطنف المزخرف قريبا من انفه وعليه غبار رمادي دقيق وفاحت هناك رائحة مقبولة. ثم راى الصدع المفلور في الجدار، وهو يعرف هذا الصدع جيدا لانه متعرج كنهور الفولغا على الخارطة وبعد ذلك راى مسامرا عتيقا وغريبا جدا عليه اصل من حبل مقطوع تعانقه ذبابات ميتة.

دفع نيكيتا الجدار بقدمه فحلق ببطء عبر الغرفة صوب الساعة. في اعلى هيكلها مزهرية برونزية وفي قاع المزهرية شيء لم يتسن له ان يتفحصه. وفجأة خيل لنيكيتا ان صوتا يقول له «خذ ما في المزهرية».

اقترب نيكيتا من الساعة وهم بان يدس يده في المزهرية، لكن العجوز الشريرة امتدت بسرعة من اطار اللوحة على الجدار وامسكت راس نيكيتا بيديها العجاويز. تملص منها، لكن الشيخ نزل من اللوحة الاخرى خلفه ولوح بغليونه الطويل وضرب نيكيتا على ظهره ضربة جعلته يطير الى الارضية و يثن ويفتح عينيه.

الشمس تلمع و تتطاير منها الشرر عبر دانتيل الجليد على الزجاج. وازاء السرير وقف اركادي ايفانوفيتش يهز كتف نيكيتا ويقول:

- انهض، انهض، الساعة التاسعة.

عندما جلس نيكيتا على السرير يدعك عينيه غمز المعلم عدة مرات وراح يفرك يديه على عجل:

- اليوم يا اخي، لن ندرس.

- لماذا؟

لان «لماذا» تتكون من لام وما وذا. يمكنك ان تمرح قدر ما تريد اسبوعين كاملين. انهض.

قفز نيكيتا من السرير واخذ يرقص على الارضية الدافئة:

- عطلة الميلاد! - نسي تماما ان اسبوعين طويلين من السعادة يبدآن اليوم. وعندما رقص نيكيتا امام معلمه نسي شيئا آخر، نسي الحلم والمزهرية التي فوق الساعة والصوت الذي همس في اذنه: «خذ ما في المزهرية».

عند البئر

وجد نيكيتا صاحبه ميشكا كورياسونوك وسط الحوش قرب البئر التي غدا الثلج المتجلد حولها اصفر وقد داسته الاقدام. كان ميشكا جالسا على حافة البئر يببل بالماء طرف قفاز جلدي دس فيه يده.

سأله نيكيتا لماذا يفعل ذلك فاجابه ميشكا:

كل اولاد رأس القرية يببلون القفازات. وستفعل مثلهم. فهي تتجلد وتصبح صالحة للعراك. هل ستذهب معنا الى رأس القرية؟

- متى؟

- بعد الغداء. لكن لا تخبر ماما.

- سمحت لي ماما بالتنزه، لكنها منعتني من العراك.

- كيف منعتك؟ واذا هاجموك؟ اتعرف من الذي سيهاجمك؟

ستيوبكا كارناوشكين. ستسقط من اول ضربة يسدها لك.

- ستيوبكا لن يغلبني سيسقط من ضربة واحدة بخنصري -

قال نيكيتا ومد خنصره نحو ميشكا.

تطلع اليه ميشكا ثم بصق وقال بصوت اجش:

- قبضة ستيوبكا مسحورة. في الاسبوع الفائت ذهب مع ابيه

الى قرية اوتيوفكا لشراء الملح والسمك وهناك قرأوا تعويذة عليه.

فليقبض الله روعي لو كذبت.

غرق نيكيتا في التفكير. الأفضل، طبعاً، الا يذهب الى رأس

القرية، لكن ميشكا سيتهمه بالجبن. وسأل نيكيتا:

- كيف قرأوا التعويذة؟

بصق ميشكا من جديد:

- قضية بسيطة. خذ في البداية سماخا ولطح يدريك به

و كرر ثلاث مرات: «قل اعوذ برب الناس... من شر الوسواس

الخناس». هذا كل ما في الأمر...

لقى نيكيتا على كورياسونوك نظرة ملامها الاحترام. وفي تلك

الثناء صرت بوابة الحوش واندفعت منها الاغنام كشليلة رمادية

الكتب القديمة. وفوق المدفأة الجدارية المزخرفة علقت صورة لامرأة رائعة الجمال في بزة خيالية مخملية سوداء وقفاز متسع الطرف ويدها سوط. خيل لنيكيتا انها كانت تسير ثم التفتت اليه واقت عليه نظرة باسمه ماكرة من عينيها المستطيلتين الثاقبتين.

جلس نيكيتا على الاركة وراح يتطلع الى المرأة مسندا ذقنه بقبضتيه. كان يوسع ان يجلس بهذه الهيئة ويتطلع اليها طويلا. فبسببها - كما سمع من امه غير مرة - حدث لجد ابيه مصائب كثيرة. صورة ذلك الجد المسكين معلقة هنا ايضا، فوق احدى خزانات الكتب انه شيخ نحيف ذو انف مدبب وعينين غائرتين، وقد امسك رداءه عند الصدر بيده المزينة بالخواتم، وجنبه قرطاس من البردي مطوي لحد النصف وريشة بطة. كل الدلائل تشير الى انه شيخ تعيس للغاية.

عرف نيكيتا من ماما ان ذلك الجد كان ينام في النهار عادة ويطلع ويكتب في الليل، ولا يمشي الا عند الغروب. وفي الليل كان الخفراء يتجولون حول المنزل ويطلقون بالخشخاشات ليظردوا الطيور الليلية عن النوافذ حتى لا تخيف الجد.

ويقال ان البستان امتلا حينذاك باعشاب كثيفة عالية. وكان المنزل غير ماهول وقد اغلقت كل مبانیه ماعدا هذه الغرفة. وتفرق الخدم وظل الجد في حال يرثى لها.

ذات مرة افتقدوه. لم يجدوه لا في مكتبه ولا في المنزل ولا في البستان. بحثوا عنه اسبوعا بكامله دون ان يعثروا له على اثر. وبعد حوالي خمسة ايام استسلم وريثه رسالة منه وصلت من سيبيريا وكلها الغاز: «كنت اتشد الهدوء في الحكمة فوجدت السلوى في احضان الطبيعة». والسبب في كل تلك الظواهر الغريبة هو هذه المرأة في بزة الخيالة تطلع اليها نيكيتا بفضول وانفعال.

حط الغراب من جديد على الغصن وراء النافذة فتناثر الثلج من تحته. هز رأسه وفتح منقاره ونعب. فشمع نيكيتا بالخوف، وخرج من الغرف الخالية راكضا الى الحوش.

كثيفة متدرجة. حوافرها تطلق كالخرر والياتها تهتز نائرة بعرا كاليندق. تزامم القطيع عند البئر، وهرعت الاغنام ناعية تتنافس على الوصول الى المشرب وتحطم بابواها طبقة الجليد الرقيقة وتشرب وتحجم. سلط خروف وسخ كث نظرة من عينيه البيضاء والبلقاوين على ميشكا وضرب الارض باحدى قوائمه فقال له ميشكا: «طفيلي»، فهجم عليه الخروف، الا ان ميشكا قفز عبر المشرب وتمكن من الفرار.

ركض نيكيتا وميشكا في الحوش وهما يضحكان ويتحشرشان بالخروف الذي طاردهما ثم عدل عن ذلك وفكر قليلا واطلق نغاما كئيبا:

- انتما طفيليا آآآن.

وعندما تناهى من الباب الخلفي صوت ينادي نيكيتا لتناول الطعام قال له ميشكا كورياسونوك:
-خذ بالك، لا تخدعنا. تعال الى راس القرية.

المعركة

توجه نيكيتا وميشكا كورياسونوك الى راس القرية باقصر طريق عبر البستان والبركة المتجمدة. كانت الريح قد كنت الثلج على جليد البركة. توقف ميشكا لحظة هناك. اخرج سكينه الصغيرة وعلبة ثقاب وجلس القرفصاء متمشقا بصغير واخذ ينقب الجليد الازرق على بقعة بداخلها فقاعة بيضاء تنعت هذه الفقاعة في لغتهم «بالقطة»، وهي عبارة عن غاز عفن يتصاعد من قاع البركة ويتجمد في طبقات الجليد بشكل فقاعات. وبعد ان ثقب ميشكا حفرة في الجليد اشعل عود الثقاب وقربه من الثقب فاشتعلت «القطة» واندلع لسان من اللهب الاصفر الساكن فوق الجليد.
وقال ميشكا:

- خذ بالك، لا تخبر احدا بذلك. في الاسبوع القادم سنذهب الى البركة السفلى ونشعل «القطة». اعرف واحدة منها هناك كبيرة جدا ستظل مشتعلة طول النهار.

ركض الصبيان على جليد البركة واجتازوا البردي الاصفر المطروح وبلغوا الضفة الاخرى ودخلا القرية.

تساقط ثلج كثير هذا الشتاء. وهو قليل بين الاحواش التي تخرقها الريح بطلاقة، لكن اكرامه عالية جدا، اعلى من السطوح، على عرض الشارع بين تلك المنازل.

كان منزل سافوسكا الاعزب الابله مغطى بالثلج عن آخره، ولا يرى منه الا المدخنة. وقال ميشكا ان كل اهالي القرية انتخوا لازاحة الثلج عن منزله بالمعاول قبل ثلاثة ايام، اما هو الاحتمق فقد سخن الفرن في الليلة التي طمرت الزوبعة فيها منزله بالثلوج وطبخ حساء من الخضر ثم اكل وصعد لينام على دكة الفرن. وجدوه نائما فايقلوه وجروا اذنه لحماقته.

القرية خالية هادئة. والدخان يتصاعد من مداخن بعض المنازل. الشمس الباهتة تنير على ارتفاع منخفض الوادي الابيض واكداس القش والسطوح المملعة بالثلج. بلغ نيكيتا وميشكا منزل ارتامون تيورين الفلاح المعيف الذي يخشاه كل اهالي القرية لقوته الخارقة وانفعاله السريع. راي نيكيتا في النافذة الصغيرة لحيه ارتامون الشقراء كالمكنسة. كان جالسا عند المائدة ياكل من قصعة خشبية. وعلى زجاج النافذة الاخرى التصقت ثلاثة انوف بوجه منمشة تنظر الى الخارج. اولئك هم ابناء ارتامون: سيومكا وليونكا وارتامون الصغير.

اقترب ميشكا من المنزل واطلق صفيرا فالتفت ارتامون وهو يمضغ الطعام بفيه العريض وهدد ميشكا بالملعقة. اختفى الصبيان الثلاثة ثم ظهروا في الحال على مدخل المنزل متمنطقين بأحزمة من القماش فوق معاطفهم الفرائية القصيرة. وقال ميشكا بعد ان ازاح قبعته حتى مالت على اذنه:

- هيه، يا جينا... تجلسون في البيت من الخوف.

- نحن لا نخاف - اجاب سيومكا، وقال ليونكا:

- بابا لا يسمح لنا باتلاف الجزمات.

وقال ارتامون الصغير:

- قبل قليل ذهبت الى اولاد راس القرية وناديتهم، فقالوا

انهم غير زعلانين.

أزاح ميشكا قبعته الى اذنه الاخرى وتنحنح وقال بحزم:
 - فلنذهب لتحرش بهم. سنلقنهم درسا.
 واجاب الاخوة الثلاثة: «طيب». وتسلقوا جميعا تلة الثلج التي
 اعترضت الطريق. من هنا، وراء منزل ارتامون، يبدأ رأس القرية.
 فكر نيكيتا بان رأس القرية غاص بالأولاد، لكنه خال الآن
 وهادى، سوى بنتين ملتفتين بمنديلين صوفيين سحبتا زحافتيهما
 الى تلة الثلج، ثم جلستا عليهما ومدتا جزمتهما الى الامام وامسكتا
 بالحبلين وزعقتا وتزحلقتا عبر الشارع قرب العنبر، ثم عبر
 الشاطئ المنحدر، الى جليد النهر.
 وصاح ميشكا من تلة الثلج وصاح معه ابناء ارتامون ونيكيتا:
 - هيه، يا اولاد رأس القرية!
 - سنلقنكم درسا!
 - اخبأوا، خافوا!
 - اخرجوا سنضربكم!
 - تقدموا من جهة واحدة، يا اولاد رأس القرية! - صاح
 ميشكا وهو يصفق بقبازة.
 ظهر على الطرف الآخر من التلة اربعة من صبيان رأس القرية.
 صفقوا وعدلوا قبعاتهم ومسحوا جنوبهم بقبازاتهم وأخذوا يضحون:
 - نحن نخاف؟
 - ممن نخاف؟
 - من هذه الضفادع؟ انعقي يا ضفادع!
 وتسلق هذا الطرف من التلة صبيان جدد هم اليوشكا ونيل
 وفانكا ابو الاذنين السوداوين وبتروشكا ابن اخ الاعزب الابله،
 وصبي صغير جدا ببطن كبير ملفوف بمنديل امه بشكل علامة
 ضرب. ومن الطرف الآخر ظهر ايضاً خمسة او ستة صبيان جدد
 وأخذوا يضحون:
 - هيه، يا اولاد، تعالوا الى هنا وسنمسح الشمس من وجوهكم!
 ومن هذا الطرف صاح ميشكا كورياسونوك:
 - حدادون عور، صنعوا حدوة للفاة!
 وجاءه الجواب:
 - ضفادع!

تجمع من كلا الجانبين زهاء اربعين صبياً. لكنهم كانوا متهيئين
 يقذفون كريات الثلج ويغمزون من بعضهم البعض. ويضحون من
 ذاك الطرف: ضفادع! «ويردون عليهم من هذا الطرف: حدادون
 عور!» وكان هذا الثعت وذاك مهينين. وفجأة ظهر بين اولاد رأس
 القرية صبي قصير القامة عريض المنكبين افنط الانف. دفع اصحابه
 يفسحوا له المجال وهبط من التلة متمايلاً متبخترا وامسك جنبيه
 بيديه وصاح:

- يا ضفادع! فليتقدم اشجعكم وجيا لوجه!

كان ذاك هو ستويوكا كارناوشكين الشهير بقبضته المسحورة.
 قذف اولاد رأس القرية قبعاتهم الى الاعلى وأخذوا يطلقون
 صغيراً حاداً. هذا صبيان هذا الطرف، وتلفت نيكيتا حوايه. كان
 الاخوان المنمشون معبسين، وتراجع اليوشكا وفانكا ابو الاذنين
 السوداوين الى الورا، وأخذ الصبي الصغير الملفوف بمنديل امه
 ينظر بعينيه المستديرتين الى كارناوشكين وهو على اتم استعداد
 للبكاء، وغمغم ميشكا كورياسونوك وهو يشد حزامه على بطنه:
 - طرحت اولاد! اقوى منه فهل هو بطل الأبطال. لا أرغب في
 بدء العراك، والا سأغضب وافرك انفه.

اقتنع ستويوكا كارناوشكين بان احداً لا يريد الاشتباك معه
 فلوح لاصحابه بان ينصرفوا... تناثروا منزلقين في التلة
 الثلجية وهم يتصايحون ويصفرون.

واطلق ابناء ارتامون سيقانهم للريح، وتبعهم ميشكا وفانكا ابو
 الاذنين السوداوين، واخيراً لحق بهم سائر الصبيان. وركض
 نيكيتا ايضاً. اما الصبي الصغير الملفوف بمنديل امه فقد جلس
 على الثلج وانتحب.

اجتاز اولاد «طرفنا» حوش ارتامون وحوش تشيرنوخوف
 وارتقوا كومة من الثلج. التفت نيكيتا فرأى اليوشكا ونيل وخمسة
 من اولادنا منبطحين على الثلج. ربما سقط بعضهم، وربما انبطح
 البعض الآخر من الخوف. فشرط العراك تمنع ضرب
 الراقدين..

شعر نيكيتا بالاهانة والخجل حتى اختنق بعبراته. فقد جنبوا
 ولم يدخلوا المعركة. توقف وشد قبضتيه ورأى في الحال

ستيوبكا كارناوشكين الافنط الواسع الفم راکضا صوبه واطراف
شعره تتطاير من تحت قبعته الفرائية العالية.
خفض نيكيئا راسه وخطا للقاءه وضربه في صدره بكل ما
يستطيع. نفض ستيوبكا راسه فسقطت قبعته وجلس على الثلج
وقال:

- ماذا بك؟ كفاية...

توقف اولاد راس القرية في الحال، واسرع نيكيئا صوبهم،
فاطلقوا سيقانهم للريح. لحق اولاد «طرفنا» بنيكيئا متصايحين
«حطمانهم!» وهجموا على الاعداء هجمة رجل واحد. فر اولاد راس
القرية وطاردهم نيكيئا واصحابه على امتداد خمسة احواش تقريبا
حتى انبطحوا جميعا مستسلمين.

عاد نيكيئا الى طرفه لاهنا منفلا يتطلع حواليه ليرى هل
بقي احد يمكن الاشتباك معه. وسمع صوتا يناديه. كان ستيوبكا
كارناوشكين ينتظره وراء العنبر. اقترب منه نيكيئا، فالتقى عليه
ستيوبكا نظرة شزراء وقال:

- ضربتني بقوة. هل تريد ان نتصاحب؟

- بالطبع - اجاب نيكيئا على عجل.

تطلع الصبيان الى بعضهم البعض باسمين. وقال ستيوبكا:

- فلنتبادل.

- موافق.

فكر نيكيئا بافضل ما لديه ليسلمه الى ستيوبكا فاعطاه
السكين الصغيرة مع اربع شفرات. دسها ستيوبكا في جيبه
و اخرج منه كعبا مثقلا بالرصاص المصبوب.
- خذ لا تضيعه فهو ثمين.

هكذا انتهى المساء الممل

في المساء انشغل نيكيئا في تصفح مجلة «نيفا» وقراءة
الشروح تحت الصور. و لم يكن فيها الكثير مما يستحق الاهتمام.

• مجلة ادبية شهرية فيما تعنى الكلمة اسم نهر يجري في
لينينغراد. الناشر.

- صورة امرأة في مدخل الدار ويداها عاريتان حتى العرق،
وفي شعرها زهور، وعلى كتفها وعند قدميها حمام. وخلف السياج
رجل كشر عن اسنانه و البندقية تتدلى من كتفه.

و اكثر ما يثير الفجر في هذه الصورة هو تعذر فهم السبب
الذي جعلهم يرسمونها. فقد جاء في الشرح: «من منكم لم ير
الحمام الاليف، اخلص اصدقاء الانسان؟ (فوت نيكيئا ما كتب من
تفاصيل عن الحمام). من لا يحب نثر الحب امام هذه الطيور في
الصباح؟ الرسام الالمانى الموهوب هانز فورست اختار احدى
هذه اللحظات. ايلزا الشابة، ابنة القس، محبوبة الحمام. حالما
خرجت من الدار تطايرت الحمامات وحطت عند قدميها فرحة
مسرورة. انظروا حطت حمامة على كتفها، وتلقط حمامات اخرى
الحب من يدها. اما الجار الشاب الصياد فيمتع انظاره خلسة بهذا
المنظر».

وتصور نيكيئا ايلزا هذه منهمكة باطعام الحمام، ثم ماذا؟ لا
شيء تفعله بعد اطعام الحمام. سيقتلها الملل. وابوها القس
جالس على كرسي في احدى الغرف يتشاءب من الملل ايضا. اما
الجار الشاب فقد كشر عن اسنانه وكان بطنه يوجعه، وسيظل
مكشرا وهو يسير على الطريق وبندقيته لا تطلق النار طبعاً.
السماء في الصورة رمادية كالعجة وضوء الشمس رمادي كالح.

بلل نيكيئا القلم الرصاص بلعابه و رسم لبنت القس شاربين.
في الصورة التالية منظر مدينة بوزولوك: عجلة مكسورة قرب
عمود المسافات على الطريق، وفي مكان ابعد تلوح منازل خشبية
وكنيسة ومطر يتساقط مانلا من غيمة.
تشاءب نيكيئا واغلق المجلة واتكا واخذ يتصنت.

في الجماليون ينبعث صغير حادة تارة ودوي متواصل اجش
تارة اخرى هاهو الوجه يعبس فتتكور الشفتان ويدوي الصوت
الاجش - «وووو...»، ثم يتحول الى صوت رفيع حزين يصغر
بمنخر واحد كخييط رقيق، ثم تتكور الشفتان ويعود الصوت الاجش.
على المنضدة المستديرة مصباح باجاجور من الفرغوري الابيض.
تهادت خطوات اقدم ثقيلة وراء الجدار في الرواق لعلها

خطوات الوقاد. اهتزت الشراريب البلورية في اسفل الأباجر
باعثة رنيناً رقيقاً.

انحنى ماما على المجلد شعرها ناعم بلون الرماد، اجعد عند
الزلف، حيث تبدو شامة كحبة الدخن. ومن حين لآخر تقطع الصفحات
بابرة الحياة. غلاف المجلد بني فاتح بلون الطابوق. في مكتب
بابا خزانة مليئة بهذه المجلدات التي تحمل جميعاً عنوان "بشير
اوربا". ما اغرب الكبار! لماذا يحبون كل ما هو ممل. فان قراءة
مثل هذه المجلة تشبه طحن الطابوق.

على ركبتى ينام القنفذ الاليف اخيلكا وقد وضع انفه البليل
كانوف الخنازير على قائمته. عندما يذهب الناس للنوم يجول
في الغرفة طول الليل بعد ان يشيع من النوم نهارة، ويخشخش
باطافره ويشخر ويتشم كل الاركان والزوايا ويدس رأسه في
ججور الفران.

حرك الوقاد وراء الجدار فتحة الفرن الحديدية وتناهدت سهسة
الجمر وهو يقلبه ويخلطه. وفاحت في الغرفة رائحة الملاط الدافئ
والارضية المغسولة. جو الغرفة ممل بعض الشيء، لكنه هريج.
اما ذاك الذي في الجماليون فقد استمر على صفيحه جاهداً: "يوووو".
- ماما، من الذي يصفر هناك؟ - سال نيكيتا.

رفعت ماما حاجبها دون ان تحيد ببصرها عن المجلة. اما
اركادي ايفانوفيتش الذي كان مشغولاً بتخطيط الدفتر فقد قال
فوراً بكلمات متلاحقة وكأنه كان ينتظر هذا السؤال:

- عندما نتكلم عن الجماد يجب ان نستعمل اسم الاستفهام
"ما" و ليس "من".

"يوووو" - استمر الدوي في الجماليون رفعت ماما رأسها
وانصتت وهزت كتفيها وتلغفت بالمنديل الوبري. اما القنفذ فقد
استيقظ و تنشق بانفه منزعاً.

وعند ذاك تصور نيكيتا كيف تسرب الثلج الى كوة الجماليون
البارد المعتم. تحت الراح السقف الهائلة التي بنى الحمام اعشاشه
بينها تتكدس في الجماليون بقايا الارائك والكراسي والمقاعد
العتيقة البالية بنوابضها المكشوفة الصدئة. وعلى احد هذه
المقاعد، قرب مدخنة الفرن، جلست "الريح" مشعنة الشعر مغطاة

بالغبار وبيوت العناكب. الليل طويل. والجماليون بارد، وهي
جالسة هناك وحيدة وادعة تسند ذقنها بيدها وتقول: "ووووو"
ملدت، "ووووو".

ترك نيكيتا كرسيه وجلس قرب ماما. ابتسمت بحنان
وجذبتة اليها وقبلت رأسه:

- ألم يعن وقت النوم يا ولدي؟

- كلا ياماما، نصف ساعة اخرى، ارجوك.

مال نيكيتا برأسه على كتف امه. صر الباب في طرف الغرفة
و ظهر القط فاسكا منتصب الذيل قنوعاً كالناسك المتعبد. فتح
فمه الوردى واطلق مواء خافتاً. و سأل اركادي ايفانوفيتش دون
ان يرفع رأسه عن الدفتر:

- ماذا تريد يا فاسكا؟

اقرب فاسكا من ماما وتطلع اليها بعينين خضراوين مدهنتين
يتوسطهما شقان ضيقان و اطلق مواء اعلى. فتلمل القنفذ منزعاً
من جديد. وخيل لنيكيتا ان فاسكا يعرف شيئاً يريد ان يقوله.
والا لما جاء الآن.

عوت الريح في الجماليون عواء مستميتاً. وفي تلك الاثناء
تناهدت من وراء النافذة صيحة غير عالية وصرير الثلج واصوات.
نهضت ماما على عجل. وتدرج اخيلكا من ركبتها وهو يشخر.

هرع اركادي ايفانوفيتش الى النافذة وتطلع باهتمام وهتف:
- وصلوا!

- يا الهى! - تمتعت ماما بانفعال - هل وصلت آنا ابولوسوفنا
في هذه العاصفة؟..

بعد لحظات رأى نيكيتا كيف انفتح الباب الثقيل الملبس
بالليباد و اندفعت منه الى الرواق سحابة من البخار الصقيعي، ثم
ظهرت امرأة مكتنزة فارعة القامة ترتدي معطفين من الفرو ومندبلا
والثلج منثور عليها بغزارة. وقد امسكت بيد صبي يرتدي معطفاً
رمادياً ذا ازرار لماعة وعلى رأسه قلنسوة واقية من الثلج.
وطلقت خلفها جزمة لبادية متجلدة. فقد دخل حوذي بلحية متجمدة
وعلى جانبي انفه اصابع من الجليد الاصفر بدلا من الشاربين
وعلى جفونه رموش كثة بيضاء كان يحمل طفلة بمعطف أبيض من

فرو الماعز. رأسها مائل على كتف الحوزي و عيناها مغمضتان،
ووجها رقيق ماكر.

عندما دخلت المرأة الطويلة هتفت بصوت عال أجش:

- استقبلي ضيوفك يا الكسندرا ليونتيونا - و رفعت يديها
لتحل عقدة المنديل - لا تقتربي مني، والا ستبردين. ما أسوأ
طريقكم، والحق يقال... حتى قرب بيتكم انزلت بنا الزحافة الى
الشجيرات.

تلك هي آنا ابولوسوفنا بابكينا صديقة ماما. وهي تقيم في
سامارا بصورة دائمية. اما ابنتها فكتور فراح ينظر الى نيكيتا
شزرا وهو ينتظر ان يخلعوا القلنسوة عن رأسه. اخذت ماما من
الحوزي البنت النائمة وخلعت قبعتها الفرائية فتناثر من تحتها فورا
شعر ذهبي فاتح وقبلتها وقالت:

- عزيزتي ليليا، وصلت.

تنهدت البنت وفتحت عينيها الزرقاوين الواسعتين ثم تنهدت
مرة اخرى لتستيقظ نهائيا.

فكتور و ليليا

استيقظ نيكيتا وفكتور بابكين في الصباح الباكر. جلسا على
سريريها في غرفة نيكيتا يتطلعان الى بعضهما البعض عابسين.
وقال نيكيتا:

- انا اذكرك.

- وانا اذكرك جيدا - اجاب فكتور على الفور - كنت
عندنا مرة في سامارا. واذكر انك اكلت لحم البط المحمر بالتفاح
حتى انتفخت بطنك و سقوك زيت الخروع.

- لا اذكرك ذلك.

- انا اذكركه.

لاذ الصبيان بالصمت. وتناوب فكتور عمدا. وقال نيكيتا بلهجة
تنم عن الاستهانة:

- معلمي اركادي ايفانوفيتش صارم جدا، خنقني بالدروس.
وهو يقرأ الكتاب، مهما كان، في نصف ساعة.

ابتسم فكتور ساخرا:

- انا اتعلم في المدرسة، في الصف الثاني. المعلمون عندنا
صارمون حقا، حتى انهم يتركونني دوما بلا غداء.

- ماقيمة ذلك؟ - قال نيكيتا.

- كيف؟ البقاء بلا غداء صعب مع انني استطيع ان لا آكل
الف يوم.

- ماذا تقول؟ هل جربت؟ - سأل نيكيتا.

- لم اجرّب بعد. ماما تمنعني.

تناوب نيكيتا وتمطط:

- هل تعلم؟ قبل ثلاثة ايام تفوقت على ستيوبكا كارناوشكين.
- ومن هو؟

- اقوى ولد في القرية. سددت له ضربة سقط بعدها فوراً
اهدت له سكينى الصغيرة مع اربع شفرات. واهداني كعبا مصبوبا
بالرصاص ساريك اياه فيما بعد.

هبط نيكيتا من السرير واخذ يرتدي ملابسه على مهل.

- اما انا فاستطيع ان ارفع قاموس ماكاروف بيد واحدة -

تمتم فكتور بصوت مرتعش كتيب ينم عن استسلامه. اقترب نيكيتا
من التخت ازاء الفرن المزخرف، وقفز اليه دون ان يلمسه بيديه
ثم ثنى ركبته وقفز من التخت الى الارضية بقدم واحدة وقال وهو
يتطلع باهتمام في عيني فكتور:

- يمكن ان نظير اذا فرطنا بارجلنا بسرعة كبيرة جدا.

- شيء بسيط. فالكثيرون عندنا في الصف يطرون.

ارتدى الصبيان ملابسهما وتوجها الى غرفة الطعام، حيث
تفوح رائحة الخبز الساخن و البقساط، ويتصاعد من السماور
الصقيل بخار يصل الى السقف ويجعل زجاج النوافذ غائما. جلست
ماما واركادي ايفانوفيتش عند المائدة و معها ليليا اخت فكتور
التي وصلت نائمة ليلة البارحة، وهي في الحوالي التاسعة من العمر
ومن الغرفة المجاورة دوى صوت آنا ابولوسوفنا الأجش: «اعطوني
منشفة».

كانت ليليا ترتدي فستانا ابيض بشريط حريري ازرق

معمود على ظهرها. وعلى شعرها الذهبي الاجعد شريط آخر ازرق
ايضا مشدود بشكل فراشة.
تقدم اليها نيكيتا واحتقن وجهه وصفق قدما بقدم. التفتت
ليليا اليه ومدت له يدها وهي جالسة على الكرسي وقالت بمنتهى
الجدية:

- مرحبا يا صبي. - ارتفعت شفقتها العليا.

وخيل لنيكيتا انها ليست بنتا حقيقية. فهي جميلة جدا، وخصوصا
عينها الزرقاوان الاكثر سطوعا من الاشرطة، اما رموشها الطويلة
فكانها من حرير. لم تعد تعير نيكيتا اهتماما بعد ان سلمت عليه،
فتناولت بكلتا يديها كوب الشاي الكبير و اخذت تشرب منه.
جلس الصبيان جنبها الى جنب عند المائدة. واتضح ان فكتور يشرب
الشاي كالطفل الصغير. فقد انحنى على الكوب وراح يرتشف
الشاي بشفتين طويلتين. وضع قطع السكر خلسة في الكوب
حتى صار الشاي كثيفا، عند ذلك طلب بصوت متكاسل ان يضيفوا
الى الشاي ماء. دفع فكتور نيكيتا من ركبته وسال هامسا:

- اختي تعجبك؟

لم يرد نيكيتا وتوردت وجنتاه.

- خذ حذرك منها - همس له فكتور - فهي تخبر ماما بكل

شيء.

انتهت ليليا من شرب الشاي ومسحت فمها بالفوطة ونزلت من
الكرسي على مهل واقتربت من الكسندرا ليونتيفنا وقالت بكل
تأدب:

- شكرا لك يا خالتي.

ثم مضت الى النافذة وصعدت الى المقعد البني الضخم واخرجت
من جيبها علبة صغيرة فيها ابر وخيوط واخذت تغيظ. ولم يعد
نيكيتا يرى منها غير الشريط الكبير المشدود بشكل فراشة
وخصلتين متدليتين يتحرك بينهما طرف لسانها الممتد قليلا. فهو
يساعد ليليا في الخياطة.

اختلطت افكار نيكيتا وتشوشت. اراد ان يستعرض امام فكتور
كيفية القفز من فوق ظهر الكرسي، لكن لم تلتفت اليه، بينما
قالت ماما:

- نيكيتا، فكتور اذهبا الى الحوش ولا تشوشا علينا.

ارتدى الصبيان ملابسهما وخرجا الى الحوش. الصباح ضبابي
ناعم. الشمس المائلة الى الاحمرار معلقة على ارتفاع منخفض فوق
غيوم متعددة الطبقات وطويلة كحقول من الثلج. وفي البستان
انتصبت الاشجار بلون وردي تقريبا والندى المتجمد يغطيها.
الظلال الباهتة على الثلج مشبعة بنفس ذلك الضوء الدافئ.
السكون المطبق في كل مكان، لا يعكره سوى شاروك وكاتوك
اللذين وقفا جنبها الى جنب قرب المدخل الخلفي ينبجان على
بعضهما. ادار كل منهما رأسه. نحو الآخر وكان بوسعهما ان
ينبجا بعواء لاهت وانياب مكشرة امدا طويلا جدا حتى يرميها احد
الخدم بقفازه، وعند ذلك يقفان على قوائمهما الخلفية ويكادان
يختنقان من شدة الغضب ويشتبكان في عراق يتطاير له شعرهما
نتفا. كانا يخافان من الكلاب الاخرى ويكرهان المتسولين، وبدلا
من حراسة المنزل في الليل ينامان قرب مستودع العربات.

وسال فكتور:

- ماذا سنفعل؟

تطلع نيكيتا الى غراب اشعث حلق غامضا من البيدر الى حظيرة
الماشية. لم يكن نيكيتا راغبا في اللعب، فقد انتابه حزن لا يعرف
سببه.

- اقترح الذهاب الى صالة الاستقبال ومطالعة شيء ما على
الاريقة، الا ان فكتور قال له:

- اسقى عليك، يبدو انك لا تصلح الا للعب مع البنات.

- لماذا؟ - سأل نيكيتا وقد احمر وجهه.

- انت تعرف لماذا.

- لا تضايقني انا لا اعرف اطلاقا. فلنذهب الى البئر.

مضيا الى البئر. وكانت الأبقار قد خرجت من البوابة المفتوحة
متوجهة الى المشرب قريبا، وعلى مسافة ابعد كان ميشكا
كورياسونوك يطبب بسوط الرعاة الطويل فتنبعث منه اصوات
كطلقات البندقية، ثم صاح فجأة:

- بايان، بايان، خذ بالك يا نيكيتا!

التفت نيكيتا فرأى النور الطويل الرمادي الوردي ذا الجبهة

العريضة الجعداء، والقرنين القصيرين يتجه نحوهما بعد ان ترك القطيع.

«مو - و» - اطلق بايان خوارا متقطعا وضرب جنبه بذيله .
- اهرب يا فكتور! - صاح نيكيتا وسحب فكتور من يده
وركضا نحو المنزل.

انطلق الثور يلاحق الصبيين بسرعة. «مو - ووا» .
التفت فكتور وصرخ وسقط على الثلج وغطى رأسه بيديه .
وكان الثور على بعد خمس خطوات عنه . وعند ذاك توقف نيكيتا
وقد فار الدم في عروقه من شدة الغضب، خلع قبعته وركض نحو
الثور وانهال عليه ضربا بالقبعة:

- اذهب من هنا، اذهب!

توقف الثور وخفض قرنيه . وهرع ميشكا كورياسونوك اليه
وساطه في جنبه . فاطلق بايان خوارا مستغيثا واستدار عائدا الى
القطيع . واصططت اسنان نيكيتا من شدة التهيج والانفعال . ارتدى
قبعته والتفت فرأى فكتور قرب المنزل يلوح له بيده . تطلع
نيكيتا عفويا الى النافذة الثالثة على يسار المدخل . ورأى فيها
عينين زرقاوين مشدوهتين وفوقهما شريط الفراشة الزرقاء .
صعدت ليليا الى رف النافذة ونظرت صوب نيكيتا ، وابتسمت فجأة .
اصاح نيكيتا بوجهه في الحال ، ولم يلتفت الى النافذة بعد ذلك .
فقد غمرته فرحة عارمة ، وصاح:

- فكتور ، هيا نتزحلق من التلة!

فلا يتزحلقان من التلة الثلجية طول الوقت ، حتى الغداء ، وهما
يقهقهان و «يتشيطانان» . وبرقت في ذهن نيكيتا فكرة عابرة:

«عندما اعود الى البيت قرب النافذة ، هل التفت اليها ام لا؟
كلا ، سأمر ولن التفت» .

علبة الكارتون

حاول نيكيتا اثناء الغداء الا ينظر صوب ليليا ، مع ان محاولاته
هذه لا موجب لها على اية حال ، لأن آنا ابولوسوفنا جلست بينه
و بين ليليا في بلوذة مخملية حمراء . بدون ردنين وراحت تلوح

بيديها وتتكلم بصوت ثخين عال جعل الشراريب البلورية في
الاباجور تهتز وترن . وجلجل ذلك الصوت:

- كلا ، ثم كلا . علمى ابنك يا الكسندرا ليونتيفنا في المنزل .
فالنظام في المدرسة مشوش الى درجة . ولو كان الامر بيدي
لاخذت المدير من خناقه وطردته حالا... يا فكتور - خاطبت
ابنها فجأة - لا يجوز لك ان تسمع ما تقوله ماما عن الكبار . يجب
عليك ان تحترم الرؤساء . خذي يا الكسندرا ليونتيفنا ، معلمينا
مثلا . ما اشد حماقتهم ، واحدهم اغبي من الثاني . اما عن معلم
الجغرافية... ما لقبه يا فكتور؟

- سينيتشكين .

- كلا ليس سينيتشكين ، بل سينيافكين . انه غبي لدرجة لا
توصف . زار احد البيوت مرة ، وعندما خرج اخذ بدلا من القبعة قطة
ناائمة على الصندوق في الدهليز وارتابها... وضعها على راسه .
فكتور ، كيف تمسك الشوكة و السكين؟ عدل وضعيتهما ، ولا
تمتلق... اقترب من المائدة . اجل ، يا الكسندرا ليونتيفنا ، ماذا
اردت ان اقول لك؟.. نعم ، تذكرت . احضرت معي حقيبة مملوءة
بمختلف الالاعيب لشجرة الميلاد غدا يجب ان يلصقها الاطفال .

- اعتقد يجب ان يبدأوا من اليوم ، والا فلن يكفينا الوقت .
- قالت ماما .

- طيب ، افعلوا ما تريدون . اما انا فساذهب لكتابة الرسائل .
شكر لك يا صديقتي على الغداء .

مسحت آنا ابولوسوفنا شفيتها بالفوطة و ازاحت الكرسي
بصخب و مضت الى غرفة النوم وفي نيتها ان تكتب رسائل ، لكن
نوايض السرير هناك سرعان ما صرت وزمجرت بشكل مرعب
وكان فيلا هوى عليه .

رفعوا السفرة من المائدة الكبرى في غرفة الطعام وجلبت ماما
اربعة مقصات وبدأت تعد صمغ النشاء على النحو التالي: «احضرت
من دولاب الصيدلية المنزلية في الركن علبة النشاء ونشرت منه
في قدح ما لا يزيد عن ملعقة شاي وصبت عليه ملعقتين من الماء
البارد واخذت تخلطه حتى تحول الى عصيدة . وعند ذاك صبت على

العصيدة ماء يغلي من السماور وهي تخلطه طول الوقت بالملعقة حتى صار النشاء شفافا كالمهلبية، وتحول الى صمغ ممتاز.

وجلب الصبيان الحقيبة الجلدية ووضعها على المائدة. فتحتها ماما وانهمكت باخراج محتوياتها: اوراق مذهبة، صقيلة ومحببة، واوراق فضية، وزرقاء و خضراء و برتقالية و ورق مقوى انجليزي وعلب فيها شموع و شمعدانات صغيرة لشجرة العيد وسميكات ذهبية وديكة وعلبة فيها كريات زجاجية منقوخة تربط بخيوط وعلبة فيها كريات ملونة مضغوطة من اربعة جوانب و باعلى كل منها عروة فضية، وعلبة اخرى فيها مفرقات ورقية و حزم من الخيوط الذهبية والفضية و فوانيس بزجاج لدائني ملون ونجمة كبيرة. وكان الاولاد يطلقون صيحات الفرح و الاعجاب كلما فتحت ماما علبة. وقالت ماما وهي تدس يديها في الحقيبة:

- توجد اشياء لطيفة اخرى، لكننا لن نفتحها الآن. تعالوا نلصق الملاعب.

انهمك فكتور بلصق السلاسل الورقية وانشغل نيكيتا بلصق الاكياس للحلويات، واخذت ماما تقص الورق والكارتون. وسالت ليليا بلهجة مؤدبة:

- هل تسمحين لي يا خالتي بان الصق علبة كارتون؟

- الصقي يا عزيزتي ماتريدين.

اخذ الاولاد يعملون صامتين فيسمع زفيرهم وشهيقهم ويمسحون ايديهم الملونة بالنشاء على البستهم. وحدثهم ماما آنذاك ان الاعيب شجرة الميلاد لم تكن موجودة في السابق. وكان الاطفال مضطرين ان يصنعونها كلها بانفسهم. كان هناك اولاد تفننوا في لصق حصن كامل بابراجه و سلاله الحلزونية وجسوره التي ترفع وتخفض. وقد رات ماما ذلك بنفسها. كانت امام الحصن بحيرة مصنوعة من زجاج مرآة مطوقة بطحلب اصطناعي. وفي البحيرة يسحب اثنان من طيور التم قاربا ذهبيا.

كانت ليليا تعمل بصمت وهدهد وهي تستمع الى الحديث وتساعد نفسها بطرف لسانها في اللحظات الحرجة. كف نيكيتا عن لصق الاكياس واخذ يتطلع اليها عندما خرجت ماما وعلق فكتور على الكراسي زهاء عشرة اذرعة من السلاسل الملونة. وسألها نيكيتا:

- ماذا تلصقين؟

ابتسمت ليليا دون ان ترفع راسها، وكانت تقص نجمة من الورق المذهب وتلصقها على الغطاء الازرق.

- ما حاجتك الى هذه العلبة؟ - سال نيكيتا بصوت يقرب الى الهمس.

- هذه العلبة لقفازات العرائس - اجابته ليليا بجد - انت صبي لن تفهم ذلك. - رفعت راسها والقت على نيكيتا بنظرة من عينيها الزرقاوين الصارمتين. ازداد وجهه احمرارا بالتدريج حتى غدا ارجوانيا في آخر الامر. فقالت له:

- وجهك احمر كالبنجر.

وانحنت من جديد على العلبة. و طغت على وجهها مسحة من المكر.

جلس نيكيتا ملتصقا بالكرسي. ولم يعد يعرف ما يقول. وما كان يوسعه ان يغادر الغرفة باية حال. ضحكت البنت عليه، لكنه لم يزعل ولم يشعر بالغيظ. وظل ينظر اليها لا غير. وفجأة سألته ليليا، دون ان ترفع راسها، بصوت آخر وكان بينهما سرا يتحدثان عنه:

- هل تعجبك هذه العلبة؟

- نعم، تعجبني.

- تعجبني انا ايضا - تمتعت وهزت راسها فاهتزت خصلاتها مع الشريط. ارادت ان تضيف الى ذلك شيئا، الا ان فكتور اقترب في تلك اللحظة ودس راسه بينهما وسال بمنتهى السرعة:

- اي علبة؟ اين العلبة؟.. سخافة، علبة عادية استطيع ان اصنع عشرات مثلها.

- والله يا فكتور ساشتكي لماما واقول لها انك تعيقني عن العمل - غمغمت ليليا بصوت مرتعش، وحملت الصمغ والورق الى الطرف الآخر من المائدة.

وغمز فكتور لنيكيتا:

- قلت لك خذ حذرك منها، فهي نمامة.

وفي ساعة متأخرة من الليل سال نيكيتا بصوت مكبوت من

تحت البطانية التي غطا راسه بها وهو راقد على السرير في
الغرفة المظلمة:

- فكتور نمت؟

- كلا... لا ادري... ماذا؟

- اسمع يا فكتور... اريد ان اخبرك بسر رهيب... فكتور...

لا تنم... اسمع، فكتور...

- غوم - غوم، فو - فو - اجابه فكتور.

ماذا في الزحافة الاخيرة؟

في الفجر سمع نيكيتا وهو بين اليقظة والنوم طقطقة في مدافئ
المنزل واصطفاق الباب في آخر الدهليز فقد كان الوقاد يحضر
حزم الحطب و السرقيين المجفف.

استيقظ نيكيتا من فرط السعادة وكان الصباح صحوا قارسا.
تجمدت النوافذ وتكدس الجليد بشكل طبقة سميكة من الاوراق
العريضة. وكان فكتور لا يزال نائما. رماه نيكيتا بالوسادة، فاطلق
الصبي خوارا قصيرا وسحب البطانية وغطى بها راسه. حملت
الفرحة نيكيتا على ترك السرير بسرعة، فارتدى ملاپسه وفكر:
الى اين؟ وجرى الى اركادي ايفانوفيتش.

كان المعلم قد استيقظ توا وشرع يقرأ مستلقيا نفس الرسالة
التي قراها ثلاثين مرة. وعندما وقع بصره على نيكيتا رفع ساقيه
مع البطانية ثم صفق السرير بهما وهتف:

- حالة نادرة! نهض نيكيتا قبل الجميع!

- ما اروع الصباح يا اركادي ايفانوفيتش.

- الصباح، يا اخي رائع حقا.

- اردت ان اسالك يا اركادي ايفانوفيتش - قال نيكيتا وهو

ينبش ضلع الباب باصبعه - هل تعجبك عائلة بابكين؟

- اي منها بالتحديد؟

- الصبي والصبية.

- طيب... واي منهما بالتحديد؟

قال المعلم ذلك بصوت عادي، ولكن بمنتهى السرعة. اتكا

على الوسادة وتطلع الى نيكيتا. نظرتة خالية من الابتسام، لكنها
نظرة متمعنة للغاية. يبدو ان، هو الآخر، يعرف شيئا. اشاح
نيكيتا بوجهه فجأة وترك الغرفة راكضا، ثم تفكر قليلا ومضى
الى الحوش.

الدخان الازرق معلق كالاعمدة المتجمدة فوق جناح الخدم،
فوق الحمام في المنخفض، وابعده منه فوق القرية كلها وراء الحقل
الاييض. خلال الليل استقرت على الاشجار طبقة سميكة من الندى
المتجلد، وتدلّت على البركة اغصان ثلجية ثقيلة من اشجار الحور
الاسود الضخمة، ولاحت تلك الاغصان بوضوح على خلفية السماء
الزرقاء الجامدة. كان الثلج يلمع ويصر، وكان الهواء القارس
يلسع الانف ويجعل الرموش تلتصق.

كان شاروك وكاتوك ينجان على بعضهما عند كومة من الرماد
يتصاعد منها دخان خفيف قرب المدخل. وسار ميشكا كورياسونوك
يحمل هراوة على خط مستقيم عبر الحوش نحو نيكيتا وهو يغوص
في الثلج. كان يريد ان يلعب بدحرجة كريات الجليد. وفي تلك
اللائئ، ظهرت على الطريق الى يمين القرية قافلة من الزحافات
التي لاحت الواحدة تلو الاخرى من المنخفض وانزلت واطنة قاتمة
على الثلج، على طول البركة السفلى نحو السد.

وضع ميشكا كورياسونوك ابهام قفازه على منخاره وتمخط
ثم قال:

- قافلنا قادمة من المدينة محملة بالهدايا.

انزلت الزحافات على السد تحت طاق هائل من اشجار
الصفصاف في حلقها الثلجية. وتناهى صرير الثلج وهسيس بطون
الزحافات ولهات الخيول.

وكما هي العادة كان الخادم الاقدم فكتور، وهو عجوز قصير
القامة عريض المنكبين، اول من دخل الحوش في مقدمة القافلة
على ظهر فرسه الشقراء الضخمة فيستا. تهادى فكتور بخفة جنب
الزحافات في جزمة لبادية متجلدة وملقوفة بحبل معطفه القصير
مفتوح الازرار وقد غطى الندى المتجمد ياقته الفرائية المرفوعة
الى اعلى وقبعته ولحيتته وحاجبيه. اما فيستا التي اسودت من
العرق فكان جنبها يرتفعان ويهبطان وهي تنفخ بطلاقة والبخار

يتصاعد منها كالدخان. التفت فكتور دون ان يتوقف وصاح بصوت مبحوح قوي مخاطبا من في الزحافات الخلفية:
- هيه، استديروا نحو العنابر، ما عدا الزحافة الاخيرة اوصلوها الى المنزل.

في القافلة ست عشرة زحافة. الجياد تجري بانتعاش وقد فاحت رائحة عرق الخيل وتناهى هسيس بطون الزحافات واصوات السياط والبخار يتصاعد فوق القافلة.

وعندما تركت الزحافة الاخيرة السد واقتربت لم يتمكن نيكيتا في الحال من معرفة ما تحمله. كانت تحمل شيئا كبيرا ذا شكل غريب، اخضر اللون بخط احمر طويل. انتفض قلب نيكيتا، فعلى الزحافة الاخيرة التي شدت اليها من الخلف زحافة اضافية قارب معني المقدمة يصر ويتمايل وقد لاح مجدافان اخضران وصاريتان ذات نهاية نحاسية.

تلك هي، اذن، الهدية الموعودة في رسالة الاسرار!

شجرة الميلاد

سحبوا شجرة شوح كبيرة متجمدة وادخلوها صالة الاستقبال. ظل النجار باخوم امدا طويلا يطرق ويشذب بفأسه قاعدتها الصليبية. واخيرا رفعوا الشجرة فاتضح انها عالية حتى ان قممها الخضراء الفاتحة انحنت تحت السقف.

كان البرد ينبعث من الشجرة، الا ان اغصانها المتهدلة اخذت تتخلص بالتدريج من بقايا الجليد وتنصب منقوشة، ففاحت رائحة الصنوبر في المنزل كله. حمل الاطفال الى صالة الاستقبال اكوام السلاسل الورقية وعلب الزينة وقربوا الكراسي واخذوا يعلقون الالاعيب عليها. وسرعان ما اتضح ان تلك الالاعيب قليلة. وتعين عليهم ان يجلسوا من جديد للصق الاكياس وتلوين الجوز بالذهب وشد البقسماط وتفاح القرم بخيوط فضية. صرف الاولاد المساء كله في هذا العمل حتى خر رأس ليليا بشريطه المدعوك على مرفقها وغفت على هذه الصورة عند المائدة.

حلت عشية عيد الميلاد. زينوا الشجرة ونثروا خيوط العناكب

الذهبية عليها وعلقوا السلاسل الورقية ووضعوا الشموع في القراصات الملونة. وعندما فرغوا من التزيين قالت ماما:
- والآن اذهبوا يا اولادي ولا تدخلوا صالة الاستقبال حتى المساء.

تناولوا طعام الغداء ذلك اليوم بعجالة وفي ساعة متأخرة. اكتفى الصغار بتناول كعكة «شارلوتكا» فقط. عم الهرج و المرج المنزل. وكان الصبيان يتراکضان من ركن لآخر ويلحفان على الجميع بسؤال واحد: متى يأتي المساء؟ وحتى ارکاادي ايفانوفيتش الذي ارتدى سترة سوداء طويلة الاذيال وقميصا منسني كورق المقوى لم يقر له قرار. كان يجوب الصالة من نافذة الى اخرى وهو يصفر من حين لآخر. ومضت ليليا الى امها.

الشمس تزحف نحو الافق ببطء فظيع، فهي تتورد وتكتسي بغيوم رمادية، ويستطيل ظل البشر البنفسجي على الثلج. واخيرا امرت ماما الاولاد بان يرتدوا حلة العيد. وجد نيكيتا على سريره قميصا حريريا ازرق مطرزا بشكل اغصان الشوح على الياقة والاذيال والردنين، وحزاما مفتولا ينتهي بشرايب وسرولا مخمليا. ارتدى نيكيتا ملابسه وهرع الى ماما. مشطت شعره الى جهتين بينهما مفرق واحتضنته من كتفيه وتفرست في وجهه واقتادته الى مرآة الابنوس الكبيرة.

راى نيكيتا في المرآة صبيا مهذبا انيقا. فهل يعقل ان هذا الصبي هو نيكيتا؟

- آه، يا نيكيتا - تمتت ماما وهي تقبل رأسه يا ليتك تبقى هكذا دوما.

خرج نيكيتا على اطراف اصابعه الى الرواق وراى البنت تنهادي متبختره في حلة بيضاء. وكانت ترتدي فستانا شفافا فاخرا، و على رأسها شريط ابيض كبير، وتتدلى ست خصلات ثقيلة على جانبي وجهها الذي تغير كليا هو الآخر، وتستقر على كتفها النحيلتين. اقتربت من نيكيتا والقت عليه نظرة متعالية وقالت:
- لماذا ارتعيت؟ تصورتني شبعا؟ - ومضت الى المكتب وجلست على الاريغة دون ان تخفض قدميها.

تبعها نيكيتا وجلس على الطرف الآخر من الاريغة. الحطب

يستمر ويطلق في مدفأة الغرفة ويتساقط نثاره متفحما. ويتراقص ضوء مائل الى الحمرة على ظهور المقاعد الجلدية وعلى ركن اطار ذهبي معلق على الجدار وعلى تمثال بوشكين بين خواني الكتب. جلست ليليا بلا حراك. ما اروع وجنتها وانفها الصغير النافر في الضوء المنعكس من المدفأة. وجاء فكتور في بدلة زرقاء بازرار فاتحة وياقة مطرزة ضيقة يصعب معها حتى الكلام.

جلس على احد المقاعد وصمت هو الآخر. ومن صالة الاستقبال المجاورة تناهى همس ماما وأنا ابولوسوفنا وصما تحلان صررا وتضعان شيئا ما على الارضية. حاول فكتور ان يبص من ثقب المفتاح لكن الثقب كان مسدودا بورقة من الجهة الاخرى.

ثم اصطفق باب في الرواق وتهادت اصوات وخطوات صغيرة كثيرة. فقد جاء اولاد من القرية. وكان لابد من الاسراع اليهم، الا ان نيكيتا عاجز عن الحركة. وعبر نقوش الجليد على النافذة شع ضوء دافئ مائل الى الزرقة. وقالت ليليا بصوت رفيع:

- بزغت نجمة.

في تلك الاثناء فتح باب المكتب. وقفز الاولاد من الاريكة. شجرة الميلاد مشتعلة بعدد كبير جدا من الشموع من ارضية صالة الاستقبال حتى سقفها. كانت منتصبة كشجرة من اللهب يلعب فيها الذهب والشرر والاشعة الطويلة. الضوء ينسكب منها كثيفا دافئا يفوح برائحة الصنوبر والشمع والمندرين والحلوى العسلية.

وقف الاولاد مشدوهين بلا حراك. فتحت ابواب اخرى على صالة الاستقبال ودخل صبيان وصبيات القرية وتزاحموا قرب الجدار. كانوا جميعا في جوارب صوفية بعد ان خلعوا جزماتهم اللبادية. وكانوا يرتدون قمصانا حمراء ووردية وصفراء ومناديل صفراء وحمراء وبيضاء.

وعند ذلك عزفت ماما على البيانو الحان رقصة البولكا والتفتت بمحياها الباسم صوب شجرة الميلاد وانشدت:

سيقان الكراكي طويلة
ضيعت الدرب، ضلت الطريق...

مد نيكيتا يده صوب ليليا، فمدت له يدها وظلت تتطلع الى الشموع وانعكست في عينيها الزرقاويين في كل منهما، شجرة ميلاد. وقف الاولاد جامدين.

هرع اركادي ايفانوفيتش الى حشد الصبية والصبيات واخذهم من ايديهم وحام معهم في رقصة سريعة حول الشجرة. رفرفت اذيال سترته، ثم سحب راكضا صبيين آخرين. ثم نيكيتا وليليا و فكتور، واخيرا انخرط جميع الاطفال في رقصة صاحبة حول الشجرة. وانشد اولاد القرية:

جمعت الذهب، كنزته
جمعت الفضة كنزته...

انتزع نيكيتا مفرقة من الشجرة ومزقها فوجد فيها طربوشا بنجمة. وطقطقت المفرقات الاخرى في الحال، وفاحت رائحة البارود، وتعالت خشخشة الطرايبش الورقية.

وكان من نصيب ليليا منزر ورقي بجيبين. ارتدته واحمرت وجنتاها كتفاحتين، وكانت شفتاها ملطختين بالشوكولاته. كانت تضحك طوال الوقت و تنظر بين حين وآخر الى العروس الكبيرة الجالسة تحت الشجرة والى السلة التي فيها ثياب العروس.

تحت الشجرة اكياس ورقية فيها هدايا للصبيان والصبيات ملفوفة بمناديل ملونة. استلم فكتور فوجا من الجنود مع مدافع وخيام. واستلم نيكيتا سرجا جلديا حقيقيا و لجاما وسوطا.

وتعالق اصوات تكسير الجوز والقشور التي تطلق تحت الاقدام وانفاس الاطفال المبهوتة وهم يفتحون اكياس الهدايا.

وعزفت ماما على البيانو من جديد، ورقص الاطفال حول الشجرة منشدين، لكن الشموع بدأت تحترق فاخذ اركادي ايفانوفيتش يطفئها متقافزا حول الشجرة التي بهتت و احلولكت. واطبقت ماما غطاء البيانو وطلبت من الجميع ان يذهبوا الى صالة الطعام لاحتساء الشاي.

تصادق فكتور في هذه الايام مع ميشكا كورياسونوك ورافقه الى البركة السفلى لاشعال «القطط». فأشعلا «قطعة» رهيبة وانطلق اللهب من تحت الجليد بأعلى من قامة الانسان. ثم أنشأ على الترعَة وراء البركة قلعة مكونة من برج ثلجي حوله سور بطيقتان و بوابة. وبعد ذلك كتب فكتور رسالة الى اولاد «راس القرية»: «يا اولاد راس القرية، انتم حدادون عور كل ما صنعتوه هو حدوة للغارة. سنضربكم ضربة تظلون تتذكرونها الى الابد. تعالوا. نحن ننتظركم في القلعة. القومندان فكتور بابكين، التلميذ في الصف الثاني».

دقوا الرسالة بمسماز على عصا، و حملها ميشكا كورياسونوك الى القرية و غرزها على كومة ثلج قرب منزل ارتامون. تسلق سيومكا وليونكا وارتامون الصغير واليوشكا وفانكا ابو الاذنين السوداوين و بتروشكا، ابن اخ الاعزب، كومة الثلج قرب العصا وراحوا يهددون اولاد راس القرية امدًا طويلا ويرمونهم بكسر الجليد، ثم ذهبوا مع ميشكا كورياسونوك وتحصنوا معه في القلعة. امر فكتور باعداد كتل و كريات ثلجية رصفوها داخل القلعة على طول الأسوار و غرزوا على البرج عصا في اعلاها حزمة من البردي و ظلوا ينتظرون.

جاء نيكييتا و تفقد التحصينات ودس يديه في جيبه وقال: - لن ياتي اليكم احد. قلعتكم لا تصلح لشيء، فلن اللعب معكم.

انا ذاهب الى البيت.

- هذا الفارس لا يتحمل فراق البنت! - صاح فكتور من سور القلعة.

وقهقه اولاد ارتامون واطلق فانكا ابو الاذنين السوداوين صغيرا باصبعه المعقوف. فقال نيكييتا:

- لو اردت لنثرتكم جميعا من قلعتكم، ولكن لا اريد ان الوث يدي - ومد لسانه لفكتور و مضى نحو المنزل عبر جليد البركة.

رموه بكريات الثلج فلم يلتفت.

لم يطل انتظار الصبيان في القلعة. فمن جهة القرية، من وراء

الا ان اركادي ايفانوفيتش لم يهدأ هنا أيضا، فقد شكل سلسلة هو في مقدمتها ووراء خمسة و عشرون طفلا وركض بهم في طريق غير مباشر عبر الرواق الى صالة الطعام.

و في الدهليز انفصلت ليليا عن السلسلة و توقفت لتلتقط انفاسها وهي تلقى على نيكييتا نظرة من عينين ضاحكتين. كانا واقفين قرب مشجب المعاطف، فسالته ليليا:

- لماذا تضحك؟

- انت تضحكين وليس انا - اجابها نيكييتا.

- فلماذا تنظر الي؟

احمر وجه نيكييتا، لكنه اقترب منها و انحنى عليها، دون وعى منه، وقبلها. فردت عليه في الحال بكلمات متلاحقة:

- انت صبي طيب. لم اقل لك ذلك كيلا يعرفه احد، فهذا سر بيننا - استدارت وركضت الى صالة الطعام.

بعد الشاي رتب اركادي ايفانوفيتش لعبة الغرامات لكن الاطفال تعبوا و اكلوا كثيرا فلم يعودوا يفهمون اصول اللعبة جيدا. واخيرا غفا لطفل صغير جدا في قميص مشجر، فهوى من الكرسي واخذ ينحب بصوت عال.

واعلنت ماما عن انتهاء الحفلة، فخرج الاولاد الى الرواق حيث كانت معاطفهم و جزماتهم مصفوفة على طول الجدار. ارتدوها وهرعوا من المنزل الى الصقيع متزاحمين.

رافق نيكييتا الاولاد حتى السد. و عندما عاد الى المنزل وحيدا كان القمر ينير السماء في هالة بهيجة شاحبة.

وكانت الاشجار على السد وفي البستان تنتصب هائلة بيضاء وكانها قد نمت وسمقت في ضوء القمر. والى اليمين انبسطت صحراء بيضاء ذابت اطرافها في عتمة صقيعية تفوق الوصف. والى جنب نيكييتا كان ظل طويل ضخم الرأس يحرك ساقيه ماشيا.

خيل لنيكييتا انه يسير في المنام، في مملكة مسحورة. فالنفس لا تشعر بمثل هذه الفرحة الغريبة الا في مملكة مسحورة.

اكداش القش الملقعة بالثلوج لاح اولاد «راس القرية». ساروا صوب القلعة مباشرة وهم يغوصون في الثلج حتى الركب. وكانوا زهاء خمسة عشر صبيا.

و تباهى فكتور بانه سيحول عظام اولاد «راس القرية» الى حطب. وقال ذلك وهو يتنشق بصغير من انفه المحمر في الصقيع. وكانت عيناه تتراقصان. اقترب اولاد «راس القرية» واخذوا مواقعهم امام بوابة القلعة وجلس بعضهم على الثلج. وجاء معهم الصبي الصغير الملتف بمنديل امه. جاءوا وفي مقدمتهم ستيوبكا كارناوشكين الذي تفحص القلعة واقترب من سورها وقال:
- اعطونا هذا الصبي ذا الازرار الفاتحة لتفرك اذنيه بالثلج...

شهق فكتور مهموما. وهمس له ميشكا: «اقذفه بكتلة ثلجية!» رفع فكتور كتلة من الثلج والقاما عليه فاخطاه. انسحب كارناوشكين عائدا الى اصحابه، وكانوا قد نهضوا واخذوا يصنعون كريات من الثلج. وانطلقت من القلعة كتل ثلجية صوبهم. وكان اولاد ارتامون يرمون تلك الكتل بتصويب جيد. فقد اسقطوا في الحال الصبي الصغير الملتف بمنديل امه. واخذ اولاد «راس القرية» يردون على الرمي بالمثل. وانطلقت الكريات الثلجية كثيفة من كلا الجانبين. سقطت صارية البرج، وهوى فانكا ابو الاذنين السوداوين من فوق السور واستسلم للعدو. وفجأة طارت طاقية فكتور وضربته كتلة ثلجية اخرى في وجهه. وتعالى صياح اولاد «راس القرية» وزعيقهم وصغيرهم، فقد هجموا لاقتحام القلعة... فتحوا ثغرة في السور فهرب حماة القلعة عبر البردي على جليد البركة.

ماذا في المزهريه على ساعة العائظ؟

لم يفهم نيكيتا سبب عزوفه عن اللعب مع الصبيان. عاد الى المنزل وخلع ثيابه ومضى من غرفة الى اخرى فسمع ليليا تقول:
- ماما، اعطيني، من فضلك، خرقة نظيفة، فان ساق العروس الجديدة فالينتيننا تؤلمها وانا قلقة على صحتها.

توقف نيكيتا واحس بفرحة غامرة من جديد، كما في كل هذه الايام. كانت تلك الفرحة كبيرة جدا حتى خيل اليه ان صندوقا موسيقيا يجول في داخله وتنساب منه الحان مرحة رقيقة.

دخل نيكيتا المكتب و جلس على الاريكة. في نفس المكان الذي جلست فيه ليليا امس الاول، وراح ينظر بعينين شبه مغمضتين الى زجاج النوافذ والى النقوش المختلفة التي رسمها الجليد عليه. هذه النقوش الرقيقة الغريبة كانما جاءت من المملكة المسحورة التي يبث منها الصندوق السحري موسيقى صامتة. هذه النقوش عبارة عن اغصان واوراق واشجار واشباح غريبة لوحوش و بشر. احس نيكيتا وهو يتطلع الى النقوش ان كلمات تتراصف من تلقاء ذاتها وتغني. وبسبب هذه الكلمات المذهلة والانشاد المدهش انتصب الشعر على هامة راسه واخذ يدغدغه.

نزل نيكيتا من الاريكة بحذر وبحث في مكتب ابيه عن قصاصة ورق واخذ يكتب قصيدة باحرف كبيرة:

يا غابتي السحرية
تملوك الاطيار
والوحوش والافراح الهمجية...
ما اشد حبي لك
يا غابتي السحرية...

الا انه وجد صعوبة في اضافة شيء الى هذه السطور. اخذ يحدق في السقف ويقضم القلم. ثم ان الكلمات التي كتبها لم تكن نفس الكلمات التي صدحت تلقائيا قبل قليل.

قرا نيكيتا القصيدة، فاعجبته على كل حال. طوى الورقة بعرض عدة طيات ودسها في جيبه ومضى الى غرفة الطعام حيث جلست ليليا تخطط قرب النافذة. تندت يده الممسكة بالورقة في جيبه، لكنه لم يجد الشجاعة ليعرض القصيدة عليها.

قبيل المساء عاد فكتور بوجه ازرق من البرد وانف متورم.
وصفقت أنا ابولوسفنا يدا بيد:

- حطموا له انفه من جديد! مع من تعاركت؟ اجبنى فوراً.
- لم اتعارك، انفي تورم بنفسه - اجاب فكتور عابسا
ومضى الى غرفته وارتمى على السرير.

جاءه نيكيتا ووقف ازاء المدفأة الحجرية. انيرت في السماء
المائلة الى الخضرة بضع نجوم كان احدا لسعها بآبرة. وقال
نيكيتا:

- هل تريد ان اقرا لك شعرا عن الغابة؟

هز فكتور كتفيه ووضع ساقيه على ظهر السرير:

- بلغ ستيوبكا كارناوشكين ان الافضل له ان يتحاشاني.
- في هذا الشعر وصف لاحدى الغابات - قال نيكيتا - وهي
غابة لا ترى بالعين لكن الجميع يعرفونها... اذا اصابك حزن اقرا
هذا الشعر وستبدد حزنك فوراً. يصادف ان ترى في المنام شيئا
رائعاً لا تعرف ما هو، لكنه رائع حقاً، وعندما تستيقظ وتحاول ان
تذكره لا تستطيع... هل تفهم؟

- كلا. - اجاب فكتور - لا افهم ولا اريد الاستماع الى
اشعارك.

تنهد نيكيتا. ظل واقفا قرب المدفأة برهة ثم انصرف. في
الدليلز الواسع المنار بالحطب المستعر في المدفأة جلست ليليا
على صندوق مغطى بجلد ذئب قبالة المدفأة وراحت تراقب اللهب
المتراقص.

جلس نيكيتا جنبها على الصندوق. الدهليز يعبق بروائح
الدفء ومعاطف الفرو وينفج عسلي حزين ينبعث من العاجيات
القديمة التي تعج بها جرارات الخوان الضخم. وقالت ليليا متألعة:
- تعال نتحدث. قص علي شيئا ممتعا.

- هل تريد ان احكي لك الحلم الذي رايت مؤخرًا؟

- نعم، حدثني عن هذا الحلم، ارجوك.

طلق نيكيتا يقص عليها الحلم الذي رأى فيه القط والصورتين
اللتين دبت فيهما الحياة، وحدثها عن تحليقه تحت السقف وعماً

رآه هناك. استمعت اليه ليليا باهتمام وفي حضانها العروس
المضمدة الساق.

عندما فرغ من حديثه التفتت اليه بعينين جاحظتين من الخوف
وحب الاستطلاع. وسألته بهمس:

- ماذا في المزهرية؟

- لا ادري.

- فيها شيء هام حتماً.

- ذلك مجرد حلم.

- مع ذلك، كان يجب التاكيد منه. انت صبي ولا تفهم شيئا
في هذه الامور. ولكن هل عندكم مزهرية مثل تلك في الواقع؟

- عندنا ساعة بالفعل، ولكنني لا اتذكر المزهرية. الساعة
موجودة في مكتب جدي، وهي معطلة.

- فلنذهب لنراها.

- المكتب مظلم.

- سنأخذ مصباحاً من شجرة الميلاد. احضر المصباح ارجوك.
مضى نيكيتا راكضاً الى صالة الاستقبال وانتزع من الشجرة
مصباحاً بزجاج لدائني ملون وعاد به الى الدهليز.

القت ليليا منديلاً وبرياً كبيراً على كتفها، وخرج الاثنان
خلسة الى الرواق وتسللا الى النصف الصيفي من المنزل. نوافذ
الصالة المعتمة العالية السقف مغطاة بئدي متجلد كثيف، واستقرت
عليها ظلال الاغصان في ضوء القمر. الصالة باردة تفوح فيها
عفونة التفاح. دفنا باب البلوط في الغرفة المجاورة المظلمة
مواربتان. وسألت ليليا:

- الساعة هناك؟

- كلا، في الغرفة الثالثة.

- نيكيتا، الا تخاف؟

سحب نيكيتا دفة الباب فانبعث منها صرير كالانين اجتاح سائر
الغرف الخالية. تشبثت ليليا بيد نيكيتا. وارتعش المصباح
فتراقصت اشعته الحمراء والزرقاء على الجدران.

دخلت الغرفة المجاورة على اطراف الاصابع. كان ضوء القمر قد
تسرب من النوافذ واستقر على الأرضية الخشبية بشكل مربعات

مانلة الى الزرقة. وعلى امتداد الجدار انتصبت المقاعد المخلطة، وفي الركن الاريكة الواطئة كجذع شجرة. ألم الدوار بنيكيتا، وخيل اليه انه رأى هذه الغرفة قبلا كما هي الآن.

- ينظران الينا - همست ليليا مشيرة الى الشيخ والعجوز في الصورتين القائمتين على الجدار.

اجتازا الغرفة راكضين وفتحا الباب الثاني. كان المكتب مغمورا بضوء القمر الساطع. والزجاج يلعب على دفات خزائن الكتب وتلمع اجلدتها المذهبة. ومن فوق المدفأة الحجرية تطلعت اليهما المرأة في بزة الخيالة مغمورة بالضوء وعلى شفيتها ابتسامة كلها الغاز.

- من هذه؟ - سألت ليليا وهي تقترب من نيكيئا. فاجابها همسا:

- هذه هي.

هزت ليليا رأسها. ثم التفتت وهتفت فجأة:

- المزهرية، انظر يا نيكيئا، هذه هي المزهرية!

بالفعل. ففي اعماق الغرفة، بين ضفيريئين خشبتين على ساعة الابنوس العتيقة برقصها الثابت، مزهرية برونزية برأس أسد. لم يكن نيكيئا قد لاحظ وجودها في السابق، لكنه عرفها الآن، فهي نفس المزهرية التي رآها في المنام.

قرب كرسيها من الساعة وصعد عليه و استطال على اطراف اصابعه ودس اصبعه في المزهرية فلمس في قاعها غبارا وشيئا صلبا.

- وجدتها - هتف وقفز الى الارضية بقبضة مضغوطة.

في تلك الاثناء هر عليه من وراء خزانة الكتب القبط فاسيا الذي قفز بعينين بنفسجيتين براقتين. كان يتصيد الفئران في المكتبة.

لوح ليليا بيديها واطلقت ساقها للريح، وركض نيكيئا في اثرها. كان مرتعبا جدا وكان يدا مجهولة لمست شعره. ركض القبط فاسيا هو الآخر خافضا ذنبه، فمرك على مربعات ضوء القمر وسبق نيكيئا و ليليا دون ان يحسا به.

هرعا الى الدهليز وجلسا على الصندوق قرب المدفأة وهما

يلهتان من الخوف. توهمت وجنتا ليليا. وسألت هي تتطلع في عيني نيكيئا مباشرة:

- ماذا؟

عند ذاك فتح اصابعه فرات ليليا على راحته خاتما رقيقا بنص ازرق. وصفقت يدا بيد صامتة. ثم قالت:

- خاتم!

- خاتم سحري! - قال نيكيئا.

- ماذا سنفعل به؟

قطب نيكيئا حاجبيه، وأخذ يدها والبس الخاتم على سبابتها، فقالت له:

- كلا، لماذا تعطيني ايام؟ - تطلعت الى الفص و ابتسمت وتنهدت ثم احتضنت نيكيئا في رقبته وقبلته.

احتقن وجه نيكيئا فاضطر الى الابتعاد عن المدفأة. ثم استجمع قواه وتمتم:

- وهذه لك ايضا - اخرج من جيبه الورقة المطوية المدعوكة التي سجل عليها قصيدة الغابة وسلمها الى ليليا.

فتحت الورقة وأخذت تقرأها محرقة شفيتها، ثم قالت متأملة:

- اشكرك يا نيكيئا. هذا الشعر اعجبني كثيرا.

المساء الأخير

اثناء احتساء شاي المساء تبادلت ماما النظرات مرارا مع آنا ابولوسوفنا وهزت كتفها. وغرر اركادي ايفانوفيتش وجهه الخالي من أي تعبير في كوبه حتى يخيل اليك انه لن ينطق بكلمة ولو ذبحته. فرغت آنا ابولوسوفنا من احتساء الكوب الخامس مع القشدة والفطائر الساخنة وابتعدت الاكواب والصحون عنها ونظفت البقعة التي امامها من فئات الطعام ووضعت باطن يدها الكبيرة على السفرة وقالت بصوتها الاجش:

- كلا، ثم كلا، يا عزيزتي الكسندرا ليوتيفنا، مادمت قد قلت فلا جدال في اقوالي. اذا كان صاحبك حلوا فلا تأكله كله. اسمعوا يا اولاد - استدارت وغرزت سبابتها في ظهر فكتور كيلا يجلس

محدودبا - غداً الاثنين، وقد سيتم ذلك طبعاً. انهوا الشاي
واذهبوا للنوم فوراً. ففي فجر غد سترتحل.
كور فكتور شفتيه صامتا ومدهما حتى تجاوزتا انفه. وغضت
ليليا بصرها بسرعة وانحنت على الكوب. اما نيكيتا فقد غامت
عيناه في الحال وداهمت اشعة تنبعث من لسان الصباح. اشاح
بوجهه واخذ ينظر الى القلط فاسيا.

ربض القلط على الأرضية النظيفة ومد قائمته الخلفية
كالمسدس وراح يلعقها وقد ضيق جفونه. لم يكن يشعر بالضجر
ولا بالمرح. وهو غير مستعجل في الذهاب الى اي مكان. وفكر في
نفسه: «غداً، بالنسبة لكم انتم البشر، يوم عمل. ستبدأون من
جديد بحل مسائل الحساب وكتابة الاملاء، اما انا فلم اعيد في
الاعیاد ولم انظم الأشعار ولم اتبادل القبلات مع البنية. ساكون غداً
ايضاً في اطيب حال».

فرغ فكتور وليليا من احتساء الشاي. تطلعا الى حاجبي امهما
الكثيفين اللذين بدأ يتحركان فنهضا وودعا الحاضرين وخرجا مع
نيكيتا من غرفة الطعام. وهتفت آنا ابولوسوفنا:

- فكتور!

- نعم يا ماما.

- كيف تسير؟

- كيف؟

- كأنك تجرجر قدميك على مطاط. اخرج بسرعة ولا تتسكع
في الغرفة فالباب امامك. عدل ظهرك... اي نفع ينتظر منك في
الحياة؟ لا ادري والله!

انصرف الأولاد. في الدهليز الدافئ، المعتم حيث يتعين على
الصبيين ان يستديرا الى اليمين توقف نيكيتا امام ليليا وقال وهو
يعض على شفتيه:

- هل ستأتين الينا بالصيف؟

- ذلك يتوقف على ماما - اجابت ليليا بصوت رفيع دون ان
ترفع بصرها.

- هل ستكتبين لي؟

- نعم. ساراسلك يا نيكيتا.

- وداعا اذن.

- وداعا يا نيكيتا.

هزت ليليا راسها فتحركت الفراشة عليه ومدت اطراف
اصابع يدها لنيكيتا وانصرفت لا تلمس على شيء في مشية
مزدية وقامة معتدلة. فلم يفهم نيكيتا شيئا وهو يشيعها بنظراته، اذ
انها «ذات طبع متحفظ جدا» كما قالت عنها آنا ابولوسوفنا.

ظل فكتور يدمدم متذمراً وهو يجمع الكتب و اللعب في سلة
ويخلع صوراً ما ويخبئها في علبة، ثم راح يبحث عن سكينه الصغيرة
تحت المنضدة. اما نيكيتا فلم ينبس بكلمة. خلع ملابسه على عجل
وغطى راسه بالبطانية متظاهراً بالنوم.

خيل اليه ان كل ما في العالم قد انتهى. ومن خلال النعاس
الذي اثقل على جفنيه ظهرت الفراشة الهائلة لآخر مرة كظل على
الجدار، ولن ينسى صورتها بعد الآن مدى العمر. وسمع بين اليقظة
والنوم اصواتا، واشخاصا اقتربوا من سريره، ثم ابتعدت
الاصوات. ورأى اشجارا كبيرة ذات اوراق عريضة دافئة ودربا
ضيقة مائلا الى الاحمرار عبر حشائش كثيفة تفسح المجال امامه
بسهولة. وشعر بلذة مدمشة في هذه الغابة الغريبة الحمراء
تقريبا في الضوء واراد ان يبكي لحزن انتابه ولم يكن يعرف الحزن
من قبل. وفجأة برز من بين اوراق راعي الحمام راس أحد الهنود
الحمر المتوحشين في نظارة مذهبة. وصاح بصوت عال: «آ، لا
تزال نائما».

فتح نيكيتا عينيه. كان وجهه مغمورا بضوء الصباح الساخن
وامام السرير وقف اركادي ايفانوفيتش يداعب انفه، هو، بطرف
قلم الرصاص.

- انهض، انهض يا شيطان.

الفراق

في يناير بعث فاسيلي نيكيتيفيتش والد نيكيتا، رسالة جاء
فيها:

«...يؤلمني جدا ان قضية الميراث ستؤخر عودتي لأمد طويل

يا عزيزتي الكسندرا. فمن اللازم ان اسافر الى موسكو لمراجعة القضية. وعلى اية حال ساكون معكم في الصوم الكبير...»
حزنت ماما حزنا شديدا لهذه الرسالة وعرضتها في المساء على اركادي ايفانوفيتش وقالت:

- تبا لهذا الميراث اذا كان يسبب كل هذه المشاكل. الشتاء كله نعيش في الفراق. حتى يخيل الي ان نيكيتا بدأ ينسى اياه. اشاحت بوجهها واخذت تحديق في النافذة المتجلدة المعتمة. وخلفها ليل بهيم وصقيع شديد جعل اشجار البستان تطلقق والواح سقف الجماليون تبعث بين الحين والآخر طقطقة عالية يرتجف لها الجميع، والعصافير تقع على الثلج فيجدونها ميتة في الصباح. مسحت ماما عينيها بالمنديل بحركة خفيفة. فقال اركادي ايفانوفيتش:

- نعم، ما اشد الفراق - غمغم بهذه الكلمات متأملا، ولعله كان يفكر بالفراق الذي يعاني منه شخصيا. فقد امتدت يده لتلمس الرسالة في جيبه.

كان نيكيتا آنذاك يرسم خريطة امريكا الجنوبية. فقد جرى بينه وبين ماما اليوم حديث طويل اعربت فيه ماما عن قلقها واعتقادها بانه تكاسل خلال العيد وتدهور الى حالة تؤهله، على ما يبدو، ليكون من الكتبة في الناحية او عمال التلغراف في محطة بيزينتشوك للقطار. وقالت ماما: «في المساء ارسم امريكا الجنوبية بدلا من الصور السخيفة».

انهك نيكيتا في رسم امريكا وراح يفكر: هل يعقل انه نسي بابا؟ كلا. وفي البقعة التي تتقاطع فيها خطوط الطول والعرض على نهر الامازون راي وجه ابيه المرح بوجنتيه الموردين وعينييه البراقتين واسنانه اللماعة ولحيته القاتمة المنفرجة الى شطرين، وسمع صوته العالي يقهقه. كان يستطيع ان يتطلع طول ساعات الى قم ابيه، وهو يتحدث، فيتملكه ضحك شديد. كانت ماما كثيرا ما تلوم بابا على خلو باله وطيشه، لكن السبب في ذلك هو خفة طباعه ومرحه. فمثلا، يخطر على باله فجأة ان الضفادع التي تعج بها البرك الثلاث في الضيعة تهلك بلا فائدة، فيستغرق خلال امسيات بكاملها في الحديث عن كيفية تربيتها وتسميتها ورعايتها

ثم ارسالها في براميل الى باريس. وقال لماما التي اضحكها هذا الحديث حتى تساقطت الدموع على خديها: «انت تضحكين الآن، لكنك ستترين اني ساجمع ثروة من الضفادع». امر بابا بتسييج بقع في البركة وطبخ عصيدة لاطعام الضفادع واحضر بعض تلك الضفادع الى المنزل حتى هددته ماما بان يختار واحدا من اثنين، فاما هي واما هذه الضفادع التي تخشاها حتى الموت. وقالت بانها لن تعيش في بيت مليء بهذه الحيوانات المقرفة. ذات مرة سافر بابا الى المدينة وبعث من هناك عربات محملة بابواب بلوط واطر نوافذ عتيقة ومعها رسالة: «عزيزتي الكسندرا! تسنى لي صدفة ان اشترى مجموعة رخيصة جدا من الابواب والنوافذ. وقد جاءت بالمناسبة لانك كنت تعلمين ببناء جناح على تلة الحور. هل تذكرين؟ وقد تكلمت مع المعماري فنصحتني ببناء جناح شتوي ليكون بالامكان العيش فيه شتاء ايضا. وانا مسرور مسبقا، فان منزلنا واقع في منخفض ولا يرى من نوافذه اي منظر». بكت ماما. كانت مدينة لاركادي ايفانوفيتش برواتب الشهور الثلاثة الماضية، فمن اين تأتي بالنفقات الجديدة؟.. رفضت بناء الجناح رفضا باتا، وظلت الابواب والنوافذ تتفسخ في المستودع. واستولت على بابا، مرة، فكرة ساخنة لتحسين الزراعة وكانت تلك مصيبة اخرى. فقد اوصى على آلات من امريكا، وذهب بنفسه للاشراف على نقلها من محطة القطار، وكان غاضبا، وهو يعلم العمال على كيفية قيادتها، ويصيح على الجميع: «على مهلكم يا ملاعين!»

وبعد فترة قصيرة سألته ماما:

- كيف حال آلتك العجيبة لحزم السنايل؟

- ماذا؟ - قال بابا وهو ينقر على النافذة باصبعه. - آلة ممتازة.

- رايتها في المستودع.

هز بابا كتفه ومسد لحيته بشطريها الاثنيين على عجل وسألته

ماما بصوت وديع:

- هل تعطلت؟

- ليس الذئب ذئبي - قال بابا متأنفا - الامريكان البلهاء

يبتدعون آلات تعطل كل دقيقة.

رسم نيكيتا نهر الامازون وروافده وراح يفكر باييه فامتلا
فؤاده بالحب والمرح الرقيق. ضميره لا يؤنبه، وماما غير محقة
عند ما قالت ان نيكيتا نسي اياه.

وفجأة طفتق الجدار كطلقة المسدس. ندت عن ماما صرخة
وسقطت الحياكة على الارضية. وهر القنفذ اخيلكا تحت الخوان
ونفت الهواء من منخره غاضبا. تطلع نيكيتا الى اركادي ايفانوفيتش
الذي تظاهر بالمطالعة لكن عينيه مغمضتان في الواقع مع انه ليس
نائما. وشعر نيكيتا بالعطف عليه: مسكين، ذهنه مشغول دوما
بخطيبته فاسا نيولوفنا المعلمة في المدينة. فما اصعب الفراق!
اسند نيكيتاخده بقبضته وما اخذ يفكر بفراقه هو. هاهو الكرسي
الذي جاست ليليا عليه قرب المائدة. وهي الآن غير موجودة.
فما اشد حزنه! كانت هنا وارتحلت. وهامي البقعة التي خلفتها
على المائدة عندما سال الصمغ من يدها. وعلى هذا الجدار كان
يستقر ظل شريطها. «مرت الايام السعيدة بلمح البصر». اختنق
نيكيتا من هذه الكلمات الحزينة جدا التي ابتدعها توا. وكيفا
ينساها سجل تحت خريطة امريكا: «مرت الايام السعيدة بلمح البصر»
واستمر يرسم. مال بنهر الامازون الى جهة غير صحيحة فمده عبر
باراغواي واورغواي الى ارجيل ماجلان:

- اعتقد انك محقة يا الكسندرا ليونتييفا. فهذا الصبي يستعد
ليكون من عمال التلغراف في محطة بيزينتشوك - قال اركادي
ايفانوفيتش بصوت هادي، يقشعر له البدن. وكان يتطلع من زمان
الى ما يفعله نيكيتا بالخريطة.

مشاغل الايام

اخذ الصقيع يشدد يوما بعد يوم. الريح القارسة تعبت
بالاشجار فيتساقط منها الندى المتجلد. واكتست الثلوج بطبقة
جليدية صلبة صارت الذئاب الجائعة المرتجفة تمشي عليها في
الليالي فرادي وازواجا حتى تقترب من الضيعة.

ويتحسس شاروك وكاتوك وجود الذئاب فيطلقان صاواة
كثيبة اقرب الى العواء ويختبان تحت مستودع العربات ويعويان
من هناك بصوت رفيع مقرق: ووووو.

كانت الذئاب تعبر جايد البركة وتقف بين البردي وتشمم
روائح الضيعة المأهولة تشجع وتمر عبر البستان وتقمي على
تلج الفسحة امام المنزل وتنظر بعينها البراقة الى النوافذ
المتجلدة المعتمة وترفع ابواها في الظلمة القارسة وتشرع
بالعواء بصوت واطىء في البداية، وكانها تتشكى وتنوح. ثم يرتفع
العواء تدريجيا ويعلو بلا انقطاع حتى تجهد الحناجر الجائعة وتخدش
اصواتها الأذان.

وخوفا من عواء الذئاب يغرز شاروك وكاتوك بوزيهما في القش
تحت مستودع العربات حتى يكادان يفقدان رشدهما. وفي جناح
الخدم كان النجار باخوم يتلمل على ذكة الفرن متدثرا بفرو الغنم
ويدمدم ناعسا:

- يا الهي، اغفر لنا ذنوبنا.

كانت الأشغال في المنزل سائرة على قدم وساق. الجميع
ينهضون من النوم في ساعة مبكرة، حالما تنساب من النوافذ
السوداء المائلة الى الزرقة خطوط قرمزية من ضوء الفجر،
ويتكشف شيئا فشيئا الزجاج المزخرف بالجليد وتظل اعاليه
زرقاء.

تصطفي فتحات مدافئ المنزل وافرانه، ويظل فانوس الكيروسين
المصفيح مشتتلا في المطبخ وتفوح رائحة السماور والرغيف الساخن.
لم يكونوا يطيلون الجلوس لاحتساء شاي الصباح. وبعده تنظف
ماما المائدة في غرفة الطعام وتضع عليها ماكينة الخياطة. وتأتي
خياطة المنزل صوفيا التي تستاجر من قرية بيوسترافكا. وهي
مجدرة الوجه مائلة على جنبها، وقد تسوست سنن من اسنانها
الامامية لامعانها في قطع الخيوط بها وكانت تخط مع ماما ثيابا
للاستعمال اليومي ايضا. كانتا تتحدثان همسا اثناء الخياطة
وتمزقان القماش فينبعث منه صوت كالفرقة. كانت صوفيا عبوسا
وكانما تركت وراء الدولاب سنين عديدة فعثروا عليها ونفضوا
الغبار عنها واملسوها لتخيط الثياب.

ركز اركادي ايفانوفيتش خلال هذه الايام على الدروس وقام
بطفرة - حسب تعبيره المحبب - حيث شرع بتدريس الجبر وهو
مادة جافة للغاية.

فائنا دراسة الحساب يمكن على الأقل التفكير بمختلف الاشياء
المسلية، وان كانت غير نافعة يمكن التفكير، مثلا، بالاحواض
الصدئة التي تطفو فيها فئران ميتة وتصب فيها ثلاثة انايب، او
بشخص ما في سترة لدائنية وانف طويل يخلط ثلاثة انواع من
البن ويشترى بضع اوقيات من النحاس، او بذلك البزاز المنحوس
وقماشه الأسود والازرق. اما الجبر فليس فيه ما يمكن التعلق به
وليس فيه شيء حي على الاطلاق، سوى رائحة الصمغ المنبعثة من
جلد الكتاب، بالاضافة الى انعكاس وجه اركادي ايفانوفيتش،
المستدير كالابريق، في المحبرة عندما ينحني على كرسي نيكيتا
ليشرح له الغاز.

وانثناء دروس التاريخ يقف اركادي ايفانوفيتش وظهره الى
المدفأة الحجرية. وعلى خلفية قراميدها البيضاء تبدو سترته
السوداء ولحيته الشقراء وظلته المذهبة على اروع ما يكون.
وعندما تحدث المعلم عن بيبين القصير الذي استعرض قوته في
سواسون رفع يده وشق الهواء براحته وقال مخاطبا نيكيتا:

- لاحظ ان اناسا مثل بيبين القصير كانوا يتميزون بارادة
لا تقهر وبسالة منقطعة النظير. وهم لا يتكاسلون عن العمل مثلما
يتكاسل البعض، ولا يحملون كل لحظة في المحبرة التي لم يكتب
عليها شيء، بل ولم يكونوا يعرفون الكلمات المخجلة مثل «لا
استطيع» و «تعبت». ولم يدعكوا جباههم باصابعهم بدلا من استيعاب
الجبر. ولذا لا يزالون حتى الآن قدوة لنا... تلفظ الكلمات الأخيرة
وهو يرفع الكتاب بعد ان دس اصبعه في منتصفه.

وبعد الغداء تقول ماما للمعلم عادة:

- اذا كانت درجة الحرارة اليوم ايضا عشرين درجة تحت
الصفر فلن يذهب نيكيتا للتنزه.

وكان اركادي ايفانوفيتش يقترب من النافذة وينفخ على الزجاج
في البقعة التي يوجد المحرار وراءها ويقول:

- واحد وعشرون ونصف يا الكسندرا ليونتيفنا.

- حقا؟ هذا ما تصورته. اشغل نفسك بشيء يا نيكيتا.
مضى نيكيتا الى مكتب ابيه وجلس على الاريغة الجلدية
القريبة من المدفأة وفتح كتاب فينيومور كوبر السحري.

كان السكون مخيما على غرفة المكتب الدافئة حتى سمع نيكيتا
دويا خفيفا في اذنيه. فما اغرب القصص التي يمكن ان يبتدعها في
وحدته هذه على الاريغة وسط ذاك الدوي. كان الضوء الابيض
ينساب عبر زجاج النوافذ المتجلد. قرا نيكيتا في كتاب كوبر، ثم
قلب حاجبيه واخذ يتصور امدا طويلا، بلا بداية ولا نهاية، تلك
البراري الشاسعة الخضراء التي توشوش اعشابها متموجة في الريح،
والجباد الرقطاء التي تصهل منطلقة باقصى السرعة ورؤوسها
المرحة ملتوية. ويتصور الشعاب المعتمة في جبال كورديليراس
والشلال الابيض يطل عليه بلا حراك من فوق صخرة جبلية تشبه
راس السكر زعيم الهنود الحمر من قبيلة الهورون مزينا بالريش
ويده بندقية طويلة. ويتصور نيكيتا نفسه في خضم الغابة جالسا
على حجر بين اصول شجرة هائلة وقد اسند خده براحته، والدخان
يتصاعد من موقد امامه. الهدوء يخيم على الغابة فيسمع نيكيتا دوي
اذنيه وهو يبحث هنا عن ليليا التي سرقوها منه غدرا. اجترح
مآثر كثيرة وحمل ليليا مرارا على حسان هائج وتسلق
صخور الشعاب واطلق النار بمهارة فاصاب زعيم الهورون وارداه
قتيلا، لكن هذا الأخير كان يقوم من جديد ويقف في مكانه المرة
بعد المرة. ظل نيكيتا ينقذ ليليا طوال الوقت دون ان يكف لحظة
عن اتقاذها.

وعندما يسمح الصقيع وماما لنيكيتا بمغادرة المنزل كان يتجول
في الحوش وحيدا. فقد عافت نفسه الالعاب السابقة مع ميشكا
كورياشونوك، ثم ان ميشكا نفسه صار يلزم جناح الخدم وقتا
اطول ويلعب الورق هناك، اذ يسحبون الخاسر من شعره جزاء له.
كان نيكيتا يقترب من البئر ويتذكر: من هنا رأى في نافذة
المنزل الشريط الازرق الوحيد من نوعه في الدنيا. النافذة خالية
الآن. ولكن شاروك وكاتوك نبشا قرب مستودع العربات زاغا ميتا
من تحت الثلج. انه نفس الزاغ الذي انحنت عليه ليليا وقالت:
«انظر يا نيكيتا، هذا طير ميت، اسقى عليه». انتزع نيكيتا الزاغ
من الكلبين وحمله الى ما وراء مبنى السرداب ودفنه في الثلج.
وعندما سار نيكيتا على السد تذكر كيف مر هنا في الليل بعد
انتهاء حفلة عيد الميلاد وتمشى تحت اشجار الصنصاف الهائلة

الشفافة في ضوء القمر وكان ظله ينزلق جنبه ، فلماذا عجز آنذاك عن ادراك ما حدث له ؟ كان يتعين عليه ساعتها ان يغمض عينيه ويتحسس تلك السعادة باهتمام كبير.

اما الآن فالريح الشائكة توشوش بين الصفصافات المتجمدة السوداء، والتلة الجليدية على البركة مغطاة كليا بالثلج. وقد ترحلق منها هو وليليا آنذاك على زحافتين. فكانت ليليا صامتة بعينين شبه مغمضتين وقد تشبثت بجنبني الزحافة قدرا تستطيع. لقد محا الثلج كل الاثار.

«ضى نيكيتا على طبقة جليدية الى ما وراء الحوش حيث كومت الريح من جهة الشمال تلالا من الثلج بارتفاع سطوح الاكواخ. ومن هنا يلاحظ الحقل الابيض المستوى كبادية تندمج مع السماء في الافق الصقيعي الملمع بالضباب. وكانت الريح تدوم كالدخان، وتتلعب باذيال معطفه الفرائي ويتطاير الثلج من قمة التلة. لم يكن نيكيتا يعرف السبب الذي جعله يتوقف هنا وينظر الى هذه البادية البيضاء.

لاحظت ماما الحزن باديا على نيكيتا، فتحدثت بهذا الخصوص مع اركادي ايفانوفيتش. قررا الغاء دروس الجبر وجعل الصبي ياوي الى الفراش في ساعة مبكرة و «زقه» بزيت الخروع، على حد تعبير المعلم الذي لا يدل على ذكاء مطلقا.

طبقت كل هذه الاجراءات فتحسن مزاج نيكيتا كما لاحظ المعلم. الا ان الطبيب الحقيقي وصل بعد ثلاثة اسابيع: انه الربيع برياحه الشديدة الرطبة التي هبت من الجنوب و لفت الحقول والبستان والضيعة بغلالة من الضباب الرمادي وحملت غيوما ممزقة مسعورة تجري بسرعة جنونية على ارتفاع منخفض فوق سطح الأرض.

غربان القيقط

يوم الأحد اجتمعوا يلعبون الورق في جناح الخدم. العامل فاسيلي وميشكا كورياسونوك والراعي الصغير ليكسيا وارتيوم، الفلاح الفارع القامة جدا والمحدودب الظهر بانفه الطويل المقوس.

وهو اعزب لا يمتلك حصانا، لذا مارس العمل الفلاحي بالاجرة طول عمره، وكان يريد ان يتزوج من زمان الا ان البنات لا يرضين به زوجا. قبل ايام اخذ يلاحق بنظراته حالبة الابقار دونياشا، وهي فتاة جميلة موردة الوجنتين. كانت طول النهار تنطلق كالمكوك بين الحظيرة ومبنى السرداب والمطبخ وهي تجدلج بدلاء الزنك الاسطوانية، وتفوح منها دوما رائحة اللين الطازج الطيبة. وعندما يتساقط الثلج يخيل للرائي ان حباته تغلى بفحيح على وجنتيها. كانت فتاة ضحوكا. حالما يراها ارتيوم، اينما وجد، سواء كان يحمل العصافة والتبن من البيدر او ينظف مرايض الغنم، يفرز المذراة في الارض ويتوجه صوبها على قدمين طويلتين كقوائم الجمل. يقترب منها و يخلع قبعته و ينحني لها:

- مرحبا، دونياشا.

- مرحبا - تجيبه دونياشا وتضع دلويها و تغطي قمها بطرف المنزر.

- الا تهتمين بغير الحليب، يادونياشا؟

عند ذلك تجلس دونياشا القرفصاء، فان ساقها لا تحملانها من شدة الضحك، ثم تاخذ الدلوين و تنطلق على الممشى المتجدد بين الثلوج الى مبنى السرداب وتلقى بالدلوين على الارضية بصخب وتقول لمديرة المنزل فاسيليسا بكلمات تتناثر بمنتهى السرعة: «الجمل طلب مرة اخرى ان اتزوجه، يا الهي، ساموت من الضحك» وتقهقه بصوت رنان يسمعه كل من في الحوش.

دخل نيكيتا جناح الخدم. كانوا يطبخون حساء الباجة من رؤوس الخراف، وتفوح رائحة طيبة من لحم الغنم والرغيف المخبوز. عند الباب الذي علق قربه غسال خزفي بصنورة فوق طلست بدت آثار الثلج الذي كان عالقا بجزماتهم. جلس باخوم على مصطبة قرب الفرن، و تهدل شعره الأسود على جبهته المجردة و على حاجبيه المقطبين. كان يخيط جزمته: يفرز المخرز في الجلد بحذر و يميل برأسه و يضيق جفونه و ينقب ثغرة ويدس فيها طرف الخيط المشمع، ممسكا الجزمة بين ركبتيه، ثم يسحب الخيط من طرفه. نظر الى نيكيتا شزرا. كان غاضبا

جدا، لأنه تشاجر اليوم مع الطباخة. فقد نشوت لفافات قدميه قرب الفرن لتجف فاحترقت اطرافها.

تحلق اللاعبون حول المائدة في قمصان نظيفة بمناسبة يوم الأحد، وشعر مصفف مدهون. وكان ارتيوم الشخص الوحيد في سترة بالية وشعر اشعث، فلا احد يعتنى به ويغسل قمصانه: كان اللاعبون يطرقون الورق الفواح ويكررون:

- غطيت العب بعشرة.

- غطيت العب بخمسين

- وهذه الورقة، هل رايتها؟

- وانت؟ هل رايت هذه؟

- كل ورقاتي رابحة.

- آه!

- يا ويلك يا ارتيوم!

- كيف؟ يا ويلى انا؟ - قال ارتيوم وهو يحدق في الورق

مندهشا - غير صحيح. اخطاتم.

- مد انفك.

- اخذ ارتيوم ورقتين، في كل يد ورقة، وغطى بهما عينيه. وبدأ فاسيلي يضرب انف ارتيوم الطويل بثلاث ورقات ضربات طويلة. بينما راح سائر اللاعبين ينظرون ويحسبون عدد الضربات، ويصيحون بارتيوم غاضبين كيلا يتحرك ويتململ. جلس نيكيتا يلعب فخر في الحال وتلقى خمس عشرة «ضربة» على الانف. وفي تلك الاثناء وضع باخوم الجزمة و ادوات الترقيع تحت المصطبة وقال بخشونة:

- يعود البعض من صلاة الظهر، اما هؤلاء الذين لم يرسموا شارة الصليب على جباههم فلا شغل لهم غير لعب الورق وانتظار اللقمة الدسمة... ياستيبيانيدا - صاح ونهض متوجها نحو الغسال - اعدي المائدة!

في المطبخ سقط غطاء القدر من يد الطباخة المرتعبة. وجمع الخدم الورق. استدار فاسيلي الى الركن صوب الايقونة الورقية الملونة بأثار الضراصر ورسم شارة الصليب على صدره.

احضرت الطباخة ستيبانيديا قصعة خشبية تحتوي على رؤوس الخراف. كان يتصاعد منها بخار فواح حبيب وجه الطباخة فاشاحت عنه. جلس الخدم صامتين حديين الى المائدة والتقطوا الملاعق. بدأ فاسيلي يقطع الخبز ويورعه بشرائح طويلة عليهم ثم ضرب القصعة بملعقته ايدانا بيده الغداء. كان حساء الباجة لذيذا.

لم يجلس باخوم الى المائدة. اخذ قطعة من الخبز ومضى الى نفس المصطبة قرب الفرن. قدمت له الطباخة بطاطس ساخنة وناولته المملحة الخشبية. فهو لا يأكل لحما اثناء الصيام وقال لها وهو يسحق بحذر حبة بطاطس يتصاعد منها البخار ويدس تصفها في المملحة:

- احترقت لفافاتي. انت فلاحه حمقا، لا اكثر...

خرج نيكيتا الى الحوش. وكان النهار ملغما بالضباب، والرياح ندية ثقيلة. وبرزت من تحت الثلج الرمادي المحجب كالمح بقايا الروث الصفراء. كان درب الزحافات المنعطف صوب السد والملي، بالروث والبرك اعلى من الثلج. وكانت جدران الاكواخ المبنية من الجذوع وسطوح القش القاتمة والاشجار العارية والمنزل الخشبي الكبير غير المطلي عبارة عن كتلة رمادية سوداء واضحة المعالم.

مضى نيكيتا الى السد. ومن بعيد تنامى اليه حفيف الاشجار البليلة الذي يشبه خرير الماء عبر بوابات السد. كانت قمم اشجار الصفصاف المتمايلة ملفعة بغيوم ممزقة تحلق على ارتفاع منخفض. و بين تلك الغيوم على الاغصان العارية المهتزة حومت طيور سوداء تنعق باصوات قلقة منبعثة من اعماق الحنجرة.

وقف نيكيتا ورفع راسه وفغر فاه. خيل اليه ان هذه الطيور ظهرت من الريح الرطبة الكثيفة التي حملتها مع الغيوم، وتشبثت باغصان الصفصاف المتمايلة وراحت تنعق لتخبرنا عن شيء غامض مخيف ومفرح. واحتبست انفاس نيكيتا وانتفض قلبه.

تلك هي غمربان القipzig المهاجرة تعود مع اول عاصفة ربيعية الى اماكنها القديمة، الى اعشاشها المخربة. فقد لاحت تباشير الربيع.

ظلت الريح البليبة تعصف ملتهمة الثلوج طول ثلاثة ايام. وعلى الهضاب تعرت الارض المحروثة باخاديد سوداء. والهواء مشبع برائحة الثلج الذائب والروث وعرق الدواب. وعندما تفتح بوابة الحظيرة تخرج الابقار الى المشرب وهي تتزاحم بخوار عال وقرونها تتلاطم وتطلق. وكان الثور بايان يجول ويصوّل هانجا ويعب من ريح الربيع. وجد ميشكا كورباشونوك وليكسيا صعوبية كبيرة في دفع الماشية بسيوطها وحملها على العودة الى مرايبتها الغاصة بالسرقين. ثم تفتح بوابة الاسطبل وتخرج الخيول ناعسة، كأنها ثملة، بشعرها الذي تغير لونه واحلوك وعفرتها القذرة المسترسلة وبطونها المنتفخة. ولدت فيستا مهرا في زريبة انفرادية قرب الاسطبل. وكانت الزيغان المبتلة تحلق فوق انسطوح وتنق صاخبة متحيرة. وفي المنطقة الخلفية، وراء مبنى السرداب، تنهش الغربان الجيف التي تعرت من تحت الثلج. اما الأشجار فقد ظلت تبعت حفيفا ثقيل مقلقا. وفوق السد وعلى الصنصاف وبين الغيوم تحلق غربان القيظ ويتعالى نعيها.

الم بنيكيئا صداع استمر كل هذه الايام. كان يجوب الحوش والدرب الموحلة. ناعسا قلقا، ويمضي الى البيدر الذي تفوح من اكوام العصافه والتبن فيه رائحة غبار القمح والفنران. كان معتكر المزاج مهموما وكان شيئا فظيحا سيحدث، شيئا يستحيل فهمه والتسامح معه. كل ما حوالبه - الارض والدواب والماشية والطيور - لم يعد مفهوما بالنسبة له ولا عزيزا عليه. كل ذلك غدا غريبا عدائيا مشؤوما. سيحدث شيء غير مفهوم اطلاقا، خطيئة فظيعة. ومع ذلك، ورغم النعاس والدوار اللذين يلاحقانه بسبب الريح وروائح الجيف وسنابك الخيل والروث والثلج الهش، استولى عليه حب الاستطلاع وجذبه تلك الاشياء.

عندما عاد الى المنزل مبلا مستوحشا تفوح منه رائحة كرائحة الكلاب حدقت فيه ماما بنظرة متفحصة مستنكرة لا اثر فيها للرقه والحنان. لم يفهم السبب في غضب ماما. فتعكر مزاجه وتعذب اكثر. لم يفعل ما يسيء خلال هذه الايام، ومع ذلك كان قلقا

وكانما هو ايضا مذنب في جريمة تقترف دون اي مبرد على وجه البسيطة.

سار نيكيئا على امتداد اكوام الدريس من الجهة غير المعرضة للريح. لاتزال موجودة في هذه الاكوام الجحور والمغارات التي حفرها الفلاحون والفلاحات في اواخر الخريف عندما انجزوا درس آخر حزم القمح. وفي هذه الجحور والمغارات تحت الاكوام كانوا ينامون ليلا. وتذكر نيكيئا الاحاديث التي سمعها هناك، في ظلمة القش الدافئ الفواح. وبدت له تلك الاكوام مخيفة.

اقترب نيكيئا من قمرة محرات قائمة في الحقل على مقربة من البيدر. وهي كمنزل خشبي صغير بعجلات. بابها معلق على رزة واحدة، وهو يبعث صريرا كثيبا. كان «المنزل» خاليا. صعد اليه نيكيئا على سلم من خمس عيدان عرضانية. وفي الداخل نافذة صغيرة من اربع زجاجات. والثلج لا يزال يغطي الارضية. وعلى رف عند الجدار، تحت السقف، بقيت من الخريف الماضي ملعقة خشبية مقلومة وقنينة زيت نباتي فارغة ومقبض سكين. والريح تصفر فوق السطح. وقف نيكيئا يفكر بانه الآن وحيد لا يحبه احد والجميع غاضبون عليه. كل شيء على وجه البسيطة رطب اسود شرير. وانسدلت غشاوة على عينيه واختنق بعبراته: كيف لا وهو وحيد في هذا العالم، وحيد في القمرة الخالية؟..

- يا الهي - تتم نيكيئا بصوت كالهمس واقشعر بدنه وكان نملا باردا يسرى على ظهره. - يا الهي، ساعدني لتحسن حالي من جديد، واجعل ماما تحبني، واجعلني اطيع معلمى... واجعل الشمس تشرق والعشب ينمو... والغربان لا تنق بهذه الصورة المخيفة... والثور بايان لا يزار كالوحش... يا الهي، ساعدني وخفف علي من جديد.

تتم نيكيئا بهذه الابتهالات وهو يحني ظهره ويقومه ويرسم شارة الصليب باستعمال، وتطلع الى المعلقة والقنينة ومقبض السكين فخفف عليه ذلك فعلا. ظل واقفا دقائق اخرى في هذا «المنزل» المعتم بنافذته الصغيرة ثم مضى الى البيت.

حقا، ساعده المنزل ذو العجلات. ففي الدهليز عندما كان يخلع معطفه مرت ماما قربته والقت عليه بنظرة متفحصة كعادتها

في هذه الايام، ومن عينين رماديتين صارمتين، لكنها ابتسمت
بحنان ومسدت شعره براحتها وقالت:
- ماذا؟ شبت من التجول؟ تريد شايًا؟

مقابلة وصول فاسيلي نيكيثيفيتش

واخيرا هطل المطر غزيرا في الليل، وراح يطرق بشدة على
النافذة وعلى السطح المعدني فايقت نيكيثا حتى جلس على السرير
يستمع باسما.

ما اروع حفيف المطر في الليل. فهو يطرق باستعجال على
زجاج النافذة: «نم، نم، نم»، وتلاعب الريح المتقطعة باشجار الحور
في الظلمة امام المنزل.

قلب نيكيثا المخذة لتكون صفحتها الباردة الى اعلى ورقد
من جديد وتقلب تحت البطانية الصوفية ليتخذ افضل وضعية
ممكنة. «كل شيء سيكون باروع شكل... شكل...» - فكر وهو
يغوص في غيوم الكرى الناعمة الدافئة.

انقطع المطر في الصباح، لكن السماء لا تزال مليدة بسحب
رمادية ثقيلة تتحرك من الجنوب الى الشمال. تطلع نيكيثا عبر
النافذة وندت عنه صرخة استغراب. فلم يبق اثر للثلوج. الحوش
الفسيح مغطى ببرك زرقاء تترجرج في الريح. عبر البرك، على
العشب البني المدعوك، يمتد ممشى ممسوح بالروث لم تلتهمه
مياه الامطار بالكامل بعد. اغصان الحور البنفسجية الناقعة تتراقص
بمرح واستعجال. ومن جهة الجنوب، بين السحب الممزقة، ظهرت
بقعة من السماء اللازوردية تغشى زرقتها الابصار وانطلقت
بسرعة رهيبه صوب الضيعة.

اثناء احتساء الشاي كانت ماما تتطلع الى النوافذ بانفعال بين
حين وآخر. وقالت للمعلم:

- لم يصل البريد من خمسة ايام. انا متحيرة... لماذا بقي
حتى بدأت الفيضانات؟ ستتعمل الطرق اسبوعين... ما اشد طيشه!
فهم نيكيثا ان ماما تقصد اياه. فقد كانوا ينتظرون وصوله

ساعة بعد اخرى. مضى اركادي ايفانوفيتش ليستفسر من وكيل
الضيعة عن امكانية ارسال شخص على ظهر حسان لاحضار البريد.
ولكنه عاد في الحال الى غرفة الطعام وقال بصوت عال يختلف
عن صوته العادي:

- يا سادة، انظروا ما حدث!.. الماء يبقيق ويوشوش.

فتح نيكيثا باب المدخل على مصراعيه. الهواء الطلق النفاذ
مشبع بخير الماء الذي يتلوى ويجري بشدة. جداول الثلج
الذائب تتراكم في كل الاخاديد والسواقي والقنوات الى
المنخفضات. طفحت تلك المنخفضات بمياه الربيع وراحت تلتفظها
الى النهر. حطم النهر جليده وطفح على الضفاف وتلاطمت الكتل
الجليدية فيه والشجيرات التي اقتلعتها من الجذور، وجرى فوق
السد ليستقط كالشلال في الوهجات العميقة وراه.

البقعة اللازوردية المسرعة صوب الضيعة مزقت كل الغيوم
وبددتها. وانسكب من السماء ضوء بارد مائل الى الزرقة. وصارت
البرك في الحوش زرقاء بلا قاع، وارتسمت معالم الجداول ببقع
ضوئية تتراقص فوقها. وراحت البحيرات الهائلة في الحقول
والمنخفضات الجارية تعكس حزما من اشعة الشمس.

- يا الهي، ما اروع هذا الهواء - تمتمت ماما وهي تضغط
يديها على صدرها تحت الوشاح الوبري. وجهها يبتسم وعينها
الرماديتان تبعثان وميضاً اخضر. عندما تبتسم ماما تغدو اجمل من
كل البشر على الارض.

طاف نيكيثا حول الحوش ليري ماذا حدث. الجداول تجري في
كل مكان وتختفي احيانا تحت اكوام الثلج الرمادي المحبب.
وتتهاوى تلك الاكوام منسحقة تحت قدميه. المياه في كل جهة
تتجه اليها. والضيعة كجزيرة في بحر. تمكن نيكيثا من الوصول
الى ورشة الحدادة الواقعة على الراية. ورخص على المنحدر
الناشف الى المنخفض. كان الماء الصافي الفواح الناشئ عن
ذوبان الثلوج ينساب ويجري ساحقا اعشاب العام الفاتت. اغترف
نيكيثا من هذا الماء وشرب.

وفي مسافة ابعد، على طول المنخفض لم يذب الثلج بعد.
وكان مغطى ببقع صفراء وزرقاء. يشق الماء مجراه فيه تارة

وينساب فوقه تارة اخرى. وليحفظ. الله الخيالة من اوقوع في هذه العصيدة الثلجية. سار نيكيتا على العشب بامتداد الماء: ياليتيه يعوم في مياه الربيع من منخفض الى منخفض، قرب الضفاف الرخوة التي بدأت تجف، عبر البحيرات اللعاعة المترججة في ربيع الربيع.

على الطرف الثاني من المنخفض ينبسط حقل مستو، عار في بعض المواضع ومغطى بالثلج في بعضها الآخر، و الجداول الملتوية تلمع فيه. ومن بعيد، عبر الحقل يسير ببطء خمسة خيالة على ظهور جياد بلا سروج. التفت اولهم وصاح، على ما يبدو، وهويلوح بشلييلة من الجبال. انه ارتامون تورين عرفه نيكيتا من حصانه الابقع. وكان الخيال يحمل على كتفه وتدا. كانوا متجهين صوب قرية خومياكوفكا الواقعة على الضفة الثانية من النهر وراء المنخفضات. وكان منظرهم وهم يخوضون في المياه على ظهور الجياد، بعيدا عن الطريق، يبعث الدهشة والاستغراب.

بلغ نيكيتا البركة السفلى التي تصب فيها مياه المنخفض. عبر غشاوة عريضة على ثلج اصفر. المياه تغطي كل جليد البركة وتنساب عليه بموجات قصيرة. ومن اليسار يتناهى حفيف اشجار الصفصاف الهائلة العريضة الناقعة. وعلى اغصانها العارية جثمت غرابان القيقظ متمايلة مهتزة وقد تبللت حتى العظام خلال الليل.

ظهر «فارس» بين جذوع الأشجار العوجاء على السد. كان يضرب الفرس الهزيلة بكعبيه ويتمايل ويحرك مرقبيه. انه ستيوبكا كارناوشكين. صاح بنيكيتا وقال له شيئا وهو مسرع قربه في برك الماء والرذاذ وندف الثلج الوسخ تتطاير من تحت سنايك الفرس.

واضح ان شيئا ما قد حدث. ركض نيكيتا الى المنزل فوجد عند المدخل الخلفي فرس كارناوشكين تتنفس بعسر محرقة جنبها المنتفخين، وقد لوت راسها صوب نيكيتا. وما ان دخل المنزل حتى سمع صرخة قصيرة مرعبة اطلقتها امه. ظهرت في الرواق بوجه ملتمس متشنج و عينيها يبضاوين جاحظتين من شدة

الخوف ووراءها ظهر ستيوبكا، و من باب جانبي آخر هرع اركادي ايفانوفيتش. كانت ماما مسرعة في الرواق وكأنها تطير ولا تسير. - اسرعوا، عجلوا - صاحت ماما وهي تفتح باب المطبخ على مصراعيه - ستيبانيديا، دونياشا اركضا الى جناح الخدم... فاسيلي نيكيتيفيتش يغرق قرب خومياكوفكا».

كان افزع ما في ذلك كلمة «خومياكوفكا». اسودت الدنيا في عيني نيكيتا: ففي الرواق فاحت فجأة رائحة بصل مقلي. وقالت ماما فيما بعد ان نيكيتا ضيق جفونه كالارنب وصرخ. لكنه لا يتذكر هذا الصراخ. امسك به اركادي ايفانوفيتش واقتاده في الحال الى غرفة الدراسة.

- كيف لا تخجل يا نيكيتا؟ وتعتبر نفسك رجلا؟ - كرر المعلم وهو يضغط بكل قواه على يدي الصبي في اعلى المرفقين. - ماذا بك؟ عيب! ماذا بك؟.. فاسيلي نيكيتيفيتش سيأتي قريبا... يبدو انه سقط في ساقية وتبللت ثيابه لا اكثر... لكن هذا الاحق ستيوبكا اربع ماما... اقسم بالله، سافرك اذنيه الاننتين...

ومع ذلك راي نيكيتا ان شفتي اركادي ايفانوفيتش ترتعشان وان بؤبؤي عينيه اصبحا كقطعتين.

ثم ان ماما ركضت بالتمديد وحده الى جناح الخدم مع انهم جميعا علموا بالحادث و تجهروا منفعلين صاخبين قرب مستودع العربات وراحوا يشدون الحصان القوي الجموح «الزنجي» الى زحافة بدون مزلقين حديديين ويتصيدون افراس الركوب من الاسطبل المكشوف، وسحب بعضهم كلايا من سقف القش وتراكض بعضهم الآخر حاملين المعاول و الجبال. وركضت دونياشا من المنزل و بين يديها معطقان من فرو الغنم. وجاء باخوم الى ماما وقال لها:

حاولي يا الكسندرا ليوتيفينا ان ترسلي دونياشا الى القرية لشراء الفودكا. حالما نحضره الى هنا يجب ان يشرب الفودكا...

- ساذهب معكم يا باخوم.

- كلا، اذهبي الى البيت، والا ستصابين بالبرد.

جلس باخوم على جانب من الزحافة وأمسك العنان بشدة وصاح الشابين المتشبهين بلجام الحصان: «اتركاه!» ألقى «الزنجي» بين العريشين و شخر ثم انطلق يجبر الزحافة بيسر عبر الاوحال والبرك. وعلى اثره انطلق الخدم يتصايحون ويستحثون بالرجال جيادهم التي كانت تتدافع فيما بينها.

شيعتهم ماما بنظراتها امدًا طويلًا، ثم اطرقت برأسها ومضت الى المنزل على مهل. جلست عند النافذة في غرفة الطعام حيث يلوح الحقل وصفصاف خومياكوفكا وراء الهضبة. نادى نيكيتافهرع اليها وطوق رقبتها ومال برأسه على كتفها، على المنديل الوبري... - المصيبة ستهون ان شاء الله يا عزيزي - تمتت ماما بصوت متقطع خافت والصقت شفقتها بشعر نيكيتا وظلت على هذه الحال امدًا طويلًا.

كان اركادي ايفانوفيتش يتردد على الغرفة مرة بعد اخرى ويمسح نظارته ويفرك يديه. خرجت ماما الى المدخل مرارا مؤملة ان يصلوا، وكانت تعود الى مقعدها عند النافذة دون ان تبعد نيكيتا عنها.

تحول ضوء النهار الى بنفسجي قبيل المغيب، وارتسمت في اسفل زجاج النوافذ، عند الاطر، نقوش تلجية كأغصان الشوح. فالبرد يشتد مع اقتراب الليل. وفجأة طقطقت سنايك قرب المنزل ولاح «الزنجي» والزبد يرغى على جنبي خطمه، وظهر باخوم جالسا على حافة الزحافة، وفي الزحافة نفسها، تحت كومة من المعاطف، لاح بين فرو الضان وجه فاسيلي نيكيتيفيتش قرمزيا باسما وعليه اصبعان جليديان كبيران بدلا من الشاربين. نهضت ماما بسرعة وندت عنها صرخة وارتعش وجهها، وهتفت: - حي! - انقرط الدموع من عينيها اللامعتين.

هكذا غرقت

جلس بابا، فاسيلي نيكيتيفيتش، على مقعد جلدي ضخم قرب المائدة المستديرة في غرفة الطعام. كان يرتدي برنسا وبرياناعما وجزمة لبادية منفوشة. شارباه ولحيته الكستنائية الرطبة مشيطان

الى الجانبين. وجهه المرح الاحمر ينعكس على السماور الذي يطلق الشمر في قسسه السفلي ويغلي الماء فيه بصخب متميز خاص، شأنه شأن كل احداث هذا المساء.

ضيق فاسيلي نيكيتيفيتش جفونه من شدة الارتياح ومن القودكا التي احتساها، ولمعت اسنانه البيضاء. كانت ماما في نفس الفستان الرمادي والمنديل الوبري، ولكنها بدت على غير عادتها، فلم تتمالك نفسها عن الابتسام وراحت تمطط شفقتها وحنكها يرتعش. وارتدى اركادي ايفانوفيتش نظارته العاجية الجديدة المخصصة للمناسبات. جلس نيكيتا على الكرسي وثنى ركبتيه واتكا ببطنه على المائدة وراح يحلق في قم ابيه. كانت دونياشا تدخل الغرفة راكضة كل دقيقة، فتأخذ شيئا او تجلب شيئا وهي تحملق في سيدها. واحضرت ستيبانيدا على مقلاة حديدية فطائر كبيرة مما يخبز على جناح السرعة. كان الدهن يوشوش ويفح في تلك الفطائر، فما الذها وما احلاها! كان القط فاسيا يتمشى مرفوع الذنب ويتخطر ويحرم حول المقعد الجلدي ويحك ظهره وجنبه وقفاه عليه ويطلق مواء اعلى من المعتاد. و كان القنفذ اخيلكا يبص من تحت الخوان ببوزه الشبيه بسحنة خنزير، واستقرت اشواكه ممسدة من الجبهة باتجاه الظهر. مما يدل على انه هو ايضا يشعر بالرضا والارتياح.

التهم بابا فطيرة ساخنة لذيدة - عفارم ياستيبانيدا! - وطوى فطيرة ثانية بشكل انبوبة والتمها - عفارم ياستيبانيدا! - وارتشف جرعة كبيرة من الشاي مع القشدة ومسد شاربيه وضيق احدى عينيه، وقال:

- الآن اسمعوا، ساحكي لكم كيف غرقت. - وطفق يحكي القصة كاملة. - غادرت سامارا اول امس وفي الحقيقة، يا الكسندرا، - اكتسى وجهه بمسحة جدية للحظة - كانت هناك فرصة نادرة للشراء بثمن بخس للغاية. فقد الح علي بوزدونين بان اشترى منه حصانه الكميث الغامق اللورد بايرون. وقلت له: ما حاجتي الى حصانك؟ فقال: «تعال وانظر اليه». وعندما رايت الحصان اغرمت به. ما اجمله وما اذكاه! نظر الي بعين بنفسجية وكاد يقول: اشترني. اما بوزدونين فقد الح على ان اشترى منه،

بالإضافة الى الحصان، زحافة وطقما... يا عزيزتي، الست زعلانة علي بسبب هذه المشتريات؟ - اخذ بابا يد ماما - اعذرني! - تأثرت ماما حتى اطبقت جفونها: فهل تستطيع ان تزعل عليه اليوم حتى وان اشترى رئيس البلدية بوزدونين نفسه. - هكذا، اذن، امرت بان يجلبوا لي اللورد بايرون. وفكرت: ما العمل؟ فانا لا اريد ان اترك الحصان وحده في سامارا. حزمت مختلف الهدايا في الحقيبة - ضيق بابا احدى عينيه بمكر - واعدوا لي بايرون عند الفجر فغادرت سامارا لوحدي. في البداية كان الثلج لا يزال منتشرا في بعض الاماكن، و بعد ذلك صار الطريق موحلا حتى تصيب العرق من حصاني، وخارت قواه. فعزمت على قضاء الليل في كولدبيان عند الاب فوزدفيجينسكي. اطعمني الاب سجة لا اطيب منه. وقال: «لن تصل الى اهلك يا فاسيلي نيكيثيفيتش. هذه الليلة ستذوب الثلوج في المنخفضات في كل بلد». وقلت له بانني سارتحل مهما كلف الامر. وبقينا نتجادل على هذه الصورة حتى منتصف الليل. وسقاني بنبيذ عنب الثعلب. ما الله! والله لو اوصلنا هذا النبيذ الى باريس لفقد الفرنسيون عقلهم... ولكننا سنتحدث عن ذلك فيما بعد. حالما رقدت على السرير هطل مطر غزير. فهل تتصورين، يا الكسندرا، مدى حزني واكتئابي: كيف اجلس على بعد عشرين كيلومترا عنكم ولا اعرف متى ساهل اليكم؟.. لعن الله الاب ونبيذه...

- فاسيلي - قاطعته ماما والقت عليه نظرة صارمة - ارجوك كل الرجاء ان لا تقوم بمثل هذه المجارفة بعد الآن...

- اعدك بشرقي - اجاب فاسيلي نيكيثيفيتش فورا - هكذا اذن... في الصباح انقطع المطر، ومضى الاب لصلاة الظهر، اما انا طلبت ان يشدوا بايرون الى الزحافة وتحركت. يا الهي!.. المياه تغطي كل الانحاء. لكن المياه اسهل على الحصان من الثلوج. سرنا بلا طريق، والماء يصل الى الركبة... سرنا كأننا عبر البحيرات. - ما اجمل ذلك... الشمس مشرقة والنسيم عليل... وزحافتي تعوم. وقدماي مبللتان. ما اروع ذلك! واخيرا رايت صفصافنا من بعيد. اجتزت خومياكوفكا واخذت ابحت عن مكان اسهل لعبور النهر... ملعون بوزدونين - ضرب فاسيلي نيكيثيفيتش مسند

المقعد بقبضته. - ساريه اين يجب بناء الجسور! اضطرت الى قطع ثلاثة كيلومترات وراء خومياكوفكا، وهناك عبرنا النهر خوفا. عقارم على اللورد بايرون. فقد صعد بخفة الضفة العالية وفكرت: النهر عبرناه، فكيف سنعبّر المنخفضات الثلاثة الاظلع من النهر؟ المنخفضات امامنا وليس هناك مخرج آخر. وصلنا الى المنخفض الاول. هل تتصورين، يا الكسندرا، انه غاص عن آخره بالمياه والثلوج. وعمقه، كما تعلمين، اكثر من ستة امتار.

- فطبع. - دمدمت ماما وقد شحبت وجهها. - حللت عدة الحصان ورفعت الطوق والسرّج عنه، ووضعتها في الزحافة، ولم انتبه الى ضرورة خلع معطف الفرو الثقيل، وهذا ماكاد يؤدي الى هلاكي. وصعدت على ظهر بايرون. اعوذ بالله! في البداية تعنت الحصان وعاند. فمسدته ولاطفته. تشمم الماء وشخر. ثم تراجع قليلا واندفع نحو المنخفض، الى عصيدة الثلج وغاص فيها حتى الرقبة. فرفط بقوائمه عبثا دون ان يتقدم خطوة. نزلت من على ظهره وغصت انا ايضا فلا يرى غير راسي. واخذت اتحرك في هذه العصيدة ولا ادري هل كنت اعوم ام ازحف. وعندما رأني الحصان ابتعد عنه اطلق صهيلا حزينا وكأنه يقول: لا تتركني! واخذ يفرط ويقفز في اثري. لحق بي وضرب بقائمتيه الاماميتين معطفي المفتوح وسحبني الى تحت الماء. فرفطت بكل قواي والاعماق تمتصني والقاع بعيد. من حسن الحظ ان معطف الفرو كان مفتوحا فانخلع من تلقاء ذاته عندما كنت افرط تحت الماء. وظل هناك، في المنخفض... عومت الى السطح واخذت اتنفس راقدًا على العصيدة منشور اليدين والساقين كالضفدع. وسمعت بقبقة. التفت فرايت نصف بوز الحصان تحت الماء والفقاعات تتصاعد منه. فقد داس على عنانه. وتعين علي ان اعود اليه. حللت العنان وخلعت اللجام عنه. فرقع بوزه نثرا وتطلع الي كالانسان. وبقينا نرفط في العصيدة على هذه الصورة اكثر من ساعة. وشعرت بان قواي خارت واني اخذت اتجمد. بدأ قلبي يتجلد. وفي تلك اللحظة توقف الحصان عن القفز واستدار وطفا. يعني انا وصلنا مع ذلك الى الماء الخالص من الثلج. وكان العوم في الماء اسهل، فحملنا التيار الى الضفة الاخرى. خرج

بايرون من الماء الى الاعشاب اولا، ولحقت به انا. امسكت بعفرتي
وسرنا نتمايل جنبا الى جنب. ولايزال امامنا منخضشان. لكنني
رايت في تلك الاثناء فلاحين على ظهور الجياد...

تلغظ فاسيلي نيكيتيفيتش بضع كلمات غامضة اخرى وخر
رأسه فجأة. كان وجهه قرمزيا واسنانه تصطك وتنبعث منها
طقطقة خافتة متكررة. ثم قال:

- لا بأس، لا تهتموا. ارتخيت من سماوركم. - ومال على
ظهر المقعد وأسبل جفونه.

انتابته قشعريرة. فنقلوه الى السرير، وأخذ يهذي...

اسبوع الآلام

لازم بابا الفراش ثلاثة ايام في حمى شديدة، وعندما عاد الى
رشدته كان اول ما سال عنه هو اللورد بايرون. هل هو حي؟ و كان
الحصان الجميل في صحة وعافية.

فاسيلي نيكيتيفيتش يتحلى بطبيعة مرحة حية. وهذه الطبيعة
بالذات سرعان ما جعلته يغادر الفراش فلا مجال للرقاد في وقت
بدات فيه المشاغل قبيل بذار الربيع. في ورشة الحدادة كانوا
يصنعون سكك المحاريت ويصلحون ما تحطم منها ويستبدلون
حدوات الخيل. وفي العنابر كانوا يقلبون القمح بالرفوش
وينشرونه كيلا يتعفن. فيثيرون رعب الفئران ويستثيرون
عواصف الغبار. وتحت الظلة يتعالى صخب المدراة. وفي المنزل
حملة تنظيف. كانوا يمسخون النوافذ ويغسلون الارضية وينتزعون
بيوت العناكب من السقف، ويحملون السجاجيد والمقاعد والارائك
الى الشرفة وينفضون عنها آثار الشتاء. كل الاشياء التي تعودت
على اماكنها خلال الشتاء زحزحوها من تلك الاماكن ونفضوها من
الغبار ثم وضعوها بترتيب جديد. اما اخيلكا الذي لايجب الهرج
والمرج فقد اشتاط غضبا ومضى ليقيم في مستودع العفش.

ونظفت ماما بنفسها طقوم الطعام الفضية واطارات الايقونات
الفضية وفتحت الصناديق العتيقة التي فاحت منها رائحة النفتالين،
وتفحصت ثياب الربيع المدعوكة في الصناديق والتي بدت جديدة

بعد السبات الشتوي. وفي غرفة الطعام سلال فيها بيض مسلوقة
راح نيكيتا واركادي ايفانوفيتش يصبغان بعضه بنقيع قشور
البصل فيغدو اصفر ويلفان بعضه الآخر بورق محزم ويلقيان به
في ماء يغلي بالخل فيغدو مزركشا مزينا بالرسوم، ويصبغان
البعض الثالث باللك وبلون ذهبي وفضي.

يوم الجمعة فاح المنزل كله برائحة الونيلية والهيل. فقد
بدأوا باعداد خبز الفصح وفتائره الاسطوانية وما ان حل المساء
حتى رقدت على سرير ماما لترتاح تحت مناشف نظيفة، عشر
فتائر تقريبا بعضها رفيع طويل وبعضها سميك قصير.

الطقس متقلب كل ايام هذا الاسبوع. تارة تتلبد السماء
بغيوم سوداء وتتساقط حبات البرد، وتارة ينساب من السماء
الصافية، من الاعالي الزرقاء، ضوء الربيع البارد، وتارة نائمة
تدوم عاصفة ثلجية رطبة. وفي الليل تتجمد مياه البرك في الخلاء.
يوم السبت خلت الضيعة، فقد ذهب نصف الخدم ونصف
سكان المنزل الى قرية كولوكتسوفكا على بعد سبعة
كيلومترات لاداء صلاة الفجر الكبرى في كنيسة القرية.

كانت ماما متوعدة ذلك اليوم بعد متاعب الاسبوع. وافاد بابا
بانه سيذهب للنوم فور انتهاء العشاء. اما اركادي ايفانوفيتش
الذي كان طوال هذه الايام ينتظر عبثا وصول رسالة من سامازا
فقد انزوى في غرفته حزينا كالغراب واغلق الباب بالمفتاح.

واقترحوا على نيكيتا ان يذهب لحضور صلاة الفجر اذا اراد،
وان يبحث عن ارتيوم ويخبره بان يشد الفرس افروديت الى
العربة الخفيفة. فهذه الفرس قد جددت حداوتها الاربع. وكان من
اللازم السفر قبل حلول الظلام والمبيت في كولوكتسوفكا عند
احد معارف فاسيلي نيكيتيفيتش القدامى، وهو البقال بيوتر
بيتروفيتش ديفياتوف. وقالت ماما: «بالمناسبة، بيته يعج بالاطفال،
وانت وحيد دوما. الوحدة قاتلة».

قبيل المساء صعد نيكيتا الى العربة وجلس جنب ارتيوم
الطويل الذي شد سترته البالية بزئار جديد استقر اسفل بطنه.
وقال ارتيوم: «هيا، يا عزيزتي، اوصلينا» - وتحركت افروديت
العجوز برقبته المرتخية وعجيزتها العريضة وسارت في خبب بطيء.

اجتازت العربية الحوش ومرت بورشة الحدادة، ثم عبرت المنخفض الذي يبلغ ماؤه الاسود محورها. والسبب ما كانت افروديت تنظر بين حين وآخر الى ارتيوم عبر عريش العربية. اضواء المساء الزرقاء تنعكس في البرك التي قيدها غشاوة جليدية رقيقة. وينبعث صرير من تحت السنايك، وتنتفض العربية. جلس ارتيوم صامتا وقد تدلى انفه الطويل. كان يفكر بحبه التعميس وبمحبوبته دونياشا. وعلى صفحة المغيب الباهتة، في السماء الخضراء، تلالوات نجمة صافية ككتلة جليدية.

اولاد بيوتر بيتروفيتش

من حلقة حديدية في السقف يتدلى فانوس ينير الغرفة بنهب ازرق خافت تنبعث منه رائحة مقرقة. وعلى الارضية حشيتان بقماش قطني تفوح منهما بدفء رائحة السكن والصبيان. تمدد عليهما نيكيتا مع اولاد بيوتر بيتروفيتش الستة، وهم فولوديا، و كوليا وليوشكا وليونكا الشاكي وصبيان صغيران لم تكن معرفة اسميهما بذات بال.

الاولاد، لاكبر سنا يحكون القصص باصوات خافتة، اما ليونكا الشاكي فكان يلتقي صفة من هنا وضربة من هناك على اذنه او صدغه كي يكف عن التذمر والتشكي وغفأ الصغيران وقد غرزا انفيهما في الحشية.

سابع اطفال بيوتر بيتروفيتش بنت منمشة الوجه بعينين ناقبتين مستديرتين كهيون الطيور لا اثر فيهما للابتسامة، وانف صغير قاتم من الشمس. اسمها آنا وهي بعمر نيكيتا. كانت تظهر بخفة من الرواق على عتبة باب الغرفة بين الحين والآخر. وعند ذلك ينهرها احد الصبيان قائلا:

- آنا، لا تتدخل فيمالا يعنك، والا سأقوم...

وتختفي آنا بنفس الخفة التي تظهر بها. كان الهدوء يعم المنزل. ذهب بيوتر بيتروفيتش الى الكنيسة قبل حلول الظلام، فهو عمدة الابريشية.

وقالت زوجته ماريا ميرونوفنا للاطفال:

- اذا تصايحتم ساقطع رقابكم...

ومضت الى سريرها لتأخذ قسطا من الراحة قبيل صلاة الفجر. تلقى الاولاد امرا بالنوم والهدوء. وتحدث ليوشكا ذو الوجه المستدير والشعر الأشعث وقد سقطت اسنانه الامامية، فقال:

- في عيد الفصح الماضي لعبنا لعبة الخبايا وغلبت مانتى بيضة. اكلت الكثير حتى انتفخ بطني. ودمدمت آنا من وراء الباب خشية ان يصدق نيكيتا ماقاله ليوشكا:

- كذب. لا تصدق به.

- سأقوم، والله... - هدها ليوشكا.

وخيم الهدوء وراء الباب.

قال فولوديا، الابن الاكبر، وهو صبي اسمر اجعد الشعر جلس متربعا على الحشية:

- سنذهب غدا الى برج الكنيسة ونذق النواقيس. حالما اهز النواقيس يهتز البرج كله. باليد اليسرى اهز النواقيس الصغيرة - درلين، درلين وبهذه اليد اهز الناقوس الضخم - بم، بم، ووزنه مليون كيلو.

- كذب - تناهى همس من وراء الباب.

التفت فولوديا التفاتة سريعة تطايرت لها خصلاته الجعداء. وقال:

- آنا!.. احرسي!.. ابونا قوي جدا يستطيع ان يرفع الحصان من قائمته الاماميتين... انا طبعا لا استطيع ان افعل مثله بعد. ولكن تعال الينا، يا نيكيتا، في الصيف. وسنذهب الى البركة. بركتنا طولها ستة كيلومترات. استطيع ان اتسلق الشجرة الى قمته، ومن هناك اقفز. الى الماء. راسي تحت ورجلاي فوق.

- وانا استطيع ان لا اتنفس تحت الماء مطلقا وارى كل شيء. - قال ليوشكا - في الصيف الماضي سبحنا. عشتت في راسي ديدان وبراغيث وخنافس ضخمة...

- كذب - تناهت من وراء الباب تنهدة لا تكاد تسمع.

- آنا ساسحبك من صغيرتك!..

- بنت مزعجة جدا - قال فولوديا بامتعاض - تتحرش بنا
دوما. وتنقل علينا، و بعد ذلك تشتكي عند ماما و تقول اننا
نضربها.

وتناهي نحيب من وراء الباب. كان الصبي الثالث، كوليا،
راقدا على جنبه متكنا على قبضته يتطلع الى نيكيتا طوال الوقت
بعينين طبيبتين حزينتين بعض الشيء. وجهه مستطيل وديع وشفته
العليا بعيدة عن ارنبة انفه. وعندما يلتفت اليه نيكيتا تبسم
عيناه. سألها نيكيتا:

- هل تجيد السباحة؟

ابتسمت عينا كوليا، فاجاب فولوديا بلهجة مستهينة:

- انه مغرم بالمطالعة. في الصيف يعيش على السطح.
عندنا هناك كوخ من البردي، وهو يتمدد فيه ويقرا طول الوقت.
بابا يريد ان يرسله الى المدينة ليتعلم. اما انا فساهتم بالشؤون
الاقتصادية. ليوشكا لا يزال صغيرا، فليلعب. ليونكا الشاكي
مصيبتنا. - سحب ليونكا من الشعر المنتصب كعرف الديك على
هامته - انه صبي كرية يقول بابا: في بطنه ديدان.

- الديدان المخيفة في بطني وليس في بطنه - قال ليوشكا
- لاني آكل اوراق راعي الحمام و بذور الاقاصيا، واستطيع ان
آكل حتى افراخ الضفادع.

- كذب - تهاوى من جديد انين من وراء الباب.

- يا ويلك يا آنا! - هرع ليوشكا راكضا على الحشية
صوب الباب ودفع اخاه الصغير الذي غمغم دون ان يستيقظ. لكن
حقيقا مر في الرواق و كان اوراقا تتطاير. لم يبق اثر لانا طبعاً،
فقد صر باب من بعيد. عاد ليوشكا وقال: - اختبأت في غرفة ماما.
لن تتخلص مني مع ذلك. ساحشو شعرها بالشوك.

- اتركها يا اليوشكا. لماذا تتحرش بها؟ - قال كوليا
فانهال عليه اليوشكا وفولوديا وحتى ليونكا:

- نحن نتحرش بها؟ انها هي تتحرش بنا. حتى لو قطعنا الف
كيلومتر و التفتنا نجدها وراءنا حتما... تكذب كل ما نقول ونفعل،
وتذكرنا بما هو ممنوع علينا...

وقال ليوشكا:

- مرة جلست يوما كاملا في الماء بين البردي. كيلا اراها.
حتى اكلني العلق.
وقال فولوديا:

- حالما جلسنا نتغدى قالت لاما حالا: «ماما، اصطاد فولوديا
فارة وهي في جيبه». ربما كانت هذه الفارة اعز شيء علي.
وقال ليونكا:

- تحملق فينا دوما حتى تسيل دموعنا.

تشكى الصبيان لنيكيتا من آنا و نسوا تماما ان ماما امرتهم
بان يرقدوا بهدوء ويصمتوا قبل صلاة الفجر. وفجأة تعالى من بعيد
صوت ماريا ميرونوفنا نخيننا مهددا متوعدا:
- هل اكرر الف مرة؟

هدا الاولاد في الحال. وبعد ذلك اخذوا يرتدون جزماتهم
ومعاطفهم هامسين متدافعين، و لفوا رقابهم بالاوشحة وهرعوا الى
الشارع.

خرجت ماريا ميرونوفنا بمعطف جديد من القטיפه ووشاح
مطرز بالورد. امسكت آنا بيد امها وقد لفت راسها بمنديل كبير.
كانت السماء مرصعة بالنجوم في تلك الليلة. وتفوح رائحة
التربة والصقيع الخفيف. وعلى امتداد البيوت القروية القائمة،
على البرك المتجلدة التي تنعكس فيها نجوم السماء، سار الرجال
و النساء والاطفال صامتين. وفي ساحة السوق، بعيدا، لاحت
قبة الكنيسة الذهبية على صفحة السماء المعتمة. وتحت القبة،
في ثلاث شرفات دائرية، الواحدة اوطأ من الاخرى، انيرت سرج
الزيت. يداعبها النسيم ويدغدغ لهيبها.

قلب لا يلين

بعد صلاة الفجر عادوا الى المنزل. كانت المائدة جاهزة،
والورود الورقية الحمراء تزهو بين اهرام القريشة العسلية
والفطائر الاسطوانية وحتى على ورق الجدران حيث شكت بدباييس،
والكناري يصاصى في قفصه على النافذة مستثارا بضوء
المصباح. بيوتر بيتروفيتش في سترة سوداء طويلة الاذيال.

سالت ضحكاته متقطعة بين شاربيه الملتويين، فتلك هي عادته،
وصب للجميع نقيع الكرز في اقداح صغيرة. قشر الاولاد البيض
المسلوق ولحسوا الملاعق. جلست ماريا ميرونوفنا متعبة دون ان
تخلع الوشاح، وكانت عاجزة حتى عن تناول طعام الافطار
بعد الصوم، وظلت تنتظر حتى تهدأ «الجوقة» اخيرا، كما تسمى
اطفالها.

ما ان رقد نيكيتا على الخشبية في ضوء الصباح الازرق
والتحف بمعطف فرو الضأن حتى صدحت في اذنيه اصوات رفيعة
ترتل بلهجة باردة بعض الشيء: «قام المسيح حقا قام...»
ورأى من جديد الجدران الخشبية البيضاء تسيل عليها ابخرة
الانفاس الباردة كالدموع وضوء الشموع الكثيرة امام اطارات
الايقونات المذهبة. ومن خلال سحب البخور الزرقاء في الاعلى،
تحت قبة الكنيسة الزرقاء المرصعة بنجوم ذهبية، اطلت حمامة
منشورة الجناحين. ووراء النوافذ المشبكة ليل بهيم، بينما تترتل
الاصوات وتفوح رائحة فرو الضأن والقماش وتنعكس اضواء
الشموع في آلاف العيون. ثم فتحت البوابة الغربية وحملت رايات
القديسين محنية عند العتبة. وغفرت للناس في تلك الليلة كل
الذنوب التي اقترفوها خلال العام. ومالت آنا بانف منمش
وشريطين ازرقين فوق اذنيها على اخوتها لتقبلهم...

كان صباح اليوم الاول رماديا دافئا دقت فيه كل نواقيس
العيد، ومضى نيكيتا واولاد بيوتر بيتروفيتش حتى اصغرهم الى
عنبر القرية في المرعى الناشف، فوجدوا هناك حشدا مبرقشا
صاخبا. الصبيان يلعبون الصقلولاق والكعب ويتشقلبون ويمتلون
ظهور بعضهم البعض. وعلى الجذوع الملقاة عند جدار العنبر
جلست البنات في شالات مبرقشة متنوعة وفساتين قطنية جديدة
منقوشة. ويبد كل منهن مندبل فيه بزر عباد الشمس او كشمش او
بيض. كن يمضغن ويضحكن وينظرون بمر من حين لآخر.

وعند الطرف، على الجذوع، قعد زير النساء بيتكا، ابن عمدة
القرية، متراخيا مادا جزمته الفاخرة، دون ان ينظر الى احد. كان
يعزف على الاكورديون برفق، وفجأة مططه بشدة وانشد: آه،
ياليل، ياليل!..

وعند الجدار الآخر تحلقت جماعة تلعب الطرة - ياظ. في يد
كل لاعب قطع نقدية متلاصقة ببعضها. والذي يأتي دوره يضرب
الارض بقطعة من خمسة كوبيكات ويدوسها بنعله ويسحقها ثم
يرفعها ويلقي بها الى اعلى: طرة ام ياظ؟

وعنا، على الارض، على اعشاب الموسم الفانت التي
انبعجت من تحتها زهيرات العاء الصفراء، جلست بنات يلعبن لعبة
الخبايا. يخبئن بيضتين في كل كومة من العصافه، نصف الاكوام
خالية، فاحزر اين البيضتين؟

اقترب نيكيتا من الاكوام و اخرج بيضة من جيبه، لكن آنا
بادرته من الخلف، من فوق اذنه، والله وحده يعلم من اين جاءت،
وقالت هامسة:

- لا تلعب معهم. فهن خداعات وسيغلبنك.

تطلعت آنا الى نيكيتا بعينين مستديرتين لا اثر للابتسام
فيهما وتنشقت بانفها الصغير المنمش. مضى نيكيتا الى الصبيان
الذين يلعبون الكعاب: الا ان آنا ظهرت هذه المرة ايضا في جهة
لا يعلمها الا الله. وهمست له بطرف شفقتها الملتصقتين:

- لا تلعب معهم. يريدون ان يخدعوك. سمعت ذلك بنفسي.
اينما يتوجه نيكيتا كانت آنا تلاحقه كورقة لزجة وتهمس في
اذنه. ولم يفهم السبب الذي يجعلها تفعل ذلك. فشعر بالخجل
والامتعاض. لاحظ الصبيان يلتفتون اليه ويضحكون. وصاح
به احدهم:

- تعلق بالبت!

ذهب نيكيتا الى البركة الزرقاء الباردة. كان الثلج الوسخ
الهش لايزال قابعا تحت ضفتها الطينية الشديدة الانحدار. وعلى
مسافة ابعد كانت غربان القيقظ تنعق فوق اشجار الاجمة العالية
العارية...

- اسمع - همست آنا مجددا من وراء ظهره - اعرف جحر
فارة هل تريد ان تراه؟

هز نيكيتا راسه غاضيا دون ان يلتفت. فهمست آنا من
جديد:

- لن اخدك، فليعم الله عيونتي لو خدعتك. لماذا لاتريد ان ترى الفأرة؟
- لا اريد.

- هل تريد ان تقتلع زهر العماء ونمسح به عيوننا فلا نرى شيئاً.
- لا اريد.

- الا تريد ان تلعب معي؟

رمت أنا شفيتها. وتطلعت الى البركة والى ماها الازرق المترجرج، وتلاعب النسيم من جانب بصفيرتها المشدودة، واحمر طرف انفا المنمش المدبب وترقرقت الدموع في عينيها، وطرفت جفونها. وفي الحال فهم نيكيتا كل شيء: كانت أنا تلاحقه طوال الصباح لانه حدث لها نفس ما حدث له مع ليليا.

اسرع نيكيتا الى حافة الضفة، ولو لحقت به أنا هذه المرة ايضا لالتقى بنفسه في البركة. كان في اقصى درجات الخجل والاضطراب. فلا يجوز ان تكون له مع احد، ما عدا ليليا، مثل تلك الكلمات الغريبة والنظرات الخاصة والابتسامات. واذا كانت له مع بنت اخرى فتلك هي الخيانة بعينها.
وقالت أنا:

- اخواني حذروك مني. سأشكوهم جميعا الى ماما... سألعب لوحدي... لست بحاجة الى احد... اعرف مكان شيء ممتع جدا...
استمع نيكيتا الى غمغمة أنا صامتا دون ان يلتفت. فقلبه لا يلين.

الربيع

لم يعد بالامكان التطلع الى الشمس. فاشعتها تنسكب من فوق بحزم منقوشة تغشى الابصار. وفي السماء الزرقاء تسبح غيوم كاكوام الثلج وتفوح من نسيم الربيع رائحة العشب الطري واعشاش الطيور.

تفتحت براعم كبيرة على اشجار الحور الفواحة امام الدار. وراحت الدجاجات تننن في الشمس. وانجست الاعشاب في تربة

البستان الساخنة ابرا خضراء تننن من تحت الاوراق العفنة، والبرج كله مرصع بنجيمات بيضاء وصفراء. ومن يوم لآخر يزداد عدد الطيور في البستان. الشحارير السوداء تتراكم بين الجذوع، فهي ماهرة في المشى والجري. وبين اغصان الزيزفون اضطربت صفارية كبيرة ذات ريش اخضر موشى بزغب ذهبي اصفر على الجناحين وراحت تغرد بصفير معسول.

ما ان اشرفت الشمس حتى استيقظت على كل السطوح وفي كل بيوت الاطيار زواجر تغرد بمختلف الاصوات، تارة كالبلابل وتارة كالتقيرت، واحيانا كالطيور الافريقية التي سمعت تغريدها اثناء الهجرة شتاء ماوراء البحار كانت تلك الاصوات مجرد تقليد مضحك ناشز منفر. مرق نقار الخشب كمنديل رمادي عبر اشجار البتولا الشفافة وحط على جذع وتلفت ذات اليمين وذات الشمال وانتصب ريش قنبرته الحمراء.

وفي صباح الاحد المشمس عند البركة، ناح وقواق على الاشجار التي لم يجف الندى من اوراقها بعد. بارك بوقوته الرقيقة الحزينة اليتيمة كل من يعيش في البستان، ابتداء من الديدان:

- تنعموا بالحياة والحب والسعادة، كو - كو، اما انا فسأعيش وحيدا، كو - كو...

استمع البستان كله صامتا الى وقوقه الوقواق. واخذ الدعاسيق والاطيار والضفادع المندمسة دوما والجماعة على بطونها، بعضها على الممشى وبعضها على درجات الشرفة، تحسب الوقوقه وسنى العمر التي تتنبا بها لها. وصمت الوقواق اخيرا، وتعال اهازيج البستان وحفيف الاوراق بمزيد من الفرح والابتهاج.

ذات مرة جلس نيكيتا على حافة التربة قرب الطريق واتكا على قبضته يراقب قطيع الخيل وهو يسير في المرعى الاخضر المنبسط على شاطئ البركة العليا. كانت الجياد الرصينة تطايط رؤوسها وتضمم العشب القصير على عجل وتذب بذبولها، اما الافراس فكانت تتلفت بعيون ساهرة على الامهار التي تتراكم على قوائمها الطويلة الضعيفة السميقة عند الركب وتحوم خبيا

حول امهاتها خائفة من الابتعاد عنها. وكان الواحد منها يضرب
امه بين حين وآخر عند الضرع و يرضع اللبن رافعا ذيله، فما
احلى اللبن في هذا اليوم الربيعي!
و كانت الافراس الفتية تتملص في القطيع محممة مترافسة
وتتراكض في المرعى مستشرسة هازة ابوازها، وتتمرغ احداها
على الارض، وتزجر اخرى مكشرة عن اسنانها لتعض من
يتعرض لها.

وعلى الطريق اجتازت السد عربة خفيفة تقل فاسيلي
نيكيتيفيتش في معطف من قماش غليظ. الريح تدفع لحيته الى
جانب وعيناه مرحتان شبه مغضتين، وعلى خده لطفة وحل. شد
العنان عندما رأى نيكيتا وقال:

- اي حصان من هذا القطيع يعجبك؟
- لماذا؟

- بدون «لماذا»!

ضيق نيكيتا عينيه، مثل ابيه، واوما ياصبعه الى «كلوبيك»
الاشقر القاتم، فهو معجب به من زمان ومبعت اعجابه اساسا هو
رقة طباعه ووداعته والطيبة المدهشة التي تعلق سحنته.
وقال:

- هذا.

- طيب. طالما يعجبك فليكن.

اغض فاسيلي نيكيتيفيتش احدي عينيه وتمطق لخصانه
القوي وهز العنان فانطلق هذا يجر العربة بخفة على الطريق
المطروق. شمع نيكيتا اباه بنظراته: يبدو ان وراء هذا الحديث
ماوراه.

رفع العلم

ايقظت شقشقة العصافير نيكيتا. فتح عينيه واخذ ينصت الى
تغريد الصفارية المعسول ينساب كأنغام الناي. النافذة مفتوحة،
والغرفة مفعمة بعطر الاعشاب والطراوة، والاوراق الميللة تحجب
ضوء الشمس.

اخترق النافذة نسيم فسقطت قطرات ندى على رفاها. وتناهى
صوت اركادي ايفانوفيتش من البستان:

- يا اميرال، هل ستفتح عينيك؟

- نهضت! - صاح نيكيتا وظل راقدا برهة: فما اروع الانصات
الى صوت الصفارية في الصباح، وما اروع التطلع الى الاوراق
المبللة عبر النافذة!

اليوم هو الحادي عشر من ايار. عيد ميلاد نيكيتا. ولذا تقرر
رفع العلم بهذه المناسبة قرب البركة. ارتدى نيكيتا ثيابه على
مزل - فام يكن يريد لدوقت ان يمضى بسرعة - ارتدى قميصا
جديدا من الشيت الازرق المشجر. وسروالا جديدا من قماش
سميك لامع يتحمل التسلق على الاشجار مهما كانت اغصانها.
ونظف اسنانه معجبا بسلوكه اشد الاعجاب.

وفي غرفة الطعام باقة كبيرة من سوسن الوادي على شرف
مكوي ناصع البياض. والغرفة كلها تعج برائحة تلك الزهور.
جذبت ماما نيكيتا، ناسية رتبة الاميرال التي يحملها وراحت تتطلع
في وجهه كأنها لم تره منذ عام، ثم قبلته. مسد بابا لحيته
وحملق بعينيه وافاد بلهجة رسمية:

- اتشرف يا صاحب المعالي باحاطتكم علما بان التقويم
الشمسي الجديد وحسابات علماء الفلك في العالم كله تؤكد
بانكم بلغتم اليوم العاشرة من العمر، ولذا فانا مكلف بان اسلمكم
هذه السكين الصغيرة مع اثنتي عشرة شفرة وهي تصلح تماما
للاستفادة منها في الشؤون البحرية، كما تصلح لتضييعها في أي
وقت.

بعد الشاي توجهوا الى البركة. راح فاسيلي نيكيتيفيتش
يعزف مارش البحرية بشفتيه وقد انتفخ خده وظهر عليه نتوء
بارز.

غرقت ماما في قهقهة مرحة لهذا المارش وهي تلملم اذيال
فستانها كيلا تتبلل بالندى. وخلفها سار اركادي ايفانوفيتش
حاملا مجدافين وكلابا على كتفه.

وعلى ضفة البركة الهائلة المتعرجة، قرب المسبح، غرزت
صارية العلم وفي اعلاها رمانة حديدية. وفي الماء ريش قارب

انعكست صورته على السطح بشكل خطوط خضراء وحمراء. وفي ظل القارب تسبح مخلوقات البركة - خنافس الماء واليرقات وافراخ الضفادع المذنبة وتتراكض على صفحة الماء عناكب بارجل ذات وسائد كاللاكلكل. ومن الاعشاش على اشجار الصفصاف المعمرة تتطلع اناث الغربان الى اسفل.

على علم الاميرال صورة ضفدعة حمراء تقف على قائمتيها الخلفيتين في حقل اخضر. ربط فاسيلي نيكيثيفيتش العلم بالطرف الاسفل من الحبل وعزف بخده المنتفخ وسحب الحبل فتسلق العلم الصارية بسرعة وانفتح عندما بلغ رمانتها. وتطايرت غربان القيقظ في اعشاشها ومن اغصان الصفصاف وهي تنعب مذعورة.

ركب نيكيثا القارب وجلس وراء مقوده، بينما شرع اركادي ايفانوفيتش يجذف. غطس القارب وتمايل وابتعد عن الضفة وانساب على صفحة البركة الصقيلة كالمرآة حيث انعكست اشجار الصفصاف والظلال الخضراء تحتها والاطيار والغيوم. انزلق القارب بين السماء والارض. وظهرت فوق رأس نيكيثا سحابة متراسة من البعوض الذي اخذ يلاحق القارب. وصاح فاسيلي نيكيثيفيتش من الضفة:

- باقصى السرعة!

ولوحت ماما بيدها مناوكة. واخذ اركادي ايفانوفيتش يجذف بكل ما اوتى من قوة ومن البردي الاخضر الذي لايزال واطنا انطلقت بطتان تقوقتان مرتعبتين في تحليق منخفض دون ان تنفصلا عن سطح الماء.

- هيا، الى المصادمة! عاش اميرال الضفادع، عاش..ش!
- هتف فاسيلي نيكيثيفيتش.

جيلتوخين

جثم جيلتوخين على بقعة معشوشبة في الشمس في الركن بين مدخل المنزل وجداره وراح يبص مرتعبا في نيكيثا السائر نحوه. كان رأس جيلتوخين مانلا الى الورا ومنقاره الموشى عن

آخره بالاصفر يستقر على حوصلته السميقة. انتفض نافشا ريشه وسحب رجليه الى ما تحت بطنه. وعندما انحنى نيكيثا عليه فتح منقاره ليخيفه. اخذه نيكيثا بين راحتيه. كان زرورا لايزال رمادي اللون. حاول، على ما يبدو، ان يطير من عشه الا ان جناحيه غير المتعمرين لم يقويا على حمله فوقع وانزوى في الركن على اوراق الهندباء الملاصقة للارض.

انتفض قلب جيلتوخين من الهلع، وفكر: «ما ان تخرج رأسك حتى يلتهموك». فهو نفسه يعرف جيدا كيف قتلهم الديدان والذباب واليرقات.

قربه الصبي من فمه، فاسدل جيلتوخين الغشاوة على عينيه السوداوين وانتفض قلبه بشدة تحت الريش. الا ان نيكيثا اكتفى بان نفض على رأسه وحمله الى المنزل. يبدو انه شبهان فقرر ان يأكله فيما بعد.

عندما رأت الكسندرا ليونتيثا الزرور اخذته بين راحتيها، مثلما اخذه نيكيثا، ونفخت على رأسه وقالت:

- مسكين، لا يزال صغيرا جدا. انظر الى منقاره، كله اصفر. سنسميه جيلتوخين، ابو المنقار الاصفر.

وضعوا الزرور على رف النافذة المفتوحة المغطاة بالشاش عن آخرها من جهة البستان ولحد النصف من داخل الغرفة. قبع جيلتوخين في الركن فورا معلنا انه لن يسترخض حياته.

وراء غلالة الشاش البيضاء، في الخارج، ينبعث حفيف الاوراق وتتشاجر على الاغصان العصافير الوضيعة التي تلتصص عادة وتؤدي الآخرين. ومن الجهة الاخرى، من وراء الغلالة ايضا، تطلع نيكيثا الى جيلتوخين بعينين واسعتين متحركتين غامضتين ساحرتين. وفكر جيلتوخين: «هلكت، والله، هلكت».

الا ان نيكيثا لم يأكله حتى المساء واكتفى بان القى له بين الغلاتين ذبابا وديدانا. وفكر جيلتوخين «يسمئني» - والقى نظرة شذراء على دودة حمراء بلا عينين تتلوى كالافعى امام منقاره. - لن آكلها، فهي دودة اصطناعية كل هذا خداع وتضليل».

هبطت الشمس وراء الاشجار. والضوء الرمادي الناعس يشد الاجفان. غرز جيلتوخين مخالبه برف النافذة وتشبث به بشدة.

لم تعد عيناه تريان شيئا. صممت الاطيار في البستان. وفاح
شذى ناعس لذيذ من الاعشاب والرطوبة. وغاص الرأس في
اعماق الريش. انتفض جيلتوخين غاضبا وانتصب ريشه تحوطا
للطوارىء، وترنح قليلا الى الامام ثم الى الخلف وغفا.

ايقلته العصافير المشاكسة. كانت تتشاجر على غصن
الليلك. الاوراق البليلة معلقة في الضوء الرمادي. والزرانير
تترقزق من بعيد باصوات رنانة مرحة لذيذة. «اكاد اموت جوعا.
اشبع الغثيان من شدة الجوع» - فكر جيلتوخين ولمح الدودة
التي انغرزت حتى النصف في شرح رف النافذة، وقفز نحوها
ونقرها من ذنبها وسحبها ثم ابتلعها: «لابأس بها، دودة لذيذة».

غدا الضوء اكثر زرقة. وغردت الاطيار. شعاع الشمس
الدافئ الساطع ينساب على جيلتوخين من خلال الاوراق. وفكر:
«سأعيش فترة اخرى». وقفز والتقط ذبابة وابتلعها.

دوى وقع اقدام. جاء نيكيتا. دس يده الهائلة من فوق
الغلالة. فتح اصابعه ونثر على رف النافذة ذبابا وديدانا. انزوى
جيلتوخين في الركن ورفع جناحيه وحملق في اليد بهلع شديد،
الا انها ظلت معلقة فوق رأسه ثم انسحبت الى ما وراء الغلالة.
وتطلعت اليه من جديد عينان ساحرتان جذابتان لامعتان.

عندما انصرف نيكيتا استعاد جيلتوخين انفاسه واخذ يفكر:
«لم ياكلني وكان بوسعه ان يفعل. يعنى انه ليس من اكلة لحوم
الطير. لاداعي للخوف منه اذن».

اكل جيلتوخين حتى شبع ونظف ريشه بمنقاره واخذ يقفز
على امتداد الرف ويتطلع الى العصافير. استقرت نظرتة على
عصفور عجوز بريش منتوف على القفا وراح يتحرش به ويدبر
رأسه ذات اليمين وذات الشمال ويصفق: فيويوت، شيليك -
شيليك - فيويوت. اشتاط العصفور غضبا وانتصب ريشه
وهجم على جيلتوخين بمنقاره مفتوح، لكن غلالة الشاش اعاقته
«ماذا؟ هل بلغتني؟ تلك هي القضية اذن» - فكر جيلتوخين وراح
يتشمس على الرف متبخرا.

ثم جاء نيكيتا من جديد. دس يده فارغة هذه المرة، وقربها
كثيرا من جيلتوخين، فقفز هذا ونقره في اصبعه بكل قواه، ونظ

مبتعدا واستعد للعراك الا ان نيكيتا فغر فاه وصاح:
ها - ها - ها.

مر النهار على هذا المنوال. لم يكن هناك ما يثير الخوف،
ثم ان الطعام جيد، ولكن... قاتل الله الملل. لم ينتظر جيلتوخين
حلول الظلام فغفا ونام ليلته بارتياح.

وفي الصباح تناول طعامه واخذ يتفحص الغلالة وفي نيته
ان يفر منها. جاب النافذة كلها فلم يجد شقوقا في أي مكان. وعند
ذاك نظ الى الصحن واخذ يشرب الماء. ارتشف قطرات بمنقاره
وهال رأسه الى الاعلى وراح يبتلع كرية مائية تدرجت في حنجرتة.
كان النهار طويلا. جلب نيكيتا ديدانا ونظف رف النافذة
بريشة اوزة. وبعد ذلك خطر ببال العصفور الاصلح ان يتهارش
مع الزاغ فدفعه هذا الاخير دفعة جعلته يفرص كالحصاة بين
الاوراق ويبص من هناك متحفزا منتصب الريش.

وحط عقق لسبب ما قرب النافذة ونفق مضطربا وهز ذيله
دون ان يفعل شيئا يستحق الذكر.

وغرد ابو الحناء بصوت رقيق وتغني امدا طويلا بضوء
الشمس الساخن والبرسيم العسلي، حتى شعر جيلتوخين بالحزن
وبحسرة في حنجرتة. كان يريد ان يغرد ايضا، ولكن اين؟ هل
يعقل ان يغرد من وراء الغلالة على النافذة؟

جاب الرف من جديد ورأى حيوانا مرعبا يتسلل خلسة على
قوائم قصيرة ناعمة وكأنه يزحف على بطنه فوق الارضية. رأسه
مستدير بشوارب شحيحة منتصب، وعيناه الخضروان يبؤبؤيهما
الضيقتين تتقدان بحقد شيطاني. اقمى جيلتوخين بلا حراك.

قفز القط فاسيا وانشب مخالفه الطويلة في رف النافذة
وحدق عبر الغلالة في جيلتوخين وفتح فمه... يا الهي... في فمه
انياب اطول من منقار جيلتوخين... ضرب القط الغلالة بقائمتة
القصيرة فمزقها... هبط قلب جيلتوخين وتهدل جناحاه... الا ان
نيكيتا ظهر في تلك اللحظة، في الوقت المناسب، وامسك بالقط
من جلده المرتخي وقذف به الى الباب. ولول فاسيا مغتظا وفر
يجرر ذيله.

وفكر جيلتوخين بعد هذه الحادثة: «نيكيتا اقوى الوحوش».

وعندما اقترب منه نيكيتا ثانية سمح له بان يمسد رأسه، مع انه اقعى على ذيله من شدة هلمعه .

وانتهى هذا النهار ايضا. وفي الصباح التالي راح جيلتوخين يتفقد المكان في غاية الابتهاج ولمح في الحال الثغرة التي خلفتها مخالب القط في الغلالة. دس جيلتوخين رأسه فيها وتطلع ذات اليمين وذات الشمال وخرج قافزا الى الهواء الشفاف الجاري ورفرف بجناحيه الصغيرين بفرطلة خفيفة فطار فوق الارضية مباشرة.

عند الباب حلق الى اعلى فراى من الغرفة الاخرى، حول المائدة المستديرة، اربعة اشخاص يأكلون، كانوا يأخذون قطعاً كبيرة بايديهم ويدسونها في افواههم. ادار الاربعة رؤوسهم وتطلعوا الى جيلتوخين بلا حراك. ففهم ضرورة التوقف في الهواء والعودة من حيث جاء، لكنه لم يتمكن من القيام بهذا الدوران الصعب في تحليقه السريع فوق على جناحه وانقلب وجثم على المائدة بين صحن المرابي والسكرية... وفي تلك اللحظة راى نيكيتا امامه. فقفز على حافة الصحن دون تردد، ومنها الى كتف نيكيتا ورضض عليه منتفشا، بل واسدل الغشاوة على عينيه حتى النصف.

وبعد ان استراح على كتف نيكيتا حلق وراح يفرفر تحت السقف واصطاد ذبابة، وحط على اصيص الفيكوس في الركن وحلق حول الثريا ثم شعر بالجوع فعاد الى نافذته و كانت تنتظره عليها ديدان طازجة.

قبيل المساء وضع نيكيتا على رف النافذة بيتا خشبيا له كوتان وباب بدكة. اعجب جيلتوخين بالعممة داخل البيت فقفز اليه وخشخش فيه ثم غفا.

في تلك الليلة كان القط فاسيا، المحبوس في المستودع عقابا له على محاولته الغادرة، يزعق بمواء اجش وقد رفض حتى صيد الفئران. ربض وراء الباب وراح يموء بشكل اثار امتعاضه هو نفسه.

وهكذا صار جيلتوخين ثالث كائن حي - مع القط والقنفذ - يعيش في المنزل بين اهله. كان يتحلى بقدر كبير من الاعتماد

على النفس، وكان فطينا واسع الحيلة. اعجبه كلام البشر، وعندما كانوا يجلسون الى المائدة تراه ينصت اليهم مطاطاً الرأس ويرتل مكررا: «سا، سا» وكانت الكسندرا ليونتييفا تؤكد بانه يحني رأسه لها بالذات وينطق بمقطع من اسمها. وحالما تراه تخاطبه دوما: «مرحبا، مرحبا يا جيلتوخين الهمام». وعندذاك يقفز جيلتوخين في الحال الى ذيل فستانها الطويل ويتنقل عليه وراهها بمنتهى الارتياح.

عاش على هذا المنوال حتى الخريف، فترعرع واكتسى بريش اسود لامع كاجنحة الغربان وتعلم النطق بالروسية جيدا كان يقضى النهار كله تقريبا في البستان ويعود مع الغسق حتما الى بيته في النافذة.

وفي اغسطس اغوته الزرايزير البرية فاخذ يتردد على سريرها وعلمته الطيران وعندما بدأت اوراق البستان تتساقط انطلق جيلتوخين عند بزوغ الفجر مع الطيور المهاجرة الى ماوراء البحار، الى افريقيا.

كلويك

انجزت الاعمال الربيعية في الحقول وحرثت التربة حول اشجار الفاكهة في البستان وسقيت، فحل وقت فراغ حتى موسم حش الاعشاب. بعد عيد القديس بطرس اقتادوا خيول العمل الى القطيع فراحت ترعى العشب في المروج الريانة وراء البركة، حيث يخيم كل صباح ضباب مائل الى الزرقة، فتبدو اشجار الصنصاف المتباعدة الضخمة وكأنها نبتت في الهواء القاتم وظلت معلقة فوق الارض.

كان ميشكا كورياسونوك، مساعد سائس قطع الخيل، يجلس على سرج قوزاقي مرتفع ويدس قدميه الحافيتين في الركاب ويفرط بمرفقيه منحنيا.

انطلق في المرح الاخضر يلاحق فرسا انفصلت عن القطيع وهو يصيح «عودي!» ويلوح بالسوط فتنبعث منه طقطقة كطلقات المسدس وبعد ذلك ينزل من حصانه المفكوك اللجام فيتركه يقضم الاعشاب مجلجلا بلجامه، ويجلس على حافة الساقية ليبرى عودا، او يرفع اطراف سرواله ويلفها في اعلى ركبتيه

ويخوض في البركة ويجتث من تحت الماء الساخن بصيالات البردي
وجذوره الطويلة السوداء كالافاعي: البصيلات حامضة الطعم بعض
الشيء وهي تصرف في الفم، لكن الجذور حلوة ولينة كالعجين. واذا
التهم الشخص كثيرا منها يشعر بمغص في البطن.
كان نيكيتا يقضى الايام كلها مع ميشكا كورياشونوك وراء
البركة ويتعلم الفرسية على يده.

لم يكن الصعود الى السرج صعبا فالحصان العجوز الرمادي
المرقط يبقع حنطاوية يقف وادعا وينش ذبابة كبيرة عن بطنه
بقائمه الخلفية لكن نيكيتا عندما يجلس على السرج ويمسك
بالعنان وينطلق بالحصان خبيا لا يتمكن من الاستقرار على ظهر
الحصان ويميل بشدة تارة الى الجنب الايمن وتارة الى الجنب
الايسر وعندما يتوقف الحصان فجأة بعد ان يخطو زهاء ثلاثين
خطوة ويدلى بوزءه بشفته الغليظة ليقتضم العشب، يتشبث
نيكيتا متشبجا بمقدمة السرج، بل وينزلق احيانا من فوق رقبة الحصان
ويقع امامه، الا ان هذا الاخير ما كان يعبا بذلك.
ويقول له ميشكا:

- لا تخف، فالسقوط لا يؤلم، ولكن لن تمد رقبتك ولا تسقط
على يدك، اسقط كالشليقة او الخدروف سارك كيف اركب الفرس
بلا سرج ولا لجام وانطلق به.
جري ميشكا نحو افراس فتية غير مروضة بعد ومد لها يده
مناديا:

- تعالي، تعالي، هاك قمحا...

اقتربت منه «نجمة» وهي فرس مدللة نحيفة القوائم كمي
مرقطة كالتفاح شنت اذنيها ومدت شفيتها المخملتين بحثا عن
القمح الذي تحبه كثيرا. اخذ ميشكا يحك رقبتها. هزت «نجمة»
راسها الرصين دلالة الارتياح، ولكي تبعث مثل هذا الارتياح في
نفس ميشكا داعبت كتفه باسنانها.

مسدها ميشكا ومرر راحته على امتداد ظهرها الحريري فخطت
الى الامام مرتعبة، وعند ذلك تشبث بعرقتها ونط وامتطها جفلت
«نجمة» مذهولة غاضبة نفضت راسها بشدة وترافست واقعت
ورفعت قائمتيها الاماميتين الى اعلى ثم انطلقت باقصى سرعتها
على امتداد القطيع.

التصق ميشكا بظهرها كالقراة. وعند ذلك توقفت فجأة عن
العدو السريع ورفعت قائمتيها الخلفيتين. فسقط ميشكا على العشب
و تدرج كالكرة عاد الى نيكيتا وهو يعرج قليلا ويمسح الدم من
خدش على خده وقال:
- رمتني هذه الفرس اللعينة على الحطب، ولكنك تستطيع
هكذا، فانت سمين.

صمت نيكيتا وفكر: «سأتعلم الركوب افضل من ميشكا حتى
لو تحطم راسي».

اثناء الغداء حكى قصة «نجمة» فقلقت ماما، وقالت له:

- ارجوك لا تقترب من الخيول غير المروضة، هل انت سامع؟
- واقت نظرة متوسلة على بابا - فاسيلي، الا تؤيدني انت على
الاقل؟.. بالنتيجة ستتكسر يده او رجله...

- عظيم! - اجاب فاسيلي نيكيتيفيتش - امنعني من ركوب
الخيول ومن المشي ايضا - فخلاله يمكن ان يهشم انفه - ضعيه
في علبه وغلفيه بالقطن وارسله الى المتحف...

- كنت اتوقع منك هذا الجواب - قالت ماما - واعرف اني لن
ارى الهدوء ساعة، هذا الصيف...

- افهمي يا الكسندرا، الصبي في العاشرة من العمر.

- اوه، لا فرق...

- اعذريني، ارجوك، فانا لا اريد له ان ينمو عبيطا تعيسا.
- ولكن ذلك لا يستوجب ان نهديه كلوبيك فورا.

- حتى الطفل الرضيع يستطيع ان يركب كلوبيك. هذا اولاً.
- انه بحدوات.

- كلا، امرتهم ان ينزعوا حدواته.

- اوه، في هذه الحالة افعلوا كل ما تريدون، اركبوا الخيول
الجامحة، كسروا جماجمكم - تفرقت الدموع في عيني ماما،
فنهضت من وراء المائدة ومضت مسرعة الى غرفة النوم.

مسد فاسيلي نيكيتيفيتش جانبي لحيته على عجل والقي بالفوطة
نترا ولحق بماما. اما اركادي ايفانوفيتش الذي جلس طول الوقت
وكان هذا الحديث لا يعنيه فقد ألقى نظرة الى نيكيتا وعدل نظارته
وهمس:

- انت امام مشكلة، يا اخي.
- ارجوك يا اركادي ايفانوفيتش قل لماما انني لن اقع...
والله...

- الصبر والتحمل وقوة الشكيمة - اصطاد اركادي ايفانوفيتش
بمهارة ذبابة بذلت جهدا عنيدا لتحط على انفه - هذه الخصال
الثلاث ضرورية كذلك لاجادة ركوب الخيل...
في غرفة النوم جرى آنذاك حوار يقرب من الشجار فقد دوى
صوت الاب: «الصبيان في عمره يعتمدون على انفسهم كليا...» -
«اين؟ اين يعتمدون على انفسهم؟» سألت الام بصوت يائس...
«في امريكا...» - «غير صحيح...» - «لكن اقول لك ان الصبي
في العاشرة من العمر يعتمد على نفسه في امريكا مثلي أنا» -
«يا الهي، لكننا لسنا في امريكا...»

استمر الكلام عن الاعتماد على النفس اسبوعا كاملا. وكانت
ماما على وشك الاستسلام. وصارت تلقى نظرات حزينة على نيكيتا
وكانه شخص هالك، ولا أمل لها الا بان يصون رأسه على الاقل.
اما نيكيتا فكان طول الاسبوع يتعلم ركوب الخيل بجد واجتهاد
وراء البركة. وراح ميشكا يشجعه ويستحسن جهوده، وعرض المامه
قفزة باسلة حقا، هي ركوب الفرس من الخلف اثناء العدو، كما
ينط الاولاد عبر ظهور بعضهم البعض وقال له:
- لن ترفسك ابدا، الوقت لا يكفيها فعندما ترفسك تكون انت
قد قفزت على ظهرها.

واخيرا، اثناء شاي الصباح في الشرفة حيث يلقي اللبلاب
ظلالا متحركة على السفارة والصحون والوجوه استدعت ماما نيكيتا
واجلسته قبالتها وقالت بصوت حزين:

- انت تعرف بانك في العاشرة الآن ويجب ان تعتمد على
نفسك، فالصبيان في مثل عمرك يعتمدون، يعتمدون... - وارتعش
صوتها وكادت تلقى على بابا نظرة شزراء - باختصار، بابا محق،
فانت لم تعد طفلا - غض الاب بصره واخذ ينقر باصابعه على طرف
العائدة. - غدا سنزور شيمبولاتوفا، واذا تريد تستطيع ان تذهب
معنا على ظهر كلوبيك... لكنني ارجوك، ارجوك...
- ماما، حبيبتي، كلام شرف، والله لن يحدث لي شيء -

وقبل نيكيتا عيني امه وخذما وذقنها ويديها اللتين تفوح منهما
رائحة الثمار.

وبعد غداء مبكر في اليوم التالي اشار فاسيلي نيكيتيفيتش
على نيكيتا ان يأخذ السرج - وهو سرج انجليزي من الشمواة
الرمادية اهداه له بمناسبة اعياد الميلاد وقال له وهو يسير على
العشب باتجاه الاسطبلات:

- عليك ان تتعلم كيف تغسل الحصان وتلجمه وتسرجه وكيف
تقوده من لجامه بعد العدو حتى يستعيد انفاسه. فالحصان يجب
ان يكون نظيفا تحت رعاية دائمة، وعند ذلك تعتبر فارسا جيدا.
بوابة مستودع العربات مفتوحة على مصراعها. انهمك الحوزي
سرغي ايفانوفيتش في ربط ثلاثة جياذ الى العربة كان يرتدي
جاكيتا بلا ردنين وقميصا احمر قانيا وعمرة بسيطة فهو لا يرتدي
قبعته المزينة بالريش الا عندما يجلس على مقعد القيادة. - عدل
طوق مزخرفة الفرس الجانبية وانها باللوم على مساعده ارتيوم:
- لماذا تدس السير تحت صدرها يا جلف؟ فهذا الطقم لرحلة
بعيدة. اترك جبل السمط ولا تمسه. الافضل لك ان تفرش للقطعة
في السلة.

- انا لا املك فرسا.
- البنات لا يتزوجن منك لانك جلف. ناولني الاعنة الجديدة.
كان الحصان الاوسط اللورد بايرون المربوط بالسير في
البوابة العريضة يقضم اللجام ويضرب الارضية الخشبية بقائمه
ويعض كتف سرغي ايفانوفيتش دون ان يؤلمه. فهو يعدل له شعر
ناصيته من تحت سيور اللجام. وفاحت في مستودع العربات رائحة
الجلود وعرق الخيل الصحي ونفخ الحمام. وعندما اعدت العربة قال
سرغي ايفانوفيتش لنيكيتا مبهتسا:

- هل تريد ان تسرج الحصان بنفسك؟
اخرجوا كلوبيك من الاسطبل، وتطلع اليه نيكيتا منفعلا.
كلوبيك حسان اشقر مخصي مكنتز متين، ونظيف جدا، بقوائم
ليست طويلة و كواحل بيضاء وذيل كثيف قاتم وعفرة قائمة ايضا.

شعر ناصيته يتدلى على عينيه، فيهز رأسه وينظر بمرح من بين الشعر. طول ظهره يمتد سير اسود.

- حسان جيد - قال سرغي ايفانوفيتش وقدم له دلوا من الماء. شرب كلوبيك ورفع رأسه فانساب الماء من شفثيه الرماديتين.

اخذ نيكيتا اللجام وادخل حديده في فم الحصان من الجانب وشده كما علموه. امسك كلوبيك الحديد باسنانه. ثم وضع نيكيتا المجلس والجل الرمادي المطرز بطغراء على ظهره وفوقهما السرج واخذ يشد سيوره. ولم يكن ذلك عملا يسيرا.

- انه ينفخ بطنه - قال سرغي ايفانوفيتش - يحتال علينا - وطرق بباطن كفه على بطن كلوبيك فزفر الحصان الهواء. وشد نيكيتا السيور.

جاء فاسيلي نيكيتيفيتش وبدأ يصدر اوامره:

- خذ العنان باليد اليسرى وتقدم امام الحصان من الجنب الأيسر. اركب. امسكه بباطن ساقيك. لا تدس قدميك عميقا في الركاب، لا تلوي اطراف الأصابع.

ركب نيكيتا الحصان وتحسس بقدمه المرتجفة الركاب الايمن المنفلت ودسها فيه ونغز الحصان فانطلق هذا خببا في خط مستقيم نحو الاسطبل.

وصاح فاسيلي نيكيتيفيتش:

- قف، قف! استعمل السير الايمن يا مغفل!..

توقف الحصان في ظل الاسطبل. قفز نيكيتا محموما من شدة الخجل وامسك بسير الحصان الخداع وقاده نحو البوابة وهمس له: - خنزير ابله، خنزير ملعون!..

هز كلوبيك ناصيته مرحا. اقترب سرغي ايفانوفيتش وقال:

- اركب وساقوده انا. فهو خداع لا يحب الخدمة. يريد ان يقف في الظل البارد.

واخيرا الجموا الحصان كما يجب وراح نيكيتا يتنظر على ظهره برماحة كعدو الكلاب على امتداد حظائر الماشية.

ارتدى سرغي ايفانوفيتش قبعته المزينة بالريش وقفازه

الذي نثر عليه الطحين وصعد الى مقعد القيادة وصاح بلهجة صارمة:

- اطلقه!

اقلت ارتيوم لجام اللورد بايرون وقفز الى جانب، فانطلقت الجياد الثلاثة من مستودع العربات وهي تطلق على خشب الارضية، ووراها العربة الصقيلة التي يلعب طلاؤها ونحاسها، وتتطاير نتف طرية من تحت سنابك حسانها الجانبين وينساب رنين متناسق من اجراسها. رسمت الجياد نصف دائرة في الحوش المعشوشب وتوقفت امام المنزل.

نزلت الكسندرا ليونتييفا من مدرج المدخل في فستان ابيض وفتحت مظلتها البيضاء، وألقت نظرة قلقة على نيكيتا الذي ليس بعيدا من هناك. ساعد بابا ماما على ركوب العربة ثم صعد اليها.

- هيا!

رفع سرغي ايفانوفيتش الاعنة قليلا. واشرايت اعناق الجياد الكمية الرائعة بفارغ الصبر ثم انطلقت ساحبة العربة بخفة، وتهادى وقع سنابكها على القنطرة. تحول الحصانان الجانبيان الى رماحة متسارعة، اما اللورد بايرون الذي يعرف بان ذلك كله مجرد دعاية فقد هز اذنيه. كانت ماما تتلفت طول الوقت. فقد انحنى نيكيتا وألقى العنان على الغارب ليقترب من العربة باقصى السرعة.

كان يريد ان يتجاوزها بهمة وبسالة، الا ان كلوبيك لم يكن موافقا على رايه. وعندما بلغ العربة ووازاها عاد الى الطريق وجرى بخيب رتيب في اثر العجلات، وسط عاصفة من الغبار. وما من قوة تستطيع ان توقفه او تحيد به الى جانب. فهو يعتبر ذلك كله امرا لا داعي واذا كان لابد من الجري فليكن على الطريق، لا مبرر لجهد يهدر عبثا.

تلغثت ماما فرات نيكيتا يهتز بشفتين مضغوطتين ويتطلع متوترا الى ما بين اذني الحصان. شعر بالغثيان من الغبار، وبارتجاج في البطن من عدو الحصان.

- الا تجلس في العربة؟

هز نيكيتا رأسه بعناد. فضحك الأب وقال للحوذي:

- اسرع قليلا!

شرف اللورد بايرون اذنيه واخذ يقذف قوائمه الحديدية. وحلق الحصانان الجانبيان منحنيين فوق العشب. تحول كلوبيك الى الجري رماحة، الا ان العربية كانت تبتعد، فاشتاط غضبا وجرى بكل ما اوتي من قوة.

تلاشى الغثيان الناجم عن الخيب الرتيب و كان نيكيتا مستقرا بيسر وثبات والرياح تصفر في اذنيه. وعلى جانب الطريق تنداح الى الورا امواج السنايل الخضراء، والقبرات تتناغى باصوات بسيطة ولا ترى في ضوء الشمس... كان ذلك يبعث الارتياح كما في كتب فينيمور كوبر تقريبا.

تباطأ سير العربية فلاحق بها نيكيتا لاهتا والقي على ابيه نظرة فرحة.

- هل انت مسرور يانيكيتا؟

- جدا... كلوبيك حسان رائع...

الاستحمام

في الصباح الباكر توجه فاسيلي نيكيتيفيتش واركادي ايفانوفيتش ونيكيتا، سائرين الواحد اثر الآخر على ممشى في العشب الرمادي من كثرة الندى، للاستحمام في البركة.

ضباب الصباح لا يزال يلفح خمائل البستان الكثيفة. وفي الفسحة فوق الأزهير الطويلة العسلية الصفراء، وفوق إهوار البرسيم البيضاء تزاومت الفراشات كاوراق خفيفة وحومت نحلة مهمومة مشغولة البال. وتناهى من احدى خمائل البستان هديل يمامة اغمضت عينيها ونفخت صدرها وراحت تنوح بحزن لذيذ مؤكدة ان كل شيء سيبقى على حاله دوما، يمر ويعود من جديد بتلك الحال.

سار فاسيلي نيكيتيفيتش على القنطرة الطويلة التي تطبلب فوق الماء ودخل الحمام الخشبي المكشوف. خلع ملابسه على المصطبة في الظل وربت على صدره الابيض المكسو بالشعر

وعلى جنبه الاملسين وضيق جفونه في لمع الماء الذي يغشى العيون وقال:

- رائع! رائع جدا!

بدا وجهه الملوح بلحيته اللماعة وكانما ركب تركيبا على بدنه الابيض فهو يتمتع بصحة موفورة تكاد تفوح كعطر طيب للغاية. وعندما تحط ذبابة على ساقه او كتفه ينهال عليها بضربة مدوية من باطن يده تخلف على جسمه بقعة وردية. برد بدنه بعض الشيء فاخذ قطعة من الصابون الفواح الذي يعوم في الماء لخفته، وسار بحذر على السلم الزلق لما علق به من اشنات خضراء الى الحمام الذي لا يتجاوز عمق مائه صدره، واخذ يصوبن راسه ولحيته برغو غزير وهو يبشش ويقول:

- رائع! رائع جدا!

فوق الحمام، في ضوء الشمس الازرق، حوم البرغش، وجاء يعسوب يرفرف بجناحيه ويتطلع بعينين زمرديتين جاحظتين الى راس فاسيلي نيكيتيفيتش الملمع برغو الصابون ثم انطلق بتحليق مائل. وفي تلك الاثناء كان اركادي ايفانوفيتش يخلع ثيابه على عجل وبشيء من الاستحياء، وقد ضغط الاصابع الطويلة لرجليه المعقوفتين قليلا، ثم فتح الباب الخارجي للحمام وتطلع ذات اليمين وذات الشمال ليتأكد مما اذا كان هناك من ينظر اليه من الضفة، وقال بصوت اجش: «طيب، رائع» وارتمى على بطنه في البركة. انفرج الماء وطرطش وفرت غربان القيق من الصفصاف مذعورة، بينما راح اركادي ايفانوفيتش يسبح كالقراشة وبدنه النحيل الاشقر يتلوى تحت الماء المائل الى الزرقة.

عندما بلغ المعلم وسط البركة اخذ يتشقلب ويفوص وينفث الرذاذ مبقبا كعفريت الماء: «برررر»...

جلس نيكيتا مقرفصا على المصطبة اللزجة ينتظر حتى ينتهي بابا من الاستحمام. وضع فاسيلي نيكيتيفيتش الصابونة والليفة على درجة السلم وسد اذنيه باصبعيه وغاص في الماء ثلاث مرات. تلاصق شعره المبلل وقدلت لحيته كاسفين مدبب، وغدا مظهره تعيسا.

- فلنسبح الآن - قال وصعد الى القنطرة خارج الحمام ثم

ارتسى ثقيلًا على البركة وأخذ يسبح على طريقة الضفادع فيحرك يديه وقدميه ببطء في الماء الصافي.

قفر نيكيتا بشقلبة الى البركة ولحق بابيه واخذ يسبح جنبه منتظرًا ان ينثنى عليه. فقد تعلم نيكيتا خلال هذا الصيف السباحة بمهارة عندما كان يستحم مع الصبيان في نهر تشاغرا. وصار يجيد العوم على الجنب وعلى الظهر وبهيئة الوقوف والانحناء تحت الماء. وقال الاب هامسا:

- تعال نغرق اركادي.

كانا يفترقان عادة ويسبحان من الجهتين نحو اركادي ايفانوفيتش الذي لا يلاحظ هذا التطويق لخصر نظره. وحالما يقتربان منه يهرعان اليه بطبطبة سريعة. فيزجر ويحار في امره وينط من الماء حتى الخصر ثم يغوص ويحاول ان الامسك برجليه. فالغدغدة هي اكثر ما يخشاه، الا ان الامسك به ليس سهلا. فهو يتملص في الغالب. وعندما يعود فاسيلي نيكيتيفيتش ونيكيتا الى الحمام يجدان اركادي ايفانوفيتش جالسا على المصطبة مرتديا لباسه الداخلي و نظارته ويقول بتهقئة مهينة:

- يجب تعلم السباحة يا سادة.

حينما يعودون من البركة تستقبلهم الكسندرا ليوتيفنا عادة في قلتسوة خفيفة بيضاء ورداء وبرى وتقول باسمه بجفون مطبقة من الشمس:

- الشاي جاهر في البستان، تحت الزيزفون اشربوا ولا تنتظروني، والا ستبرد الفطائر.

عقرب البارومتر

منذ عدة ايام ينقر فاسيلي نيكيتيفيتش باظافره على البارومتر ويلعن الشيطان همسا فان عقرب البارومتر يشير الى: «جفاف، جفاف شديد». طول اسبوعين لم تسقط قطرة مطر، في حين اقترب وقت نضوج القمح. تشققت التربة وبهتت السماء من شدة القحيط، وعلى الافق البعيد خيمت غلالة كقبار اثارته القطعان. المروج احرقتها الشمس، والتوت اوراق الأشجار وغدت قاتمة وظل عقرب

البارومتر يقول بعناد: «جفاف، جفاف شديد» مهما نقر فاسيلي نيكيتيفيتش على زجاجه.

لم يعد اهل البيت يمزحون كالسابق عندما يلتشون حول المائدة. مسحة من القلق وانشغال البال تعلق وجه الاب ووجه الام. اركادي ايفانوفيتش صامت هو الآخر، يحدث في الصحن ويعدل نظارته بين الفينة والفينة محاولا ان يخفي تاوهة يحبسها بصعوبة. لكن لديه سببا آخر. فان المعلمة فاسا نيلوفنا التي وعدته بالمجيء من المدينة لزيارته في سوسنوفكا كتبت له: «انا مقيدة بسرير امي المريضة» وقالت بانها تأمل في رؤية اركادي ايفانوفيتش في سامارا ليس قبل حلول الخريف.

تصور نيكيتا هذه المعلمة امرأة كنيبة طويلة القامة في بلوزة رمادية يتدلى منها سير ساعة وقد ربطت احدى قدميها بقيود الى قائمة السرير. في تلك الايام الخائفة الكالحة المملعة بغلالة الجفاف تشتد الكتابة خصوصا قطفهم حتى صورة معلمة المدينة الجالسة قرب السرير الحديدي عند الجدار العاري. اثناء الغداء قال فاسيلي نيكيتيفيتش وهو ينق باصابعه لحنا مرحا على حافة الصحن:

- سيهلك المحصول اذا لم يسقط المطر غدا.

اطرقت ماما براسها في الحال. وتناهى من النافذة الضخمة ظنين ذباية كأنما تهذي في الاعلى عند الزجاج المزدوج شبه الدائري الذي لم تمسه يد التنظيف ابدأ، فغطاه نسيج العنكبوت. باب الشرفة الزجاجي مغلق منعاً لتسرب قيظ البستان. وتمتمت ماما:

- هل سيحل القحط هذا العام ايضا؟ يا الهي، ياللفظاعة!

- ذلك أشبه بانتظار الاعدام. - اقترب بابا من النافذة ورفع بصره الى السماء ودس يديه في جيبي بنطاله السميك - يوم آخر من هذا الحر اللعين وتعم المجاعة في الشتاء القادم ويتفشى التيفوئيد وتهلك العاشية ويموت الاطفال... شيء مهول.

انتهى الغداء في صمت. مضى بابا لينام. واستدعيت ماما الى المطبخ لتحسب البياضات، اما اركادي ايفانوفيتش فقد ذهب

للتنزه وحيدا في السهب الساخن، لينقل على نفسه فوق كل المصائب والاحزان.

في هدوء الظهيرة المشؤوم الذي لا يعكره سوى طنين الذباب بدا كل شيء في الغرف وكأنه ملغع بالغبار. ولا يدري نيكيتا ماذا يفعل والى أين يتوجه. مضى الى مدخل المنزل. الحوش الواسع خال هادىء. كل شيء فيه غفا وسكن في ضوء الشمس الناصع الذي يغشي الابصار رغم غلالة الفيظ الكالحة ويدوي طنين في الرأس من السكون المطبق والحر الشديد.

دلف نيكيتا الى البستان، لكنه لم يجد هناك حركة او حياة. طنطنت نحلة ناعسة. الاوراق المتربة معلقة بلا حراك كما لو صنعت من الصفيح. وفي البركة انغرز القارب في الماء الكابي تعلقه بقع بيضاء من ذرق الغربان.

عاد نيكيتا يجرجر قدميه الى المنزل واستلقى على اريكة تفوح منها رائحة الفران. في وسط الغرفة تنتصب مائدة الطعام، عارية، على عدد كبير من القوائم النحيفة المنفرة. ما من شيء في العالم اكثر اثارا للملل من هذه المائدة. وفي المطبخ البعيد كانت الطباخة تغني بصوت واطيء - لعلها تنظف السكاكين بمسحوق الطابوق وتعوي، تعوي بصوت خافت من الملل القاتل وفجأة ظهر جيلتوخين على رف النافذة المواربة. فغر منقاره من شدة الحر. عب من الهواء ثم حلق فوق المائدة وحط على كتف نيكيتا. ادار رأسه وتطلع في عيني الصبي ونقر شامة قاتمة كالحبة على صدغه، نقرها ثم تطلع في عيني نيكيتا من جديد.

- اتركني، ارجوك اغرب عني - قال له نيكيتا ونهض متكاسلا وصب للزرزور ماء في صحن.

شرب جيلتوخين ونظ الى داخل الصحن واستحم وطرطس فسكب كل مائه وشعر بالمرح وحلق يبحث عن مكان ينفض فيه ريشه وينظفه فحط على افريز الهيكل الخشبي للبارومتر.

- فيويوت، فيويوت، عاصفة - قال جيلتوخين بصوته الرقيق.

- ماذا تقول؟ - ساله نيكيتا واقترب من البارومتر.

كان جيلتوخين يهز رأسه الى الأسفل والاعلى جانبا على الأفريز وقد دلى جناحيه وراح يتمتم شيئا بلغة الطيور وباللغة الروسية. وفي تلك اللحظة رأى نيكيتا العقرب الأزرق على رقعة البارومتر وقد ابتعد كثيرا من العقرب الذهبي، وصار يرتعش بين مؤشري «طقس متقلب» و «عاصفة».

طرق نيكيتا باصابعه على الزجاج فتحرك العقرب باتجاه مؤشر «عاصفة». وهرع نيكيتا الى المكتبة حيث ينام ابوه. طرق الباب فتناهى صوت الاب ناعسا مدعوكا وهو يتسائل على عجل: - ماذا؟ ماذا حدث؟

- بابا، تعال، انظر الى البارومتر...

- نيكيتا، لا تزعجني اريد ان انام،

- انظر ما حدث للبارومتر يا بابا...

ظلت المكتبة هادئة يبدو ان بابا لا يستطيع ان يطرد النعاس واخيرا تناهت خطوات قدميه العافيتين، وادار المفتاح وانفجر الباب ولاحت اللحية المعقوفة:

- لماذا ايقظتني؟ ماذا حدث؟

- البارومتر يشير الى العاصفة.

- كذب - تتمم بابا بهمس ورعب وركض الى الصالة وصاح منها في الحال باعلى صوته: - الكسندرا، عاصفة! يعيش! جاءنا الخلاص!

اشتدت الحرارة الخائقة، وصممت الاطيوار وتكاسل الذباب على النوافذ. وعند المساء اختفت الشمس الواطئة في غلالة ضبابية ساخنة. وحل الغسق بسرعة. كان الظلام حالكا ولا ترى نجمة في السماء. وأشار عقرب البارومتر الى «عاصفة» بكل تأكيد. اجتمع الاهل حول المائدة المستديرة ذات القوائم الكثيرة كأرجل ام اربع واربعين. وكانوا يتحدثون همسا و يتلفتون الى باب الشرفة المفتوح على البستان المظلم.

وفي ذلك السكون الموات كانت صفصافات البركة اول ما تحرك بحفيف مكتوم ملغع بالهيببة والوقار. وتناهى نعيب الغربان

اشتكى الناس عليه مرارا عند الجهات المسؤولة في سامارا، ولكنه كان يزداد غيظا دون ان يكف عن المطالعة. وكان يدمن على المسكرات ست مرات في العام، وعند ذاك يخشى الناس حتى الدخول الى دائرة البريد. وفي تلك الايام يخرج مأمور البريد رأسه من النافذة ويصرخ في الساحة كلها: «نهشتم روحي ياملاعين»

قال له نيكيتا:

- بابا ارسلني لاستلام البريد.

لم يرد عليه مأمور البريد، واحرق الشمع من جديد، لكن قطرة سقطت على يده فقفز وزعق وجلس ثانية.

- من اين لي ان اعرف من هذا «البابا»؟ - غمغم بلهجة لا تنم عن حسن نية اطلاقا. - كل شخص هنا بابا، الكل آباء...

- ماذا تقول؟

- اقول عندكم آلاف الآباء - بصق مأمور البريد تحت الطاولة - ما اسمه؟ اسالك ما اسم هذا «البابا»؟ - القى بالشمع جانبا ولم يخرج حزمة الرسائل من الجرار الا بعد ان اجابه نيكيتا.

وضع نيكيتا الرسائل في الحقيبة وسال بوجل:

- والمجلات و الجرائد؟ ألم تصلنا؟

بدأت اوداج مأمور البريد تنتفخ، فاسرع نيكيتا خارجا دون ان ينتظر الجواب.

كان كلوبيك يضرب الارض بقائمه قرب عمود البريد ويصفع نفسه بذيله لينش الذباب الذي اتهال عليه وكان صبيان صغيران بشعر فاتح كالكتان ووجهين ملطخين بالعصير يتطلعان الى الحصان.

- ابتعدا! - صاح بهما نيكيتا وهو يصعد الى السرج.

هوى احد الصبيين على التراب، بينما استدار الآخر ومضى راكضا. وفي النافذة التهب شمع الاختام من جديد في يد مأمور البريد.

خرج نيكيتا من القرية الى السهب الذهبي الاصفر الذي

المرتعبة. وخرج بابا الى الشرفة المظلمة. اخذ الحفيف يشتم ويزداد هيبه، واخيرا انهضت الاقاصيا عند الشرفة بهبة شديدة، واقتحمت الباب روائح عطرة مع عدة اوراق يابسة، وغمز اللهب في كرة المصباح الزجاجية الحليبية وصفرت الريح وعوت في مداخن المنزل واركانه. وفي مكان ما اصطفت نافذة بدوي شديد وجلجل زجاجها المحطم. ضج البستان كله وصرت جذوع الاشجار وتمايلت قممها في الظلمة. وظهر من الشرفة فاسميلي نيكيتيفيتش مشعث الشعر فاغر الفم متسع العينين. واخيرا شق صفحة الليل ضوء ابيض ازرق يغشى الابصار، وللحظة بانث الاشجار المحنية جدا وكأنها مرسومة بالأسود. واطبق الظلام من جديد، وهدرت السماء وزمجرت وانثالت على الارض. لم يسمع احد وسط الصخب العاصف كيف سقطت زخات المطر وانسابت على زجاج النوافذ. ثم انهزم المطر غزيرا. وقفت ماما في باب الشرفة، واغرورقت عيناها بالدموع. وامتلأت الصالة برائحة الرطوبة والعفونة والمطر والاعشاب.

الرسالة

قفز نيكيتا من السرج وربط كلوبيك بمسماز على العمود المخطط ودخل دائرة البريد في ساحة السوق بقرية اوتيوفكا. وراه الحاجز المكشوف جلس مأمور البريد الاشعث بوجهه المنتفخ وراح يحرق شمع الاختام. منضدته ملوثة عن آخرها بقطرات الشمع الاحمر والحبر ورماد التبغ. صب على الظرف سيلا من الشمع الملتهب واختطف الختم بيده المكسوة بالشعر وطره بشدة وكأنما يريد تحطيم جمجمة مرسل الرسالة ثم دس يده في جراز المنضدة واخرج طابعا ومد لسانه الطويل ولحق الطابع والصقه وبصق باشمتراز، وبعد ذلك القى على نيكيتا نظرة شزراء من عيتين متورمتين.

اسم مأمور البريد هذا ايفان لانديشيف. وقد اعتاد على مطالعة جميع الصحف والمجلات، يقرأها من الفها الى يانها، ولا يسلمها الى اصاحبها بأية حال الا بعد ان يفرغ من مطالعتها.

السوق في بيوسترافكا

بابا وماما يتشاجران منذ ثلاثة ايام. فاسيلي نيكيتيفيتش راغب اشد الرغبة في الذهاب الى السوق في بيوسترافكا، لكن ماما تعارض هذه الرحلة كل المعارضة:
- الامور في سوق بيوسترافكا على احسن ما تكون بدونك يا عزيزي.

- عجيب - اجاب بابا وهو يمسك لحيته كلها في يده ويعض طرفها ويهز كتفيه - عجيب غريب.
- هل يشير ذلك استغرابك يا عزيزي فليكن.
- حقا، غريب جدا!

- لكنني اكرر مرة اخرى - قالت ماما - لسنا بحاجة الى خيول جديدة، فالاسطبل غاص بخيول السفر والحمد لله.
- افهميني، انا ذاهب الى هناك لبيع زاريمكا اللعينة.
- لا داعي لذلك. زاريمكا فرس رائعة.
- ماذا تقولين؟! - باعد بابا ما بين قدميه وجحظت عيناه. - زاريمكا تعض وترفس.

- كلا. - اجابت ماما باصرار - زاريمكا لا تعض ولا ترفس.
- اذن فانا اعلن صراحة. - انعني بابا بتأدب وطرق كعب احدى قدميه بكعب الاخرى - اما هذه الفرس اللعينة في البيت واما انا!

واخيرا فضلت ماما، كما حزر نيكيتا، ان يبقى بابا في البيت. وانتهى الشجار بصلح وتنازلات من الطرفين: تقرر بيع الفرس، بينما تعهد بابا «بالا ينفق اموالا طائلة في السوق».

ولكي يعرض فاسيلي نيكيتيفيتش عما سينفقه من نقود فكر بارسال عربتين من سقيط التفاح الى بيوسترافكا وبيعه هناك بالوزن.

- طلب نيكيتا ان يسمحوا له بالرحيل على احدى العربتين مع ميشكا كورياسوتوك.

بدات العراقيل منذ الصباح. فقد اتضح ان الخيول لم تكن جاهزة، واسرع ميشكا كورياسوتوك على ظهر حسان الى

سختته السنابل الناضجة، وهناك ترك الحصان يمشی الهوينى وفتح حزمة الرسائل.

كانت احدى الرسائل في ظرف صغير بنفسجي فاتح كتب عليه باحرف كبيرة: «ليد نيكيتا». وهي مكتوبة على ورق مخرم. طرفت رموش نيكيتا من الانفعال وهو يقرأ:

«عزيزي نيكيتا. لم انسك ابدأ. احبك، احبك بشدة. نقيم الآن في الفيلا. وهي مريحة تماما، مع ان فكتور يضايقني كثيرا ويعكر علي حياتي. لم يعد يطبع ماما. حلقوا له شعره بالماكنة للمرة الثالثة، و كله خدوش الآن. انا اتنزه لوحدي في بستاننا. عندنا ارجوحة، وتفايح لم ينضج بعد. هل تتذكر الغابة السحرية؟ تعال الينا، الى سامارا، في الخريف. لم اضيع خاتمك. الى اللقاء. ليليا».

قرا نيكيتا هذه الرسالة المدهشة مرارا. وفاحت منها فجة روعة اعياد الميلاد التي مرت سراعا آنذاك. غدت الشموع اكثر دفئا وظهر الشريط الكبير المظل على عيني البنت الزرقاوين الناقتين وتحرك ظلّه على الجدار، وخشخشست السلاسل الورقية على شجرة الميلاد. وومض ضوء القمر في النوافذ المتجلدة. وانسابت اضواء الطيف على السطوح المملعة بالثلج وعلى الاشجار البيضاء والحقول الناصعة... وجلست ليليا من جديد تحت المصباح عند المائدة المستديرة مسندة ذقنها بقبضة يدها... يا له من سحر عجيب!..

نهض نيكيتا في الركاب ولوح بالسوط، فجفل كلوبيك من شدة المفاجأة وجرى برماحة كعدو الكلاب. وصفرت الريح المتواصلة في الاذنين وعلى السهوب الواسع، فوق السنابل الناضجة، المحصورة في بعض الاماكن، وفوق ضفة النهر الطينية الشديدة الانحدار حلق نسر على ارتفاع شاهق. وفي السبغة المنخفضة، عند البحيرة المألحة، ناحت الزقازق باصوات خاوية خالية الا من الكتابة. وفكر نيكيتا فرحا وقلبه ينتفض بشدة: «اركض يا حسان، اصغري يا ريح! حلق يا نسر، غرد يا زقزاق، فانا اسعد منك. انا والريح، انا والريح...»

القطيع الذي يرى بالكاد في المنخفض المملح بضباب الصباح وراء البرك. وعندما اخرجوا زاريمكا الشمقراء ذات الكواحل البيضاء من الاسطبل واخذوا ينظفون شعرها بالمحكة عضت سرغي ايفانوفيتش وكادت تنهشه. رأى بابا هذا المشهد من النافذة فخرج الى الاسطبل بقميص النوم:

- اها... تعض! الم اقل لكم يا ملاعين؟!..

اخذت زاريمكا تتراجع وتقعى وتسحب سرغي ايفانوفيتش من سير اللجام وتحمم وتتملص، ثم طاطات بوزها وترافست بشدة، حتى تطايرت التفت من تحت سنايكها الى اعلى من مستودع العربات، وانطلقت الى القطيع. ثم اختفى ارتيوم الذي كان يجب ان يرتحل مع العربتين، راحوا يبحثون عنه، فاتضح انه موقوف من مساء امس في محبس الناحية. فقد حان موعد تسديد الضريبة المستحقة وقد تكس منها على ارتيوم دين خمس سنوات، لذا يلقي العمدة القبض عليه اينما كان ويزجه في المحبس حتى يأتي من يسدد دينه.

بعث فاسيلي نيكييفيتش رسولا الى العمدة. فاطلقوا سراح ارتيوم بكفالة، وجاء ليشد خيول العربتين، وكان في مرح شديد. شد زاريمكا بوثوق الى العربة الخلفية، وصعد نيكييتا وميشكا كورياسونوك الى العربة الامامية، ولوح ارتيوم باطراف الاعنة فتحركت العربتان... وصاح سرغي ايفانوفيتش مازحا وهو يشير الى العجلة عمدا: «مكسورة، مكسورة» فقفز ارتيوم وتفقده العجلة. كانت سالمة. حك شعره وهز راسه... وانطلقت العربتان اخيرا. كانت رحلة رائعة. النسيم يهب مشبعا برائحة الشيح ودريس القمح، ويتلاعب باعشاب راعي الحمام العالية على اطراف الحقل. ومن بين اكوام القش المنتشرة على مدى البصر في السهب المستوي حلق باشق وابتعد ببطء الى اعماق السماء. ومن بعيد تصاعد دخان ازرق. فحرب محطة المحارث يطبخون عصيدة.

وعندما وصلوا الى المحطة التي هي عبارة عن قمرة على عجلات اوقف ارتيوم فرسه. وتوجه مع الصبيين الى البرميل ليشربوا من ماء آسن مليء بالاشنات تفوح منه رائحة خشب

البرميل. اقترب عجوز طاعن في السن، كان يطبخ العصيدة للحارثين، من العربتين ووضع يده على عارضة احدهما وقال وهو يهز راسه الحاسر.

- تحملون التفاح للبيع؟ - مد له نيكييتا بتفاحة - كلا، يا فتى، لن اتمكن من مضغها.

وما ان غادروا المحطة حتى صادفوا اربعة اشخاص يستحثون ثيرانا تتأرجح في انيارها، وتجر محارث مقلوبة السكاكين الى اعلى. وتوجه الحارثون مشعشي الشعر في قصان مخشوشنة لتناول العصيدة. توقف ارتيوم من جديد واستفسر منهم عن تفاصيل المنعطف الى بيوسترافكا.

عند الظهرية سكنت الريح، وانداحت موجات الحر بعيدا على طرف السهب. حملت نيكييتا فصار يرى في هذه الزرقة المشيرة للانفعالات منزلا عائنا قارة او شجرة معلقة فوق الأرض قارة اخرى او سفينة بلا صوار، في حين تواصل العربتان سيرهما، تبعث الجنادب صريرها. وفجأة تناهى من السهب رنين متناغم رتيب. ومالت زاريمكا على جنبها راقصة في عريشها واطلقت صهيل رنانا. فالتفت ارتيوم وقال غامزا:

- اللورد بايرون يشير الغبار!

وسرعان ما مرقت ازاء العربتين مركبة بثلاثة جياذ يتوسطها اللورد بايرون رافعا بوزة باستعلاء وهو يعدو في خبب كاسح، والى جنبه فرسان قميثان تتلظيان شررا من شدة الغضب. وفي المركبة جلس بابا منتصب القامة في سترة طويلة خشنة وقد اسند جنبه بيديه، وتطايرت لحيته بشطرين في الريح، وصاح على نيكييتا وعيناه المرحتان تتراقصان:

- اتريد ان تتركب معي؟ - وانطلقت المركبة تنهب الدرب.

واخيرا اخذت ترتقع من وراء طرف السهب قبنا الكنيسة البيضاء وشواديف الآبار وقمم الصفصاف المتناثرة واعمدة الدخان وسطوح المنازل، وخلف النهر السهبي الغريني الاصفر، البراق في ضوء الشمس، تكشفت قرية بيوسترافكا بكاملها، ووراءها، في المرعى سرادقات من القماش وبقع قاتمة من قطعان الخيل.

مرت العربتان مسرعتين فوق الجسر المترجج الرابض على سطح الماء تقريبا، واجتازتا ساحة الكنيسة حيث كان قس بدين يعزف على الكمان في آخر نافذة بالمنزل الوردى. واستدارت العربتان في المرعى نحو السراقات وتوقفتا قرب صف الفخارين. وقف نيكيتا في العربة وراى غجريا بلحية كثة سوداء نبتت من تحت عينيه مباشرة وقفطان ازرق، بازرار فضية، مكشوف عن صدر عار، وهو يحرق في اسنان فرس مريضة، بينما يتطلع الفلاح النحيل، صاحب الفرس، في وجه الغجري مندعشا. وما هو شيخ ماكر يقنع فلاحه مذعورة بان تشتري منه وعاء فخاريا مزينا بنقوش مشجرة وهو ينقر بظفره. وقالت له الفلاحه: «اريد وعاء من نوع آخر يا ابتي.» - «لن تجدي، يا حلوة، احسن من هذا الوعاء في العالم كله.» وما هو فلاح ثمل يصيح غاضبا قرب سلة بيض: «أهذه بيضة؟ اي بيضة هذه؟ بيضة حمام. البيض عندنا في كولديبان بيض حقيقي، والدجاج عندنا يغوص في الحب حتى الرقبة.» وراى نيكيتا بنات في بلوزات وردية وصفراء ومناديل مزركشة يتجهن صوب السراقات التي انحنى الباعة من وراء رفوفها وهم يجتذبون المارة ويتصايحون: «تعالوا، تعالوا، اشتروا منا...». السوق غاص بالغبار والصياح وصهيل الخيل، وصفير الصفرات الفخارية. وفي كل مكان برزت عرائش العربات المرفوعة. وهاهو فتى في قميص ازرق عند الكتف يسير مترنحا متدافعا ويمطط الاكورديون بكل قوته: «عيني، عيني يا عيني...» حل ارتيوم وثاق الفرسين وبدا يرفع غطاء العربة. و في تلك الاثناء اقترب منه رجل في سترة عسكرية وحزام جلدي يتدلى منها سيف. تطلع الى ارتيوم وهز راسه. وتطلع اليه ارتيوم بدوره وخلع قبعته. فقال ابو الشوارب:

- وقعت في يدي اخيرا يا هارب، ساحبسك هذه المرة طبعاً.
- الأمر لك - اجابه ارتيوم.

امسك ابو الشوارب بمرفقه وسحبه. فشيعهما بائع الخزفيات العجوز الماكر بضحكة. وهمس ميشكا كورياسونوك الى نيكيتا مهموما:

- اسرع وابحث عن ابيك، قل له ان الشرطي اخذ ارتيوم الى المحبس، اما انا فسأحرس العربتين.
تخلص نيكيتا من الزحام وركض في ممشى عبر الحقل المعشوشب باتجاه زرائب الخيل حيث لمح من بعيد عربة ابيه. كان بابا واقفا في غاية المرح قرب احدى الزرائب ويداه في جيبي سترته. بدأ نيكيتا يحدثه عما جرى لارتيوم، لكن اباه قاطعه في الحال.

- انظر الى ذاك الحصان الكميث، ما اشد دهائه!..

بين الخيول في الزريبة راح ثلاثة من البشكيريين في اردية مضربة فاقعة الالوان وقبعات فرائية يجهدون لالقاء الوهق على رقبة حصان اشقر جموح. ولكنه ينشر اذنيه ويكشر عن اسنانه و يجفل متملصا من حبل الوهق فيدس نفسه في خضم القطيع تارة ويهرع الى الخلاء تارة اخرى. وفجأة ثنى ركبتيه ودس راسه تحت عارضة السياج ورفعها وقفز الى خارج الزريبة وانطلق في رماحة مرحة الى السهب المعشوشب وعفرتة وذيله يتطايران في الهواء. وضرب بابا الارض بقدمه من شدة الارتياح.

ركض البشكيريون متمايلين على اقدام معقوفة الى افراس الركوب القميثة الشعثاء وصعدوا بخفة الى السروج العالية وانطلق اثنان منهم لملاحقة الحصان الكميث، بينما توجه الثالث ويده الحبل ليقطع الطريق عليه. اخذ الحصان يحوم في الحقل، وكان البشكيرى يقطع عليه الطريق كل مرة وهو يزغق كالوحش. ارتبك الحصان، وفي تلك اللحظة اطبق الحبل على رقبتة. فاهتاج وجمح، الا ان السياط انهالت عليه من الجانبين و الحبل يخنقه. تمايل الحصان وسقط ثم اقتادوه الى الزريبة وهو يرتعش والزبد يغطي جسمه. هبط البشكيرى العجوز المتغضن من السرج بصورة خرقاء واقترب من فاسيلي نيكيتيفيتش:

- اشتر هذا الحصان يا سيدي.

ضحك بابا ومضى الى زريبة اخرى. وبدأ نيكيتا من جديد يحدثه عما جرى لارتيوم.

- يا للأسف - هتف بابا - حقا، ماذا استطيع ان افعل لهذا الاحمق؟ اسمع. خذ عشرين كوبيكا واشتر رغيفا وسمكا

وانتظرنى قرب العربتين... هل تعلم؟ بعث زاريمكا الى ميدفيديف
بسعر بخس، ولكن بدون مشاكل. اذهب، سأتى الآن.
واستغرقت تلك «الآن» وقتا طويلا جدا. قرص الشمس
البرتقالي الشاحب الكبير تعلق فوق طرف السهب وخيم غبار ذهبي
على السوق. ودقت نواقيس صلاة المغرب. وعند ذلك جاء بابا
تعلو وجهه مسحة من الارتباك. وقال دون ان ينظر في عيني
نيكيتا:

- بالصدفة اشتريت مجموعة من الجمال بثمن بخس جدا...
الم يبعثوا احدا لياخذ الفرس؟ عجيب. ماذا؟ هل بعتم كثيرا من
التفاح؟ بخمسة وستين كوبيكا فقط؟ عجيب. فليذهب التفاح في
داهية. اخبرت ميدفيديف بانى ساييعه التفاح علاوة على الفرس...
فلنذهب لنخلص ارتيوم...

طوق فاسيللي نيكيتيفيتش نيكيتا وسار به في السوق الذي
هدا، بين عربات تفوح منها في الغسق رائحة القش والقطران
والقمح. ومن مكان ما تهادت اغنية بصدى رفيع يذوب في السهب.
وصهل حصان.

- هل تعلم؟ - توقف الاب ولمعت عيناه بمكر - ستقوم
القيامة علي في البيت... ولكن، لا يهم. غدا نذهب لرؤية ثلاثة
جياذ رمادية مبقعة... لا يهم، تعددت الاسباب والموت واحد.

في العربية

في المساء عاد نيكيتا من البيدر في عربية محملة بقش القمح
الطري. كان خط ضيق من المغيب الكابي الارجواني، كعادته في
الخريف، يتلاشى بالتدريج فوق السهب، وفوق الروابي القديمة
التي خلفها البدو الرحل بعد ما جاؤوا هذه الانحاء في غابر الزمان.
وفي الغسق لاحت اخاديد التربة المحروثة في الحقول الخالية
بعد الحصاد. وفي مكان ما يومض موقد محطة الحارثين احمر لا يكاد
يرتفع عن الارض و تفوح رائحة دخان تزكم الانف. العربية تصر
وتترنج ونيكيتا مستلق على ظهره مغمض العينين دب التعب اللذيذ
في جسده. وراح يتذكر هذا اليوم في شبه غفوة...

... اربعة ازواج من الافراس القوية تدور وتسحب ذراع
الدراس. وعلى مقعد دائري في الوسط يدوم ميشكا كورياسونوك
ببطء. ويزعق بين حين وآخر ويطلق بالوسط..

ومن الدولاب الخشبي يتراكم مطبطا سير لا نهاية له فيدخل
الدارسة الحمراء الضخمة كبناية بيت، وفيها تهتز المناخل والمقشات
بشكل مسعور، وتهدر الاسطوانة الدوارة وتعوي وتزار كوحش
هانج وينداح هديرها في السهب الى مسافات بعيدة، وهي
تلتهم حزم السنابل المنفوشة وتدفع القش و الحب الى احشاء
الدارسة المغبرة. ويطعم الاسطوانة فاسيللي نيكيتيفيتش نفسه
وهو يرتدى نظارة محكمة منغرزة في وجهه وردنين يمتدان حتى
المرفقين و قميص ملتصق بظهره العرق، وقد تلوث بالغبار
وعلقت العصافاة بلحيته واسود فمه. العربات المحملة بحزم
السنابل تقترب بصريبر، ويركض صبي متباعد الساقين وراء
الناقلة وياخذ كومة ضخمة من القش ويقف على اللوح ويسحب
القش بسرعة الى الاكداس. ويعمل فلاحون كهول في تكويم تلك
الاكداس بمزار خشبية طويلة. وتشرف على الانتهاء مشاغل
واعمال عام كامل وينتهي معها قلق ذلك العام. و تنشد الاغاني
وتطلق النكات طول النهار. كان ارتيوم يلقي حزم السنابل من
العربات على رف الدارسة، فقبضت عليه البنات بين العربات
وطرحنه ارضا واخذن يدغدغنه، ما بين ثيابه وبدنه بالعصافاة.
وتعالن عاصفة من الضحك والقهقهة...

...فتح نيكيتا عينيه، والعربة تتمايل وتصر. خيم الظلام على
السهب، والسماء مرصعة بنجوم اغسطس. سماء لا قعر لها ولا
قرار، تتموج فيها الاضواء وكان النسيم يداعب مجراتها وكواكبها
وامتد درب التبانة كشريط ضبابي لامع. العربية تهتز، ويسبح
نيكيتا، مستلقيا عليها كما في المهد، تحت النجوم وينظر بهدوء
واطمئنان الى العوالم البعيدة.

ويفكر في نفسه: «كل هذا لي، ساركب يوما سفينة جوية
واطير...» وراح يتصور السفينة الطائرة بجناحين مثل الخفاش،
والسماء الغالية السوداء، وشاطنا لازورديا لكوكب مجهول يقترب

منه بجبال فضية وبحيرات رائعة وقلاع وهياكل وغيوم محلقة فوق الماء كالتى يراها عند الغروب.

انحدرت العربية من التلة ونبتت الكلاب من بعيد. وهب نسيم رطب من البرك. ودخلت العربية الحوش. كانت اضواء دافئة مريحة تنسكب من نوافذ المنزل، من غرفة الطعام.

الرحيل

حل الخريف. واكتنف النعاس الارض. صارت الشمس تشرق متأخرة، عجوزا لا تدفىء، ولا يعينها من امر الارض شيء. هاجرت الطيور وخلا البستان وتساقطت الاوراق. رفعوا القارب من البركة ووضعوه، مقلوبا في المستودع.

وفي الصباح تغدو الاعشاب في الاماكن التي تقع عليها ظلال السطوح فضية اللون تحت الندى المتجلد. وعلى ندى الاعشاب المصفرة تنهادى الوزات صوب البركة سمينة متعائلة مثل كرات الثلج. انهمكت اثنتا عشرة فتاة من القرية بفرم الملفوف في طست ضخم قرب جناح الخدم. كن ينشدن الاغاني وتتعالي اصوات بلطاطين في الحوش كله. ومن مبنى السرداب حيث يجري مخض اللبن جاءت دونياشا واخذت تقضم ساق ملفوف. لقد صارت اثناء الخريف اكثر نضارة وتوردا، والجميع يعرفون بانها تتردد على جناح الخدم لا تقضم سيقان الملفوف وتتضاحك مع البنات، بل لكي يراها من النافذة الخادم الشاب فاسيلي الذي يشبهها في وسامته ونضارته. تعكر مزاج ارتيوم نهائيا وهو يصلح اطراق الخيل في جناح الخدم.

انتقلت ماما الى القسم الشتوي من المنزل. واشعلوا المدافئ والافران. جمع القنفذ اخيلكا خرقا واوراقا كدسها تحت الخوان واستعد للسبات الشتوي. وكان اركادي ايفانوفيتش يصفر في غرفته. راي نيكييتا في شق الباب معلمه واقفا امام المرأة وقد امسك بطرف لحيته وراح يصفر متاملا. كان واضحا انه ينوي انزواج.

بعث فاسيلي نيكييتيفيتش قافلة من العربات المحملة بالقمح

الى سامارا، وسافر الى هناك في اليوم التالي. وقبيل سفره جرت مباحثات طويلة بينه وبين ماما وهي الآن تنتظر وصول رسالة منه.

بعد اسبوع كتب فاسيلي نيكييتيفيتش يقول: «تصوري، بعث القمح بسعر موفق، اغلى من سعر ميدفيديف. قضية الميراث، كما هو المتوقع، لم تتحرك قيد شعرة. ولذا يتعين، بديها، القيام بالاجراء الثاني الذي اعترضت عليه بشدة يا عزيزتي الكسندرا. فهل يجوز ان نقضي هذا الشتاء ايضا مفترقين؟ انصحك بالتعجيل في السفر، لا سيما وان الدروس في المدرسة قد بدأت. ولن يسمحوا لنيكييتا باداء امتحانات القبول في الصف الثاني الا بصورة استثنائية. وبالمناسبة عرضوا علي مزهريتين رائعتين من الفورفورى الصيني لاجل شقتنا في المدينة، ولا ينعني من شرائهما الآن الا خوفا من انك ستزعلين».

لم يطل تردد ماما. فان قلقها على المبالغ الكبيرة الموجودة عند فاسيلي نيكييتيفيتش، وخصوصا احتمال شرائه للمزهريتين الصينيتين اللتين لا حاجة باي بشري اليهما، قد جعلها تستعد للسفر في ثلاثة ايام. ارسلت ماما في قافلة العربات كل ما هو ضروري للاقامة في المدينة من اثاث وصناديق كبيرة وبراميل توابل بالاضافة الى بعض الدواجن، بينما استقلت هي ونيكييتا واركادي ايفانوفيتش والطباخة فاسيليا عربتين بعفش زهيد وتوجهوا الى المدينة قبل القافلة. كان النهار كالعا صافا والارض المحروثة والحقول في كل مكان خالية الا من اصول السنابل. ماما تراف بحال الجياد ولا تسمح لها بالعدو السريع. في كولديبان باتوا الليل في خان. وفي ظهيرة اليوم التالي لاحت قباب الكنائس ومداخن المطاحن البخارية من خلال الغلالة الرمادية التي تلمع طرف السهب المنبسطة. كانت ماما صامتة، فهي لا تحب المدينة ولا تهوى العيش فيها. اما اركادي ايفانوفيتش فقد كان على احر من الجمر وهو يعلك جانبا من لحيته. سارت المركبتان امدا طويلا ازاء معامل السمن الحيواني الننتة ومستودعات الاخشاب، واجتازتا حارة قدرة تكثر فيها الخمارات وحوانيت البقالين، وعبرتتا جسرا عريضا يمارس فيه شبان الحارة الشقاوات في الليل وها هي العنابر الخشبية المعتمة

على ضفة نهر ساماركا العالية. والجياد المتعبة ترتقي الشارع الصاعد، والعجلات تهدر على قارعه. تلفت المارة بشياهم النظيفة وتطلعوا مدهوشين الى المركبتين الملوثتين. وخيل لنيكيتا ان منظر العربتين اخرق يثير الضحك وان الجياد ريفية متباينة الالوان، فحبذا لو استداروا الى شارع جانبي! وهرق قربهم حسان ادهم يجر عربة انيقة ويتعالى وقع سنابكه. فقال نيكيتا:
- يا سرغي ايفانوفيتش لماذا نسير ببطء؟ الا يمكن ان نسرع؟..

- سنصل حتى بهذه السرعة.

كان سرغي ايفانوفيتش جالسا بوقار وحزم على مقعد القيادة وهو يمسك باعنة الجياد الثلاثة كي تسير على مهل. واخيرا استداروا الى شارع جانبي ومروا ببرج اطفاء وقف عند بوابة سياجه شاب ناثي الوجنتين في خوذة اغريقية، ثم توقفوا امام منزل ابيض من طابق واحد ومدخل حديدي يحتل الرصيف كله عرضا ولاح في النافذة محيا فاسيلي نيكيتيفيتش فرحا لوح بيديه واختفى، وبعد لحظة فتح بنفسه الباب الرئيسي.

دخل نيكيتا الدار راكضا قبل الآخرين. فاحتوته صالة غير فسيحة وخالية تماما لكنها مضيئة بجدرانها المغلفة بورق ابيض، وقفوح منها رائحة البوية، وعلى الارضية المطلية اللامعة انتصبت عند الجدار مزهرتان صينيتان اشبه بأباريق الغسيل. وفي آخر الصالة، تحت طاق باعمدة نحيفة بيضاء منعكسة على الارضية ظهرت بنت ترتدي فستانا بنيا وقد دست يديها تحت منزر ابيض، وانعكس حذاؤها القصير الاصفر على الارضية ايضا. شعرها مصفف في ضفيرة، وعلى قفاها، خلف الاذنين، شريط اسود. عينها الزرقاوان توزعان نظرات صارمة من بين جفون مطبقة قليلا. تلك هي ليليا. وقف نيكيتا وسط الصالة مسمرا. لعلها كانت تنظر اليه نظرة المارة في الشارع الرئيسي الى المركبتين القادمتين من سوسنوفكا. وسألته:

- استلمت رسالتي؟ - هز نيكيتا راسه بالايجاب. - اين هي؟ اعطينها في الحال.

دس نيكيتا يده في جيبه يبحث عن الرسالة رغم علمه بانها

ليست معه. تطلعت ليليا في عينيه بنظرة متفحصة غاضبة...
ونغمم نيكيتا:

- اردت ان اجيب. ولكن...

- اين هي؟

- في الحقبة.

- اذا لم تعدها لي اليوم سينتهي كل ما كان بيننا... انا

متأسفة جدا لانني كتبت لك... دخلت هذا العام الصف الاول.

زمت شفتيها ووقفت على اطراف اصابعها. وعند ذلك ادرك نيكيتا ان سبب زعلها هو عدم الرد على الرسالة البنفسجية... ابتلع لعابه وتزحزح من الارضية الصقيلة... خبات ليليا يديها تحت المنزر في الحال وارتفعت ارنبة انفها. واطبقت جفونها الطويلة دليلا على الاحتقار.

- اعذرني - تتم نيكيتا - انا آسف جدا... شغلتنى الخيول

والحصان والدراس وميشكا كورياسونوك...

احتقن وجهه واطرق برأسه. وظلت ليليا صامتة. واحس بانها متقرزة منه تقزز الانسان من السرقيين وفي تلك اللحظة دوى في الدهليز صوت آنا ابولوسوفنا وتعالى التحيات والقبلات وطبببت خطوات الحوذيين الثقيلة وهما ينقلان الحقائب... وهمست ليليا بلهجة سريعة غاضبة:

- سيرونا... عجيب امرك... تظاهر بالمرح... قد اعذرك هذه المرة...

وهرعت الى الدهليز. ومن هناك تهادى صوتها الرفيع عبر الغرف الخالية المدوية:

- مرحبا يا خالتي الكسندرا، الحمد لله على السلامة!

هكذا بدأ اليوم الاول من الحياة الجديدة. سبع غرف ضيقة موحشة بدلا من رحاب الريف الهادئة البهيجة، ووراء النوافذ تهدر عربات الاحمال على احجار الشارع، والمارة المبهومون المستعجلون بيزاتهم التي تشبه بزة فيرينوسوف، طيبب الناحية في قرية بيوسترافكا، يتراكضون حاجبين اقواهم بالياقات اتقاء لريح تحمل قصاصات الورق والغبار. الهرج و المرج الصخب واللغظ المنفعل في كل مكان. حتى الوقت يمضي هنا على غير عادته. فهو يطير.

الحلم. لم يكن في اليقظة ابدا يحب بهذا القدر تلك البنت الاحجية...

وفي الصباح مضت ماما واركادي ايفانوفيتش ونيكيئا الى المدرسة وقابلوا مديرها الكهل النحيل المتجم الذي تفوح منه رائحة النحاس. وبعد اسبوع ادى نيكيئا امتحان القبول والتحق بالصف الثاني...

سنة ١٩٢٠

انشغل اركادي ايفانوفيتش ونيكيئا في ترتيب غرفة الصبي، فرصفا الاثاث والكتب وعلقا الستائر. قبيل المساء جاء فكتور، من المدرسة رأسا، وافاد بان تلاميذ الصف الخامس يدخلون في المرحاض وان سروال معلم الحساب في صفهم التصق بالكروسي الذي طلاه احدهم بالصمغ كان فكتور شارد البال، ولكن بمظهره من يعتمد على نفسه. طلب من نيكيئا ان يعطيه السكين الصغيرة مع اثنتي عشرة شفرة وقال بانه ذاهب ليلعب بالريشات مع احد زملاء و «انت لا تعرفه».

حل الغسق فجلس نيكيئا قرب النافذة. والغروب خارج المدينة مثل ماهو عليه في القرية. الا ان نيكيئا، كالرزور جيلتوخين وراء شاش النافذة، يشعر بانه اسير، غريب، رهين، مثل جيلتوخين تماما. دخل اركادي ايفانوفيتش الغرفة مرتديا معطفه وقبعته ويده منديل نظيف تفوح منه رائحة الكولونيا: - انا ذاهب، سأعود في حوالي التاسعة.

- الى اين انت ذاهب؟

- الى مكان لست موجودا فيه الآن. - اجاب واطلق قهقهة مبتورة - ماذا يا أخي؟ كيف استقبلتك ليليا؟ على اسنة الحراب؟ لا تهتم. ستعود وتتهذب. وقد يفيدك ذلك بعض الشيء. فيخفف من سحنة الريف... - استدار على كعبه وانصرف. فخلال يوم واحد تغير كليا حتى غدا انسانا آخر تماما.

في تلك الليلة رأى نيكيئا نفسه في المنام في بزة زرقاء بازرار فضية وقد وقف امام ليليا وقال لها بخشونة: - خذي رسالتك.

لكنه استيقظ عندما تلفظ هاتين الكلمتين، ثم غفا ورأى نفسه من جديد وهو يشير على الارضية اللماعة ويقول ليليا: - خذي رسالتك.

كانت اهداب ليليا الطويلة ترتفع وتنخفض، وانفها الصغير الأشم ينم عن الكبرياء والاعتراب، ولكن هذا الاثف يكاد يتخلص من الاعتراب والوجه كله يكاد يبتسم...

واستيقظ نيكيئا وتلفت حواليه. ضوء غريب من فانوس الشارع يستقر على الجدار... ورأى في المنام ثانية نفس ذلك

الكونت كاليوسترو

تقوم عزبة «الينبوع الابيض» الضيعة القديمة لامراء اسرة تولوبوف في قضاء سمولينسك، وسط الحقول الممتدة فوق التلال والمكسوة بنباتات الغلال وأحراش اشجار البتولا، وعلى الضفة العالية للنهر. وجرى اغلاق البيت الخشبي القديم الواقع في الوادي الضيق، وأهمل. أما البيت الجديد ذو الاعمدة، من الطراز اليوناني، فتطل واجهته الامامية على النهر والحقول وراه. بينما تمتد واجهته الخلفية بجناحين نحو المتنزه حيث كانت البركة والجزر والنافورات.

بالاضافة الى ذلك كان بوسعك ان تشاهد في شتى انحاء المتنزه تمثال امرأة من الحجر تحمل سهما، او اناة نقش على قاعدته: «اجلس تحته وتأمل - ما اسرع ما يمضي الوقت»، او خرائب كنيية تتشابك عليها اغصان اللبلاب. وانجز بناء البيت والمنتزه قبل خمسة اعوام مضت، حينما توفيت فجأة ربة «الينبوع الابيض»، الارملة وزوجة البريجادير، الاميرة براسكوفيا باقلوفنا تولوبوفا، وكانت في عز الشباب. وانتقلت الضيعة بالوراثة الى احد اقاربها اليكسي اليكسيفيتش فيدياشيف الذي كان يعمل آنذاك في بطرسبورغ.

ترك اليكسي اليكسيفيتش الخدمة العسكرية وانتقل للعيش، بهدوء وعزلة، في «الينبوع الابيض» مع عمته ولقبها فيدياشيفا ايضاً وكان طبعه يتسم بالهدوء والاسترسال مع الاحلام كما انه

كان فتيا جدا - اذ بلغ التاسعة عشرة من العمر. وقد ترك الخدمة العسكرية بابتهاج لانه كان يشعر بالمل في صدغيه واحيانا بوخز في قلبه من ضجيج حفلات الاستقبال في البلاط، والعريضة في الفوج، وضحك الحسناوات في الحفلات الساهرة، ومن رائحة المساحيق وحفيف الفساتين.

التزم اليكسي اليكسيفيتش العزلة وسط الحقول والغابات وبشعور من الفرح الهادي. و كان ينطلق احيانا بجواده لمشاهدة الاعمال في الحقول، واحيانا يجلس عند ساحل النهر بصنارة تحت صفصافة كثيرة التجاوب، واحيانا كان في الاعياد يعطي الامر بان تدور الفتيات الريفيات حول البحيرة وهم يرددن الاغاني بينما يتطلع نفسه من النافذة الى هذه الصورة الجميلة. وفي امسيات الشتاء كان يعكف بهمة على المطالعة. وفي هذا الوقت كانت فيدوسيا ايفانوفنا ترتب الاوراق في لعبة الباسيانس؛ بينما كانت الرياح تعوي فوق علالي البيوت في الامسيات، ويمضي في الطريقة الوقاد العجوز، فينبعث صرير من اخشاب الارضية، ويحرك الجمر في المواقد.

هكذا عاشا باطمئنان وبدون منغصات. ولكن سرعان ما لاحظت فيدوسيا ايفانوفنا ان الامور لا تسير على مايرام تماما لدى اليكسيس - هكذا كانت تدعو اليكسي اليكسيفيتش. اذ صار كثير التأمل وشارد الفكر وشاحب الوجه. وقد لمحت له فيدوسيا ايفانوفنا بالقول:

- الم يحن الوقت، يا عزيزي، لكي تعقد العزم وتتنزوج. فانك لا تنوي، فعلا، التطلع الى سحنتي، انا الفطر العتيق، طوال حياتي كلها، وقد يحدث لك مكروه..

ما هذا القول! ان اليكسيس حتى ضرب الارض بقدمه وقال: - كفى، يا عمتي.. لا رغبة لدي ولن يحدث ان اشغل نفسي بالامور العادية: فالبس الروب طوال اليوم وأمارس لعبة التريسيت مع الضيوف... ومن تأمريني بان اتخذها حليمة لي، بودي ان اعرف؟

قالت العمّة:

- لدى الأمير شاخماتوف خمس بنات. وكلهن فتيات

حسناوات. ولدى الأمير باتريكيف أربع عشرة بنتا... ولدى
اسرة سفينين - ساشينكا وماشينكا وفاريونكا...

- آه يا عمتي، يا عمتي، ان الفتيات المذكورات ذوات خصال
حميدة: لكن مجرد التفكير بان روحي قد تضرمت بالهوى، وجمعنا
الوصال، وماذا بعد: فالمرأة التي يجعلني قفازاها او رباط جوربها
ارتعش شوقا، تغدو هذه المرأة الى العنبر حاملة المفاتيح
وتنهك بالعمل في المخازن، او تطلب اعداد طبق شعيرية وتأخذ
في تناولها أمامي..

- لم ينبغي عليها تناول الشعيرية حتما أمامك، يا اليكسيس؟
و لنفرض انها تتناول الشعيرية - فما العيب في هذا؟

- ان العشق اللانساني فقط بوسعه ان يقضي على كآبتي
يا عمتي.. الا انه لا توجد على الارض المرأة القادرة على ذلك...
قال اليكسي اليكسيفيتش ذلك والقي نظرة طويلة وساجية
الى الجدار حيث علقت لوحة بورترية كبيرة بطول قامة الانسان
للحسنا براسكوفيا بافلوفنا تولوبوفا، بعد ذلك عدل وهو يتنهد
الروب الحريري ذي النقوش الصينية، وجلس في المقعد بالقرب
من النافذة وصار يدخن، نافثاً خيوط الدخان.

لكن يبدو انه افصح عن شيء ما، وقد ادركت العمة ذلك،
لانها قالت وهي تتطلع الى ابن اخيها بعجب:

- ان كنت انسانا - فاعشقت انسانا، وليس حلما او شيئا
يؤرق، وليغفر لي الرب..

لم يجب اليكسي اليكسيفيتش. وكان يقف وراء النافذة التي
كان ينظر منها بسام، في الباحة المغطاة بعشب مجعد، عجل أصهب
وهويمص اذن عجل آخر. وكانت الباحة تنحدر تدريجيا نحو النهر
الذي كانت تجلس على ضفته، وسط نبات راعي الحمام، اوزات
بيضاء ناصعة وكأنها اكوام من الثلج، ونهضت احداها ولوحت
بجناحيها ثم رقدت ثانية. كان الجو قانظا وهادئا في تلك الساعة
من منتصف النهار. وكانت تتمايل وترتج وراء النهر في مزارع
الغلال الامواج الشمافة للقيظ. و كان يمضي في الطريق المتفرعة
من غابة اشجار البتولا فلاح على ظهر حصان. وها هو قد نزل في
المخاضة، - وغاص الحصان في الماء حتى بطنه وأخذ يشرب؛

وبعد ذلك هز الراكب مرفقيه وكعبيه، مما اثار رعب الاوزات،
وانطلق خيبا الى اعلى التل وصرخ بعبارة ما الى فتاة في الباحة
تحمل حزمة من التبن، وضحك، ولكنه عندما رأى رب الضيعة في
النافذة، ترجل من الحصان ونزع قبعته. وكان الرجل هذا ساعيا
يرسل مرة في الاسبوع الى الطريق العمومي لجلب البريد. وقد
جلب رسالة الى فيدوسيا ايفانوفنا، وحزمة كتب الى رب الضيعة.

خرجت فيدوسيا ايفانوفنا لجلب النظارات. بينما صار اليكسي
اليكسيفيتش يتصفح الكتب. وجذبت انتباهه في العدد الثامن
و العشرين من «المجلة الاقتصادية» مقالة حول اسباب داء السوداء.
«ان المصدر المشؤوم الاول للسوداء هو العذاب والاستمرار في
العشق والهواجس التي تجعل النفس في وضع كتيب دائما؛
والانسان الذي تعذبه مثل هذه الاحاسيس المبرحة، يجد السلوان،
مادام لا يجد مخرجا منها، في العزلة، حتى وتصيبه في نهاية
المطاف كآبة شديدة مما يوهن اعصاب معدته وامعانه...».

عندما قرا اليكسي اليكسيفيتش هذه السطور اغلق الكتاب.
اذن تتربص به السوداء: فليس هناك مخرج من العشق الذي
تذيب ناره احشاءه.

- ٢ -

قبل نصف عام وعندما كان اليكسي اليكسيفيتش ينهي الاعمال
التكميلية في بعض الغرف زار البيت القديم بحثا عن بعض
الحاجيات. انه يتذكر تلك اللحظة كما لو كانت الآن. كانت
الشمس تميل الى المغيب في الزمهرير. بينما ذرات الثلج
تتطاير فوق الحقول المتجمدة. وحلق غراب عجوز من غصن شجرة
بتولا يزينها الندى المثلج، وهو ينعق، فاهال الثلج على اليكسي
اليكسيفيتش الذي كان يسير بمعطف من فرو الثعلب فوق الدرب
الذي ازيل منه الثلج لتوه على طول الضفة.

وفي النهر كانت فتاة ريفية تجلس عند فجوة في الجليد وهي
تغترف منها الماء، ورفعت الدلو على نبوت ومضت، وهي تتطلع
الى رب الضيعة، بوجهها المدور وحاجبيها الاسودين. وفي

القرية لمع النور في مكان ما بين كثنان الثلج من النوافذ الصغيرة المتجمدة؛ وتردد صرير باب واصوات سمعت بوضوح في تلك الامسية الباردة. انها صورة كئيبة مملة وآمنة.

صعد اليكسي اليكسيفيتش الى شرفة البيت القديم وامر برفع الالواح من الباب وولج الى الغرف. كان كل شيء فيها يغطيه التراب، ومهلهلا وشبه مهدم. وكان الصبي الخادم السائر امامه يضيء، بالمصباح الزخارف الذهبية على الجدران تارة، او حطام الاثاث الملقاة في ركن الغرفة تارة اخرى. وجرى عبر الغرفة جرد كبير الحجم. كان واضحا بأنه نقلت كافة الاشياء من البيت. واراد اليكسي اليكسيفيتش العودة، لكنه التقى نظرة على قاعة صغيرة خاوية فراى على الجدار لوحة بورتريه كبيرة، بحجم الانسان، لامرأة شابة، وكانت معلقة بصورة مائلة. رفع الصبي مصباحه. وكانت اللوحة مغطاة بالغبار، بيد ان الوانها نضرة، وصار اليكسي اليكسيفيتش يتفحص جمال الوجه، وخصلات الشعر الملساء المعالجة بالمساحيق، والحاجبين المقوسين المرفوعين، والثغر الصغير الشهوراني ذي الطرفين المرفوعين والفستان الفاتح اللون الذي يكشف عن نصف صدرها البض. وكانت السبابة والابهام في يدها المستلقية بوداعة اسفل النهدين تمسك بوردة. تكهن اليكسي اليكسيفيتش بانها لوحة بورتريه للاميرة الراحلة براسكوفيا بافلوفنا تولوبوفا، ابنة عمه البعيد التي نم يرها سوى في طفولته. ونقلت اللوحة على الفور الى البيت وعلقت في غرفة المكتبة.

مرت ايام كثيرة كان اليكسي اليكسيفيتش يرى فيها هذه اللوحة امامه. وسواء كان يطالع كتابا - وكان يحب جداً وصف الرحلات في الاقطار الغريبة - ام يدون الملاحظات في كراس، وهو يدخن الغليون، او مجرد يتمشى فوق الارضية الخشبية الصقيلة مرتديا الخفين المطرزين بالخرز، فانه كان يحدق طويلا في اللوحة العجيبة. واضفى على هذه الصورة شيئا فشيئا صفات الطيبة والذكاء، والتوقد في المشاعر. وكان يصف براسكوفيا بافلوفنا في دخيلة نفسه بانها رفيقة ساعات العزلة وملهمة احلامه.

وحدث مرة ان رآها في الحلم كما هي في لوحة البورتريه تماما، - ساكنة وذات خيلاء، الا ان الوردة بيدها حية، ومد يده لكي ينتزع الوردة من بين الاصابع، فلم يفلح. استيقظ اليكسي اليكسيفيتش بقلب يدق بعنف وبرأس ساخن. ومنذ تلك الليلة لم يعد يستطيع النظر الى اللوحة بلا انفعال. فقد سيطرت صورة براسكوفيا بافلوفنا على مخيلته.

- ٣ -

عادت فيدوسيا ايفانوفنا الى الغرفة حاملة الرسالة بيدها والنظارات فوق انفها، وبعد ان جلست قبالة اليكسي اليكسيفيتش قالت:

- ان بافل بتروفيتش يكتب لي...

- اي بافل بتروفيتش، يا عمتي؟

- ماذا جرى لك، اليكسيس، يا ابتاه، - بافل بتروفيتش فيدياشيف، العاجور الثاني... انه يكتب شتى الاخبار، وهنا شيء من اجلك، «... لقد اثار ضجة كبيرة عندنا في بطرسبورغ الكونت فينيكس الشهير، او كما يسمونه - كاليوسترو. فقام عند الاميرة فولكونسكايا باعادة البريق الى اللؤلؤ الخابي؛ بينما زاد في بيت الجنرال بيبكوف حجم ياقوتة حمراء في خاتم بمقدار أحد عشر قيراطا، وعلاوة على هذا ازال فقاعة هوا من داخلها؛ واطهر الى لاعب القمار كوستيتش في قدح «البونش» تصنيفا معروفا للورق. فربح كوستيتش في اليوم التالي ما يربو على مائة الف؛ اما لدى الكامير فريلين* جولوفينا فقد اخرج من النوط شبح المرحوم زوجها، فتكلم معها وامسك بيدها، وبعد ذلك فقدت العجوز المسكينة عقلها تماما... باختصار لا يمكن تعداد المعجزات كلها... حتى ان الاميراطورة ابدت عطفها فدعته الى القصر، لكن حدثت عندئذ واقعة طريفة جدا: اذ ان الامير بوتيومكين تملكه الشغف العارم بزوجة الكونت فينيكس، وهي تشيكية، - وانا

* من القاب سيدات البلاط في روسيا القيصرية. الناشر.

نفسى لم ارها، ولكن يقولون بانها - فاتنة. وقدم بوتيومكين الى الكونت الكثير من المال والسجاجيد والاشياء؛ وعندما رأى بانه لا يمكن شراؤه بالمال، عزم على اختطاف الحسنة من حفلة ساهرة يقيمها. لكن في اليوم نفسه اختفى الكونت فينيكس مع زوجته من بطرسبورغ الى جهة غير معروفة، ولا يزال البوليس يبحث عنه حتى اليوم بلا جدوى...».

اصغى اليكسي اليكسييفيتش الى الرسالة بانتباه كبير واعاد قراءتها بنفسه. وعلت وجنتيه حمرة خفيفة.

وقال: - ان كل هذه المعجزة تجسيد لقوة سحرية غامضة. لو التقيت هذا الرجل... آه، لو التقيته فحسب... - وصار يذرع الغرفة مرددا عبارات التعجب، - لوجدت الكلمات للتوسل اليه... ودعه يجري علي تجربته هذه... دعه يجسد خيالي كله... وليصبح حلمي حياة، ولتتبدد الحياة كالضباب. ولن آسف عليها. تطلعت فيدوسيا ايفانوفنا الى ابن اخيها بعينين واسعتين ذاهلتين من الرعب. وفعلا، كان لديها ما تخافه: فقد ارتقى في المقعد واخذ يتطلع عبر النافذة بابتسامة عريضة الى فتاتين تقتربان حاملتين سلتين فيهما الفطر، دون ان يرى الفطر او الفتاتين، او الحقل الذي كان يلتف فيه عمود مرتفع من الغبار، في الحد الفاصل بين الغلال، ثم مضى بتناقل وهو يدور ويدور في الطيور على شجرة بتولا قائمة على جانب الطريق.

- ٤ -

استيقظ اليكسي اليكسييفيتش في الصباح وهو يعاني من وجع شديد في راسه. وكان الجو قائظا بالرغم من الوقت المبكر. وكانت الاوراق تتدلى من الاشجار ساكنة - وجمد كل شيء، وانبعث من لون الخضرة بريق معدني، كما في الاكالييل التي توضع على القبور. كما التزم الدجاج الصمت؛ ورددت على منحدر النهر بقرة حمراء ساكنة، كما لو كانت منتفخة، ودون ان تمضغ العلف. وهدأت حتى العصافير. وبدا لون السماء في الجهة الشمالية الشرقية، عند الافق، قاتما وباهتا وقاسيا.

جاء الى غرفة الطعام ناظر الضيعة للابلاغ عن شؤونها. فتركه اليكسي اليكسييفيتش يتحدث مع فيدوسيا ايفانوفنا، بينما توجه هو، متغضن الوجه بسبب الآلام في الصدغين، الى المكتبة وفتح كتابا، بيد انه سرعان ما اصابه الملل منه، وتناول الريشة الا انه لم يستطع كتابة اي شيء سوى تخطيط اسمه.

عندئذ اخذ يتطلع الى بورترية براسكوفيا بافلوفنا، الا ان البورترية، وكل شيء حواليا، بدا له قاسيا ونديرا بالسوء. كانت تقف على وجهها ثلاث ذبابات. واحس اليكسي اليكسييفيتش بانها سينتحب اذا ما تواصلت هذه الحالة من الوضوح غير الاعتيادي وغلاظة كل ما يحيط به. وقالت نفسه كرباً وغماً.

وفجأة صفق اطار نافذة في البيت، وتناثر الزجاج وترددت اصوات فزعة. اقترب اليكسي اليكسييفيتش من النافذة. كانت تزحف نحو الضيعة سحابة ضخمة وكثيفة، كالمساء في ليل اهِيم، على ارتفاع منخفض فوق الحقول. وازرقت المياه في النهر، وصارت قاتمة. وطوى نبات اليراع وتكرمش وتساقط. واختلطت الدوامة الشديدة زغب الاوز على الضفة، واقتلعت عش الغربان من الصفصافة المجوفة، وبعثرت الاغصان، وطاردت في الباحة الدجاج الذي نشر ذبوله، وجعلت الحاجز الخشبي يتأرجح، ورفعت تنورة امرأة فوق راسها واندفعت بكل قوة نحو البيت، واقتحمت النافذة، وولدت عويلا في المواسير. وظهر في السحابة ضوء وامتد بشكل جذور ملتوية تغشى الابصار من السماء الى الارض. انشقت السماء وفرقت، ثم انهالت الصواعق. اهتز البيت. فاجاب نبض الساعة الموضوعة فوق الموقد برنين كئيب.

كان اليكسي اليكسييفيتش يقف عند النافذة، والرياح تطاير خصلات شعره الطويلة وترفرف الروب. هرعت العمة اليه فامسكته من يده وابتعدته عن النافذة وصرخت بعبارة ما، الا ان ضربة الساعة الثانية والاشد هولا اخمدت كلماتها. بعد مرور دقيقة تساقطت قطرات المطر الثقيلة، وانهمر المطر بشكل حاجز رمادي، وكان يطرق على زجاج النافذة المسدودة ويلتصق به. وادلهم الظلام الشديد.

كانت العمة لاتزال تتنفس بصعوبة، وقد غمرها الغزع، وقالت:

- اليكسيس، انني اقول لك بانه جاء الينا ضيوف.

- ضيوف؟ ومن هم؟

- انا نفسي لا اعرف. لقد اصاب عربتهم عطب، وهم يخشون العاصفة الرعدية، ويرجون السماح لهم بالمبيت.

- ليسمح لهم، طبعاً.

- بلى، انني اصدرت الامر بذلك. انهم ينزعون ملابسهم المبللة. وانت، اذهب لارتداء ملابسك ايضاً.

تذكر اليكسي اليكسيفيتش الامر فجأة وتوجه من المكتبة الا انه اندفعت في الباب في تلك اللحظة فيمكأ، الخادمة، وهي ذات تسريحة شعر بسيطة ورداء ريفي ملتصق بجسدها:

- اماء، سيدتي، الزائرون، وأقسم لك، - ان احدهم اسود كالشيطان.

- ٥ -

استمر هطول المطر بقية النهار، ووجب ايقاد الشموع في وقت مبكر. وساد الصمت. وفتحت النوافذ والابواب المطلة على الحديقة، وكان يتساقط في العتمة هناك مطر خفيف ودافئ وعمودي، مولدا ضجيجا خافتا لدى تساقطه على الاوراق.

وقف اليكسي اليكسيفيتش عند الباب بقفطان حريري وجاكتة بدون اكمام لها لون القش ومطرزة بازهار زرقاء دقيقة، ومعه سيفه، وشعره مجعد وعليه المساحيق. وبدت بيضاء اللون الاعشاب المبللة في الروضة، في تلك الاماكن التي كان يسقط عليها النور. وفاحت رائحة الرطوبة والازهار.

نظر اليكسي اليكسيفيتش الى النوافذ المضاءة في الجناح الايمن للبيت، الذي يلتف بنصف دائرة وراء اشجار الزيزفون. وكانت تظهر هناك على الستائر البيضاء المسدلة اشباح. تارة لرجل ذي باروكة ضخمة وآخر رشيق لامرأة، وتارة شبح طويل بعمامة - هو الخادم.

كان هؤلاء هم الضيوف. لقد استبدلوا ملابسهم منذ وقت طويل، ونالوا قسطاً من الراحة، والآن صاروا، كما يبدو، يستعدون للعشاء. وتابع اليكسي اليكسيفيتش حركة الظلال على الستارة

بنفاد صبر. كان يعتريه الدوار بتأثير روائح المطر الليلي والازهار وشمع الشموع المحترقة.

ظهر مجددا الشبح الطويل للخادم، وانحنى ثم انصرف، وسمعت في البيت خطوات منتظمة. وتراجع اليكسي اليكسيفيتش من الباب الى داخل الغرفة. ودخل رجل اسود تماما طويل القامة له عينان بلون بياض البيض. كان يرتدي قفطانا قرمزياً طويلاً ويتمنطق بشال، بينما كان يلف رأسه بشال آخر. فانحنى باحترام، ولكن باعتزاز، وقال بفرنسية ركيكة:

- ان السيد يحييك، يا مولاي، ويرجو الابلاغ بانه يقبل بارتياح بالغ الدعوة لتناول طعام العشاء معكم.

ابتسم اليكسي اليكسيفيتش وسأل وهو يدنو بالقرب منه:

- قل لي، رجاء ما هو اسم ولقب سيدك؟
فانحنى الخادم رأسه وتنهّد:

- لا اعلم.

- كيف، لا تعلم؟

- ان اسمه مجهول لدي.

- هيه، يارجل، ارى بانك - شاطر. وانت ما اسمك على اقل تقدير؟

- مارغادون.

- هل انت اثيوبي؟

واجاب مارغادون، بهدوء، وهو يتفحص اليكسي اليكسيفيتش من قمة رأسه الى اخص قدميه:

- لقد ولدت في النوبة، وتم اسري في عهد امينحوزيريس * وبعوني الى سيدي.

فتراجع اليكسي اليكسيفيتش عنه ورفع حاجبيه:

- ماذا تحدثني؟.. كم عمرك؟

- اكثر من ثلاثة آلاف سنة.

وصرخ اليكسي اليكسيفيتش وقد احمر وجهه غضباً:

- سأقول لسيدك ان يجلدك بالسوط بشدة. اغرب عن وجهي!

انحنى مارغادون باحترام ايضاً وانصرف. وطلق اليكسي

اليكسيفيتش باصابعه، مسترجعا توازنه النفسي، ثم فكر واستغرق في الضحك.

وعندئذ فتح الصبي الخادم الباب على مصراعيه ودخل الغرفة سيد يتأبط ذراع سيدة، وبدات الانحناءات والمجاملات الشكلية. كان السيد رجلا متوسط العمر وربعة. وكان وجهه الاحمر القرمزي ذو الانف المعقوف محاطا بالذنتلا. اما باروكته الضخمة التي تتدلى منها خصلات ملفوفة، والشبيبة بما كان يوضع على الرأس في بداية القرن، فقد رشت بالبودرة كيفما اتفق. وكان قفطانة الحريري الازرق الصلب مزينا بوجوه حيوانات وبزهور مذهبة وفوقه ارتدى معطفا اخضر ببطانة من فرو الثعلب الازرق. اما الجوارب الزرقاء فموشاة بالخیوط الذهبية. وكانت قطع العاس تلمع فوق بكليتي حذائيه المخمليين. ويضع في كل اصبع من يديه القصيرتين المشعرتين خاتميين او ثلاثة خواتم مرصعة بالاحجار الكريمة.

فحياء بصوت اجش تشوبه بهمة، ثم ابتعد خطوة عن السيدة، وقدمها الى اليكسي اليكسيفيتش.

- الكونتيسة، - رب البيت. سيدي، - زوجتي.

بعد هذا انشغل بعلبة النشوق، فصار يشم و يعطس ويرفع رأسه. اعرب اليكسي اليكسيفيتش الى الكونتيسة عن اسفه بصدد الطقس السيء وعن ابتهاجه البالغ بالتعرف عليهما بصورة غير متوقعة. وقدم لها يده وقادها الى المائدة.

كانت الكونتيسة تجيب باقتضاب وبدا عليها التعب والاسى، ومع هذا كانت باهرة الجمال. وكانت تسريحة شعرها ناعمة وبسيطة. وبدا وجهها، وكان اشبه به بوجه طفل منه الى وجه امرأة، شفافا، - اذ كانت بشرتها رقيقة وصافية، وانسدلت الاهداب بتواضع فوق العينين الزرقاوين، بينما كان نغرها الجميل مفتوحا قليلا، - ولا بد انها كانت تستنشق بلذة الطراوة المنبعثة من الحديقة.

استقبلت فيدوسيا ايفانوفنا الضيوف عند المائدة بالمقبلات الباردة والساخنة. ولم تكن تجيد التحدث بالفرنسية، بينما لم يكن الضيوف يتحدثون الروسية على الاطلاق، لهذا وجب ان يلهمهم

اليكسي اليكسيفيتش وحده. وقد تبين بانهم يسافرون من بطرسبورغ الى وارشو وامضوا في الطريق فترة اسبوعين.

قال اليكسي اليكسيفيتش:

- ارجو المعذرة برحابة صدر، فانتى لدى التعارف لم اسمع اسمك جيدا.

اجاب الضيف وهو يقضم ساق الدجاجة بنهم باسنان بيضاء قوية:

- الكونت فينيكس.

وضع اليكسي اليكسيفيتش بسرعة القدرح المهتز بيده وشحب، وصار اشد بياضا من المنديل.

- ٦ -

سال اليكسي اليكسيفيتش: - اذن انت كاليوسترو الشهير، الذي تتحدث الدنيا عن معجزاته؟

رفع فينيكس حاجبيه الكثيفين اللذين وخطهما الشيب، وهب النبيذ في القدرح وسكبه في حلقه، دون ان يبتلعه.

وقال بارتياح وهو يتمطق بشفتيه الغليظتين:

- نعم، انا كاليوسترو، والعالم كله يتحدث عن معجزاتي. بيد ان هذا يتأتى عن الجهل. فلا توجد معجزات. وثمة فقط معرفة

مكونات الطبيعة، وبالذات: النار والماء والتراب والهواء؛ وحالات الطبيعة اي - الصلبة والسائلة والهشة والمتطايرة؛ وقوى

الطبيعة: الجاذبية والتنافر والحركة والسكون؛ وعناصر الطبيعة وعددها ستة وثلاثين، واخيرا طاقات الطبيعة: الكهربائية

والمغناطيسية والضوئية والشعورية. وجميعها تخضع لثلاثة مبادئ: المعرفة والمنطق والارادة، والتي تكمن هنا، - وضرب

عندها جبهته، ثم وضع المنديل، وبعد ان اخرج خلاله ذهبية من جيب السترة العديمة الاكمام صار يحفر في اسنانه بهمة.

كان اليكسي اليكسيفيتش يتطلع اليه كالارنب. انتهى العشاء وانتقل الضيوف الى المكتبة حيث كانت قطع الاخشاب تتلظى في

الموقد طاردة رطوبة المساء. اما فيدوسيا ايفانوفنا، التي لم تفهم كلمة من المحادثة، فقد بقيت في غرفة الطعام لاداء بعض الاعمال.

جلس كاليوسترو في مقعد من جلد السختيان وصار يتحدث، وهو يشم السعوط، عن الفائدة التي يجنيها الانسان من هضم الطعام بصورة جيدة. اما الكونتيسة فقد جلست على مقعد صغير بالقرب من النار وصارت تتطلع الى اللهب، وهي غارقة في التفكير. وغاصت يداها، المتصالبتان على ركبتيها، في حرير فستانها الازرق.

- ان صديقي، الدكتور في الفلسفة، الذي توفي في نورنبرغ عام الف واربعمائة... يا للذاكرة اللعينة، - واخذ كاليوسترو يغمغم ضاربا علىبة النشوق باصابعه، - ان صديقي الدكتور بومباست تيوفراست باراتسيلزيوس قال لي اكثر من مرة: امضغ وامضغ وامضغ - هذه وصية الحكيم الاولى... امضغ... استرق اليكسي اليكسيفيتش نظرة الى الكونت بذهول، ولكن فور ذلك و كما يحدث في الحلم، اجتمع الامر الغريب مع الواقع، واندمجا في تصوره، واصابه دوار خفيف، لكنه زال على الفور.

قال اليكسي اليكسيفيتش:

- انا ايضا سمعت، يا صاحب السعادة، بان الهضم الجيد يولد الافكار البهيجة، بينما يبعث السيء على الكآبة وحتى يسبب انقباض النفس. بيد انه ثمة اسباب اخرى..

فقال كاليوسترو وهو يخفض حاجبيه:

- بلا شك...

- واجرؤ على ان اذكر ولو نفسي كمثال... لقد بدا اضطراب المشاعر لدي بسبب لوحة البورتريه هذه...

ادار كاليوسترو رأسه، وتطلع الى اللوحة ثم اغلق مقلتيه بالحاجبين مرة اخرى.

عند ذاك روى اليكسي اليكسيفيتش قصة لوحة البورتريه التي رسمت في فرنسا (علم ذلك من عمته)، وكيف وجدها في البيت القديم، وفي نهاية المطاف تحدث عن جميع احساسه ورغباته غير القابلة للتحقيق التي قادته الى انقباض النفس.

تطلع ابان الحديث مرات عديدة نحو الكونتيسة. كانت تصغي بانتباه. وفي نهاية الامر نهض اليكسي اليكسيفيتش من المقعد وأشار الى اللوحة وهتف:

- قلت هذا الصباح فحسب الى فيدوسيا ايفانوفنا: آه، لو التقيت الكونت فينيكس، لتوسلت اليه ان يجسد حلمي، وان يبعث الحياة في اللوحة، وليكن مايكون - حتى لو كلفني هذا حياتي...

عندما قال هذه الكلمات بدا الرعب في عيني الكونتيسة الزرقاوين الصافيتين، وخفضت رأسها بسرعة واخذت تتطلع الى النار مجددا.

قال كاليوسترو وهو يتثاب ويغطي فمه بيده التي تلمع فيها الخواتم:

- ان تحقيق الافكار الحسية واجدة من اصعب واخطر المسائل في علمنا... وفي اثناء تجسيدها غالبا ما تنكشف العيوب المهلكة للفكرة الجاري تجسيدها، واحيانا عدم صلاحيتها للحياة تماما.. الا انه بودي الطلب من رب البيت السماح لنا بالانصراف الى النوم في وقت مبكر...

-٧-

لم يغمض لاليكسي اليكسيفيتش جفن طوال الليل. وعند الفجر رمى على كتفيه الروب، ونزل الى النهر في الماء الذي لا يرى بسبب الضباب، وكان دافئا جدا، الا انه كان باردا في العمق. وبعد السباحة، ارتدى ملابسه وشف شعره، واخذ يحتسي الحليب الساخن مع العسل وخرج الى الحديقة، - كانت افكاره مضطربة، ويسود رأسه الانفعال.

كان الصباح رطبا وهادئا. وثمة شحارير تنط فوق العشب بهمة واطلق طائر الصفارية صفيرا يشبه صغير مزار بالحاء. وهدلت بعذوبة حمامة برية فوق البحيرة ذات النافورات القليلة المياه، وفي العتمة المائلة الى الازرقاق، وسط الاشجار العالية والكثيفة الاغصان.

كانت الطرقات رطبة ومغسولة، ولاحظ اليكسي اليكسيفيتش في احداها اثار اقدام نسائية. ومشى باتجاهها، فرأى الكونتيسة في الفسحة حيث بدت في العتمة المائلة الى الازرقاق ملامح تعريشة

دائرية تحيطها اشجار الحور الاسود. كانت تفك على جسر صغير مسبله اليدين، وتصفي الى وقوة طير الوقواق.

وعندما اقترب اليكسي اليكسييفيتش منها، - احس باشتداد خفقات قلبه: اذ كانت الدموع تترقرق على وجه المرأة الشابة، وكتفاها العاريتان ترتجفان. وفجأة صرخت بصوت خافت لدى سماع شخصخة خطوات اليكسي اليكسييفيتش، وهولت وهي تمسك تنورتها الواسعة بيديها. بيد انها عندما بلغت البحيرة، توقفت والتفتت. كان وجهها مصطبغا بالحمرة، والدموع تنهمر من عينيها الزرقاوين الخائفتين. ومسحتها بالمنديل بسرعة وابتسمت باعتذار.

وهتف اليكسي اليكسييفيتش:

- لقد ارعبتك، ارجو مسامحتي.

- كلا، كلا، - اخفت المنديل في صدرها وانحنت بحركة مسرحية؛ وقبل اليكسي اليكسييفيتش يدها باحترام. - الصباح رائع جدا، وما اشد عذوبة صياح الوقواق: لقد شعرت بالحزن، وانت لم ترعيني. - وسارت الى جانب اليكسي اليكسييفيتش على ضفاف البحيرة. - وانت الا تشعر احيانا بالحزن عندما ترى الطبيعة بمثل هذا الجمال؟ بالمناسبة - انني فكرت بحديثك يوم امس. ان يعيش شاب، لوحده، في مثل هذه البجوحة. ومع ذلك لم، لم، لا تتوفر السعادة؟..

توقفت عن الكلام واخذت تتطلع في عينيه. واجابها اليكسي اليكسييفيتش باول مادار في خاطره - عن فظاظة الحياة واستحالة السعادة. وارتسمت على فمه عندئذ ابتسامة عريضة، وبقيت تلك الابتسامة على شفتيه.

بينما كانا يواصلان النزهة والحديث لم يكن يرى امامه سوى العينين الزرقاوين - فقد بدتا وكأنهما مترعنان بسحر الصباح، بينما كان يتردد في اذنيه صوت المرأة الشابة وصراخ الوقواق المستمر.

روت له الكونتسة انها ولدت في قرية بالقرب من براغ وانها يتيمة الابوين، واسمها اوغوستا، الا ان اسمها الحقيقي هو ماريا، وهي تجوب منذ ثلاثة اعوام في انحاء الدنيا بصحبة زوجها

وراث الكثير جدا - مما يكفي غيرها طوال الحياة -، والآن في عتمة الفجر هذه مرق امامها ماضيها كله، فبكت.

- لقد تزوجت وانا طفلة، ونضح قلبي خلال هذه السنوات، - قالت ذلك ونظرت بحنان والحاح الى اليكسي اليكسييفيتش. - انني لا اعرفك لكنني اومن لامر ما بانني اعرفك منذ زمن بعيد. انك لا تدينني على هذه الثرثرة؟..

وامسك بيدها، وانحنى، ولثمها عدة مرات، وعندما قبلها آخر مرة، انقلبت يدها وصارت راحتها على شفتيه، وضغطتها قليلا ثم ابتعدت.

قالت ماريا بصوت متهدج من الاضطراب:

- هل يعقل بانك لم تستطع ايجاد زوجة ورفيقة، ولم تحب امرأة، وآثرت عليها حلما ما خاليا من الروح؟ انك قليل التجربة وساذج... وانت لا تعرف مدى فظاظة حلمك...

دنت من مصطبة حجرية وجلست. واتخذت اليكسي اليكسييفيتش مكانه الى جانبها.

وسألتها: - ولماذا هو فظيع: وما الاثم اذا ما كنت احلم بما لا وجود له في الحياة؟

وكررت وقد اغرورقت عينها بالدموع مجددا:

- لاسيما... في مثل هذا الصباح - لا يجوز الحلم بما لا يمكن ان يتحقق.

اقترب اليكسي اليكسييفيتش منها واخذ يدها:

- انني اشعر بانك تعيسة...

هزت راسها بعجلة وقد التزمت الصمت. كانت متأثرة ومنفعلة مثل فتاة صغيرة. واحس اليكسي اليكسييفيتش كيف انها تصبو بكل جوارحها الى جذب افكاره ومشاعره نحوها. وغمر قلبه الدفء، واجتاحه شعور من الحنان نحو هذه المرأة، كالرياح التي تميل الاعشاب والاوراق.

وسأل بهمس: - من يرغملك على العذاب؟

فاجابت ماريا بعجلة، كما لو كانت تخشى ان تفقد لحظة من هذا الحديث:

- انا اخاف.. انا اكره زوجي... انه - وحش، لا يوجد مثله

نظير في العالم... انه يمدبني... آه، لو عرفت... لا يوجد لدي
انسان قريب في الدنيا كلها... لقد ابتغى الكثيرون حبي، -
والامر لدى سواء... ولكن لم يسأل أي واحد منهم بعطف فيما اذا
كانت حياتي سعيدة... اننا ما كدنا نلتقي - وسنفترق، لكنني
لن انسى الى الابد هذه اللحظة، وكيف سألتني. - وارتجفت
شفثاها، ويبدو انها بذلت الكثير من الجهد، للتغلب على حياتها،
وفجأة احمرت وجنتاها. - وحالما رأيتك حتى انباني قلبي:
تقي به...

ومثف اليكسي اليكسيفيتش، وهو يضغط على مقبض سيفه:
- يا الهي.. لا يمكن الصبر على هذا... سأقتله!
في تلك اللحظة بالذات عطس احدهم بصوت عال وراء ظهر
الجالسين. وصرخت ماريا بصوت ضعيف، كالطير. هب اليكسي
اليكسيفيتش واقفا فرأى كاليوسترو بين جذوع اشجار الزيزفون.
كان يرتدي المعطف الاخضر نفسه ويعتمر قبعة كبيرة ذات ريش
نعام ابيض ينسدل على الكتفين والظهر. كان يمسك علبة النشوق
بيده، وعبس بشكل رهيب، معتزما ان يعطس مرة اخرى. وبدا
وجهه في ضوء النهار بنفسجي اللون، فقد كان معافي واسمر
السحنة.

وقف اليكسي اليكسيفيتش، ويده على مقبض السيف، وهو
يتطلع وجهها الى وجه نحو ذلك الرجل العجيب. وعندئذ عدل
كاليوسترو عن العطاس، ومد بيده علبة النشوق وقال:
- تفضل.

رفع اليكسي اليكسيفيتش يده عن مقبض السيف بلا وعي،
ولكنه امسك به فورا مجددا.
قال كاليوسترو:

- مادمت لا تريد ان تشم، فلا حاجة لذلك. يا كونتسة، لقد
بحثت عنك في كافة ارجاء المدينة، ان حقيقتي جاهزة، ولكنني لم
امس حاجياتك. - وخاطب اليكسي اليكسيفيتش قائلا: - اذن،
سنسافر اذا ما تم اصلاح عربتنا.

ثنى كاليوسترو ومرفقه وقدمه الى ماريا؛ فاخذت ذراع زوجها

طائعة، دون ان ترفع راسها، وابتعدا في الطريق الممتد بين
الاعشاب الكثيفة نحو البيت.
وغطى اليكسي اليكسيفيتش وجهه بيديه وجلس على المصطبة.

- ٨ -

جلس بلا حراك فترة طويلة من الزمن، دون ان يسمع تغريد
الطيور، او طرطشة النافورات التي شغلها البستاني.
كان ينظر بين قدميه حيث كانت تزحف حشرات فالية صغيرة.
انها تلك الحشرات الحمراء المسطحة التي نقش على ظهر كل
واحدة منها ما يشبه الوجه. كان بعضها يزحف متشابكا - وجهها
لوجه - بينما يدخل البعض الآخر في شق على الطريق المرصوص
تارة، او يخرج من هناك دون ان تكون اية ضرورة ملموسة تارة
اخرى.

كان اليكسي اليكسيفيتش يفكر بان فتنة صباح هذا اليوم
قد حطمت حياته. انه ان يعود الى الاحلام العريضة واليانسة عن
الحب المثالي: ان عيني ماريا الزرقاوين قد تسللتا، مثل شعاعين
ازرقين، الى داخل قلبه وايقظتاه. لكن ما له وهذا: ان ماريا راحلة،
ولن يلقاها ابدا. وتحطم حلمه ويقظته، - واية سعادة اخرى
ينتظر من الحياة؟

وفجأة تذكر كيف مد اليه كاليوسترو علبة النشوق وابتسم
بخبت، فجن جنونه. هب اليكسي اليكسيفيتش واقفا، ودون ان
يدرر يده ما سيفعله، ولكنه سيفعل شيئا ما بحزم، امال القبعة
فوق عينيه وخطا نحو البيت.

استقبلته عند الباب فيدوسيا ايفانوفنا فهتفت بانفعال:
- اليكسي، لقد جاء الحداد الآن، وقال ويا له من دجال انه لن
يستطيع اصلاح عربة الكونت الا بعد يومين.

- ٩ -

ان النبا حول بقاء الضيوف خلط جميع افكار اليكسي
اليكسيفيتش وسرت القشعريرة في بدنه وبدأت يديه بالارتجاف.
ودخل مع عمته الى البيت وجلس على الكنبة. وسالت فيدوسيا

ايفانوفنا، دون ان تعرف مجرى افكاره، فيما اذا كان ينبغي ارسال احد ما الى القرية المجاورة، في مثل هذه الحال، لدعوة حدادين؟
فصرخ: - كلا، البتة، ولا تجراي على طلب اي حدادين! -
وفجأة ابتسم بسخرية: - كلا، يافيدوسيا ايفانوفنا، ليبق الضيوف عندنا يومين... اما انت يا عمتي فيبدو انك لم تعرفي من هو ضيفنا.

- اسمه فينين او ما يشبه ذلك.

- المسألة انه ليس فينين بل الكونت فينيكس، - انه كاليوسترو بلحمه ودمه.

اتسعت حدقتا عيني فيدوسيا ايفانوفنا وصرقت بيديها المكتنزتين. الا ان فيدوسيا ايفانوفنا كانت امرأة روسية، ولهذا فان خبر وجود الساحر الشهير في بيتهم، اذهلها من جانب آخر: وفجأة بصقت العمه.

قالت باشمزاز:

- كافر، عدو المسيح، ليغفر لي الرب. ينبغي الآن غسل كافة الاواني بالماء المقدس، ودعوة الكاهن لرشه في الغرف مجددا... هذا ما كان ينقصنا... وهل هي ساحرة ايضاً؟

- نعم، يا عمتي. ان الكونتسة - ساحرة.

- ولكن، الملاعين، ربما يتناولون طعاماً آخر... آه، اليكسيس... فلربما لا يأكلون طعامنا، بينما لم تظن انت الى هذا.. فاذهب واسأل - ماذا يرغبون في تناوله عن الفطور...

ضحك اليكسي اليكسيفيتش وتوجه الى المكتبة. وبعد ان دخن غليونه هناك صار يذرع الى الغرفة وبغثة ضغط باسنانه على الغليون بشدة مما أدى الى تهشم مبسم الكهرمان فيه.

«ساعدو الكونت الى المباراة واقتله ثم اهرب مع ماريا الى خارج البلاد، - دارت هذه الفكرة في ذهنه ورمى بالغليون على رف النافذة - لكن ما هي الذريعة للمبارزة؟ ايه، اليس الامر سيان...»

اخرج اليكسي اليكسيفيتش السيف من غمده وصار يتفحص حده، «لكن هل تمكن مباراة ضيف؟»، وعندئذ صدر عن الارضية الخشبية صرير في عمق الغرفة حيث يوجد عقد اسدلت عليه

ستارة بنفسجية، رفع اليكسي اليكسيفيتش رأسه بسرعة، بيد انه نسي بسرعة امر الصرير، - اذ كانت الافكار تتطاير في رأسه كالذوامة. «كلا، ينبغي انتظار رحيلهم، ومن ثم اللحاق بهم وراء النهر واستشارة الشجار هناك». توقف عند النافذة وهو يصغي الى دقات قلبه، وتابع بنظره الطريق كله الذي سلكه اليوم مع ماريا، من التعريشة، وبمحاذاة البحيرة وحتى المصطبة. وهمس: «او، يا حلوتي».

حان موعد الافطار. انتظر اليكسي اليكسيفيتش في غرفة الطعام قدوم الضيفين. وعندما تناهى الى سمعه صوت خطواتها، غمرت العمه مقلتيه. دخلت ماريا مسدلة الرموش، وادت انحناءة طويلة للعمه وجلست الى المائدة. كان وجهها شاحباً وتغطيه المساحيق، كما لو ان لهيب روحها كله قد خمد. اما كاليوسترو فاسترق نظرة الى اليكسي اليكسيفيتش، وهو ينشر المنديل، وجلس طوال فترة الافطار - غابسا ماضفا الطعام بصوت مسروع لا يبعث على الارتياح. اما فيدوسيا ايفانوفنا فكانت توجه الاوامر الى فيمكا بهمس دون ان تأكل.

وعبنا حاول اليكسي اليكسيفيتش ان يشير بنظراته المحمومة حمرة الانفعال، ام ولو حركة ملحوظة على وجه ماريا: فقد بدت وكأنها قدت من الشمع، اما نظراته فكانت تلاقي النظرات الجوابية اليقظة والحازمة لزوجها. وغمر اليكسي اليكسيفيتش الياس بما يتصف به من فجأة.

انتهى الافطار. وانصرفت ماريا الى الجناح دون ان ترفع بصرها. اما كاليوسترو فانه بعد ان سمح لاليكسي اليكسيفيتش بالمرور امامه اعرب عن رغبته بالتدخين في المكتبة.

استلقى في مقعد الامس، واطلق لفترة من الوقت ازيزاً من غليونه، ثم نظر من تحت حاجبيه الكئيبين الى اليكسي اليكسيفيتش، القابع عند النافذة، وفجأة قال بصوت عال وبلهجة امرأة:

- لقد فكرت وقررت - سألبي مساء اليوم وغبتك: ساقوم بتجسيد لوحة السيدة تولوبوفا بصورة تامة وكاملة.
تطلع اليكسي اليكسيفيتش اليه بعجب ولعق شفثيه الجافتين.

نهض كاليوسترو من المقعد، ثم اخرج من جيبه عدسة ذات اطار فضي، واخذ يتفحص اللوحة، وهو يتمطق بلسانه ويطلق ازيزا. بعد مرور ساعة بدأت الاستعدادات فنزع مارغادون اللوحة البورتريه من المسمار، ومسح عنها الغبار بعناية، ووضعها على مسند، وفرش امامها سجادة. وجمعت و نقلت من الغرفة كافة الاشياء الزائدة عن الحاجة، واسدلت الستائر على النوافذ. وصدر الامر الى اليكسي اليكسيفيتش بخلع ملبسه، والاستلقاء في السرير والبقاء مستلقيا حتى حلول الظلام، وعدم تناول طعام او شراب.

اطاع اليكسي اليكسيفيتش كل ما امر به. الا انه احس عندما كان مستلقيا في الفراش وكان راسه محاط بطوق من الرصاص. وفي الساعة الخامسة حمل كاليوسترو اليه قدحا فيه شراب بني داكن هو نقيع الراوند ونبات البهشية، وشربه بالرغم من مذاقه الكريه. وفي الساعة السابعة افرغت معدته. وفي الثامنة توجه، بعد ان ارتدى رداء فضفاضا وخفيفا، سوية مع كاليوسترو الى المكتبة حيث كانت تنير الشموع في شمعدانات امام اللوحة مما جعلها تتألق.

- ١٠ -

- تنفس، ليس بقوة جداً ولا بضعف جداً. يجب ان يتم التنفس بدون تناوب ونشيج وسعال ولهث وعطاس، لان المادة المغناطيسية لا تطيق الهزات.

قال كاليوسترو هذا بينما اجلس اليكسي اليكسيفيتش في مقعد منخفض ومريح امام لوحة البورتريه. وكانت قطرات العرق تسيل على وجهه الاحمر ذي الحاجبين الخفاقين، ومن تحت خصلات الباروكة المبرومة. كان يتحرك ولايكف عن الكلام، ويعطي الاوامر الى مارغادون بالاشارات.

اخرج الاثيوبي من علبة حزمة من الاعشاب الجافة، ووضعها في قدح نحاسي ووضعها امام اليكسي اليكسيفيتش على خوان واطىء ثم اخرج آلة موسيقية، تشبه ماندولينا ذات عرف طويل، من غلافها وحملها الى عمق الغرفة، وجلب شبكة كبيرة رفيعة، ويبدو أنها متينة جدا ونشرها بين ذراعيه، وجلس بالقرب من الباب.

في ذلك الوقت رسم كاليوسترو بالطباشير دائرة واسعة حول المقعد الذي يجلس فيه اليكسي اليكسيفيتش.

قال: - اكرر، يجب ان تستجمع كل خيالك وان تتصور هذه السيدة، - وأشار بالطباشير باتجاه اللوحة، - وان تكون بدون رداء... اي عاريا... وستتوقف كل تفاصيل هيتها على قوة خيالك.. واذكر انه طلب مني الدوق دي جيز عام الف وخمسمائة وتسعة عشر، في باريس، باستحضار مدام دي سيفينياك التي توفيت بسبب داء في معدتها... ولم اجد الفرصة للتحذير. فقد كان الدوق عديم الصبر جدا، فبدت مدام دي سيفينياك تحت الفستان وكأنها كيساً محشواً بالقش... وخسرت ثمانية آلاف ليفر، وكلفتني جهداً كبيراً إعادة تلك الفزاعة الخلقية الى اللوحة من جديد. وهكذا بعد ان تتخيل بكل دقة، هيئة السيدة التي ترغب فيها، تخيلها فيما بعد بالملابس، لكن في هذه الحالة تجنب الانفعال، اذ انه، وكما حدث عام الف ومائتين وواحد وخمسين، عندما استحضرت، روح الملك الفرنسي لويس الاصلح، تلبية لطلب ارملة الراحل، ظهر مرتديا ملبسه في النصف الامامي من الجسم فقط، اما النصف الاسفل فكان عاريا مما اثار الدهشة... مارغادون، - صاح كاليوسترو وهر يعدل قامته ويلعق اصابعه الملونة بالطباشير - اذهب وادع الكونتيسة.

تراجع خطوتين، وقاس الدائرة بناظريه، ثم انحنى وصار يرسم على الخط الدائري بالطباشير اثنتي عشرة علامة لابران السماء واثنتين وعشرين علامة للقبالية، ومفتاحاً وباباً، واربعة عناصر، وثلاثة اسس، وسبعة مجالات. وبعد الانتهاء من الرسم دخل الى الدائرة.

وقال بوقار:

- ستحصل على نموذج متكامل من فني، وستكون قدرتها على الكلام، وهضم الطعام وجميع اداء الاعضاء والحس كما هي لدى انسان ولدته امرأة.

* وحدة نقدية فرنسية كانت تستعمل قبل صك الفرنك.

الناشر.

انحنى على اليكسي اليكسييفيتش الذي كان ممددا كالجثة في المقعد، وتلمس نبضه، وامره باغلاق عينيه ووضع على جبهته يده المكتزة والساخنة. وفي تلك اللحظة تردد وقع اقدم خفيف وسمع حفيف ثوب. وادرك اليكسي اليكسييفيتش بانه دخلت ماريا فصدر عنه انين، باذلا الجهد الاخير للتخلص من الارادة الرهيبة للانسان الذي كان يضغط باصابعه على عينيه بشكل مؤلم.

- لا تترك، ركز ذهنك، واطع اوامري.. انني ابدا - قال كاليوسترو بلهجة امره، وتناول من المنضدة خنجرا رفيعا طويلا، ودخل الى الدائرة ورسم علامة ماكروبووزوبوس كبيرة. وبعد ان انطوى على نفسه رفع يديه بحركة شديدة في الاكام الواسعة لمعطف الفرو، وتجمد وجهه ذو التجاعيد العميقة والانف المتدلي. ترددت وراء ظهر اليكسي اليكسييفيتش رنات الاوتار الناعمة. - انني معتكف. وتحميني بقوة كافة العلامات. انا قوي. انني امر، - وصار كاليوسترو يرتل الكلمات، وهو يشدد من صوته ببطء. ورويدا فرويدا. - يا ارواح الهواء، يا السلفيات، انني ادعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه الذي يلغظ مثل كلمة ايشا.. افعلني فعلتك...

تطلع اليكسي اليكسييفيتش الى الوجه المتكبر لبراسكوفيا بافلوفنا الذي تنيره الشموع، والمثلتت باعتزاز فوق الجيد العالي. وخلال لحظة بدت امامه كل كآبة احلام الماضي، وكل ضنى الليالي المؤرقة، وتراى له وجهها الذي كان حتى وقت قريب عزيزا اليه، فظيعا مؤلما وشاحبا محموما كالسقم. بيد انه نقل بصره، شاعرا بوجود الانصياع بالرغم من كل شيء الى الاسفل، الى كتفي براسكوفيا بافلوفنا العارين، واجهد نفسه، فاخذ يتصورها كما طلب منه. تدفق الدم الى وجهه. ومزقه الخجل والم حاد في صدره.

عندما جرى تلفظ كلمة ايشا، اهتز نور الشموع، وهبت في الغرفة ريح عفنة. وضغط اليكسي اليكسييفيتش باصابعه على مسندي المقعد. وتابع كاليوسترو قائلا وهو يشدد صوته:

- يا ارواح الارض، ايتها الجنوموسات، انني ادعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه الذي يلغظ مثل المقطع «إل» افعلني فعلتك.

رفع الخنجر ثم انزله، فاهتز البيت كله كما لو كان يفعل زلزال، ورنت الثريا البلورية، واصطفقت الابواب في البيت، وسقط كتاب على الارض من خزانة الكتب التي فتحت بابها. ومضى كاليوسترو يقول:

- يا ارواح الماء، ايتها الحواري، انني ادعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه، الذي يلغظ مثل صوت «ر»... تعالي، وافعلني فعلتك...

عند هذه الكلمات سمع اليكسي اليكسييفيتش ضجيجا بعيدا كما لو كانت مياه الرواء تجتاح الرمال، ودون ان يبعد بصره عن براسكوفيا بافلوفنا، لاحظ بهول كيف اخذت جميع ملامح وجهها تغدو متمائلة ومنفلتة...

ثم صاح كاليوسترو بصوت كالرعد:

- يا ارواح النار، ايتها السمار، الجبارة والمستبدة، انني ادعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه، الذي يلغظ كالحرف «ايود». يا ارواح النار، ايتها السمار، انني ادعوك واتوسل اليك باسم علامة سليمان للامثال وفعل فعلتك... - ورفع كلتا يديه ووقف على اطراف اصابع قدميه بتوتر شديد للغاية. - افعلني فعلتك طبقا للقوانين السليقة، دون التراجع عن الشكل، ودون استهزاء او الخروج عن طاعتي...

في اعقاب هذه الكلمات التهم اللوحة كلها في الاطار المحفور لهب متراقص بلا صوت، وساطع، الى درجة ان ضوء الشموع صار احمر، وفجأة بدأت تنبعث اشعاعات تبهر الابصار من هيئة براسكوفيا بافلوفنا كلها. وانشدت ماريا وراء ظهر اليكسي اليكسييفيتش، بصوت مرتعش ضعيف، وليس باللغة الروسية. ولكنها لم تلحق في انهاء الاغنية، - اذ صرخ اليكسي اليكسييفيتش بصورة مرعبة: كان رأس براسكوفيا بافلوفنا قد انفصل عن اللوحة، متحررا منها، بينما تجسمت شفتاها.

قالت بصوت رفيع وبارد وشرير:

- هات يدك.

سمع وسط السكون المخيم كيف اصطدمت العاندوليننا

بالارض، وكيف تنهدت ماريا، وكيف تنفس كاليوسترو بصعوبة.
وكرر رأس براسكوفيا بافلوفنا:
- هات، انني احرر.

وهتف كاليوسترو: - مديك اليها، اعطها يدك!

اقترب اليكسي اليكسيفيتش من اللوحة كالعالم. وامتدت
منها بسرعة ذراع براسكوفيا بافلوفنا الصغيرة العارية حتى
المرفق، وضغطت على يده اصابع جافة باردة. وترنج، اما هي
فقد انفصلت عن اللوحة عندما سحبها وقفزت الى السجاد.
كانت امرأة نحيفة متوسطة القامة، جميلة جداً وذات دلال،
وحركات مترنحة وغير مستقيمة نوعاً، مثل تحليق الطواظ. ودنت
من المرأة وقالت، وهي تتلمل وتسوي شعرها:

- انني اعجب... هل كنت نائمة؟.. مالون الوجه هذا...
والفستان مكرمش كله.. والموضة غريبة - انه ضيق في
الصدر... آه، ثمة شيء لا اذكره... نسيت... ومست عينيها
باصابعها. - نسيت، نسيت كل شيء...
استدارت وهي تمسك التنورة الواسعة باطراف اصابعها،
ومشت، وابصرت بعينيها القاتمتين المعتمتين اليكسي اليكسيفيتش.
فابتسمت ببطء، كاشفة عن اسنانها الحادة الدقيقة حتى اللثتين،
وتأبطت ذراعه.

وقالت: - انك تتطلع الي بشكل غريب، انا خائفة. - وقهقهت
بدلال وقادته الى باب الشرفة. - ينبغي ان نتحدث بصراحة.

- ١١ -

عندما خرجا وضع كاليوسترو يده تحت معطف الفرو على
الخصر واستغرق في الضحك.

وقال وهو يهتز بكامل جسده:

- لقد حصلنا على كادافر* طيبة، - ومن ثم استدار على
كعبي حذائيه واخذ يتطلع الى ماريا بدون ضحك. - انت تبكين؟
- ومسحت هذه دموعها على عجل، ونهضت من كرسيها العديم

* جنة (بالفرنسية). الناشر.

المسند ووقفت امام زوجها مطرقة الرأس. - هل انت لم
تقتنعي هذه المرة ايضاً بمدى عظمة سلطة زوجك على الطبيعة
الميتة والحية، اليس كذلك؟ - نظرت ماريا، دون ان ترفع
راسها، وبحقد دفين، الى زوجها، وكان وجهها مشوها بما عانته
من رعب واشمزاز. - وقتاك الجميل آثر السلوان مع كادافر
كريبه، وليس معك...!

اجابت ماريا بهدوء وبصلاية: - ستجيب في يوم الحساب عما
تقوم به من اعمال السحر.

عندئذ احمر وجه كاليوسترو، واخرج يديه من تحت معطف
الفرو واخفى مقلتيه تماما تحت الحاجبين. بيد ان ماريا وقفت امامه
بلا حراك، فقال باستعطاف بالغ:

- انني، ياسيدة، انتظر منذ ثلاثة اعوام حبك بنفاد صبر،
دون اللجوء الى اي فن. اما انت فتتطلعين كالذئب نحو الغابة في
كل ساعة. لن يكون حسناً اذا ما عيل صبري.
اجابته ماريا بعجلة:

- ليس لك مع هذا سلطة على حبي، ولن ترغمني على حبك.
- كلا، سارغمك! - وضحكت ماريا بسخرية جواباً عن
ذلك، فاحتقنت عيناه دماً على الفور. - ساضعك يا سيدة، في
قارورة صغيرة واحملك في جيبتي.

وكررت قائلة: - الامر سواء ليس لديك سلطة على الحب. وما
دمت على قيد الحياة فساهب نفسي الى شخص آخر، وليس لك.

- هذه المرة ستصمتين، - دعهم كاليوسترو بهذه الكلمات
وهو يلتقط الخنجر الصغير من الطاولة، الا ان مارغادون الذي
كان يقف حتى هذا الحين وراء ظهره، اندفع نحوه وامسك به من
يده بخفة. فزجر كاليوسترو وضرب مارغادون على وجهه بيده
اليسرى - وعبس العبد - ورمى بالخنجر جانباً، ونفت اللهب
بصوت مسموع وغادر الغرفة.

- ١٢ -

كان اليكسي اليكسيفيتش يمشي في الدرب مع الشبيهة
بالمرأة، والتي كان يدعوها براسكوفيا بافلوفنا، عبر الفسحة نحو

البرك. كان الجو رطباً. وطلع القمر فوق الحديقة. وكان ضوءه الغضبي ينير الفسحة الواسعة كلها. ولمعت هنا وهناك شبك حاكها العناكب في العشب الشديد الزرقة. وبدت الزهور كبقع بيضاء وتالقت قطرات الطل الغزيرة. وتساعد البخار بعيداً فوق البرك بهالة فضية.

كان اليكسي اليكسيفيتش يمشي صامتاً، وقد زم شفثيه وامتطعاً نحو قدميه. بينما واصلت براسكوفيا بافلوفنا الحديث بلا انقطاع وهي تنظر الى كرة القمر المضيئة المعلقة فوق الاشجار الكثيفة:

- آه، القمر، القمر! اليكسيس، انك لا تتحسس هذه المفاتن. انهار صوتها البارد بكلمات، كقطع الزجاج، وكان ينطلق الصغير من ثوبها الحريري طوال الوقت بشكل لا يطاق. وجعلت هذه الكلمات الزجاجية وصغير الحرير اليكسي اليكسيفيتش يضغط على فكيه. كان قلبه يرقد في صدره مثل كتلة ثقيلة من الجليد. ولم يعجب لأنه تسير معه يدا بيد من كانت قبل ساعة مجرد خيال. اما المخلوقة المتغنجة ذات الفستان العريض والضيق في الصدر، والشاحبة في نور القمر، وذات الظلال الكبيرة في وقي عينيه، فترات له بلا جسد، مثل حلعه السابق. وكان عبثاً يكرر بعناد: "تمتع، تمتع بها، تحسس بها..." فلم يستطع التغلب على الاشمزاز في دخيلة نفسه.

عندما وصلا الى البركة، والى المصطبة، حيث تحدث مع ماريما في الصباح، اقترح اليكسي اليكسيفيتش على براسكوفيا بافلوفنا الجلوس. فجلست فوراً بعد ان نشرت فستانها.

وهمست، وهي تبتمسم بملء ثغرها الى كرة القمر:

- اليكسيس، اليكسيس، انت تجلس مع سيدة خاليا من الاحساس. لا بد وان تعرف بان الجسارة تجلب المتعة الى المرأة. اجاب اليكسي اليكسيفيتش عبر اسنانه:

- لو علمت كم حلمت بك، لما صرت توجيهين مثل هذا العتاب. فضحكت كما لو تناثر زجاج:

- عتاب؟ عتاب... لكنك تضغط طوال الوقت على يدي، وتفعل هذا بوهن. ماذا لو عانقتني..

رفع اليكسي اليكسيفيتش راسه، وحقق فيها، فارتعش فؤاده. واحتضن براسكوفيا بافلوفنا بيده اليمنى، بينما امسك يديها باليسرى. كان صدرها المكشوف بقدر كبير، وقد برز عظماً الترقوة فيه، يتنفس بهدوء. وتقرب من وجهها محاولاً التقاط مفاتنها.

قال بكآبة: - يا حلمي... - فابتعدت عنه قليلاً ضاحكة، وهزت راسها وتطلعت الى عينيه مقلتان شفاقتان تلمعان كنتقطين في ضوء القمر، - ... انني معك كما في الحلم يا براسكوفيا، - انحنى لارتوي، بينما الماء يبتعد.

قالت: - عانقني، بقوة.

عند ذاك شدها اليها بكل قوته وقبل الشفتين الباردتين، بينما اجابته على القبلة بشهوة غير متوقعة وبعجلة، فاستلقى الى الورا على التو: اذ اختنق بشعور من التقرز والاشمزاز والرعب.

تحدثت بعد برهة من الصمت، وهي تغطى بتلذذ:

- اشعر بالرطوبة، واريد تناول الطعام.

وانذاك نهض بسرعة وخطا نحو البيت، وفور ذلك سمع وراه حفيف الفستان، فاسرع الخطى، وحتى صار يعدو، بيد ان براسكوفيا بافلوفنا لحقت به فوراً وتعلقت بذراعه.

- اليكسيس، انك ذو طبع صعب جداً.

وصرخ فيها وهو يتوقف:

- اسمعي، ليس خيراً لنا ان نفترق!..

- كلا، ليس خيراً ابدأ، - وانحنت وصارت تتطلع في وجهه، - اناسعيدة معك.

- لكنني اشعر بالاشمزاز منك، فافهمي ذلك! - وسحب يده ومضى عدواً، بينما لم تترك هي ذراعه، وانطلقت وراه في الدرب الضيق.

- لا اصدق، لا اصدق، فانت نفسك قلت بانني حلمك...

- مع هذا دعيني وشأني!

- كلا، يا صديقي، لن ادعك حتى الموت...

وانطلقا الى داخل البيت متشابكي اليدين. رمى اليكسي

اليكسيفيتش بنفسه في المقعد، ومثلت امامه على الفور، ملوحة بالمروحة اليدوية، وتطلعت بمرح.

- يجب يا عزيزي عمل الكثير والكثير معك من اجل كبح طبعك... انك تحب ذاتك. - ووضعت المروحة وجلست فوق مسند مقعد اليكسي اليكسيفيتش. - يا صديقي، لي رغبة شديدة ما اما في الاكل واما في الشرب... ويبدو لي ان الماء يجري في جسدي...

هب اليكسي اليكسيفيتش من مقعده، فدنا من الباب، وجذب الشراية الكبيرة المزينة بالخرز للجرس. - سيجلبون اليك الطعام والشراب وكل ما تريدين، - فاطماني.

رن الجرس في مكان بعيد داخل البيت، وسمعت الخطوات الخفيفة لفيدوسيا ايفانوفنا.

- ١٣ -

قال اليكسي اليكسيفيتش لعخته، وهو يخفي بجسده الباب نصف المفتوح، ان تامر بجلب شيء من الطعام الى المكتبة. فنظرت اليه فيدوسيا ايفانوفنا بامعان وبغرابة، وابتعدت عن الباب بصمت، ودخلت الغرفة فشاهدت على التو امرأة نحيفة - كما روت هذا فيما بعد - سوداء الشعر، وهي حتى ليست بامرأة، بل عثة ميتة، تقف، وتمزج المروحة وتطلع بنظرات ناقبة. فغرت العمة فاها فورا و «هوت ساقطة على قدميها».

وقالت لها تلك بصوت يوصوص:

- فيدوسي، الم تعرفيني، يا عزيزتي؟

فتهاوت العمة بشدة اكثر، وارتكزت بقدميها وتطلعت الى الاطار الفارغ للوحة. وعندما دنت براسكوفيا بافلوفنا منها خطوة، رفعت العمة بيدها ورسمت علامة الصليب...

قال اليكسي اليكسيفيتش متكررا:

- هيا، لماذا تخافين يا فيدوسيا ايفانوفنا، ان هذا الامر

بمنتهي البساطة، فهذه السيدة ثمرة سحر الكونت فينيكس؛ فاذهبي واعطي الامر بشأن الطعام.

واقترب من الباب المؤدي الى الحديقة، متغضن الوجه كما لو اصابته حرقه في معدته، واستند على عتبة الباب العليا وصار يتطلع الى الفسحة التي يغمرها ضوء القمر. ثم سمع كيف تلت العمة الصلوات، واندفعت من مكانها وهرولت بمشية كمشية البط من الغرفة، وكيف قهقت براسكوفيا بافلوفنا بشراسة في اعقابها، وكيف بدأت في البيت الجلبة الخائفة وتردد الهمس. لكنه لم يلتفت وتطلع بعذاب كئيب الى النوافذ المضيئة في جناح البيت. وتردد في الغرفة رنين الاواني - انها فيمكا تعد المائدة، وتضع الاوعية والاطباق، وقد اخفت رأسها ما بين كتفيها وهي تسترق النظر برعب من وراء كتفها طوال الوقت.

جلست براسكوفيا بافلوفنا الى المائدة وخاطبت فيمكا:

- يا عبدة، ماذا في الوعاء؟

- فطر، يا سيدتي.

- شعيرة.

وضعت فيمكا لها الفطر في الطبق ووقفت وراء الكرسي، وقد غطت فمها بالمريلة. تناولت براسكوفيا بافلوفنا الطبق وامرت بان تقدم لها الشعيرة. وقالت وهي تأخذ الطبق:

- انك تخدمين بصورة سيئة. وبالرغم من انك ريفية، يجب ان تخدمي باناقة.

- سأعمل جهدي ياسيدتي.

- يجب ان تؤدي التحية بالانحناء، عندما تتحدثين مع سيدتك:

- وبحلقت براسكوفيا بافلوفنا فيها بعينها السوداوين

وفجأة ضربت المائدة بالملعقة. - يا عبدة، انحنئي! لتلتف القدم

اليمنى... ولا تجعلني ثقل جسمك على الجانبين، على الظهر...

وامسكي الرداء... ابتسمي... لتكن الابتسامة معسولة اكثر..

تطلع اليكسي اليكسيفيتش الى المشهد كله باشمئزاز.

وفي نهاية الامر قال:

- دعني الفتاة وشأنها، فيمكا، انصرفي.

فنظرت اليه براسكوفيا بافلوفنا بتعجب، وما برحت الملعقة بيدها، وهزت كتفها:
- اليكسيس، يا صديقي، انني السيدة هنا وليس انت.
سامر بجلد هذه الفتاة بالسوط، لكي تفقه عملها بجلاء اكثر...
تدفق دم الغضب المحموم الى عيني اليكسي اليكسيفيتش،
ولكنه تعال ك نفسه وخرج الى الحديقة.

- ١٤ -

دس اليكسي اليكسيفيتش يده في جيبي السترة العديمة
الاكمام، ومضى ماشيا في الفسحة - وتبلدت جواربه حتى
الركبتين بقطرات الطل، وولدت في راسه افكار محومة. هل
اهرب؟ هل اغرق؟ هل اقتلها؟ هل اقتل الكونت؟ هل انتحر؟ لكن
هذه الافكار تبددت بعد اندلاعها، - واحس، بأنه هالك؛ فقد
تعلقت به المخلوقة اللعينة كالعنكبوت، و من يدري اية سلطة
رهيبة اخرى لديها؟
ودعم قائلا:

- انا جلبت المصيبة لنفسي، وبعثت من العدم الحلم،
وتناج و ثمرة الليالي المسهدة... ان السحر الفاجر صنع جسدها.
فالخيال المحموم لا يبتدع مثل هذه البشاعة.
توقف اليكسي اليكسيفيتش ومسح العرق البارد عن جبينه...
«ماذا لو كان هذا مجرد حلم؟ ساقرض نفسي واستيقظ في فراش
نظيف في صباح يوم رائق... وسارى روضة واوزات وفتاة
بسيطة مع مجرفة...»
هز راسه بكآبة، ورفع ناظره. كان القمر يطل عاليا فوق
الحديقة، وثمة سحب رمادية قائمة تستر نوره. وسمع من النهر
التقيق الرتيب للضفادع...

في تلك اللحظة مزق السكون في الحديقة صوت براسكوفيا
بافلوفنا الحاد والرفيع وكانت تدعوه: «اليكسيس!». ولم يجب بل
دبدب بقدميه فحسب؛ وما كان بوسعه ان يستجيب للدعوة،
بينما كان الهرب امرا مشينا. ورأى ثلاثة اشباح تقترب منه:

مارغادون وكاليوسترو وبراسكوفيا بافلوفنا. وكانت اول من
اقترب منه وصرخت بحق:

- انا اعرف كل شي، يا عزيزي! كنت اظن ان المظهر الحائر
والكلمات الجسورة نتيجة نزوات الهوى. بينما تبين انك تفكر في
واحدة اخرى. اتسمع انني لن اطيق وجود اخرى بالقرب مني.
وقال كاليوسترو وهو يقترب منه:
- آي... آي... آي... لقد بذلت غاية جهدي بينما انت، يا
سيد، تشيح بوجهك عنها.

وزعقت براسكوفيا بافلوفنا:

- انت عاشق متقلب، سامر بوضعك مقيدا في السرداب.
فاجاب كاليوسترو:

- كلا، يا سيدتي، لا نفع من سجنه، اما انت ايها السيد
فلا تعاندي، ويجب ان تذهب الى البيت، - فالسيدة تريد ان تنام،
وانه لشيء مؤسف ان ترقد وحيدة في الفراش.

غلبت على اليكسي اليكسيفيتش مجددا مشاعر الانقياد
الماضية فزفر ومضى نحو البيت بخطوات وثيدة، بصحبة براسكوفيا
بافلوفنا التي كانت تجره. لكنه التفت عند بلوغ الباب فرأى في
ناقذة الجناح ظل امرأة على الستارة. فاندفع وصرخ: «ماريا». الا
ان مارغادون امسكه من الخلف ودفعه الى الغرفة واغلق الباب
الزجاجي.

وقد صرخ اليكسي اليكسيفيتش لانه، و كما لو زالت الغشاوم
عن عينيه، اين يكمن الخلاص. وعندما اختلى مع براسكوفيا
بافلوفنا، اشعل غليونه وجلس على سلم الكتب وتظاهر بالاصغاء.
وهددت براسكوفيا بافلوفنا بانها ستجعله يموت في العبس،
و صرخت بان البيت كله ضدها وانها ستطردها العجوز فيدوسيا
ايفانوفنا، وستجز شعر فيمكا، وستجلد كافة خدم الضيعة، وستفرض
انظمتها...

انتظر اليكسي اليكسيفيتش حتى تتعب من الصراخ، لكن
حدة غيظها لم تخف. كان يسمعها ولا يسمعها، وكان قلبه يدق
بشدة؛ وقرر ان يعمل. ونظف الغليون من الرماد ثم نهض،
وتمطط.

قال وهو يتثأب:

- هذه كلها من الامور التافهة، هيا بنا ننام.

فقطعت براسكوفيا بافلوفنا فوراً سيل الكلام وضحكت بشفتيها الجافتين بدهشة وابتهاج. وامسك اليكسي اليكسيفيتش الشمعدان المضاء من الطاولة وسحب الستار في العقد، مفسحاً الطريق لبراسكوفيا بافلوفنا لكي تمر امامه. وعندما مرت، قرب الشموع المضاءة من الستار، فالتهمت النيران قطيفته الحمراء في لحظة خاطفة.

- حريق! - صرخ اليكسي اليكسيفيتش بصوت عال: وهو يرمي الشمعدان، وهوول في الممر الطويل المؤدي بالتواء الى الجناح حيث يعيش الضيوف.

توقف مرة واحدة فقط والتفت فرأى براسكوفيا بافلوفنا صارخة وهي تنزع الستار المحترق بذراعيها النحيفتين. وعندما سمع اليكسي اليكسيفيتش بعيداً في الممرات اصوات ودبابة اقدام قفز الى النافذة والتصق في تجويفها العميق.

- ١٥ -

هروول بمحاذاة مارغادون واطراف جيبته ترفرف وكاليوسترو بطاقيه النوم وبرداء طويل زاهي الالوان وبدون سراويل، وهما يصرخان بفزع. فاختميا وراء المنعطف الذي كان الدخان يتدفق منه. عندئذ اندفع اليكسي اليكسيفيتش نحو الجناح الذي يقود اليه باب واحد من جانب الممر، بينما كان الباب الآخر يؤدي الى الحديقة مباشرة. وهناك رأى ماريا واقفة عند العتبة. كانت ملتفة بشال ابيض القته فوق الرداء، وتضع قلنسوة خفيفة على راسها. فتح اليكسي اليكسيفيتش النافذة، وخرج من الممر الى الحديقة ودنا من المرأة الشابة.

قال وقد شبك ذراعين على صدره:

- ماريا، قولي كلمة واحدة.. انتظري.. لئن - كلا، لقد هلكت... لئن نعم، أنا حي، حي الى الابد.. قولي لي - هل تحبيني؟ فاطلقت صرخة قصيرة خافتة، ورفعت يديها، واحاطت بهما

عنق اليكسي اليكسيفيتش وقالت، مطرقة الراس والدموع تنهمر من مآقيها، متطلعة الى عينيه عبر الدموع، بانفعال:
- احبك.

عندما قالت هذه الكلمة تآب الى شعوره: فانتعش قلبه، وسرت في عروقه بصخب موجات الدم الساخنة، وتنفس بابتهاج هواء الليل وأريج جسد ماريا الغض، وامسك وجهها الباكي براحتيه وقبلها في عينها:

- ماريا، اذهبي في هذا الرواق حتى البركة، وانتظريني هناك في العريشة. ولا تنسي - عندما تعبرين الجسر الصغير اسحبي السلسلة، وعندئذ سيرتفع.. وستكونين هناك بأمان. هزت ماريا راسها اشارة الى انما فهمت كل شيء، ورفعت اطراف رداها، ومضت مسرعة في الاتجاه المذكور، ثم التفتت، وضحكت بسرور واختفت في ظلال الرواق المعتمة. عندئذ استل اليكسي اليكسيفيتش سيفه من غمده واندفع الى داخل البيت عبر باب الشرفة.

فاسقط فيمكا ارضاً وابتعد فيدوسيا ايفانوفنا التي تشبثت بيده ودفع جانباً الخدم الفزعين، واندفع الى داخل المكتبة. كانت الغرفة ممتلئة بالدخان. اما الشموع الخمسة للشمعدان الثاني فكانت تضيء بهيب احمر داخن الكتب المبعثرة على الارض كلها والتي سقطت من خزانة كتب منهارة، ومارغادون الذي كان يدوس بقدميه السجاد المحترق، وكاليوسترو الذي كان جالساً القرفصاء عند المقعد، بينما كانت في المقعد مخلوقة ملتوية الشكل ذات ضلوع قائمة، بالكاد تسترها اسمال فستانها المحترق. وعندما رأت اليكسي اليكسيفيتش انطلق منها صوت كالضحك، وغادرت المقعد واندفعت نحوه. لكنه صرخ وشهر سيفه امامه، فتراجعت عن حده بعويل، ينم عن اليأس والحنق، وانطلقت في عمق الغرفة واختفت وراء خزانات الكتب.

في تلك اللحظة اعطى كاليوسترو الذي كان يتخفى وراء الكرسي، اشارة الى مارغادون. وكف الاثيوبي عن دوس السجاد، وسحب سكيناً من حزامه واخذ يقترب من اليكسي اليكسيفيتش. لكنه اندفع نفسه الى الامام، متفادياً الهجمة، ماداً يده فانقرس

نصل سيفه الى النصف في كتف مارغادون. * وصرخ الاثيوبي، وهوى على ظهره، وهو يتلعب الهواء. عند ذلك رمى كاليوسترو الكرسي باتجاه اليكسي اليكسيفيتش، واخذ يختفي وراء الحاجيات ويرميها، ودار في ارجاء الغرفة بخفة غير عادية بالنسبة الى سنه وضخامة جثته. وطارده اليكسي اليكسيفيتش محاولا طعنه بسيفه. لكن كاليوسترو استطاع الافلات الى الممر، ومنه قفز عبر اول نافذة مفتوحة الى الحديقة رافعا قدميه العاريتين، وهرب باتجاه البرك.

لم يلحق به اليكسي اليكسيفيتش الا عند الجسر المؤدي الى العريشة حيث بدا فستان ماريا الأبيض بين الاعمدة. وزمجر كاليوسترو واندفع عبر الجسر دون ان يرى بان قسمه الاوسط مرفوع - ولوح بذراعيه وسقط في الماء بطرطشة، و كانه كيس. واطلقت ماريا صرخة خافتة. وتراقص نور القمر فوق سطح البركة، وحلق طائر فزع على ارتفاع منخفض فوق الاعشاب، مطلقا صفيرا طويلا. وساد الهدوء المكان مجددا: ولم يتردد اي صوت في البركة، ولا في الاحرج الكثيفة المظلمة.

مشى اليكسي اليكسيفيتش على الجسر، متفحصا، وانحنى من طرف قسمه المرفوع. وفجأة شاهد عند الركيزة في الماء عينين - تومضان ببطء. وميز الوجه البارز، والجمجمة الكثيفة الشعر، والاذنين المنتصبين لكاليوسترو.

وخاطبه اليكسي اليكسيفيتش قائلا:

- انك لن تستطيع الصعود الى الاعلى بالرغم من كل شيء، فالركيزة ملساء زلقة، وانا احذرك: حالما تيدا فقط بممارسة الاعبيك ساطعنك - انت نذل. وزفر بشدة من انفه - الافضل ان تبقى ساكنا، والآن سيخرجوك - ووضع كفيه عند فمه وصاح: - هيه، يا رجال، تعالوا الى هنا. وسرعان ما سمعت اصوات افراد من بعيد، وصار يعدو في البداية الصبيان واهل الضيعة والفتيات، ومنهم من كان يحمل المذراة او المنجل او مجرد هراوة - وكانوا جميعا بين النوم واليقظة وبهيئة شعناء.

امر اليكسي اليكسيفيتش بجلب جبل، وربط كاليوسترو واخرجه من الماء. نزع ثلاثة رجال طويلي القامة سراويلهم

ونزلوا الى الماء بعد رسم شارة الصليب، وبدأت جلبة تحت الجسر بين الركائز.

وصاحوا من هناك:

- اليكسي اليكسيفيتش، انه - عليه اللعنة - يخدش باظافره.

بينما صاح آخرون من الجسر:

- امسكه من خديه، واخرجه من الماء.

واخيراً شدوا وثاق كاليوسترو وسحبوه الى الضفة. لم يعد يبدي مقاومة، ومشى نحو البيت وقد التصق قميصه بجسده وطأ رأسه واصطكت اسنانه من البرد، وسط حشد اهل الضيعة.

حينما بقى اليكسي اليكسيفيتش لوحده اخذ يدعو ماريا، في البداية بصوت خفيض، ومن ثم بصوت اعلى، و ينم عن فزع اكثر. فلم تجب. ودار حول البركة واستقل قارباً عتيقاً، وانتقل الى الجزيرة الصغيرة، دافعاً الزورق بعود. كانت ماريا ترقد على الارضية الخشبية في العريشة. فامسك اليكسي اليكسيفيتش بما، وانهضها، وامال اليه رأسها المتدلي بعجز، وقبل وجهها، وكاد ينتحب اشفاقاً عليها ولها بها. في نهاية المطاف شعر بان جسدها اصبح اخف، وارتفع صدرها ثم انخفض واستلقى رأسها ذو الشعر الاشقر على كتفه بشكل مريح اكثر. وقالت ماريا بصوت لا يكاد يسمع دون ان تفتح عينيها:

- لا تتركني.

- ١٦ -

لقد تسنى اخماد الحريق. ولم تحترق سوى غرفة المكتبة - وتلف بالماء والنار عدد كبير من الكتب والاشياء فيها، - واحترق كلياً قماش لوحة براسكوفيا بافلوفنا.

وعند الفجر جات عربة الى الجناح ووضعت فيها فوق حشائش جافة طرية امتعة الضيوف واجلس مارغادون وكان عليلاً جداً: بدا ومادياً، بلون التراب، وتدلّى فيه ولف رأسه بمنديلين دافئين. وكان الواقفون عند شرفة الجناح وحول العربة يشفقون على

الشيخ - فهو على اية حال انسان غير طليق الارادة، وخدام، ويناله الاذى لا لجريرته. واعطته راعية الماشية بيضة مشوية للطريق. ولكن عندما اقتيد كاليوسترو الذي كان لا يزال مشدود الوثاق، ووضعت على راسه الباروكة كيفما اتفق والتبعة ذات الريش الاشعث، والقي فوق رداء النوم عليه معطف فرو الثعلب، اخذ الصبيان يصفرون والنساء يبصقن، اما الفلاح سبيريدون، الضعيف البصر، فكان بدون قبعة وبدون حزام ويمشي حافي القدمين، وامضى الليل كله اكثر من الآخرين في خدمة رب الضيعة، فقد هجم على كاليوسترو ولسوح بيده لكي يسلطه على اذنه، لكنهم ابعده. جلس كاليوسترو في العربة بنفسه، وكان متجهما مقطب الحاجبين. وقفز الى المقود بمرح فتى عريض الوجه، ذاع صيته في القرية لقوته وشدة بأسه وامسك العنان المصنوع من الحبال، ومدت فرس رمادية اللون عنقها النير، فتحررت العربة وسط صفير اهل الضيعة وسخريتهم.

صاح اليكسي اليكسييفيتش من الشرفة:

- فيدكا، خذها الى سمولينسك وهناك سلها الى عمدة المدينة.

فاجابه فيدكا من بعيد:

- لتظمن، يا اليكسي اليكسييفيتش، سننقلها على ما يرام، فليس هذه اول مرة.

- ١٧ -

بعد ان اغمى على ماريا في العريشة ما كادت لتستطيع المشي حتى البيت. وقد ارقدت في غرفة النوم المخصصة لكبار الضيوف في الجناح. وانزلت فوق الفراش المظلة حتى النصف، بينما اسدلت الستائر على النوافذ، وغطت ماريا في نوم عميق. نامت هكذا حتى منتصف النهار. وسمعتها فيدوسيا ايفانوفنا، التي كانت غالبا ما تقترب من الابواب، تدمدم، وعندما دخلت الى الغرفة رأت ماريا راقدة بعينين مسبلتين، واصطبغ وجهها بحمرة قانية، وهي تتحدث مع نفسها بصوت خافت، دون ان تكف عن ذلك. لقد اصابتها الحمى، وبقيت بين الحياة والموت فترة تربو على الشهر.

اوشك ان يجن جنون اليكسي اليكسييفيتش قلقا وفي اليوم ذاته توجه بنفسه الى سمولينسك لدعوة الطبيب. وفي طريق العودة علم من الطبيب بأنه اقتيد الى عمدة سمولينسك اجنبيان في عربة فاعتقلها العمدة في البداية، وفيما بعد ارسلها مشيعين بالاحترام الكبير الى طريق وارشو. وبعد ان فحص الطبيب ماريا قال ثمة احتمالين اما ان تنتصر الحمى، واما ان ينتصر الانسان.

وعندئذ صار اليكسي اليكسييفيتش يمضي ايامه باكملها عند فراش ماريا، وينام في مقعد بجوار النافذة، وعزف عن الطعام تقريبا، وتغير، واصابه الهزال - وصار وجهه ينم عن الرجولة، واصبحت عيناه سقيمتين؛ وبرزت خصلة بيضاء في شعره الكستنائي.

حدث مرة في احدى الامسيات، ان كان جالسا في الكرسي بين الغفوة والصحوة. وكانت الشمس تمد اشعتها الطويلة مع ذرات الغبار المتراقصة عبر الستائر البرتقالية، بينما كانت ذبابة تضرب الزجاج شبه نائمة؛ وكان اليكسي اليكسييفيتش ينظر بجفنين ثقيلين الى ذرات الغبار في الشعاع والى الذبابة. اما ساعة الموقد فكانت تدق بهدوء مبينة فترات دقائق الحياة. وفي سياق الغفوة اخذ اليكسي اليكسييفيتش يتحسس حدوث تغير ما في كل شيء، فاستدار والتفت الى الفراش ورأى عيني ماريا الزرقاوين مفتوحتين. كانت تتطلع اليه مقطبة الوجه بشكل مضحك من الدهشة ومحاولة تذكر امر ما. وركع عند فراشها وقالت ماريا:

- قل لي، رجاء، اين انا، ومن انت؟ - لكن اليكسي اليكسييفيتش الذي كان عاجزا عن الحديث بسبب الانفعال اخذ يدها بحذر وقربها من شفثيه. - وتابعت ماريا قائلة: - انني تطلعت اليك فترة طويلة وانت تغفو، - ان وجهك حزين جدا كوجه انسان قريب، - وقطبت جبينها مرة اخرى، لكنها عدلت عن التذكر مجددا وقالت: - سيكون حسنا جدا لو فتحت النافذة...

ازاح اليكسي اليكسييفيتش الستائر، وفتح النوافذ، فجاء مع الهواء الدافئ، والفواح، الصخب البهيج لتغريد الطيور

وانشادها. تورد خدا ماريا. واصغت مبتسمة. ومن بعيد وقوق
ثلاث مرات وقواق متخلف احمق. فاعرورقت عينا ماريا بالدموع
وانحنى اليكسي اليكسييفيتش نحوها فهمست قائلة:

- شكراً لك على كل شيء... -

وسرعان ما استغرقت في نوم عميق ولفترة طويلة. وبدأت
تتعافى، ومنذ ذلك اليوم لم يعد اليكسي اليكسييفيتش يمضي
لياليه في غرفة نومها.

مع استرجاع ماريا لعافيتها حل ما كانت فيدوسيا ايفانوفنا
وحدما تدركه: اذ لم يكن اليكسي اليكسييفيتش وماريا يطبقان
البقاء لحظة واحدة بعيدا عن احدهما الآخر، وعندما كانا يلتقيان
تجدهما يلتزمان الصمت: ماريا تستغرق في التأمل، واليكسي
اليكسييفيتش يتجهم، ويعض شفتيه، ويقف او يجلس في اوضاع
غير مريحة تماما بالنسبة الى الانسان.

وعندما تحدثت معه العمة مرة قائلة:

- ماذا تعتزم، يا اليكسيس، مع ذلك، واغفر لي قلة
تواضعي، عمله بشأن ماشينكا؟ هل ستبعث بها الى زوجها ام
ماذا؟

اعتمله الغضب:

- ان ماريا ليست زوجة لزوجها. وبيتها هنا. واذا كانت لا
ترغب برؤيتي، فبوسعي الرحيل، وسأذهب الى الجيش، واترك
صدري للرصاص.

كان يقضي الليالي بصورة سيئة: اذ كانت تعذبه الكوابيس
وتضغط على صدره وتضيق الخناق على رقبته. وكان يستيقظ
صباحا محطما ويجول حتى موعد ايقاظ ماريا في ارجاء البيت
كئيباً وشرساً، ولكن حالما يسمع صوتها تغمره الطمأنينة، ويذهب
اليها ويتطلع اليها بعينيه الجافتين الغائرتين.

حل شهر آب. ولاحت فوق الحديقة، متألقة في البرك، نجوم
لا تعد ولا تحصى، وبدا «درب التبان» ابيض كنور السحب. وفاحت
من الحديقة روائح الاوراق الندية. وغادرت الطيور المكان.

في احدى تلك الليالي كان اليكسي اليكسييفيتش وماريا
يجلسان في غرفة نومها عند الموقد، حيث كانت قطعة خشب تواصل

احتراقها باعثة الانوار من طرف الى طرف. وفجأة تحرك ظل ما في
شبه العتمة، في اعماق الغرفة، ومن وراء الستار. تطلع اليكسي
اليكسييفيتش اليه وقد جفل. ورفعت ماريا رأسها ايضاً. واختفى
الظل شيئاً فشيئاً. مضت لحظة سكون. واندفعت ماريا نحو اليكسي
اليكسييفيتش واحتضنته والتصقت به وهي تكرر بصوت متأثر:

- لن اسلمك.. لن اسلمك...

في تلك اللحظة تطاير مثل تطاير الدخان في الرياح كل ما
كان يفصل ما بينهما، وكل ما هو مصطنع ومعقد. وبقيت فقط
الشفتان الملتصقتان بالشفتين، والعينان المحدقتان في العينين:
لربما هي سريعة الزوال، ولربما حزينه هي، - فمن قاسها؟ -
سعادة الحب الحي.

سنة ١٩٢١

الصنوبر والشوح ومستنقعات فنلندا المغشاة بالطحالب التي ما برحت تغطيها بقايا الثلج. وكان الخادم يظهر في العربة في ساعات محددة داعياً المسافرين الى تناول الطعام. بينما كان المسافرون يمشون بتناقل، وهم يستندون الى الجدران المهتزة، نحو المطعم. اما الرياح الشديدة فتدوم الغبار الثلجي فوق منصات العربات. واتخذ نيكيتا اليكسيفيتش مكانه وراء طاولة في ركن عربة المطعم، واخذ يتطلع حو اليه.

ثمة عائلة من الانجليز البسطاء مع ثلاث صبايا شقراوات وحاضنة يابانية - والعائلة تسافر من فلاديفوستوك للاسبوع الثالث... وثمة اربعة فرنسيين بلحي سوداء وقصيري القامة وبوجوه قرمزية، طلبوا قنينة نبيذ احمر وصاروا يتمطقون، وهم يتذوقونه. وهناك ايضاً سويدي حليق ضخم الجثة - مدير مصنع، وفنلنديون افاضل من هلسننغفورس، و تاجر موسكوفي عريض الوجه يسافر الى هاباراند في طلب السلع وقد تزيا بهينة اوربية مما ينتقص بجلاء من عزة نفسه، وفتى عبوس عريض المنكبين يعتمر طاقية محيوكة من الصوف كتلك التي يرتديها المتزلجون على الثلج، وثمة عدة اشخاص آخرين غامضين لا اهمية لهم. كما كانت هناك نساء طبعاً، بيد ان نيكيتا اليكسيفيتش لم يحاول التطلع اليهن، حيث لم يجد مسوغات تبرر ذلك بالنسبة لغير الجميلات، اما الجميلات فكان يخشاهن.

كانت حساباته مع النساء صعبة. وفي سنوات الشباب كان يحلم من بعيد بمحظية شهيرة اسمها ماشا خليبنيكوف، وهي امرأة لطيفة ورائعة، ولم يرغب في الاقتراب منها، بالرغم من انه كانت هناك فرص مناسبة لذلك، وتحمل سخريه رفاقه طلاب الكلية الحربية، وانعكس هذا الشعور المزدوج على حياته كلها. وكان يشمئز من اولئك «الخبراء»، الذين يقنعون بالقليل، ويجدون في كل امرأة شيئاً واحداً، وهو فقط ما يرتاحون اليه ويحتاجونه. منذ قليل بينما كان اوبوزوف في المحطة، يمضي بعجلة حاملاً حقيبتة باتجاه عربته، لاحظ سيدة فارعة القوام ترتدي معطفاً من القטיפه. وكانت قبعتها الصغيرة ذات الجناحين الاسودين تميل

السيدة الحسنة

سلم الى نيكيتا اليكسيفيتش اوبوزوف المظروف الحاوي على وناثق عسكرية سرية بالغة الاهمية، وقد جرى تسليم الوثائق وارسال اوبوزوف سراً.

لقد ابهجته المهمة - القيام برحلة طويلة وخطرة الى الخارج. فان الملابس المدنية وجواز السفر الاخضر، وبنلات لغات، والحقيبة التي طلق قفلها بخفة لدى الانتهاء من جمع متاع السفر - كانت جميعاً بشائر قدوم ايام رائعة (وهي تحل كما هو واضح عندما يحمل المرء بيده الحرام والحقيبة).

جاء اوبوزوف الى محطة القطار في وقت مبكر من الصباح، وشرب قدح قهوة واتخذ مكانه في مقصورة الدرجة الاولى، دون الاستعانة بحمال.

كان المظروف في الحقيبة بادئ الامر، ومن ثم، عندما تحرك القطار، نقل اوبوزوف الكيس المصنوع من القنب الى الجيب الداخلي لسترته، وثبته بدبوس واستلقى بانسراح على الكنبة المخملية. وكانت الى جانبه كتب سفر ومجلات. وصار يقلب صفحاتها، ويدخن وهو يطلع من النافذة، وحسب الايام التي ستمر فيها امام ناظره عدة بلدان وآلاف الناس.

انطلق الاكسبريس بمحاذاة البيوت الريفية وغابات اشجار

جانبا. وبدت السيدة غاضبة، وعليها دلائل الارق، وكانت تتشاجر مع الكمساري.

وفي الطريق التقى معها مرة اخرى في العربة المجاورة، ومن ثم على منصة العربة، حيث كانت تصارع الريح، وهي تمسك بقبعتها ومعطفها، واخيرا رآها عند النافذة بالقرب من مقصورته كانت السيدة تقف وكتفها يمس الاطار الصقيل للنافذة، وهي تتطلع الى الحقول الثلجية والاشجار والأعمدة والبيوت التي تنزلق امام ناظرها. وبدا حزينا وجهها النحيف، المتطلع نحو السهول الكثبية، وجيدها نحيفا ورقيقا. بينما كان بياض الدانتلا يلعب في طيات بلوزتها الحريرية المحبوكة.

كان اوبوزوف يرى، من مكان جلوسه في ركن المقصورة، قذالها وشعرها الأشقر الكثيف المرفوع، وظهرها، الذي يهتز بسبب رجات القطار، والتنورة الجوخ الرشيقة، التي تمس الحذائين الصقيلين المربوطين بالاشرطة عاليا. وعندئذ بدت له، في نهاية المطاف، ضرورة ان يعرف الى اين ولأي سبب تسافر في مثل هذه الفترة المضطربة، وثاب نيكيتا اليكسيفيتش الى نفسه، فأخرج مجلداً ما من روايات المغامرات من تحته، وغاص في المطالعة.

تسلل الى باب المقصورة هواء منعش، وبغثة استنشاق عبير رائحة عطرة، فيها مرارة وعدوبة. ورأى اوبوزوف طيات التنورة الزرقاء، المتأرجحة تحت ضغط الساقين. أعاد قراءة الصفحة. ووقفت السيدة عندئذ امام النافذة مباشرة، وظهرها الى الباب. وأنداك استدار نحو الغبار الثلجي وراء النافذة، وفكر في دخيلته، ضاحكا. - ها انت قد جيتت، بالرغم من أعوامك الثلاثة والثلاثين ورباطة الجأش... لقد كان في تلك المرأة الجميلة شيء نفاذ ويبعث على الأشفاق والتأثر... من هي؟ هل هي مجرد باحثة عن المغامرات؟ كلا، لا اظنها كذلك.. ام انها مثل طائر حملته عاصفة الحرب الرهيبة، فانطلق والشيطان وحده يعلم الى اين...؟ على أية حال، لا بد من استيضاح هذا كله... وعندما تطلع الى الطريقة لم تكن السيدة موجودة عند النافذة. ولم تظهر في وقت الافطار.

كان نيكيتا اليكسيفيتش يشعر الآن بالاطمئنان والفرح، حيث يجلس وراء الطاولة في ركن عربة المطعم بانتظار ان يجلب له وجبة الطعام النادل ذو بزة الفراك الزرقاء والياقة الغوتابرشا المنشأة. ليس هناك من سعادة اكبر من الاسترخاء فوق الطنافس الوثيرة في العربة بعد العمل المجهد، والتطلع باستجمام وبلا مشاغل الى البشر، والى همومهم الصغيرة، والى البلدان المنطلقة وراء النافذة. وبدا كل شيء غير حقيقي نوعاً ما. والآن تذكر نيكيتا اليكسيفيتش لسبب ما وبصورة حادة جداً حقلا معزوقا ومتجمداً، تعصف فيه الرياح الباردة، وظهور الجنود المحدودية وراء النتوءات في الارض، بينما كانت الرمال وذرات الجليد تحرق العيون؛ وثمة طلقات منفردة، وبطالة، وضجر، وانتظار حلول الليل، وارتال لا نهاية لها من السحب الثقيلة كالجبال. انه السبات الفظيع قبل الموت. وبدا الانسان مسحوقاً بالمذلة الاخيرة، ومدقعا ومتجمداً، كالارض.

انقض اوبوزوف ورفع عينيه بسرعة - كانت تقف بمحاذاة الطاولة السيدة الحسنة وسالت للمرة الثالثة، مبتسمة، فيما اذا كان يوسعها الجلوس في المقعد المقابل.

هب اوبوزوف من مكانه وقدم لها المقعد، وارتبك لعجالتة، ثم جلس مرة اخرى، وفي نهاية الأمر وبعد ان تذكر قراره منذ لحظة، تطلع في عينها مباشرة، فاجابته بنظرة من عينين رماديتين قاتميتين تنمان عن الكآبة تقريباً. واصابه الدوار للحظة، كما لو اخفت العربة هذه كلها، حيث كانت تورور الاصوات، والفرنسيون يتمطقون امام قنينة النبيذ، والسويدي ينثف دخان سيجارة.

وضعت السيدة قفازيها على الطاولة قرب النافذة المغطاة بالثلج وفتحت الحقبة الصغيرة وتطلعت الى نفسها في المرآة - بلا فضول لكن باهتمام - وأمرت خنصرها فوق الشفتين وأطراف المنخرين الدقيقين، ثم نقرت القفل وقالت:

- تناولت السمك، اليس فيه خطر؟

كان صوتها خفيضاً، وصارماً تقريباً. فاجابها نيكيتا اليكسيفيتش عن طيب خاطر:

- السمك ممتاز، بكلاه.

وقرب الطبق منها فشكرته. وصار يفكر، ماذا يمكنه أن يقول عن البكلا. غير هذا: انها اسماك كبيرة الحجم تعوم نحو الشمال في المياه الدافئة للجولفستريم، وتلتف حول شمال النرويج وتنمو بسرعة ويبلغ حجمها بمنطقة مورمان قدراً هائلاً...

قطعت عليه السيدة حبل افكاره:

- انني روسية اللقب والمولد، لكنني اهرب من روسيا، هروبي من الطاعون، - وتطلعت اليه بعينين رماديتين صافيتين حزينتين، - انني اكره روسيا.

قال نيكيتا اليكسيفيتش ضاحكاً:

- وما السبب؟

ثم انحنى وذكر اسمه.

اردفت السيدة قائلة:

- اسمي لودميلا ستيبانوفنا بافجينسكايا. انت تسألني عن سبب هروبي. - وقعست رأسها الى الوراء، وحدقت في محدثها كما لو كانت تريد اعطاء تقديرها فيما اذا كان يستحق صراحتها. - انني اكره روسيا، حقاً، حقاً، - ضحكت وهي تمسك بقطعة الخبز دون ان تبلع فمها.

ان نظرتها المتألمة، وبداية الحديث الغريبة، ومن ثم الضحكة، الذكية وغير المرحه، بدت وكأنها حددت ما تتصف به روحها من تعقيد. وقد ادرك اوبوزوف ذلك الصورة بالذات والتزم جانب الحذر.

قالت السيدة:

- لقد وجهت اهانة الى احاسيسي الجمالية، لئن كنت احب الجمال والشعر واللوحات والرمم والموسيقى، فاني اريد قبل كل شيء التمتع بمرأى البشر. ويشير انزعاجي التفكير بأنه يسير في مكان ما من الارض وفي هذه اللحظة اناس رائعون. بينما اجد نفسي بيموسكو مرغمة على أن ارى يومياً كأننا اخرق، ضعيفاً، بلحية صفراء ونظارات، واقراص مسهلة في جيب صدريته. كأننا عديم الاخلاق، وبملايس داخلية وسخة وصوت يزعق، وقد تصيبه

الهستيريا في اية لحظة. فهل يمكن العيش في مثل هذه البلاد؟ كلا، انني راحلة الى امريكا.

- كما لو كنت ستجدين هناك بشراً!

- ساجد بشراً ظريفيين وشجعاً، من الطراز الاول - وليس، طبعاً، كأولئك في روسيا.

- لدينا اناس شجعان ايضاً.

- آه، كفى، ان كل شيء عندنا حقير، كما في غرفة الخدم. والمرء مظهره كالسيد، ولكن بشكل اسوأ، بربطة عنق قرمزية مبتذلة، وسحنة غليظة. ولنكن صريحين: ان بلادي وبلادك - مزحة سخيفة، وصدفة...

ضبط نيكيتا اليكسيفيتش نفسه، وتدفتت الحمرة وعلت وجهه كله ثم اصابه الشحوب واطرق بناظره، وقال:

- أرجو المعذرة، ان هذا الحديث لا يطيب لي، - والتفتت اليه السيدة بدهشة، بينما اضاف قائلاً: - لقد شاركت في الحرب ورايت رجالاً شجعاناً. ان ما تحدثت عنه هو ليس روسيا. على اية حال ان القلائل يعرفون روسيا. وما اريد قوله هو ان حقدك في غير محله.

اشعل سيجارة. انتهى الغداء، بينما كانت ريش المرواح تظرد دخان التبغ فوق الرؤوس. وكان يسمع أحياناً وراء الستائر المسدلة في عتمة الليل الصغير المديد والكتيب للقطار.

لاحظ نيكيتا اليكسيفيتش بان السيدة تبدو وكأنها متوعكة. كانت تجلس واضعة ساقاً على ساق، وهي تنفض رمد السيجارة المصرية، وتتطلع الى الفتى العابس ذي طاقة المتزلجين على الثلج، والى الفنلنديين، والى التاجر المنزعج مرة اخرى لسبب ما - بينما ارتفع طرفاً شفيتها بضحكة استهزاء.

وسرعان ما انتقلا الى العربة ووقفا صامتين في المرء، بعيدين عن بعضهما البعض بمسافة اكبر نيراً مما قبل حديثهما الاول.

ادركت لودميلا ستيبانوفنا بفريرتها ذلك كما وادركت لا مبالاة محدثها. كان يقف وقد وضع كالعسكريين ابهامه وراء زو الصديرية، وهو يتطلع الى تجعدات ورق الجدران المضغوط. وجهه فمه مرات عديدة في حبس التنازب. وجلبت المرأة -

الكمساري البدينة و الانيقة الهندام قناني الصودا ووضعت واحدة امام كل مقصورة. وفي نهاية الممر فتح الباب الخارجي، وتولدت سحابة باردة، وتراى للحظة وجه الفتى الذي لفتحته الريح وذوي طاقة المتزلجين. والقت لودميلا ستيبانونفا نظرة على ساعة يدها، ووضعت قدمها على شبكة المدفأة التي تطلق، وقالت بصوت عال مصحوبا بتنهيدة:

- اود ان تسامحني: انت من لم يسمع بشتم روسيا امامي. وانا نفسي كنت لاقف اي انسان عند حده. بيد اننا بلغنا غاية التهتك. وفجأة بعثت كلماتك الحادة الدفء في نفسي.
فاجابها نيكيتا اليكسيفيتش بلطف:
- وانت ايضا سامحيني على حدثي. هل حقا انك راحلة الى امريكا؟

- لقد وقعت عقدا لتقديم ثلاثين حفلة موسيقية.

- آه، هذا شيء آخر، كنت اعتقد...

وسألته السيدة بمزيد من العجلة:

- ماذا كنت تعتقد؟

- لقد ظننت... انك لمجرد الترفيه عن النفس..

قالت بعد فترة من الصمت واطرقت ببصرها.

- انني.. انسان وحيد. انني احس بالكآبة لدى البقاء في مكان واحد فترة طويلة. ان هذا صعب جدا بالنسبة الى امرأة في الثلاثين، بلا عائلة وارتباطات.. وهزت كتفها. - ما اشد البرد، انني لا اناج جيدا في الطريق. وانت اثرت قلقي، دون ان اعرف بأي شيء. انني سافكر الليل كله... - وارتسمت على ثغرها ابتسامة حزينة. - اتريد ان تفعل عملا طيبا؟ هبني عدة ساعات كتضحية، هيا بنا.

فتحت المقصورة حيث كانت تفوح رائحة عطر نفاذة، ويعلق معطف فرو، بينما توجد في الشبكة حقيبة صغيرة - هذا كل متاعها - واجلس نيكيتا اليكسيفيتش على الكنية المخملية، وجلست نفسها على طاولة صغيرة عند النافذة، وامسكت بركبتها المرفوعة النحيفة وقالت:

- بوسعك ان تدخن وتغفو..

لقد احسنت القول. وبعد هذا لزمنا الصمت فترة طويلة نوعا ما. كانت تصدر طقطقة عن المدفأة. اما العجلات فكانت تواصل الطرق: «طريق بعيد، طريق بعيد». صار نيكيتا اليكسيفيتش يتابع خيط الدخان الازرق، ومن ثم الساق النسائية، النحيفة عند الرسغ، والممتدة داخل جورب اسود، وهي تتأرجح بالقرب منه تماما.
قال:

- اننا نحن الاثني عازبين، وقد التقينا، وبعد مرور يوم سنفترق عن احدانا الآخر، الى حيث تحملنا الريح. وهل يمكن ان يوجد شيء اقرب وامس حاجة من الانسان الى الآخر؟ حقا، ان اكثر ما يحزن في هذه الدنيا هو - اللقاء القصير ابان السفر.
نظر الى لودميلا ستيبانونفا. كانت تصغي اليه بانتباه و بقلق وقد مدت راسها نحوه. وتغضن جبينها الذي اختفى نصفه وراء خصلة شعرها.

وتحدثت ببطء، فقالت:

- ثمة لحظات لا ينساها المرء طوال حياته.

- لا اعرف، لم اشهد مثلها. ولكن الخيالات التافهة لاياام

الفتوة لا تنسى، وانت على حق.

- كلا، كلا. انها لحظات الجنون، والهيام التي تنطلق

كالدوامة...

عندئذ قلب نيكيتا اليكسيفيتش حاجبيه: «آه، ما لها بهذه السرعة، وحتى اسرع مما يجب...». فاطرق ببصره وشعر بكل كيانه بتيقظ مشوب بالعداء. وانزلت السيدة من الطاولة الصغيرة. لم يكن يرى ما تفعل، وسمع بضع تنهيدات فقط وضغط على شفثيه بقوة. بات واضحا ان الحديث قدخرج عن مساره السلس، واندفعت احسيسها نحو المخرج الاقرب، والابسط والاقصر، الذي يكمن وراءه الخواء واللامبالاة والاسف والضنى. وعندما اشعل عود ثقاب التي نظرة فرأى لودميلا ستيبانونفا تقف عند الجدار وقد شبكت يديها وراء ظهرها.

قالت:

- انك شديد الخوف.

- بلى، انت على حق.

- لقد شحبت لدى سماع حفيف تنورة. مسكين.
- ماذا بوسعي القول، لولا اعجابي بك، لكان كل شيء
اكثر يسرا...

- هل اعجبك؟ غريب. لقد بدا لي انك تعتبرني مجرد امرأة
لجوجة وجبنت، - واطرقت حاجبيها على عينيها الغاضبتين ودقت
بكعب حذائها، - اؤكد لك، بانك على خطأ.
فضحك نيكيتا اليكسيفيتش وقال:

- هيا، حسنا. اتوسل اليك جداً، ان تغفري لي جداً.

- لأي شيء؟ اظن ان سلوكك كان متواضعاً للغاية.

كان منخراها الدقيقان قد اتسعا، وكعب حذائها يدق، وظل
اهدابها المسبلة يتراقص على خديها. وفكر في دخيلة نفسه:
«جواد حرون»، - وبغثة غمرته دفعة دافئة من الحنان. ومد يده.
فهزت رأسها غاضبة.

وقال باخلاص:

- ان سر المسألة يكمن في انني كنت اخاف النساء دائماً.
لقد لدغتم مرة في ايام الشباب.. ان اغراء تكن، ايتها النساء،
تجذب وترهب... (وضحكت باختصار). لودميلا ستيبانوفنا، انت
تذكرين: «نجمة العشق الباهرة...» لقد كنت احلم بهذه النجمة
الباهرة، على ما اذكر، في ذلك الحقل المتجمد، ووسط برك
الدماء.. كان لي صديق مغرم باحدى الفتيات اشد الغرام...
كان يقول: «لا يمكن قتلي - فحرب ان تطلق النار على السماء
المرصعة بالنجوم! وهكذا الحال معي..» وطبعاً، قتلوه،
في نهاية المطاف، لكن التطلع بهذا الشكل - حتى السماء - شيء
حسن... وانا اخشى دائماً - التبدل: فبدلاً من النجمة الباهرة -
الشيء نفسه تقريباً، ولكنه يخامرني الشك في انه الشيء المراد..
اخشى العجلة والاندفاع ومن ثم التوقف والتطلع في عيني امرأة
خاويتين بعد فوات الاوان... هل تفهمين؟ كلا؟.. وكيف
تتعاملين مع الانسان عندما تهفو روحه الى نجمة العشق الباهرة.
ضحك وأخذ يد لودميلا ستيبانوفنا عنوة وقبلها بحنان. ولم
تسحب يدها. وتنهدت ثم جلست الى جواره. وواصل الحديث عن
نفسه وعن رفاقه، وعن الموت في الحقل المتجمد بينما التزمت هي

الصمت وهذات. وعندما مال رأسها ذو الشعر الاصهب ومس
كتفه، صمت مبتسماً، ونهض بحذر وهو يقول: «لقد اتعبتك،
فنامي، نامي»، - وخرج من المقصورة سائراً على اطراف اصابع
قدميه.

اغلق الباب وراءه. وفتحت لودميلا ستيبانوفنا عينيها،
وجمعت قبضتها الصغيرة وضربت بها الوسادة المخملية.

.....
في منتصف الليل جاء اليها الفتى العريض المنكبين ذو
الطاقية، وجلس على الكنبة، واسند حذائه الضخمين الى
الجدار الصقيل، وتلفع بدخان غليونه، وقال:
- كان ينبغي ابداء همة اكبر.

لاذت لودميلا ستيبانوفنا بالصمت وبينما كانت ترتب خصلات
شعرها بيدها العرفوعتين عالياً، قبضت على الدبابيس
باسنانها، وبان الذبول في عينيها الناعستين وخديها وبدت
حركاتها غاضبة. ومست الفتى بمرفقها همست له عبر الدبابيس
قائلة:

- انك تضايقني. اخرج مع غليونك.

تزرح من مكانه وقال وهو يخفي الغليون في جيبه بتكاسل:
- ينبغي انهاء الامر كله قبل بلوغ الحدود. سيكون العبور
على شاقاً. انك تجازفين بمواصلة السفر لوحداً.

- اعبر. انني لن اسافر لوحدي. وانت تعرف هذا خيراً مني.

- حسناً، واذا ما اطلقوا على النار؟

هزت لودميلا ستيبانوفنا كتفيها. وبعد فترة صمت قصيرة
سال الفتى بكسل اكثر:

- ما الامر، هل انك لا تحوزين على اعجابي، ام ماذا؟

عندئذ تملك السيدة الغضب. فتناثر شعرها، والتوت مسحة
وجيها، وصارت بشعة. وتدفقت من الشفتين الجميلتين عبارات
لا معنى لها، فهي تارة تنم عن العجرفة وتارة عن التوسل. اما الفتى
فقد غادر المقصورة خشية حدوث ضجة.

واشعل غليونه على المنصة واتكأ على العمود الحديدي.
كانت الرياح والثلوج تعصف على وجهه المربع الصلب،

بينما كانت عيناه الضيقتان تميزان في العتمة الدكناء المبهمة الحقول البيضاء، والهايكل المخروطية القائمة لاشجار الشوح السقماء. وفي الشمال كان يومض فوق الارض ضوء الشفق القطبي الابيض.

بعد بضع لحظات خرجت الى المنصة لودميلا ستيبانوفنا وقد تلفعت بمعطف الفرو وبمنديل وقالت عابسة:

- ان اباه مغلق من الداخل بالسلسلة. إنه حذر.

وحجب الفتى الرياح عن السيدة، وصارا يتشاوران.

غط نيكيتا اليكسيفيتش في سبات طويل وعميق. ويبدو انه شاهد في نومه احلاما طيبة. وعندما اخذ يرتدي ملبسه ازال وهو يبتسم شعرة نسائية شقراء من زر جاكته. انه لشيء طيب ان سارت الامور يوم امس على مايرام. والا لكان الآن يجلس براس اشعث، ولدخن السجاير. اما الآن فلديه شعور بالنصر، ولو انه صغير. ويسود راسه الصفاء، وجميع عضلاته متوترة، وقلبه يدق بانتظام وبشدة. وتنتظره عدة ايام من الصحبة الجميلة و الاحاديث التي تزول في كل كلمة منها حواجز جديدة بين البشر. وكان الصباح باردا مشمساً.

لم يفلح ابوزوف طوال ذلك اليوم في رؤية السيدة الحسنة كثيراً. ولقيته متعبة، وتحت الغلالة، وبقبعتها ذات الجناحين، وقالت انها قلقة جداً بشأن المتاع وتعاني من صداع في الراس. وفلا فقد جلست في المحطة الحدودية، وراء الطاولة المغطاة بقماش مشمع، وسط المسافرين والصناديق واللفائف والاطباق القذرة، وهيئتها حزينة جداً، وهي تسند خدها على قبضتها بشكل انار اشفاق نيكيتا نيكسيفيتش عليها. كان يتطلع اليها من بعد وهو يفكر في دخيلة نفسه: «انها تسافر الى امريكا، ولكن اغلب الظن انها تكذب. فاعصابها خائرة جميعاً، وتخفي وجهها في الصباح؛ وتقول سخافات، اما عيناه فكثيبتان؛ ولا يجوز ابداء اللطف تجاهها، ولا تهدتها، لأنها نفسها لا تريد الملاطفة ولا التهذبة؛ ونهايتها ستكون اما في مستشفى الامراض العقلية او الموت غيظاً». وأراد جداً الجلوس الى جانبها والتحدث معها، لكن حالت دون

هذا الجلبة في تدبير امور الامتعة وجوازات السفر، ومن ثم عبور الحدود في زحافات، والتفتيش. وفي الساعة السابعة نقل متاعه الى مطعم صغير منخفض السقف ودافئ. بالقرب من محطة القطار السويدية. كانت تسوده النظافة والبياض ورائحة الطلاء. بينما كانت القهوة تعد فوق لهيب موقد كحولي، بينما كان يثز مثل النحلة مصباح كيروسيني معلق من السقف. وانداح الليل القطبي وراء اطارات النوافذ المربعة. وكان المسافرون يفتدون في الزحافات. واعتمر ابوزوف قبعته وخرج. كان النور يومض عند طرف الارض في الشمال. كان نورا ضعيفا وخائبا وشمل السماء المرصعة بالنجوم بطيفه المائل الى الزرقة. وفي مكان اعلى منه كانت تنير مجموعات من النجوم الساطعة. وغطى الثلج والزهمير ذو انعكاس النور الضعيف الحقول المنبسطة مع اشجار الشوح الهرمية المائلة الى السواد. بدا هذا كله ميتاً، كما لو كان من الايام الغابرة، واحس بجلاء في تلك القطار الظلماء كيف تنبض كتلة قلبه الحي. صدر صرير من الثلج بالقرب منه. وتطلع ابوزوف فاذا به يرى رجلا قصير القامة بصديرية وطاقية ينطلق من العتمة القائمة، ويمر به مسرعاً ثم يختفي في العيني المنخفض. ولم ير وجهه، بل ومضت عيناه فقط.

وفكر نيكيتا اليكسيفيتش: «ما معنى ذلك؟»، وصار يتذكر العينين البراقتين كعيني قط. ثم اخذ يفكر بان حياة لودميلا ستيبانوفنا حاوية وموحشة مثل هذا السهل المنبسط، وان قلبها البائس يرتعش في كآبة خشية من الموت. وانه نفسه، نيكيتا اليكسيفيتش، لم يكن ذلك البطل الذي يصونها من الاغراءات. وقد آذاها بقسوة يوم امس بكبريائه الشديدة! واسترسل في الكلام وحتى تلا الاشعار... اف!

تنحج ومد يده الى جيبه لاجراج السجاير. وصارت افكاره الآن تدور حول شيء ما لم يتحقق. صفق من خلفه الباب، وانفصل هيكل امرأة عن الضوء الاصفر الشاحب، المنساب عبر النافذة المربعة للمطعم. وقام نيكيتا اليكسيفيتش بخطوات واسعة للقائها وصاح:

- التزمني الجانب الايسر، فهنا كتيب تلجي، - تم دنا من

لودميلا ستيبانوفنا، وأمسك بيدها الدافئة بدون قفاز وقبلها.
كانت تقف بالقرب منه تماما، رافعة رأسها نحوه بأمان.
وقالت بصوت خافت:
- كنت أبحث عنك.

تطلع الى وجهها الحزين والنحيف الذي سقط عليه بضيض
من نور الشفق القطبي. وكانت تحيط بعينيها الواسعتين الظلال،
بينما لمعت شرارة النجوم في حدقتها. وبدت له ساحرة الجمال.
وكانت يدها الصغيرة مستلقية بلا حراك فوق كم معطفه الفرو.
- لطيفة ومسكينة!

لم يطرأ تغير على وجهها. وكان فمها الجميل ينم عن الجد.
وانحنى وقبل شفيتها. فتنهدت. كان الفرو الرمادي لمعطفها منفرجا
قليلا وبدا جيدها وقلادة من اللؤلؤ الناعم. وزرر نيكيتا
اليكسيفيتش بحذر يافتها. وكرر قائلا: «مسكينة!» وتردد من بعيد
صغير قطار مدريد.

كان نيكيتا اليكسيفيتش يستلقي مجدداً في المقصورة ذات
المصباح الازرق القائم فوق السرير ويكرر هامسا في قرارة نفسه:
- سحرا! فتنة!

منذ وقت قليل عندما كانا فوق الثلج لم يتفوه بأية كلمة
أخرى. ولا بد أن لودميلا ستيبانوفنا نائمة الآن. بينما تركزت افكار
واحاسيس نيكيتا اليكسيفيتش كلها بتوتر غير اعتيادي على
تلك المرأة النائمة وراء الجدار، والغريبة عنه. ألم يكن هذا
سحرا؟

فجأة نهض، وفتح الحقيبة، واخرج الموسيقى وحلق ذقنه. لم
يشعر بأية رغبة في النوم. وحضرته مجدداً عبارة: «يا نجمة العشق
الباهرة، لقد غبت الى الأبد. آه، يا حبيبي راتمير...» فضحك،
وزرر الصديرية وخرج الى الطرقة. كان القطار قد توقف لأول مرة
في محطة صغيرة يكسوها الثلج، حيث كان يتمشى بمحاذاة العربات
جندي وردي السحنة، بياقة بيضاء من فرو الماعز وغطائين للاذن
من الفرو نفسه، وبدا كالدمية. وجاء الى الرصيف من بين أشجار
الشوح الغطاء بالثلج، ماشيا بسرعة، الرجل العريض المنكبين

ذو الصديرية الدراعة وتطلع الى النافذة ثم قفز الى داخل العربة
كانت مقلتاه شبيهتين بمقلتي المتزلج الذي رآه منذ قليل،
وعموما فان وجهه بدا مألوفا لديه بشكل مخيف. وفكر نيكيتا
اليكسيفيتش في دخيلة نفسه «شيء غريب»، ومس المظروف
المصنوع من قماش القنب على صدره وغمره مجدداً شعور
بالفرح غير المعقول والمضحك.

استيقظ آذاه الليل من نومه عدة مرات وكان يردد: «يا نجمة
العشق الباهرة»، ويضرب الوسادة بقبضته، ثم يستسلم للكرى
مجدداً، وهو يضحك. ومرة ميز صوتاً رجالياً مفتابا يعاتب احداً
ما في التباطؤ والجبن. وكان الصوت يكرر: «القارة، القارة...»
وفي نهاية المطاف تلاشى، واختلط مع دقات العجلات.

مضى اليوم التالي بسرعة كالحلم. وقد لزمتم لودميلا
ستيبانوفنا الصمت وأثر فيه على الاخس انه طرات عليها
استكائة ما وجلة تقريبا. وعندما دعاها اوبوزوف الى الافطار
اجابت: «حسنًا»، وسارت على الفور امامه وهي تمسك بمعطفها
الفرو الملقي على كتفها. واسترق عدة مرات نظرتها الملحة
العائرة، وفور ذلك كانت تبعد بصرها بخوف. وكان ذلك كله غير
مفهوم ورائعاً ومثيراً للقلق...

كان القطار ينطلق في وسط جبال مغطاة بالغابات وتكسوها
الثلوج. وكانت تمرق وراء نافذة المطعم البيوت الحمراء من
مسرحيات ابسن، والشلالات المتجمدة، وحواجز الغابة السوداء،
والجسور...

تطلعت لودميلا ستيبانوفنا الى الجدول الزمني (وكان من
المقرر ان يتوقف القطار بعد بضع دقائق)، واقتربت من الزجاج
وقالت:

- هاهو ذا سقف احمر فوق الجبل. وددت لو أعيش في هذا
البيت حتى الربيع... لربما يبدو لك غريباً، ولكنني احب جداً
الخلوة والثلوج والغرف النظيفة. وهكذا لم يدر بخلد احد ان
يستفيد مني كرفيقة حياة طيبة.

هزت رأسها وهي تتطلع في النافذة، وبعد هنيهة تفضنت
سحنة وجهها. وصفر القطار لدى اقترابه من محطة الوقوف.

وسال نيكيتا اليكسيفيتش:

- اوما كنت ستشعرين بالوحشة في خلوتك؟

عندئذ جرى لها أمر غريب: اذ التفتت بجدة نحو الجالسين في عربة المطعم، ثم نظرت الى عيني نيكيتا اليكسيفيتش بيأس، كما لو لم تكن تراه، واطرقت برأسها خافضة اياه، وهي تبحث عن شيء ما في الحقيبة على ركبتها: وتواري وجهها وراء شعرها. وهمسست: - ان التسلسل خفية بعيداً عن الجميع، بدون امتعة، والبقاء لفترة الشتاء، جنون، طبعاً...

توقف القطار. وتملكت عقل نيكيتا اليكسيفيتش افكار خاطفة ومضطربة. الا انه واصل الجلوس. ورفع يده السويدية ذو قبعة فرو الاستراخان وعليها شارة. واخترق صغير القطار الحاد دماغه حتى النخاع. تحرك القطار. وارخت لودميلا ستيبانوفنا يدها وبدت كما لو انها اقصر قامة.

بعد ذلك وقفا مئات المرات في الممر، وجلسا في المقصورة، وتفوها بكلمات ليس لها اي معنى، وكانا يخافان حركاتهما، وتماس الايدي. ولم يكن نيكيتا اليكسيفيتش يحول نظاره عنها، وبدت كل شعرة فيها اكثر اغراء. وعندما كانت تتلاقى نظراتهما يزول ضجيج القطار ويتوقف الزمن.

مر بمحاذاة مقصورتها المفتوحة رجل بدين يرتدي جاكته رمادية مكرمشة. وبعد ان تطلع الى السيدة الحسنة تعثر بغتة، واسقط السيجار وقال: «عفوا». وارتجف ذقن لودميلا ستيبانوفنا. اغلق اوبوزوف الباب الزجاجي واسدل الستار. وواصلت هي الضحك. عند ذلك جذبها اليه، واحتضنها وصار يقبلها بينما التزمت هي الصمت ثم ففزت بغتة وهتفت بعنف:

- كل شيء الا هذا. بحق الرب. ليس هنا. وليس الآن. -
وتغيرت سحنتها. امسك نيكيتا برأسه وخرج من المقصورة، واصطدم في الممر بشخص ما ابتعد مسرعاً، وولج الى مقصورته واستلقى على وجهه ...

استيقظ لشعوره باليقين من انها هناك، فجلس بسرعة على الكنبة. وكانت لودميلا ستيبانوفنا تقف عند الباب وهي تمسك

بشيء ما بيديها وتضمه الى صدرها؛ كان المصباح الازرق ينير فوق رأسها. وأراد بكل كيانه ان يتقدم نحوها، ولكنه اسقط يديه على الفور، - فقد ومض الرعب الشديد في مقلتيها الواسعتين.

- ماذا تفعلين؟ - وادرك فجأة كل شيء، وماذا حدث الآن، وخلال الايام الثلاثة تلك. - ضعي الجاكته، - قال هذه العبارات بصورة متقطعة. وعندما ترنحت سائرة نحو الباب، امسك بسرعة بيدها النحيفة والضعيفة من المرفق وكرر بصوت مبجوح: - هل جننت... هل جننت...

فاسقطت ملايسه وهي تطلق انينا ضعيفاً:
- انني اردت ان ارى فقط... لا حاجة لي... ما كان بوسعي غير هذا... انه امرني... انه لا يرحم... وسيبلغ عني... وسيقتلني... انني لم امس شيئاً... خذ...

كانت ترتعش وهي تنظر الى اوبوزوف، مادة اليه الجاكته بسرعة وبحركة خرقاء.
ثم نهض واغلق الباب، وفعل هذا بلا وعي تقريباً، واخرج المسدس، ثم اعاده فوراً الى جيبه.

- يجب عليك النزول في اول محطة...
فاجابته بهمس:
- شكراً...

وقاطعها بجدة: - مهلاً... انني لن اتركك، انت تفهمين، - ان لم اكن انا، فسيقع آخر في الشرك. اجلسي!
فجلست على الفور، وهي تواصل التطلع في عينيه. و عند ذلك سألها دون ان يعرف البتة لاي غرض:

- لماذا كذبت؟
- انني لم اكذب... انا احبك...
كان هذا مفاجئاً وقظيماً ووقحاً. وتمتم اوبوزوف قائلاً:
- لا تجراي في الحديث عن هذا...
- اقسم لك...

وحتى نهضت لكي تعين النظر، وبعد ان ادركت بأنه لم يعد يصدق شيئاً الآن، صارت تكرر مع هذا بصوت غريب ومتهدج

بأنها تحبه. اراد ان يلمطمها، وحتى شعر بالاختناق اشمنزازاً.
وقالت بصوت هادي، وكأنها نائمة:

- اضربني او اقتلني، فالامر سواء. عندما قبلتني ونحن
فوق الثلج احببتك. انني احبك منذ يومين. لم يكن اي رجل
عزيز الي قلبي بهذا القدر. انني خائنة ولصبة وجاسوسة. انت
لا تعرف حياتي. بيد انني غير مذنبه امامك. يا عزيزي وحببي
وغرامي...

كانت اسنانها تصطك.

وصرخ مهدداً بقبضته: - ماذا تفعممين؟.. انني امنعك،
اتسمعين! صه!

اطرقت لودميلا ستيبانونفنا براسها، وتناهت الي سمعه
اصوات، - كانت تبتلع ريقها...
وسالها:

- انت لست وحدك، معك مرافق؟ - فهزت راسها بالايجاب.
- وكان يجب عليك ان تسلميه الوثائق؟ هل هو في قطارنا؟
الفتى ذو الطاقية؟ لقد عرفت ذلك.

وقد سالها عمداً بصوت عال وحازم. كان الجو خانقاً في
المقصورة. وبدت لودميلا ستيبانونفنا في الضوء الازرق والخافت،
وهي ملتفة في كومة، اصغر حجماً واطفئ... وقال وهو يسعل:
- انني خارج، اما انت فابقي هنا.

وعندما اصبح في المر صار يمسح وجهه بالمنديل. «انها
تكذب طبعاً. والآهات والدموع، وتلك القبلة السخيفة! انها مجرد
امراة حاذقة. كانت تكفي دقيقة اخرى... وحدث، يا الهي، مالا
يحمد عقباه!.. اف!» وابتعد عن المقصورة وهو يغغم ويتعثر.
«كلا، يا امراة، لا يجوز التسامح مع اضرابك... لو كان آخر بمكاني
لارداها صريعة بالمسدس، وبعد ذلك - تفضلوا و اعتقلوني...
ولكان على حق».

شاهد نيكيتا اليكسيفيتش من المنصة فجأة مشهداً عجبياً: كان
القطار يلتف حول منحدر شديد في سلسلة الجبال، الشبيهة
بحدوة الحصان، وأنداحت عميقاً في الأسفل حيث تهاوت الصخور

منتصبه، بحيرة كبيرة وطويلة، يغمرها نور القمر. وكان البدر
المدور يبدو فوق السلسلة المتموجة بقليل. اما انحناءات الجبال
فكانت تتعاقب بخطوط سوداء، وأخرى بيضاء ناصعة...

وفجأة غاص القطار في نفق، وغمر الظلام الابصار. فترجع
نيكيتا اليكسيفيتش بلا ارادته عن الباب الحديدي للمنصة
المكشوفة، وعندئذ أمسكت يدان قويتان برقبته ودفعته بعنف
الي الأسفل.

كان المهاجم الجاثم فوقه ثقيلاً ومفتول العضل، ويتنفس
بشدة، بينما كانت اصابعه تدعك رقبته وتضغط عليها بعجلة
محمومة. وفقد اوبوزوف وعيه للحظة. ثم تاب الي رشده فاذا
بخصمه يواصل الضغط على رقبته بيد، بينما كانت اليد الأخرى
تفتش في جيبه. فامسك بهذه اليد بقوة، فوق المعصم ولوهاها،
فصدرت عنها قرعقة. أخذ المهاجم يجأر واندفع جاذباً نيكيتا
اليكسيفيتش من ساقيه، وواصل الصراع في الظلام واحدهما
يدفع الآخر نحو شبكة المدخل. وكان هدير العجلات يطغى على
الصراخات.

بدا واضحاً ان يد المهاجم مصابة، فقد ضعف. وانتهى النفق
فجأة كما بدا، وغمر نور القمر وجهيهما. فرأى اوبوزوف العينين
الفاثتين المألوفتين، بدون الحدقتين، ورفع غريمه عندئذ،
بغيط وهو ذلك الغيظ الذي يعتملك عندما تصرخ فلا تسمع
الصراخ، وعندما تتسع حدقات العيون، انه - ذلك الغضب المحتدم
والوحشي والذي يصيب المخمورين - والقي به وظهره الي
الشبكة الحديدية وفك يديه. وتآوه الفتى وتهاوى وسقط فوق
الصخور. وتدحرج جسده حالماً بلخ الارض، وقفز ثم تهاوى بعد
ذلك كالجثة الهامدة فوق المنحدر الي البحيرة. ومال نيكيتا
اليكسيفيتش وهو يتطلع اليه. واختفى كل شيء وراء المنعطف.

توقف القطار في محطة مرور. ودخل اوبوزوف الي العربية
مترنحاً؛ كان بان المقصورة مفتوحاً. اما لودميلا ستيبانونفنا فقد
اختفت. فتهاوى على الكنبه بصعوبة، ووضع مرفقيه على الطاولة،
وضغط على وجهه براحتيه وجمد.

.....

لم ينم اوبوزوف ليلته، وعانى من وجع في صدغيه، وبدا
اشعث وشاحباً، فاستقل في بيرغن سفينة تنقل حمولة من الورق
والجلود.

كانت ريح شديدة تهب من البحر. وكان المارة على الكورنيش
يسرون غائسين في الاوحال، بينما كانت تقعقع مراكب البضاعة؛
وكان البحارة، ذوو الجزم غير المنثنية والقبعات الجلدية،
يراوحون في مكانهم بالقرب من اوناش ينبعث منها صرير،
ويدرجون البراميل، بينما كانت الريح ترفع اطراف معاطفهم
القطنية القصيرة. وهناك عدة سيدات، مع اطفال وحاضنات،
يرتجفن من البرد بالقرب من حقائب انيقة القيت في الوحل. بينما
علق الوكيل الهمام لشركة «كوك»، وهو ما انفك يبتسم، بسيد
غاضب يضع نظارات على عينيه، ويكافح الريح والوكيل وضيق
النفس والاحوال المتطاييرة من اطارات السيارات. تلبدت سحب
رمادية فوق المدينة الصغيرة الرطبة الشمالية، الواقعة فوق
منحدرات سلسلة جبلية بشكل حدوة، وكانت تمس ابراج
الكنائس و اشجار الصنوبر والصخور البنية، وتزحف الى الاعلى
فوق القمم المغطاة بالاشجار.

كان نيكيتا اليكسيفيتش يقف على سطح السفينة تارة، او
يلج هائما داخل السفينة تارة اخرى، متغضن السحنة بسبب
الالم في الصدغين، وينتظر شيئاً واحداً هو الابعار في اسرع
وقت، والتأرجح فوق الامواج، الاستلقاء والنسيان والنوم حتى
بلوغ انجلترا.

في ذلك الوقت كانت امراتان عجوزتان نحيفتان، بصديريتين
منشأتين وقلنسوتين خفيفتين، ومعهما خادم وقور، ينهمكون في
تغطية مائدة ناصعة البياض بالادوات الفضية والبلور واطباق
السرطان البحري الاحمر وقطع الجبن وقطع لحم الخنزير ولحم
البقر البارد.

واعلاه، في صالون التدخين ذي النوافذ، وحيث علقت صور
المصاييف والمشاتي النرويجية، كان حوالي العشرين رجلاً يدخنون
السيجار والغليون، ويحتسون الشراب. وكان بينهم سويديون
ودانماركيون ورجال ربة من امريكا الشمالية، ونرويجيون

بحدود لفتحها الريح في الجبال. وجميعهم يرتدون الاحذية المثينة
والجوخ الفضفاض، ويتمتعون بشهية ممتازة وروح مرحة وحتما
بالاتزان النفسي.

اما فوق سطح السفينة فكان الجرس يدق، وتصر سلاسل
الاوناش، والبراميل المتدحرجة، وتنتلق الاوامر سريعة
وحادة. وكانت الريح تصفر بشدة على جبال الصواري. لقد كان
ذلك عالماً آخر، مترعاً بالحيوية والنشاط، وبعيداً كل البعد عن
المعاناة في عربات القطار، وبدا هنا امرأ مخجلاً فحسب استعادة
الذكريات، والغوص في الاحاسيس الذاتية. وبود المرء ان يكون
نظيفاً وقويًا ونشيطاً كهذه الريح.

غادرت السفينة الميناء واخذت طريقها بالاتجاه الجنوبي
الغربي، نحو لقاء الامواج الشديدة وبدأت تتأرجح. كانت الامواج
الثقيلة تلطم الجانب الايمن، فتغمر المنورات في كل دقيقة المياه
العزبة المائلة الى الاخضرار. وكانت القمره تميل مع السرير
والستائر والمغسلة الصقيلة، وتطلق وقبل ان تعود الى حالها
تنهال عليها موجة جديدة.

صعد نيكيتا اليكسيفيتش الى السطح العلوي. وكان قد
تناول مثل الجميع، وجبة الغداء الدسمة، واحتسى عدة اقداح من
النيبيذ، واخذ يتمشى فوق السطح المبلل وقد استنارته الريح
المالحة الكثيفة والنيبيذ البورغوندي القابض وحركة المقدمة
العالية للسفينة، رافعاً ياقة معطفه، وهو ينحني لدى ميلان
السفينة او يتشبت بالسياج، وغمره شعور بالارتياح في الوقوف
تحت الرذاذ البارد وفي مهب الريح. ولم يكن يعذبه انه قتل
احدهم: فالرجل الذي القاه الى المنحدر يوم امس، لم يكن عدوه
وغريمه، بل عدو الجيش، والشعب، وبدا له ان جريرة موته تقع
على الجميع، بل ولم تكن هناك جريرة، وانما شعور بالنجاح
والظفر. بينما يختلف الامر بالنسبة الى لودميلا ستيبانوفنا:
وهنا ساعدته الريح وعظمة بحر الشمال. وكان يدرك بأنه مذنب
للغاية، ويعاني من الاشمنزاز والرافة. وعندما كان نيكيتا
اليكسيفيتش يتذكر المرأة التي يعذبها الخوف، ونصف المجنونة،

والغارقة في الكذب والمكتومة فوق الكنبة في الركن، وكتفيا
المديبتين والاصوات المخنوقة، كما لو كنت تبتلع ريقها، عز
راسه، طاردا ذلك الشبح، وحدق طويلا في المحيط الهائج
الرصاصي اللون.

كانت الامواج العكرة، التي يتخللها الزبد، تتكدر كالتلال،
الواحدة فوق الاخرى، وتنتفخ وتوشوش؛ وكانت الريح تشطر
تيجانها البيضاء ثم تنشرها؛ وحسد البأخرة يرتفع بانحراف
على هذا الجبل الحي، مولدا فرقة، فتميل الصواري و عوارضها،
وتبرز مقدمتها فوق الهاوية وبعد لحظة تنهاوى الى الاسفل، في
الوادي المائي، وينهال الطود المائي وراء مؤخرة السفينة. ثم
تتكدر التلال فوق التلال مجدداً، حاجبة السماء. وانطلقت فوق
صفحة الماء سحب متناثرة منخفضة، كما لو كانت تتوارى فيها،
ثم تتناثر منها في خطوط مائلة حبات الثلج والمطر المتجمد. انارت
انقباض النفس السماء الرمادية الباردة، والبحر الأشعث، والرياح،
والكتابة اللاارادية لمناطق الشمال.

و فكر في نفسه: «اما ان تسم نفسها واما ان تشنق... وهي
نفسها تعرف بان نهايتها سيئة. وما أشد ما كانت تصبو آنذاك
الى البيت المنعزل... «ماذا لو عشت هناك حتى الربيع». انها لم
تكن تأمل بفترة أطول من ذلك - حتى الربيع...»

لاحت الشمس لفترة قصيرة من وراء السحب المتجمعة، بعد
ان كانت مختفية طوال النهار، وغمرت بنور أحمر قاتم، وانارت
الخطوط المائلة لحبات البرد، وتيجان الامواج، التي اصبحت اكبر
وكما لو بدت بلا ضجيج، ثم توارت. اضيئت الانوار فوق الصواري.
وصار البحر معتما وقريباً. ومضى اوبوزوف نحو صالة التدخين
وهو يرتجف من البرد.

ولم يكن هناك سوى نرويجينين، جعلتهما كتمة الهواء احمرى
الوجه، يلعبان الدومينو، والسيد الغاضب ذي النظارات يحتسى
الويسكي، واضعاً قنينة ماء الصودا بين ركبتيه. اخذ اوبوزوف
يقلب المجلات، ويسترق النظرات الى السيد الغاضب الذي كان
يصارع الغثيان، ثم تناوب ومشى بتناقل نحو الاسفل.

وفي الطريقة اوقفته الوصيقة قائلة بهمس:
- هناك سيده تود رؤيتك. ارجو ان تتبعني.

فاجاب وهو يمسك العارضة النحاسية:

- اية سيده ما هذا الهراء؟ - وبغته شعر بالتأرجح والدوران
وضيق النفس. - اية سيده، انني اسالك؟..

ثم تبع على الفور الوصيقة المبتسمة التي فتحت باب القمرة
الاخيرة. فرأى هناك من العتية لودميلا ستيبانوفنا. كانت ترقد
في رداء دنثلا مهلهل، فوق غطاء يشبه جلد النمر. ووضعت على
راسها كيسا فيه ماء ساخن، وتدلت يدها الى الارض بوهن،
وعيناها فقط كانتا متالقتين وجافتين ونهمتين.

قالت بصوت مبجوح:

- انني اتالم غاية الألم. اجلس عند قدمي. لقد اردت ان اراك
مرة اخرى. سيعتقلونني في انجلترا الا انني لا اطلب منك شيئاً.
اشفق علي.

جلس نيكيئا اليكسيفيتش عند قدميها، ممسكاً بقبعته، وقال
من بين اسنانه:

- انني اشفق عليك...

- انا احبك بجنون. سافقد عقلي. لن احيا هكذا. وانت،
انت، تتحمل الذنب كله. آه، ما أشد عذابي!

ووضعت يدها على قلبها ثم على حنجرتها واصابها شحوب
شديد. وزالت نوبة الضعف، ثم تالقت عيناها من جديد.

- لقد قررت ان اسرق الوثائق فقط من اجل التخلص منه.
نعم، نعم، - رفعت يدها وهددت -، انني كنت ابغضه. انه كان
سيذبحك وانت نانم لولاي. انت تعرف هذا كله بدوني... انت
تتظاهر، وتكذب، فانت تحبني، انك لن تتركني.

وغلبيها الضعف، وتصيب العرق من وجهها. وحك نيكيئا
اليكسيفيتش مؤخرة اذنه بشدة. وقال:

- افهميني، ايتها المرأة المضحكة، فليس بوسعي ان احبك.
ولن يحدث شيء بيننا.

- لا تجرا على الحديث عن الحب هكذا.

- انني اشعر بالسأم عندما تتلفظين هذه الكلمة، - قال ذلك ونهض.

صرخت لودميلا ستيبانوفنا وهي تتشبث بكم معطفه :

- يا الهي اي ظلام! لماذا لم تعد تحبني؟ هل انا اسوأ من اليوم الثالث؟ انا - افضل. لقد ضحيت بكل شيء، ووهبت كل شيء. انا - لك، لك، لك، لك!

انزلق الرداء الدنتلا من كتفها العاري. وتدحرجت كرتا عينها نحو الاعلى. تطلع نيكيئا اليكسيفيتش اليها. كانت بانسة جداً. وسرت القشعريرة في قلبه.

- حسنا، وداعا، - قال اوبوزوف وهو يفلت كم معطفه.

عندئذ دست لودميلا ستيبانوفنا يدها تحت الوسادة واخرجت مسدسا صغيرا - كان يهتز ويتقلب في اصابعها - ثم نهضت واخذت تصوب. وهز اوبوزوف كتفيه وهو يقف عند الباب.

- ارفعي صمام الامان.

عند ذلك رمت لودميلا ستيبانوفنا المسدس، ودفنت راسها في الوسادة وصارت تعض على نواجذها. وقف اوبوزوف هنيهة، ثم انحني على السيدة، وغطى قدميها بطرف الغطاء الشبيه بجلد النمر بحذر وخرج.

.....
عندما اقتربت الباخرة في صباح اليوم التالي من ساحل نيوكاسل المقفر وخرج رجال البوليس من بوابة العنبر لكي يصعدوا الى السطح من اجل فحص اللوائح شاهد اوبوزوف لودميلا ستيبانوفنا في حشد المسافرين. كانت قد التفت بمعطف الفرو وعلى ثغرها ابتسامة حائرة ومشيت نحو السلم، وهناك اوقفوها، واخذ الموظف يتفحص جواز السفر من كافة الجوانب. وابتعد من العنبر اثنان من رجال البوليس «البوبي» وصعدا الى الباخرة. فشق نيكيئا اليكسيفيتش طريقه الى الموظف، وابرز له بطاقته، ووضع يده على الموفة الفاخرة للودميلا ستيبانوفنا، وقال:

- ان هذه السيدة تسافر معي. انا اتكفلها.

في اليوم نفسه رافقها بنفسه الى الباخرة «ابراهيم لنكولن»، التابعة لخط الملاحة عبر المحيط، التي كانت ستبحر ليلا الى نيويورك، - ولدى توديعها قال العبارة الوحيدة في اليوم كله:

- انني لا اطلب مغفرتك. كما انني لن اغفر لك ابدا. عندما تحتاجين الى نقود - ابلغيني. اتمنى لك السعادة.

كانت لودميلا ستيبانوفنا تفتحب بصمت. اما هو فقد هبط بالسلام الى الاسفل وضاع وسط حشد الناس دون ان يلتفت.

سنة ١٩٢٨

وانا اتسلى باسترجاع ذكريات الاعوام الماضية. انها كثيرة. بعضها موسى بيريقي الاعياد، و بعضها الآخر رهيب.

لاتصيبني الشيخوخة ولا اذبل كالنساء اللواتي ترد اخبارهن في ذكرياتي، مثل الملكتين سيدتي الشعوب اللتين انتسبت لهما، آنا جميلة كما كنت قبل مائة وخمسين عاما، اضع باروكة عالية رشت بالمساحيق وارتدي فستانا عريض الاطراف بلون الدم. انا موجودة في قاعة استقبال كبيرة، الى يسار المدخل، بالقرب من النافذة. وفي العمق، قبالة النور، علقنت فوق الموقد لوحة بورتريه لمالكتي. لقد صورت بكامل هيئتها - فتية وايية، ومعتدلة القامة، جدا، كالجنود - هكذا كانت في الاعوام الاولى لزواجها.

عندما يداعب نور القمر المقاعد المذهبة اسمى غالها الى التطلع الى وجهها. الا ان عيني الامبراطورة تبتعدان عني باصرار و غيظ. لقد كانت تعتقد بانني سبب مصائبها كلها: اذ كانت تراودها الوسوس السوداء بصفقتها من نساء القرون الوسطى.

على أي حال، لقد ابدى الرئيس لوبيه عدم لباقة عندما جلب في المدرعة لوحة القماش المشجر التي نقش عليها بورتريه الملكة الفرنسية المهدومة وقدمها هدية الى الامبراطورة الروسية. اخرجوني من صندوق الزنك وحملوني الى قاعة الاستقبال هذه، ووضعوني على السجاد. وسالت الامبراطورة التي لم تكن متضلمة في الفن: «ما هذا؟». (كانت تقف امامي، وقد عدلت صدرها كالمربية، وضغطت باصابعها المغسولة النظيفة والباردة، على بطنها). فاجاب لوبيه البدين، بينما كان يخشخش قميصه «الفراك»، بحماس حيوي: «يا صاحبة الجلالة انه جوبلين نادر جدا يصور بورتريه ماري انطوانيت. وقد ايقت عليه الثورة بالصدفة. وفرنسا تضع تحت اقدامكم احدى نفائسها القومية». وظهرت عندئذ على وجه القيصرة الذابل بقع قشور البودرة وزمت شفقتها كالخيوط بحركة ارادية - بغية اخفاء الفرع. بيد انني طالعت الرعب الشديد، الذي ومض للحظة في عينيها الزرقاوين المدورتين الالمانيتين. سألت القيصرة: «ولماذا ترتدي فستانا

جوبلين * ماري انطوانيت

مضى تباعا آخر زوار القصر - المتحف... معاطف قصيرة من فرو الضان ومعاطف جوخ طويلة وجاكئات قطنية. مالت الشمس القرمزية وراء الضباب في عتمة المساء شتاء. ان النهار قصير في الشمال. وما برحت ارى الزخارف فوق الزجاج: اذ كانت التوافذ العالية مكسوة باوراق رسمها الصقيع كانها ذكريات عن الغابات التي كانت تصخب على الارض في الازمان الغابرة. ان الزخارف تتلاشى في سويغات الغسق الرمادي المائل الى الزرقة. اصطفق باب في مكان بعيد. بينما اختفت خشخشة جزمتي اللبد الطويلتين للحارس فوق الممشى، وحل صمت الشتاء في القصر وفي المتنزه المتلفع بالثلوج.

في بعض الاحيان كان القمر يبعث من الاعالي السحيقة نورا باهتا الى النافذة الخالية من الستائر، الا ان هذا نادر الحدوث: اذ تمضي و تمضي سحب الضباب السرمدية فوق المتنزه، وتصر وتعمل العاصفة الثلجية بين الاغصان العارية. برد وخواء.

* نسيج مشجر تنقش عليه الرسوم والصور لغرض تعليقه على الجدران، وشاع استخدامه في القرون الماضية لتزيين قاعات وغرف قصور الاثرياء والامراء. **الناشر.**

أحمر؟». و لم يستطع الرئيس اعطاء اي جواب عن هذا، فانحنى مجددا فقط، مولدا الصرير بجزمته البرجوازييتين.

علقوني على الجدار بالقرب من النافذة. ولا اذكر ان الفت القيصرة نظرة علي و لو مرة واحدة. كان الفستان الاحمر يثير انزعاجها. وكانت تناسب ذوقها التلاوين الباهتة والبنفسجية والخضراء المصفرة. كما ان ماري انطوانيت لم تكن تطيق أي شيء زاه - بل فقط ما هو رقيق وباعث على السكينة. حقا ان قصة هذا اللون الاحمر غير اعتيادية. وساقصها عليكم.

قبل مائة وخمسين عاما خلت كانت تعيش في باريس اليزابيت روه، الفتاة ذات الجمال الأخاذ. وكان والدها يعمل نساجا في معمل السجاد الملكي ويعد من خيرة الصناع في فرنسا. وكان يوسعه ان يحوك في اليوم الواحد ربع بوصة، الا ان خطوط النقوش والوانها كانت منتقاة بشكل بحيث ان جوبليناته كانت تباري الالوان الحية للطبيعة بل وحتى تتفوق عليها.

وكانت اليزابيت روه التي عملت في المعمل منذ سن الثامنة تتمتع بالذوق الرفيع ذاته. وعندما بلغت ربيعها الثاني عشر نقلت الى قسم النماذج المصغرة حيث وجب ان تصنع من قطع الحرير والصوف نموذجا مصغرا تقريبا ماخوذا عن اللوحة، ومنه يصنع الجربلين نفسه.

وهبت الطبيعة اليزابيت روحاً متقدمة، الا ان سلوكها كان صارما، لانه لم تكن لديها باستثناء جمالها الفطري اية آمال في حياة افضل. ان العمل المضني، أي الاربع عشرة ساعة، التي كانت تمضيها مع الخرق والابرة، قتلت فيها كل الرغبات المميزة لسن الفتوة. على اية حال، كانت تلاحظ صرامة الخلق في فرنسا كلها، التي كانت تكدح فوق طاقتها، وفي قعر مدقع، من اجل ان يقضي الملك و الملكة والأمراء والبلاط باجمعه في فيرساي اوقاتهم في اعياد دائمة: حفلات باليه والالعاب نارية وحفلات ساهرة ورحلات الصيد الباهرة في حقول الحبوب التي تفسدها الحوافر، وفي الليالي نزالات خيالية وراء طاولات لعب القمار في ضوء مئات الشموع. وكانوا يخدمون بهذا كله الرعب الكامن في نفوسهم من الهلاك القريب المحتوم: فالخزائن خاوية، والبلاد

في عسر، والنبله في املاق، واهل باريس يزمجرون في اعقاب العربات المذهبة الهادرة، والبرجوازيون ينشرون بسرور الأهاجي الجسورة الساخرة بالملكة، وبحياة القصر الخليفة. ولم يكن يصيب الثروة سوى ارباب الاعمال والسيارفة واصحاب صناعة الترف.

وردت من الديوان الملكي الى معمل السجاد طلبية بان تحاك صورة للملكة من لوحة البورتريه الاصلية المرفقة التي ابدعتها ريشة بوشيه العظيم.

في ذلك الدقت كانت الملكة غارقة في المشاغل بمزرعة اللعب القروية في حديقة فيرساي. وكانت الملكة تقوم بنفسها بحلب بقرة ذات قرنين ذهبيين ومخضبة بالطيب، وتطهي بنفسها الاومليت مع فطر الشامبينيون، وتصطاد السمكات الصينية بالصنارة لتناولها في وجبة الغداء، وفي اثناء ذلك تؤدي مع السيدات على ضفة الجدول رقصات الرعاة. لم يتسن لبوشيه في خضم هذه المشاغل سوى عمل رسوم عاجلة للملكة، او - رسم وجهها فقط. و صور الفستان من بنات خياله، بلون القشدة، ليساير ذوق العصر. الا انه لم يكن راضيا عن رسومه.

وردت لوحة الكارتون هذه الى اليزابيت روه، وبدأت بنسخ نموذج منها من اجل صنع الجوبلين. كان الجو قائظا في تلك الايام ووجب عليها العمل بالزحف على الارض تارة، او التسلق على السلم تارة أخرى في سبيل التطلع الى العمل من فوق؛ وكانت اليزابيت برداء خفيف يكشف عن صدرها وعن ساقها المشقوقتين حتى الركبتين.

رأها بهذه الهيئة مدير المعمل، أحد النبلاء المفلسين، والرجل البدين الوسخ - وكان بالرغم كهولته ذا حساسية بالغة تجاه مفاتن النساء. فبحلق بعينه بشكل رهيب، بعد ان باعد ما بين سمائتي رجليه المحشورتين في جوارب لم تشد جيدا. وتصيب العرق من تحت باروكته على خديه الحليقين. ولاحظ في ذلك اليوم القائظ عندما كان الذباب ينز على زجاج الورشة المعفر بالغبار، بان الصببية حلوة لذيدة، مثل تفاحة غضة وطرية. جلس بالقرب من المسند واخرج علبة النشوق، ونثره فوق الدنتلا.

وكانت عيناه النقرسيتان تبهلقتان. أما اليزابيث التي لم تكن تفكر سوى بعملها فكانت تزحف على ركبتيها بين قدميه مادة يدها تارة لالتقاط المقص، أو منحنية الى الأسفل من أجل قطع الخيط تارة أخرى. ووجد المدير في ذلك متعة الذواقة تقريبا: إذ كان حسن الصبغة يفوح في منخرية المنتفخين. عندما انتصبت واقفة بتكدر ورفعت ذراعيا العاريتين لتثبيت خصلات شعرها الكثيفة المجعدة المنحدرة على وجهها أحس بغتة بما يشبه «الكونجيكسيون»، أي الضربة، المستعدة لتزيق الأوعية الدموية، وبغية التخلص من الانفعال بصورة أسرع، سقط من المقعد بثقله فوق اليزابيث، وأمسك بها وصار يطررها بوابل من القيلات في وجهها وجيدها وصدرها.

صرخت بصوت عال إذ كانت هذه أول مرة تمسها يد رجل. هبت واقفة، وصارت تكافح، وبعد أن خلصت يدها اليمنى، لطمت المدير على خده. وجرى كل شيء لاحقا بصمت، باستثناء عدة ضربات من قبضة المدير وأنين ضعيف صدر عن الصبيبة. عندما اصطفقت الباب وخفت وراءه الخطوات الخافتة دخلت النساء الى الورشة. ووقع بصرهن على اليزابيث وقد تمزقت ثوبها، ورقدت فاقدة الوعي على النموذج المصغر. كان فستان الملكة الحليبي ملطخا بالدماء، ووجه اليزابيث محطما. وحملت من هناك. وفي اليوم نفسه طردتها الادارة من العمل.

ان ما حدث ما كان يستحق الاهتمام، الا انه عندما رأى بوشيه النموذج التالف احتدم غضبا، وانتفضت ارنبة انفه الانخس تحت البودرة، ووجه كومة من الشتائم الى مديري المعمل، ثم تطلع اليه مرة أخرى، وضيق عينيه وطقطق بأصابعه. وأعيد الى الأذهان بأنه لم يكن راضيا عن لوحته، وعنددها ومضت في رأسه فكرة استخدام لون بقع الدم. فوقع اختياره على حرير قرمزي وأمر بان يستبدل به فستان الملكة في النموذج. ثم قال: «رائع» وارسل النموذج الى ورشة النسيج حيث يعمل العجوز روه.

هكذا ظهرت الى الوجود. عمل العجوز روه ليل نهار في حياكتي. وغالبا ما كانت تسح عيناه الدموع بحرقه فوق تجاعيد وجهه؛ بيد انني لا أعرف بالضبط ما جرى لاليزابيث لاحقا. بدا الحياكة من

الرأس، وبقيت طوال اشهر في منسجه مقلوبة رأسا على عقب. وصاروا يعجلونه، وعمل بجهد عنيف وبصمت. في نهاية المطاف اصبحت جاهزة. واسعد الحظ بوشيه بتقديمي الى الملكة بنفسه. كانوا في البلاط يعرفون قصتي، وقال في تبرير وجود الفستان الأحمر في الجوبلين بأنه لون العذرة. وكان ذلك جناسا في اذواق ذلك الزمن. فابتسمت له الملكة ابتهامة خفيفة.

علقت لوحة الجوبلين في غرفة نوم الملكة في تريانون وهو قصر صغير وحيد الطابق، خصص للمتعة الغرامية لافراد الأسرة المالكة. لا ريب في ان ماكتب في المقالات الهجائية قد تضمن شيئا من الحقيقة. إذ كانت الملكة طائشة. وذبل جمالها. ونادرا ما كان الملك يزورها في غرفة نومها، وهو يرتدي الروب الصيني وحذائين خفيفين، بجسمه المترهل، والبدن، واللغد، ولا تدور اكثر الأحاديث عن دقائق الغرام، بل عن طليقة موفقة في الصيد أو عن انجازاته في فن الخراطة. بعد انصرافه بلا ثمرة كانت الملكة تأمر بجلب العرأة الفينيسية، فتأخذ، وهي راقدة، وكلها بالدنتلا، ولا تزال مغرية في ضوء الشموع، بتأمل صورتها بشيء من الحيرة، ومن ثم تبدأ شفتها السفلى المتدلية - انها من الصفات اللازمة حتما لدى افراد أسرة هابسبورغ - بالبروز، وفور ذلك تأخذ السيدات المرحات المحيطات بسريرها العريض باداء تسلية ما ليلية وبعدها تستسلم الملكة الى النوم العميق.

يبدأ الصباح في قصر فرساي دائما بالاحتفالات. فكانت تهدر العجلات المزخرفة للعربات القادمة، ويسمع رنين الاصوات المرحية. أما السيدات الشبيهات بالزهور الحية، ذوات التنورات الواسعة المخضبة بالعنبر والعطور، فكن يتجمعن في غرفة نوم الملكة، ويتهايمن كالطيور، أو يظهرن بين حين وآخر باغراء عبر الأشجار في المنتزه. وكان ينبعث من النافورات خرابر وحفيف وطرطشة الماء، وطيور التم تصفق باجنحتها، والزوارق المذهبة تتهادى فوق سطح مياه البحيرة الاصطناعية. وتجد هناك خرائب على الطراز اليوناني، و تماثيل من المرمر تتراقص عليها بقع نور الشمس المنعكسة تحمل الخيال الخالي من الهموم الى بلاد

النعيم. وثمة فرسان مخنثون يزيلون الروائح الطبيعية لأجسادهم باستخدام العطور، وهم أقرب في المظهر إلى كائنات من عالم مثالي منهم إلى نبلاء رهتوا وأعادوا رهان قلاعهم وأيديهم ممدودة تستجدي الهبات من الملك.

لقد كانت الدنيا سخية إزاء هذه الحياة المصطنعة. وتنبعث من المروج رائحة التبين الساخن، والفراشات الزاهية الألوان تندافع، والسحب الصيفية تنعكس في البحيرة، وحتى الأنسام بدت وكأنها تهز الأشجار بلطف ومجاملة. وانصرفت الأيام تلو الأيام، كلها طائشة وباهرة. وقد سعت الملكة إلى أن تبعد عن نفسها الأفكار السوداء، أما الملك، فكان يفكر، وهو يصنع بماكينته الخراطة علب نشوق من دروع السلاحف، بأن كل شيء سيكون على ما يرام في نهاية المطاف: سيزج كاتبو الهجائيات في سجن الباستيل، وستحصل الخزانة على المال من مكان ما، أما البرجوازيون الطيبون فسيحبون ملكهم مجدداً، والريفيون الطيبون سيكفون عن الانزعاج بسبب الضرائب، ولربما ستعيد حرب موفقة، بعون الله، الثروات المصروفة...

معروف كيف انتهت كل تلك الحياة المرححة في قصر فيرساي. فقد جاءت إلى طريق فيرساي حسناء غاضبة ذات حاجبين كثين ورداء أحمر، وقبعة حمراء مزينة بريشات حمراء، هي بائعة الهوى تيريين دي ميركور ممتطية ظهر جواد، وملوحة بسيف مقوس، تتبعها حوالي ثلاثين ألف امرأة من ضواحي باريس وهن يرددن: «أعطونا خبزاً، خبزاً...». ابتسم لهن الملك من الشرفة، وحاولت الملكة الابتسام وقد حملت ولي العهد على يديها. فوضعهم في عربة ونقلوهم إلى باريس. فلم يكن ثمة مجال للضحك والهزل.

عند ذاك بقي المطر الخريفي لوحده يدق زجاج النوافذ العالية، التي تبلغ الأرض، في قصر تريانون. وتساقطت أوراق الأشجار في المتنزه، وبدأت العفونة تدب إلى أكوام الأوراق في الطرقات بعد أن لم يتم جمعها. ولاحت بين الأغصان العارية اليباكل البيضاء للآلهات اليونانية بلا خجل. وزحف ضباب الخريف، ولم يكن يعكر السكون في البيت المهجور سوى خطوات الحارس.

وظهرت بقعة من الرطوبة في سقف غرفة النوم، وبدأت قطرات الماء تتساقط الواحدة تلو الأخرى فوق الأرضية الخشبية.

مع الأيام الأولى لفصل الربيع ظهر طلاب النزهة وأخذوا يتطلعون بفضول إلى عجائب المتنزه الملكي. كان الرجال بملابس جوخ قاتمة اللون وغير جميلة، وبدون باروكات، أما النساء فكانت بمناديل رأس متواضعة وتنورات بسيطة من الصوف. جاءوا يحملون سلات فيها الطعام ويقودون الأطفال من أيديهم. وبعد أن جلسوا على العشب تناولوا طعام الإفطار مخلفين وراءهم أوراق الكرايس المكرمشة الملطخة بالزيت التي كانوا قد لفوا بها الطعام. وازاحت البرجوازيات الفاضلات أعينهن بعيداً عن التماثيل العارية، بشعور من الخجل، وأطلقن آهات التعجب بصخب لدى رؤية سرير الملكة الضخم عبر زجاج النوافذ. وكن يستندن بإطراف أكفهن على النافذة ضاغطات بانوفهن على زجاجها ويتطلعن إلى وجهي بنقمة، وأحياناً يهددنني بمظلاتهن...

مضى الصيف. وحطمت عاصفة شتائية عدة لوحات زجاجية وبحلول الربيع أخذت الزراير السوداء تنط مجدداً تحت الشجيرات. ونمت في دروب المتنزه أعشاب راعي الحمام. وغطت الأشنات أحواض الماء في النافورات بعد أن لم تعد تعمل. وصارت الأبقار الطليقة تترك في تجوالها أقراص الروث عند قواعد التماثيل. ازداد عدد الناس الذين يأتون إلى هناك في أيام الأعياد، إلا أنهم صاروا الآن ليسوا من البرجوازيين الأفاضل، بل من شباب مجهولين ذوي سراويل طويلة، حتى الرسغ، وبصودر عارية وأكمام ملفوفة، أما صديقاتهم، فذوات خدود حمراء وكثيرات الضحك، وملتفعات كيفما اتفق بفساتين من الشيت - كانوا يمرحون بالأطفال وعندما يصيبهم التعب يستلمون للكرى فوق أكداش الحشيش. كانوا يتبادلون القبل ويقهقهون ويتشاجرون ويتصالحون... ويطرطشون الماء وهم يزغقون، ويقفزون من الضفاف الحجرية إلى البحيرة، وما كانت أجسامهم السمراء التي لفحتها الشمس أسوا من الآلهة المرمية ذات الأنوف المكسورة. وعند الغسق كانوا يكومون حطام الزوارق المذهبة التي تتعفن لعدم الاستعمال، ويوقدون منها نيراناً متأججة، ومن ثم يزدون،

مثل البشر البدائيين، واللهب ينير أجسادهم، رقصة كارمانيو لا شيطانية.

بيدانه انصرم ذلك الصيف ايضاً. وغدت وجوه البشر مهمومة وصارمة اكثر، وطالعت في عيونهم آلام الجوع والتصميم العنيف. وقطعت اشجار كثيرة في المتنزه لاستخدامها كحطب. وأختفت البقرتان - ولا بدان الحراس اكلوهما -، ثم اختفى الحارس نفسه. حدث مرة ان توقف عند نافذتي شخصان: فتى عريض المنكبين يغطي خديه الزغب الاسود وامرأة شابة؛ كان الاثنان حافيين القدمين؛ وقد أمسك الفتى بيديه متولها كتفيها اللتين لا تكاد تسترهما الأسمال. كانت حسناء - كثيفة الشعر، ممشوقة القد، شديدة البنية. قالت هي شيئاً ما، وسحب الفتى الرزة بقوة، فأخذ أطار النافذة - الباب يقطع، وتناثر الزجاج. ودخلا. كانت الحسناء الفقيرة هي اليزابيت روه. تطلعت الي فترة طويلة ثم وقفت على اطراف اصابع قدميها وبصقت في وجهي. تندند انتزعني الفتى من الجدار ورماني على السرير العاري.

ظللت ملقبة باعمال هناك حتى التقطني بروجوازي محترم، بائع سجق من باريس، باعتباري من الحاجيات البيئية. وقد جاء الي فرساي آملا في الانتفاع من بهيمة كسرت ساقها. فلويت بعناية وحشرت تحت مقعد الحودي، وجلس صاحب العربة فوقي؛ وفي الخلف تمدد جسد حصان سلخ جلده، وغطى بقماش هبابة. وصلت الي باريس بهذه الصورة. وجرى تعليقي على نافذة مزقها الرصاص في دكان بيع السجق. هناك في ساحة الثورة رأيت الملكة آخر مرة لكن في ظروف بائسة جداً...

لقد مرت على ذلك اليوم فترة مائة وخمسين عاماً. ساتعبكم لو حدثتكم عن جميع تقلبات القدر، الذي رماني من يد الي يد. عندما رفرفت راية الكومونة السوداء فوق المبنى البلدي في يوم غائم تعصف فيه الرياح جرى شئق صاحبي بائع السجق عند باب دكانه وكتبت على صدره لوحة: «نريد اسعاراً ثابتة!» وامتدت الي يد ملطخة بالبارود فانترعتني من النافذة واصبحت بمثابة معطف يستر كتفي فتى طويل القامة يلوح برمح وضعت طاقة حمراء على سنانه. كنت أرفرف طوال اليوم وكانني النار الملتهبة

على كتفيه، تحت ازيز الرصاص. عندما اكفهر الليل توجه الي مبنى البلدية حيث كانت المشاعل تنيره في الاسفل بينما غاصت ابراجه الصغيرة المدببة في الضباب. دخلنا سوية مع حشد يلوح افراده بالسيوف والمسدسات في صالة كبيرة غارقة في الدخان بسبب هباب المصاييح الزيتية. كان يجلس على اللوحات والصناديق، مواصلين الاجتماع بلا انقطاع، اعضاء كومونة باريس ذوو الوجوه القاتمة لقلّة النوم. كان العمال والحرفيون من المجموعة يطالبونهم برؤوس الارستقراطيين والبرجوازيين، وهم يصرخون: «ليفرق الاجتماع! الموت للخونة! كل السلطة الي الكومونة! نريد الخبز والاسعار الثابتة!». وقد صاحبي هنا في الصالة، تحت النافذة، والتف بي حتى قمة الراس.

لكن يبدو انني صنعت لمتعة الابصار فقط ولم امنحه الدفء في تلك الليلة ذات الرياح العاصفة: فرماني في ركن الصالة فوق كومة من القاذورات. بقيت هناك فترة من الوقت. وعمد احدهم، بعد ان فطن الي، الي نشري ونفض الأوساخ عني وغطى بي طاولة هيئة الرئاسة المصنوعة من خشب الصنوبر. منذ ذلك الحين صاروا يلقون فوقي الأوراق وريش الاوز وقطع الخبز اليابس. وجلس رجل طويل الوجه ذو خصلات سوداء، ملتصقة بجهته الناتئة الشاحبة جاثماً فوق صدري بمرفقيه الممزقين وكيانه باجمعه يرتجف من الغضب الشديد، كانوا يدعونه جيبير ان لم تخني الذاكرة. كان يجسد ارادة الناس الفقراء، ويأتي الي دار البلدية في كل مساء، لكي يخطب صارخاً عن العدالة وعن مطالبهم وعن حقدهم وعن حرمتهم الاخيرة.

وقطعوا راسه شأنه شأن جميع «المتشددين». في ذلك اليوم خطب امام الافراد العابسين من المجموعة رجل صغير القامة، ذو انف بارز العظام، بملابس نظيفة، وباروكة صغيرة بيضاء. كان يضغط بقذاله الملقي الي الورا قليلاً بين كتفيه، ويمسني باطراف اصابعه الباردة، ويتحدث بصوت قاطع عن الاعتدال والفضيلة، واقسم بأن يقطع راس كل من يدوس على مكارم الاخلاق في حياته، وكل من يفكر بمعاداة الثورة، وكل من يعتقد بأنه، اي رويسبير، ليس ثوريا ووطنياً جداً. فحياء اصحاب

الدكاكين الذين يرتدون قلائس اليعاقبة. الا انه، وآسفا، حل
التعب بالبرجوازيين، واصابهم السأم البالغ من الثورة وحماس
العامة، والاسمال والنقود الورقية.

لكن حدث مرة ان جلس الى الطاولة، التي ما برحت اغطيها،
خمس اشخاص تمنطقوا بوشائح ثلاثية الالوان. وكان بينهم روبسبير.
ووضع امامه مسدسا رفع زناده. التزموا الصمت، وتطلعوا دون
ان يرف لهم جفن الى النواخذ السوداء، - كان حشد الناس يهدر
هناك هائجا في الساحة التي يلفها ظلام الليل. وعجزت الشمعة
الوحيدة على الطاولة، ذات اللهب المتأرجح بهدوء، عن تشتيت
عتمة الصالة الكبيرة الخاوية.

في تلك الليلة كانت الثورة تنتهي. وخفتت زمجرة حشد
الناس في ساحة غريف. وهدرت عجلات المدافع، وصدرت الاوامر
العسكرية من بين الاسنان المصطكة. وسمعت على سلالم دار
البلدية الخطوات الثابتة للحرس الوطني. ثم دخلوا. اتسعت
بشكل رهيب حدقات عيون الارهابيين الخمسة الجالسين وراء
الطاولة بلا حراك. الا ان افراد الحرس الوطني اخذوا يصرخون
بشكل اكثر رهبة. نهض سان جوست، الفتى وذو العلامح
النسائية، بهدوء لكي يسلم نفسه. وغطى كوتون المصاب بالشلل
وجهه بيده. اما ليبا الحاد الطبع فقد اختطف المسدس ودسه في
يد روبسبير، - ورفع الرجل الصغير بتثاقل الى صدغه. لكن
رجل الحرس اندفع ودفعه من مرفقه، وانطلقت رصاصة، فسقط
راس روبسبير على صدري وقد تهشم فكه الأسفل. وضغطت
اصابعه على الاوراق غير المكتوبة، ومسح بها وجهه محاولا
ايقاف نزيف الدم.

ان ذكرياتي اللاحقة تعود الى السنوات الكثيرة بين سقط
المتاع في دكان بائع الحاجيات العتيقة. ولم يقدموا ثمنا لي حتى
مائة فرانك، في الوقت الذي كان فيه نابليون يطارد باسنة
الحراب جيوش الاقطاعيين في اوربا باجمعها. بيد انه اراق الكثير
من دماء البرجوازيين الطيبين، وخانوه، حاسبين بان من الانفع
استبدال السيف بدفاتر الحسابات. لقد رسمت الثورة دائرة
جامحة ثم توقفت للحظة: اذ اعتلى العرش الفرنسي لويس الثامن

عشر، فاعتنوا بامري، وعلقوني بصفتي من الآثار المقدسة في
قصر التويلري. آه، بأي حماس قديم كانت ترقص في قاغاته
المذهبة مجددا سيدات فرساي صاحباتي، اللواتي اصابهن الذبول
خلال عشرين عاما من حياة المهجر! كانت سحب البودرة تتطاير
من تجعدات وجوههن المصبوغة بالحمرة. انه مشهد سوداوي!

امضيت الثورات اللاحقة والترميم بهدوء وسكينة في متحف
الموفر. هذه قصة حياتي حتى الساعة التي اودعوني فيها بالقصر
الاسكندري في «قرية القياصرة»، - في غرفة الاستقبال لالكسندرا
فيودوروفنا، التي حكمت ملايين لا حصر لها من الشعوب.

كان الجو هناك مملا للغاية بعد تلك الانطباعات المتنوعة
كثيرا. ان القيصر والقيصرة لم يكونا من هواة التسلية على
مراى من الناس - فالحياة في قصرها ممتعة. ولم يكن يزورها
من الناس الا لقضاء الأعمال: اذ تأتي الوصيقة المحبوبة لتقبل
يدها، او يتحدث احدهم بالتلفون ويرجو السماح بالمجيء، انه
أحد المتشردين * من سارقي الخيول سابقا، ورجل روحاني: فيأتي
مرتديا رداء طويلا، وبجزميتين صقيلتين، - ويتم تبادل القبل على
الخدود، ويجلس ويتحدث كذبا عن كل ما يرد في باله، مضيقا
عينيه الماكرتين، بينما يحقق القيصر والقيصرة باهتمام الى
لحيته الملطخة بالزيت، دون ان يتجرأ على ان يرف لهما جفن.

عندما كان القيصر يود احتساء الشراب يتوجه الى نادي
الضباط. وكانوا يدعون نافخي الابواق العسكريين ويشربون
الخمر، ويتناولون الطعام الخفيف، وفي اليوم التالي يطلق
الزفرات ماسكا براسه بيديه، خفية لكي لا تراه القيصرة. حقا
انه لم يكن يمارس صناعة علب الشقوق على غرار لويس الفرنسي،
الا انه كان يحالفه التوفيق لدى ممارسة التصوير الفوتوغرافي،
او عندما يردد لحن ما بصورة رتيبة، وكان يلعب البيليارد مع نفسه،
او يطالع اقاويص افيرتشيونكو فيطلق من الضحك. كان يحب
الوقوف في ساعة الغسق عند النافذة والسيجارة بيده فيتطلع
الى الرذاذ وهو يتساقط على اشجار الشوح والشجيرات التي
يجلس وراءها، خشية اكتشاف امرهم، المخبرون النمش من رجال
الامن وعلى رؤوسهم قبعات سوداء عالية انزلت على اذانهم.

أما القيصرة فكانت تبرز المناديل في جناحها وتفكر، وتفكر،
رافعة حاجبيها، بالاعداء الكثيرين، وبالمكان غير المكتشفة ضد
أسرتها، وبالشعب الجاحد والفاقد والوقح الفاضح، الذي تركته
لها الأقدار، وبالطبع التعيس لزوجها الذي لا يحسن أرغام الناس
على احترامه والخوف منه. وفي بعض الأحيان كانت تتوقف عن
التطريز، وتدق بالكشتبان بحنق على مسند المقعد، فتغدو عينها
الغائبة النظرات قاتميتين. كانت تقوم على طاولة وراء الحاجز
الايقونة صانعة المعجزات مع جرس. وغالباً ما كانت تركع امامها
وتصلي بانتظار حدوث المعجزة عندما يدق الجرس ذاته.

اتفقوا معي في ان السنون انصرفت بشكل كئيب في القصر
الاسكندري. وبات الجو قاتماً جداً بعد ان سافر القيصر وولي
العهد الى الحرب، وعندها وضعت القيصرة على رأسها منديلاً
قماشياً وارتدت فستاناً رمادي اللون نقش عليه صليب بلون
الدم في مكان الصدر. أما في فرساي فكانوا يعيشون حياة مرحة
على الأقل قبيل الموت. وبقي لديهم ما يتذكرونه عن الماضي
عندما كان الجلاد يشد ايديهم ويقص شعرهم في القذال فوق
منصة الجيلوتين. أما هنا فالسام قاتل. أو كان يجدر بهؤلاء
الناس ان يظهروا الى الوجود لكي يعيشوا بمثل هذا الاكتئاب
والحقد على كل شيء!

ها انذا بدأت الاحظ منذ بعض الوقت ان القيصرة تنظر الى
شزراً نوعاً ما فهي تتوقف، ضاغطة بيديها على بطنها، وتبدو على
جبينها الواطي، تجعدات غاضبة، كما لو انها تستجمع قواها
لاستكناه امر ما والتغلب على شيء ما. في شهر ديسمبر كان
الثلج يتساقط وراء النافذة ذات القضبان المتشابكة، وظهرت
اكوام الثلج فوق قبعات المخبرين الجالسين تحت الشجيرات وهم
ينفخون في قبضاتهم بأنفاسهم. أما القيصرة فتسير وتسير
موسعة منخريها بسبب الغضب العاجز. وآسفاه، لم تكن لديها
السلطة لشنق حتى رئيس مجلس دوما الدولة. الاعداء في كل
مكان. لقد تألب الجيم عليها.

في احدى تلك اللحظات تلتق نياً حطم روحها: فقد وجد الرجل
الروحاني وصديقها الوحيد وقاندها في فتحة في الجليد تحت

الجسر مقيداً ومحطم الجمجمة. وانباتها بذلك وصيفتها المحبوبة
التي تهاوت على البساط والدموع المحرقة الغزيرة تنهمر من
مآقيها. اصاب وجه القيصرة شحوب الاموات، تراخت واتكأت
بظهرها المنتصب الى ردائي الأحمر، وقالت: «لقد هلكنا، لم يعد
هناك من يشفع لنا امام الرب»، عند حلول الظلام ارتدت السواد
ووضعت على رأسها منديلاً أسود، مسدلاً على وجهها، وتسلمت
بين المخبرين دون ان يلحظها احد، وشوهد هيكلا المبتعد فوق
الثلوج لفترة طويلة: كانت متوجهة لكي تنتحب على نعش الرجل
الروحاني الذي جلب سراً من بطرسبورغ، الى مكان منعزل،
ليوضع في صومعة خشبية صغيرة.

رايت القيصرة آخر مرة في وقت متأخر من الليل، عندما اضاء
نور متوهج بعيد عبر النوافذ المتجمدة، وكان الضوء الأحمر
يتعالى فوق قمم اشجار الشوح: كان شيء ما يحترق في مكان ما،
ويسود غرفة الاستقبال الظلام والدفء. وفجأة صدر صرير من
احد مصراعي الباب العالي، فرايت القيصرة: كانت ترتدي رداء
ابيض. وسألت المكان الخالي باللغة الألمانية: «ماذا يحترق، ماذا
يحترق؟» ودنت من النافذة. كانت اوراق الصنقيع عليها تبدو
حمراء تارة، وزرقاء مسودة تارة أخرى، بزخارف عجيبية.

كان وجهها مشوها، وومض في عينيها رعب الوسوسة.
استرجعنا أنا وهي في تلك اللحظة الذكريات نفسها...

عشرات آلاف الرؤوس كان تضج وتضطرب على طول سياج
مدرجات قصر التويلري وفي كافة ارجاء ساحة الثورة الفسيحة
حيث كانت تتعالى فوق اسنة الحراب منصة فيها نصل مثلث مثبت
بين قائمتين. وكنت ارى من نافذة دكان بائع السجق الأبراج
المدبية لسجن كونسرجيري. وكانت تسير بمحاذاتها عربة ذات
عجلتين. استدارت نحو الجسر و عبرت الى الجانب الآخر للنهر.
اضطربت الرؤوس كما لو هبت عليها الريح. وعامت العربة المحاطة
بالجنود وقارعي الطبول في بحر الرؤوس ذلك وكان عويل الحشد
يغطي على قرع الطبول. عندما مرت العربة بنافذتي رايت الملكة
جالسة فيها وظهرها الى الحصان. وقد ربطت يداها الى الخلف، مما
جعل ظهرها يستقيم جداً. لم يكن هناك تحت فستانها الصوفي

الأفعى

- ١ -

عندما كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تدخل المطبخ في روب من الشيت، عابسة ومشعنة، كان كل من فيه يلزم الصمت، فلا يتردد الا فحيح مواقد الكيروسين المجلوة بعناية والمشحونة بالكيروسين والغضب المكتوم. كان ثمة خطر ما ينبعث من اولغا فيتشيسلافوفنا. وقد قال عنها احد سكان الشقة:

- توجد امثال هؤلاء اللثيمات... يسرن رافعات الزناد... فلتبتعدوا عنهن يا اعزائي...

كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تتجه الى حوض الغسيل، وقد شدت فوطة على وسطها، وفي يدها قدح فيه فرشاة اسنان، فتغتسل معرضة رأسها الحليق الأسود الشعر لمياه الصنبور. وحينما لا يكون في المطبخ سوى النساء كانت تنضو عنها الروب الى وسطها، وتغسل كتفيها الضعيفتي التكوين، مثل اكتاف المراهقات، وتديبها ذواتي الحلمتين البنيتين. ثم تقف على مقعد وتغسل ساقها الجميلتين القريتين. وعندها يمكن ان ترى على فخذا اثرا لجرح عرضي طويل، وعلى ظهرها، فوق لوحة الظهر، حفرة وردية لامعة، مكان خروج رصاصة، وعلى ذراعها اليمنى عند الكتف وشما صغيرا شاحب الزرقة، وكان جسدها رشيقا، أسمر، ذا لمعة ذهبية.

كانت كل هذه التفاصيل معروفة جيدا للنساء الساكنات

الأسود المكرمش وجود للمشهد فتدلى نهداها الذابلان، - كان شعراء البلاط قد نظموا عنهما اشعار المديح في وقت ما، وصنع بشكلها قدح من الكهرمان كان الملك يشرب منه النبيذ. كانت رقبتهما الصفراء عارية، ورأسها مطرقا، وشفتها السفلى متورمة باحتقار وباشمئزاز ينمان عن الكبرياء، وتدلّت من قلنسوتها العالية خصلة من الشعر. وكانت العجائز حاسرات الرؤوس يهتفن: «الموت للنمساوية اللعينة». كن يسرن وراء العربية في صفوف من اربع نساء، وجميعهن يواصلن بلا توقف حياكة الجوارب من اجل الجيش. انهن «حائكات روبسبير». رايت كيف توقفت العربية. حدثت على المنصة جلبة قصيرة، وطارت القلنسوة البيضاء. وصار قارعو الطبول يضربونها بشدة اكثر فاكثرا، وبكل قواهم، بهدير رهيب، وانزلق السكين المثلث على العارضتين الى الأسفل مصحوبا ببقعة من النور. وتدلى رأس الملكة بيدها ممدودة فوق حشد الناس.

قالت القيصرية، بالروسية، بصوت مبجوح: «ايها الملعونون، ايها المجانين، يا ابالسة، يا ابالسة!»، وهي تواصل النظر عبر زجاج النافذة المزخرفة بالصقيع، التي تغمرها هالة من النور. ثم اخذت ترسم علامات صليب قصيرة - قصيرة على صدرها وتنحنى رأسها فقط دون ان تشني رقبتهما... امتدت شفتها السفلى وتدلّت قليلا...

في تلك الليلة اصيب اطفالها بمرض الحصبة. وفي تلك الليلة عبرت آخر مرة عتبة غرفة الاستقبال، التي لا ازال فيها حتى اليوم، الى يسار النافذة. اما زائرو القصر - المتحف، الذين يضعون اخفاف الخيش فوق جزمات اللبد العالية لهم، فانهم يتوقفون للحظة امامي، ويقول مرشدهم:

- وهذا نموذج من اعمال انتاج الاقنان الذي يرجع عهده الى بداية الصراع بين الرأسمالية الزراعية والرأسمالية التجارية - الصناعية.

سنة ١٩٢٨

باحدى الشقق العديدة فى منزل كبير بحى زارياى. كانت الخياطة ماريا افاناسيفنا، التى تمقت اولغا فيتشيسلافوفنا بكل جوارحها، تسميها «الموصومة». اما روزا ابراموفنا بيزيكوفتش العاطلة عن العمل - كان زوجها فى مجاهل سيبيريا - فيكاد يغمى عليها عند رؤية اولغا فيتشيسلافوفنا. والمرأة الثالثة، سونيا فارينتسوفنا، او كما كان الجميع يدعونها «لايتشكا»، وهى فتاة لطيفة الملامح، تعمل فى مؤسسة التبغ، كانت تغادر المطبخ ما ان تسمع وقع خطوات اولغا فيتشيسلافوفنا وتترك موقدها الكيروسينى مشتعلًا... ولو لا ان ماريا افاناسيفنا وروزا ابراموفنا كانتا تكنان لها الود، لكان على لايتشكا ان تاكل كل يوم تقريبا عصيدها محترقة.

وبعد ان تفرغ اولغا فيتشيسلافوفنا من الاغتسال، تنظر الى النساء بعينين سوداوين «متوحشتين»، ثم تمضي الى غرفتها فى آخر الطرقة. لم يكن لديها موقد كيروسين، ولم يكن احد فى الشقة يفهم كيف تظفر كل صباح. فكان الساكن فلاديمير لفوفتش بونيزوفسكى، الضابط السابق، والذي يعمل الآن وسيط فى بيع وشراء الانتيكات، يؤكد ان اولغا فيتشيسلافوفنا تشرب كل صباح الكونياك المركز بدرجة ٦٠ مئوية. كان كل شىء جانزا. وفى الحقيقة، فقد كان لدى اولغا فيتشيسلافوفنا موقد كيروسين، ولكنها، بدافع كراهيتها للبشر، كانت تستخدمه فى غرفتها، الى ان صدر قرار من ادارة الجمعية السكنية بمنع ذلك. وكاد مدير المنزل جورافليوف، الذى هدد اولغا فيتشيسلافوفنا بتقديمها الى المحكمة وطردها من المنزل اذا ما تكررت منها هذه «الافعال المشينة المضادة للحريق» كاد حينها يلقي حتفه، فقد قذفت فى وجهه بالموقد المشتعل، لولا انه تفادى الضربة. ثم «غمزته» بسباب مقذخ لم يسمع مثله فى حياته حتى فى الشوارع ايام الاعياد. وبالطبع فقد ضاع الموقد.

وفى التاسعة والنصف كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تنصرف. وربما كانت تبتاع فى طريقها سندويتش «فرحة الكلاب» وتتناول

* تسمية شائعة لنوع من السجق الرخيص. المعرب.

الشاي فى مقر العمل. وتعود الى البيت فى وقت غير محدد. ولم يكن يزورها رجال على الاطلاق.

ولم يسفر تفقد غرفتها عبر فتحة القفل عن شىء يشفى غليل المتطقلين... جدران عارية بلا صور او بطاقات... لا شىء سوى مسدس صغير معلق فوق السرير. اما الاثاث فلم يزد عن خمس قطع: كرسيان، وكومودينو، وسرير حديدي، وطاولة قرب النافذة. وكانت الغرفة مرتبة فى بعض الاحيان: فستارة النافذة مرفوعة، والمرآة والمشط وقارورتان او ثلاث منضدة على الكومودينو المقشر الطلاء، وعلى الطاولة رزمة كتب بل وحتى زهرة ما فى نصف زجاجة قشدة. واحيانا كانت الغرفة تبقى فى فوضى فظيعة حتى الليل: اذ يبدو الفراش وكان احدا تصارع فوقه وتقلب. والارضية مغطاة كلها بأعقاب السجائر، وفى وسط الغرفة قصرية. فكانت روزا ابراموفنا تتاوه بصوت خافت قائلة:

- هل هذه امرأة؟ هذا احد الجنود المسرحين.

اما الساكن بيوتر سيميونوفتش مورش، الموظف بمؤسسة تجارة الامدادات الطبية، والاعزب ذو العادات الراسخة، فقد نصحه ذات مرة، وهو يضحك ضحكا خافتا بينما تلمع صلته، بطرد اولغا فيتشيسلافوفنا بان ينفخوا فى غرفتها عن طريق انبوب ورقي عبر فتحة القفل عشرة جرامات من اليودفورم. «فاي مخلوق حي لا يستطيع ان يحتمل جوا سممه اليودفورم». ولكن هذه الخطة لم توضع موضع التنفيذ، فقد خافوا.

على اية حال فقد كانت اولغا فيتشيسلافوفنا مادة للقلق والقال، وتاججت فى صدور السكان الشهوات التافهة، ولولا وجودها لخير الملل فى الغالب على الشقة. ومع ذلك فلم تستطع اى عين فضولة ان تنفذ الى اعماق حياتها. وحتى الرهبة الدائمة التى كانت سونيا فارينتسوفنا الوديعة تشعر بها امامها، فقد ظلت سرا.

والحفوا على لايتشكا بالسؤال، ولكنها كانت تتهز خصلاتها وتتهرب نحو تفاصيل صغيرة. ولولا انها لاصبحت لايتشكا نجمة سينمائية منذ زمن طويل. «فى باريس يستطيعون ان يصنعوا من

انفك قطعة حلوى... - قالت لها روزا ابراموفنا - ولكن، آه يا الهي، هل يمكن السفر الى باريس الآن!...». وردا على ذلك كانت لايتشكا تبتمس فقط، ويتورد خداهما وتغيم عينها الزرقاوان بحلم نهم... وكان بيوتر سيميونوفتش مورش يقول عنها: «فتاة لا بأس بها، لكنها حمقاء...». ليس صحيحا! فقد كانت قوة لايتشكا تكمن بالذات في قدرتها على التظاهر بأنها حمقاء، ومما دلل على ذكائها الخفي والعملي انها استطاعت، وهي بعد في التاسعة عشرة من عمرها، ان تعثر دون خطأ على اسلوب مميز لها. كانت تعجب جدا الرجال الكهول، المتعبين من العمل، من كبار الموظفين ورؤساء الادارات الاقتصادية. كانت تبعث البسمة الرقيقة من اعماق القلوب المنسية. وتثير الرغبة في اجلاسها على الركبتين، والتأرجح، ونسيان صخب المدينة وروائحها الخائقة، والارقام وحفيف اوراق المكاتب. وعندما كانت تجلس الى الآلة الكاتبة بعد ان تمسح انفها بالمنديل، يزهر الربيع على اوراق الجدران القذرة في مكاتب مؤسسة التبغ الكنيبية. وكانت تعرف ذلك جيدا. كانت فتاة وديعة. وبالفعل، فاذا كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تمقتها، فلا شك ان هناك سرا ما...

يوم الأحد، في النامنة والنصف، صر الباب كالعادة في آخر الطرقة. وسقط الطبق من يد سونيا فارينتسوفا، وندت عنها آهة خافتة، وهرولت خارجة من المطبخ. وتناهى صوت الباب وهي توصده بالمفتاح وكذلك شهقاتها. ودخلت اولغا فيتشيسلافوفنا المطبخ. كانت ثمة تجعيداتان بجوار شفتيها المزمومتين بقوة، وكان حاجباها العاليان مقطبين، وبدا وجهها الفجري النحيل مريضا. والفوطة مشدودة لأقصى حد على خصرها الرقيق كخصر الزنبور. ودون ان ترفع رموشها فتحت الصنبور وراحت تغتسل، فتطاير الرذاذ مخلقا بركة ماء على الأرضية... «ومن سيمسح هذا؟ آه لو ادس رأسك فيه لتمسحيه» - ارادت ماريا افاناسيفنا ان تقول، ولكنها صمتت.

وبعد ان جفقت اولغا فيتشيسلافوفنا شعرها المبلل بالفوطة، طافت بعينيها السوداوين على المطبخ والنساء وعلى بيوتر

سيميونوفتش مورش التصير الذي دخل المطبخ في تلك اللحظة من المدخل الخلفي حاملا في يديه قطعة من الخبز الابيض وزجاجة لبن وكلبا صغيرا كريها، دائم الارتجاف. وندت عن شفتيه الجافتين ابتسامة مسمومة. كان بانفه الاحدب مثل منقار الطائر، ولحيته نصف الشائبة واسنانه الصفراء الكبيرة، تجسيدا لا يتزعزع ل«طيب، طيب، غدا سنرى...». كان يهوى جلب الأنباء السيئة. وعلى سناقيه المعوجتين تهدل سروال في غاية القذارة. كان يرتديه لمشاوير الصباح.

ثم صدر عن اولغا فيتشيسلافوفنا صوت حلقي غريب، وكانها افلتت كل ما كان يملا صدرها في هذا الصوت الذي لم يكن مفهوما اهو نعيق عقاب ام ضحكة اليمة مبتسرة.

- الشيطان يعلم ما هذا... - دمدمت بصوت غليظ، واقتت بالفوطة على كتفها وخرجت. وارتسمت على وجه بيوتر سيميونوفتش الشمعي ابتسامة سرور. وقال وهو يضع الكلب على الأرض:

- يبدو ان مدير بيتنا بفعل السكر قد تكشف لديه فجأة غيرة على النظافة. وقف في الاسفل وراح يؤكد ان كلبي لوث السلم. قال: «ان هذا برازه. واذا استمر كلبك في هذه الافعال على السلم فسأرفع ضدك دعوى قضائية» فقلت له: «لست محقا يا جورافليوف، هذا ليس برازه...» وهكذا ظللنا نتجادل بدلا من ان ينظف هو السلم واذهب انا الى العمل. هذا هو الواقع الروسي...

وفي تلك اللحظة تردد في آخر الطرقة مرة اخرى: «آه، الشيطان يعلم ما هذا»، وصفق الباب. وتبادلت النساء في المطبخ النظرات. وذهب بيوتر سيميونوفتش ليشرب الشاي ويستبدل سرواله المنزلي بسروال الأحاد. وكانت الساعة البنديولية في المطبخ تشير الى التاسعة.

في التاسعة مساء دخلت امرأة مندفعة قسم الشرطة. كانت الطاقة البنية التي تشبه الخوذة مسدلة على عينيها، وغطت ياقة المعطف العالية عنقها وذقنها. اما الجزء الذي كان يمكن رؤيته من

وجبها فبدا وكأنما تغطيه بودة بيضاء. وحينما دق رئيس القسم النظر فيها اكتشف انها ليست بودة بل شحوبا، اذ لم تكن في وجهها قطرة دم. وضغطت المرأة صدرها على حافة الطاولة الملونة بالحبر، وقالت بصوت خافت وبسبيرة يأس مروعة:

- اذهب الى حارة بسكوفسكي... انا ارتكبت هناك شيئا ما... لا ادري ماذا... ينبغي الآن ان اموت...

وفي هذه اللحظة فقط لاحظ رئيس القسم في قبضتها المزرقة مسدسا صغيرا، فقفز من فوق الطاولة وامسك برسغ المرأة وانتزع منها تلك اللعبة الخطرة.

وصاح لسبب ما:

- وهل لديك تصريح بحمل السلاح؟ - والقت المرأة برأسها الى الوراء لأن الطاقة كانت تعوقها، ومضت تحلق في رئيس القسم بنظرة فارغة، فسألها بصوت اهدأ: اسمك، اسم عائلتك، عنوانك؟

- اولغا فيتشيسلافوفنا زوتوفا...

-٢-

منذ عشر سنوات احترق وسط النهار في مدينة قازان بشارع برولومنيا منزل التاجر من الفئة الثانية ومن المؤمنين بالعميقة القديمة فيتشيسلاف ايلاريونوفتش زوتوف. وعثر رجال المطافئ على جنتين في الطابق الاول، مكبلتين بالاسلاك الكهربائية، كانتا لزوتوف وزوجته. وفي الطابق العلوي وجدوا جسدا خامدا كان لابنتهما اولغا فيتشيسلافوفنا، التلميذة ذات السبعة عشر عاما. كان قميص نومها ممزقا، ويدها وعنقها مليئة بغدوش الأظافر، وكان كل ما حولها يشهد على وقوع صراع يائس. ولكن الأشقياء فيما يبدو لم يستطيعوا التغلب عليها، او

انهم عجلوا بالهروب، فضربوها على رأسها بجلة حديدية بحزام كانت ملقاة بجوارها.

ولم يتمكن رجال الاطفاء من انقاذ المنزل، فاحترقت كل ممتلكات زوتوف واصبحت رمادا. ونقلت اولغا فيتشيسلافوفنا الى المستشفى العسكري، حيث اعادوا لها كتفها المخلوعة الى مكانها وخاطوا لها جلد رأسها. وظلت عدة ايام غائبة عن الوعي. وكان اول ما احست به هو الألم، عندما غيروا لها الضمادة. وحين فتحت عينيها رات طبيبا عسكريا بنظارة طبية يجلس بجوارها على السرير. اثر جمالها في قلب الطبيب فزجرها بركة لكي لا تتحرك. فمدت نحوه يدها قائلة:

- يا دكتور، يا لهم من وحوش!

وسالت دموعها غزيرة.

وبعد بضعة ايام قالت له:

- اثنان منهم لا اعرفهما... كانا يرتديان معاطف طويلة... اما الثالث فأعرفه. رقصت معه.. انه فالكا، التلميذ... سمعتهم وهم يقتلون بابا وماما... سمعت تهشم العظام... يا دكتور، لماذا فعلوا ذلك؟ اي وحوش!

فهمس الدكتور محذرا:

- حس، حس!

وكانت عيناه خلف النظارة مبللتين.

لم يكن احد يزور اولغا زوتوفا في المستشفى. فلم يكن الزمن زمن زيارات ولا وقت لذلك: اذ كانت الحرب الاهلية تمزق روسيا. واخذت الحياة المستقرة تتفسخ وتنهيار، ونفنت كلمات المراسيم غضبا مسعورا في الاعلانات البيضاء الملصقة في كل مكان، حيثما اتجهت انظار العابرين ولم يبق لدى اولغا ما تفعله سوى البكاء اياما بكاملها رثاء (فقد ظلت تتردد في سمعها صيحة ابيها: «لا داعي!» وصرخة امها الوحشية، وهي التي لم تصرخ هكذا طوال حياتها ابدآ). وخوفا، اذ كيف ستعيش الآن، ويأسا امام هذا المجهول الذي يدوي ويصرخ ويطلق النار ليلا خلف نوافذ المستشفى.

ويبدو انها اراقت خلال هذه الايام كل ما خصص لها من دموع للعمر كله. لقد انقطع مجرى صباها الغالي من الهموم والافكار. واكتست روحها بالندوب كجرح ملتئم. ولم تكن تعرف بعد كم من قوى مظلمة ومشبوبة تكمن فيها.

وذات مرة جلس بجوارها على الارىكة في الطرقة رجل معصوب الذراع. كان يرتدي روب المستشفى وسروالا داخليا وشبشبيا، ورغم ذلك كانت تنبعث منه صحة حارة ومرحة كما من المدفأة الحديدية. كان يصفر اغنية «التفاحة» بصوت لا يكاد يسمع ويدق بكعبيه العاريين. وتحولت نظرات عينيه الرماديتين الصقريتين غير مرة نحو الفتاة الجميلة. كان وجهه العريض الملوح، المغطى عند الوجنتين بلحية لم تحلق ابداء، يعبر عن خلو البال، بل وحتى عن الكسل. لكن عينيه الصقريتين فقط كانتا قاسيتين، شديديتي القسوة.

وسالها بلا مبالاة:

- من عنبر الأمراض الزهرية؟

لم تفهم اولغا السؤال للوهلة الاولى، ثم تضرج وجهها بحمرة السخط:

- لقد حاولوا قتلي ولم يتمكنوا، ولهذا فانا هنا. - وتزحزحت مبتعدة وهي تتنفس بغضب، واتسعت فتحتا انفها.

- آه يا الهي، يا لها من مغامرة! لا بد ان هناك ما يستوجب ذلك. ام الامر هكذا، مجرد اشقياء؟ هه؟

سمرت اولغا فيه عينيها: كيف يجرؤ على السؤال بهذه الطريقة، كأنما يسأل عن امر عادي للغاية، بفعل الملل...

- ماذا، الم تسمع عما حدث لنا؟ آل زوتوف، في شارع برولومنيا؟

- آه، هكذا اذن! اذكر... ولكنك فتاة مقاتلة، لم تستسلمي... (وقطب جبينه). هؤلاء الناس ينبغي حرقهم في النار، وغليهم في القدور، وربما توصلنا ساعتها الى شيء ما... ما اكثر ما طفا على السطح من هذه العناصر الدنيئة.. اكثر مما

كنا نظن.. اصابتنا الدهشة. مصيبة. (وتفحصت عيناه الباردتان اولغا). ها انت طبعا تنظرين الى الثورة فقط من هذه الزاوية، من خلال هذا العنف... وهذا مؤسف. هل انت من ذوي العقيدة القديمة؟ تؤمنين بالله؟ لا بأس، هذا سيزول (وضرب بقبضته على مسند الارىكة) هذا ما ينبغي ان تؤمن به: الكفاح.

ارادت اولغا ان ترد عليه بشيء قاس، وعادل بلا جدال، من اعماق روحها المدمرة. ولكن افكارها تحت وقع نظراته الهازئة المترقبة، همت وسقطت دون ان تبلغ لسانها.

فقال:

- بالضبط... يا لها من مهرة متوثبة! من سلالة روسية طيبة، مع عرق غجري... والا كنت ستعيشين مثل الآخرين.. تنظرين الى الشارع من وراء النافذة، في شقة برجوازية... يا للملل.

- وهل ما نحن فيه اكثر مرحا؟

- اهو غير ذلك؟ المرح ايضا مطلوب، لا يمكن قضاء الوقت كله في نقل بكرات العداد...

وشمرت اولغا مرة اخرى بالغیظ، ومرة اخرى لم ترد بشيء، بل هزت كتفيها، فقد كان شديد الثقة بنفسه.. لكنها دمدمت فحسب:

- نهبوا المدينة كلها، نهبوا روسيانا كلها، هؤلاء الوقحون...

- وماذا تكون روسيا... اننا ننوي اجتياز العالم كله على ظهور الخيول.. لقد افلتت الخيول من عقاليها، فلن نتوقف اللهم الا عند المحيط... وسواء شئت ام ابيت فستمرحين معنا.

ومال نحوها مكشرا عن اسنان لمعت بمرح متوحش. ودار راس اولغا. وكأنما سمعت من قبل مثل هذه الكلمات، ورات من قبل هذه التكشيرة والاسنان البيضاء، وكأنما نهضت الذكرى من ظلمات دماغها وصاحت اصوات الاجيال الماضية البعيدة: «الى ظهور الجيادا هيا الى المرح يا رجال!». ودار رأسها.. ومن جديد رات امامها هذا الرجل ذا الروب واليد المعصوبة... بيد ان حرارة

مست قلبها و قلقا... و لسبب ما اصبح ذو العينين الرماديتين
عزيزا عليها... عيست و تزحزحت الى طرف الاريكة. اما هو
فمضى يصغر و يدق بكعبه...

كان حديثا قصيرا.. بفعل الملل في طريقة المستشفى. صفر
الرجل قليلا و مضى. ولم تعرف اولغا فيتشيسلافوفنا حتى
اسمه. ولكنها عندما جلست في اليوم التالي على نفس الاريكة
وحدقت في عمق الطريقة الخائفة، واسترجعت في ذهنها بعناية كل
ما كانت تريد ان تقوله من كلمات مقنعة، وذكوية جدا، لكي
تجرده من غروره، بينما لم يظهر هو، وبدلا منه مضى اشخاص ما
يقفزون على عكازهم.. احست فجأة بوضوح انها مضطربة جدا
من لقاء الأمس.

بعد ذلك طال انتظارها، ربما دقيقة واحدة، ولكن الدموع
ترقرقت في عينيها من الالهانة، اذا ما هي تنتظره بينما هو لا يلتقي
بالا. فانصرفت و تمددت على السرير، ومضت تفكر فيه بشتى
الافكار الظالمة التي كان يمكن ان ترد الى ذهنها. و لكن بماذا،
بماذا اثار اضطرابها؟

وعذبا الفضول اكثر من الالهانة.. لو انها تراه مرة اخرى ولو
لمحا.. كيف يبدو حقا؟ لا شيء فيه يسترعي الانتباه... هناك
الملايين من الحقى امثاله.. طبعا بلشفي.. قاطع طريق...
وعيناه، يا لهما من عينين... وقحتين... وعذبا كبيراؤها
الانتوي: اتفكر طول النهار في شخص مثله! وبسبب رجل كهذا
تعصر قبضتيها!...

في الليل ايقظوا المرضى كلهم. وتراكم الاطباء
والمرضون، و مضوا يسحبون الصرر. وجلس المرضى في
اسرتهم مذعورين. وخلف الثوافذ قرقرت العجلات ودوت دفعات
سباب مسعور. كان التشيكيون يدخلون قازان. والحرر
ينسحبون. وغادر المستشفى كل من كان قادرا على الحركة،
وبقيت اولغا فيتشيسلافوفنا، اذ لم يتذكرها احد.

في الفجر قرقرت في طرقات المستشفى كعوب بنادق
التشيكيين العريضي الصدور ذوي الحلل النظيفة، الأجنبية.
كانوا يسحبون شخصا ما، اذ صرخ نائب المدير بصوت متحشرج:
«انا مجبر، لست بلشفيا.. دعوني، الى اين تسحبونني؟...»
وزحف مشلولان الى النافذة المطلة على الفناء، وقالوا من هناك
همسا: «جروا المسكين الى الحظيرة ليشنقوه».

ارتدت اولغا فيتشيسلافوفنا ملاسها - فستانا رماديا
عهدة - وغطت الضمادة على رأسها بمنديل ابيض. ودوى فوق
المدينة رنين اجراس العيد. واشرق الفجر. وتناهدت عالية تارة
وخافتة تارة الحان الموسيقى العسكرية للالوية الزاحفة على
المدينة. وبعيدا وراء الغولغا انداح هزيم المدافع المبتعد.

وخرجت اولغا فيتشيسلافوفنا من العنبر. وعند منعطف
الطريقة اوقفتها دورية حراسة، وأمرها تشيكيان بشاربيين وفي
احذية بكعوب قصيرة. بالعودة وهما يفحان ويشنشان. فصاحت
بهما اولغا فيتشيسلافوفنا وعيناها تقدحان: «انا لست اسيرة،
انا روسية». فضحكا ومدتا ايديهما ليقرصاها من خدها او ذقنها...
ولم يكن يوسعها بالطبع ان تهجم بصدرها على حربتي بندقيتين
مشرعتين. فعادت ادراجها وهي تنفخ فتحتي أنفها، وجلست على
السرير، واصططكت اسنانها من ارتجاف بدنها.

وفي الصباح لم يقدم الشاي للمرضى فبدأ التذمر. وفي
ساعة الغداء اخذ التشيكيون خمسة من الجنود العمر الذين
اجريت لهم عمليات بتر اطراف. وقال المشلولان عند النافذة ان
المساكين سيقوا الى الحظيرة. ثم دخل العنبر ضابط روسي،
مشدود بالاحزمة، في سروال فضفاض كجناحي خفاش. وشد
المرضى البطاطين على اجسادهم. وتفحص الضابط الأسرة،
وتوقفت نظرات عينيه المزوررتين على اولغا فيتشيسلافوفنا.
«انت زوتوفا؟ - سألها - اتبعيني...». ومضى وكأنه يطير
بجناحي سرواله، وملاذ دقات مهمازيه طريقة المستشفى الخاوية
بالرنين.

كان عليهما ان يعبرا الفناء، وفي تلك اللحظة خرج من
المدخل الذي كانوا يسوقونها اليه شاب اجعد الشعر، في قميص

روسي مطرز، ونظر اليها لمحا نظرة ذات معزى وهو يرتدي
العمره، واسرع نحو البوابة... وتعثرت اولغا فيتشيسلافوفنا...
وخيل اليها... كلا، هذا مستحيل...

دلفت الى غرفة استقبال وجلست الى الطاولة وهي تنظر الى
ضابط بوجه طويل ملتو كأنما عكسته مرآة مشوهة. ونظر هو
ايضا اليها بعينين كل منهما تختلف عن الاخرى.

وسمعت صوته المؤنب وهو يشدد على مقاطع الكلمات باحتقار:
- الا تجلين، انت الفتاة المثقفة ابنة الرجل المحترم في
المدينة، من الارتباط بالاوغاد؟

وجاهدت لكي تفهم ما يقول. ولكن فكرة متسلطة الحت عليها
وعاقتها عن التركيز. وتنهدت وعصرت قبضتها على ركبتها،
وراحت تروى كل ما حدث لها. واخذ الضابط يدخن ببطء مرتكزا
على كوعه. وفرغت من روايتها. فقلب احدى الاوراق... كانت
تحتها مذكرة قصيرة مكتوبة بالقلم الرصاص.

وقال وهو يقطب جبينه في تفكير:
- معلوماتنا لا تتفق تماما. بودي ان اسمع منك بعض
الاشياء عن علاقتك بمنظمة البلاشفة المحلية. ماذا؟ - وارتفعت
زاوية فمه الى اعلى والتوى حاجباه.

وراقبت اولغا فيتشيسلافوفنا برهبة اللاتناسق المروع
لوجه الحليق الناعم.

- ماذا قلت.. انا لا افهم... انت جننت...
- للاسف لدينا معلومات اكيدة. مهما بدا ذلك غريبا.
(وامسك بالسيجارة بيد ممدودة، ومضى يتأرجح، ونفت سحابة
من الدخان - وكان من الصعب ان تجد شيئا اكثر صالونية من هذا
الرجل). ان صدقك يغري بالتعاطف... (حلقة دخان). فلتكوني
اذن صادقة الى النهاية يا عزيزتي... بالمناسبة، اصدقاؤك،
الجنود الحمر. ماتوا ابطالا. (ونظرت احدى عينيه البلقاوين الى
النافذة، حيث كانت تلوح بوابة الحظيرة). واذن فمازلنا صامتين؟
حسنا...

امسك بذراعي المقعد والتفت الى التشيكيين قائلا:

بيتي*، تفضلوا...

وقفز التشيكيون ورفعوا اولغا فيتشيسلافوفنا من الكرسي
وتحسسوا جنبها وصدرها وهم يلعبون شواربهم استمتاعا، ثم
فتشوا جسدها باحثين عن جيوب تحت الثنورة. وتطلع الضابط
وقد نهض قليلا، وفتح عينيه المختلفتين واسعا. واحست اولغا
فيتشيسلافوفنا بالاختناق، وتضرج خذاها بالحرمة، بحريق الدماء.
وانتزعت نفسها من ايديهم، وصرخت...

فامر الضابط: - القوها في السجن!

قضت اولغا فيتشيسلافوفنا شهرين في السجن. في البداية
في زنزانة مشتركة، ثم في زنزانة منفردة. وفي الايام الاولى كادت
تجن من الفكرة المتسلطة عليها حول بوابة الحظيرة المغلقة
بلوح خشبي. وجاهاها النوم، فكلما نامت رات في المنام عنقها
وقد لفه جبل المشنقة.

لم يحققوا معها، ولم يستدعها احد، كأنما نسوها. وشيئا
فشيئا بدأت تفكر. وفجأة خيل اليها وكأنما تكشفت امامها صفحات
كتاب، واصبح كل شيء واضحا. فذلك الصبي الاجعد، ذو
القميص المطرز، كان بالفعل فالكا، القاتل. انها لم تخطئ...

لقد اسرع يتقول عليها خشنة ان تبلغ عنه. وكانت المذكرة
المكتوبة بالقلم الرصاص هي وشايتها...

كان بوسع اولغا فيتشيسلافوفنا ان تذرع الزنزانة المنفردة
كالنمرة قدر ما تشاء: فردا على كل توسلاتها الحارة (في عين
الباب) بأن ترى مدير السجن، او المحقق، او وكيل النيابة، كان
حراس السجن العابسون يديرون ظهورهم فقط. كانت في لوعتها
لا تزال تؤمن بالعدالة، وترتب خلطا خيالية: ان تحصل على اوراق
وقلم، وتكتب الحقيقة كلها الى سلطات عليا ما، عادلة كالله.

وذات يوم ايقظتها اصوات خشنة حادة وهدير باب يفتح.
دخل شخص ما الزنزانة المجاورة. وكان فيها معتقل يضع نظارة..
لم تكن تعرف عنه الا انه يسعل سعالا يمزق القلب في الليالي.

* تفضلوا (بالألمانية). المعرب.

يتهدون. وجلست اولغا فيتشيسلافوفنا على السرير مطوقة ركبتيها. ولم تمس الطعام. كان قلبها يدوي في ركبتيها والمدافع تدوي كالرعد خلف النافذة. وفي الغسق دخل الحارس مرة اخرى على اطراف اصابعه، وقال همسا: «نحن مجبرون، ولكننا دائما في صف الشعب...».

وقبيل منتصف الليل دبت الحركة في دهاليز السجن، واصطفقت الأبواب، وترددت صيحات متوعدة. وساق عدة ضباط ومدنيين حشدا من حوالي ثلاثين معتقلا الى الاسفل وهم يهددونهم بالسلاح. وسحبوا اولغا فيتشيسلافوفنا من الزنزانة ودفعوها ركضا على السلم. وراحت تتلوى كالقطة وتحاول أن تعض أيديهم. وللحظة رات السماء الريحية من مربع الفناء، ومالات صدرها برودة الليلة الخريفية. وبعد ذلك - باب منخفض، ودرجات حجرية، ورطوبة القبو العفنة وقد غص بالبشر. وتقافزت حزم ضوء المصابيح اليدوية على الجدار الطوبي، وعلى الوجوه الشاحبة، وعلى العيون المحمقة... وسباب بنى مسعور... ودوت طلقات مسدسات، فبدا وكأننا انهارت عقود القبو... واندفعت اولغا فيتشيسلافوفنا الى مكان ما في الظلام... وللحظة ظهر في شعاع الصباح وجه فالكا... وارطم شيء ساخن بكتفها، وتقب صدرها كمغزل ملتهب، ونهش ظهرها... وتعثرت، وسقطت على وجهها في طحلب عفن، تفوح منه رائحة الفطر...

استولى الجيش الخامس على قازان، وهرب التشيكيون* الى اسفل النهر على السفن، وتشتت الفصائل الروسية الى شتى الجهات. وهرب نصف السكان الى آخر الدنيا رعبا من الارهاب الأحمر. وعلى شاطئ الفولغا الذي انتفخ من امطار الخريف هام الهاربون المستوحشون عدة اسابيع، حاملين الصرر والعصي، متحملين عذابا لم يسبق له مثيل. وهرب فالكا ايضا من قازان. وخلافا للمنطق السليم بقيت اولغا فيتشيسلافوفنا على قيد الحياة. فعندما حملوا جثث المقتولين من قبو السجن ووضعوها صفا في الفناء، تحت السماء المكفهرة الرذاذ، انحنى خيال في معطف من فرو الغنم فوق جسدها، وحرك رأسها بحرص، ثم قال:

وقفزت واقفة واصاحت السمع. وارتفعت الاصوات خلف الجدار الى درجة الصراخ.. وكانت ملهوفة، مستعجلة. ثم انقطعت وهدأت. وتناهى في السكون انين، كأننا كان شخص ما يتعرض للاذى ولكنه يغالب الألم كما في عيادة الأسنان.

التصقت اولغا فيتشيسلافوفنا بالركن، تحت النافذة، وفتحت عينها واسعا في الظلام كالمجنونة. وتذكرت الروايات التي سمعتها (عندما كانت في الزنزانة المشتركة) عن التعذيب... وخيل اليها انها ترى وجها رماديا بنظارات، ومرغما، وخدين ذابلين مرتعشين من الألم... كانوا يلفون ساعديه وعقبه بالاسلاك بحيث يغوص السلك الى العظام.. وخيل اليها انها تسمعهم يقولون: «سوف تتكلم، سوف تتكلم»... وترددت ضربات، كأننا ينفضون سجادة لا انسانا... وظل صامتا... ضربة، ثم ضربة اخرى... وفجأة تردد خوار... «آه، سوف تتكلم!...» وامتلا السجن كله لا بالخوار، بل بعواء مريض.. وخيل لأولغا فيتشيسلافوفنا ان غبار هذه السجادة الرهيبة قد لفيها، واطبق الغثيان على قلبها، وانزلت ساقاما، ومادت ارضية الزنزانة الحجرية.. واصطدمت مزخرة رأسها بها.

هذه الليلة، التي عذب فيها انسان انسانا، لفت بالظلام املها الضعيف في العدالة. ولكن زوح اولغا فيتشيسلافوفنا المشبوبة لم تستطع ان تركز الى السكون، الى الخمول. فبعد تلك الايام السوداء، التي كادت تفقد فيها رشدها، وجدت الخلاص وهي تذرغ الزنزانة بخطوط محورية: الحق، والانتقام. نعم الحق والانتقام! آه، ليتها فقط تخرج من هنا!

رفعت رأسها ونظرت الى النافذة الضيقة: كان الزجاج المترب يصدر رنيئا خفيفا، وتأرجحت في خيوط العنكبوت عنكب جافة. وفي مكان ما تاوهت المدافع بهدير مرعد (كان الجيش الأحمر الخامس يزحف على قازان). واحضر الحارس الغداء، ونظر شزرا الى النافذة وهو يلهث: «جثتك بسميطة يا آنسة.. لواحجت لشيء دقي الباب فقط... نحن دائما في صف السياسيين...» وظل الزجاج يرن طول النهار. وخلف الأبواب كان الحراس

- الفتاة تتنفس. ينبغي يا اخوان ان نسرع الى الطبيب...
 كان هو ذلك الرجل ذا الاسنان الكبيرة والعينين الصقريتين.
 وحملها بنفسه الى مستشفى السجن، وهرع لبحث في فوضى
 المدينة المفتوحة عن «بروفيسور من العهد القيصري حتما»،
 واقتحم شقة أحد البروفيسورات، وقبض عليه في فورة اندفاعه،
 فأفزره حتى الموت، ونقله بالموتوسيكل الى مستشفى السجن،
 وقال مشيرا الى اولغا فيتشيسلافوفنا الخادمة، والتي غاض الدم
 من وجهها: «لا بد ان نحياها...»

وظلت على قيد الحياة. بعد التضميد وكمادات زيت الكافور
 فتحت جفنيها الأزرقين، ويبدو انها عرفت العينين الصقريتين
 المنحنيتين فوقها. اذ قالت بصوت لا يكاد يسمع:
 «اقترب - وعندما اقترب تماما وانتظر طويلا، قالت لسبب غير
 مفهوم - قبلني...» كان هناك اناس بجوار سريرها، وكان
 انوقت وقت حرب، فنشق ذو العينين الصقريتين بانفه، وتلفت
 حوله، وقال: «يا للشيطان، انظر» ولكنه لم يجرؤ، وسوى لها
 الوسادة فقط.

...
 كان الخيال يلقب بيميلياتوف، الرفيق يميلياتوف. وسألت
 عن اسمه واسم ابيه... كان يدعى ديمتري فاسيليفتش.
 وعندما عرفت ذلك اغمضت عينيها، وحركت شفيتها مكررة:
 «ديمتري فاسيليفتش».

كان فوجه يشكل في قازان، فاخذ يميلياتوف يزور الفتاة كل
 يوم. وراح يؤكد لها ليرفع معنوياتها: «ينبغي ان اخبرك يا اولغا
 فيتشيسلافوفنا بان روحك طويلة، كالافعى... عندما تشفين
 سأضمك الى سررتي واعينك جندي اتصالي الخاص...» كان
 يردد ذلك كل يوم دون ان يعمل هو من التردد وهي من
 الاستماع. كان يضحك كاشفا عن اسنان لامعة، اما هي فترتسم
 ابتسامة رقيقة على شفيتها الواهنتين... سنقص لك شعرك.

* تقتضى تقاليد المخاطبة في الروسية ان ينادى الشخص
 باسمه وباسم ابيه احتراماً. المترجم.

وسأعطيك حذاء خفيفا احتفظ به بعد نزعه من ساقى تلميذ قتيل.
 بالطبع سنشذك بالحزام الى الحصان في اول الامر حتى لا
 تسقطي...»

...
 كانت اولغا فيتشيسلافوفنا بروح طويلة فعلا كالافعى. فبعد كل
 ما جرى لها بدا وكأنها لم يتبق منها الا عينان، لكنهما كانتا
 تتقدان بحرارة مسهدة ونهم متلهف. وبقيت حياتها الماضية على
 شاطئ بعيد: بيت الوالدين الصارم الموسر، المدرسة،
 والصدىقات العاطفيات، والثلج الزغبى في الشوارع، والولع
 المراهق بالممثلين الزائرين، والوله المألوف بمدرس اللغة
 الروسية، ذلك الجميل المكتنز فورونوف، و«جماعة هيرتسين»
 المدرسية* والتعلق المنبهر بزملاء الجماعة، وقراءة الروايات
 المترجمة، والشوق اللذيذ الى بطلات هامسون الشماليات
 - اللاني لا وجود لهن في الواقع - والفضول القلق الذي
 تثيره روايات مارجريرت... احقا كان كل ذلك موجودا؟ الفستان
 الجديد لاعياد الميلاد، والعشق العيدي لذلك الطالب المتنكر في زي
 ميستوفل بقرني الشيطان المطليين بالسناج والمحشوين
 بالقطن... واريح الازهار المتجمدة في الصقيع البالغ ثلاثين درجة
 تحت الصفر... والسكون الحزين، واجراس الصيام الكبير، والثلوج
 المتلاشية، البنية اللون في الشوارع التجارية... وقلق الربيع،
 والليالي المحمومة... والمنزل الريفي في «فيرخني اوسلون»،
 واشجار الصنوبر، والمروج، والفولغا المتلالي، الممتد بعيدا في
 مياه الفيضان اللامحدودة. والسحب المكفهرة عند الأفق... ربما
 لم يعد ذلك كله يخطر الا في الأحلام، في دفء وسادة المستشفى
 المبللة بالدموع...

كان فالكا يقتحم تلك الأحلام، كما تراهى لها، بلحمه ودمه

* الكسندر هيرتسين (١٨١٢-١٨٧٠) فيلسوف وكاتب من
 اقطاب الديمقراطيين الثوريين الروس، ناضل بحزم ضد الحكم
 القيصري المطلق. المترجم.

في سورة الغضب، وفي يده جلة حديدية بحزام، تزن خمسة اربال. لقد طرد فالكا بريكين هذا من المدرسة لعربده، فتطوع للقتال في الجبهة، وبعد سنة ظهر ثانية في قازان وهو يزهو بحلة خيال وبوسام صليب جورجى للجنود. وقيل ان ابيه، مأمور الشرطة بريكين (ذلك الذي اصدر الامر الشهير «بان يدخل رجال الشرطة دور العبادة دون مجهود») قد قدم التماسا الى قائد قوات المنطقة العسكرية بان يرسلوا ابنه فالكا الى اقصى المواقع الامامية، حيث يمكن ان يلقي حتفه بلا ريب، لانه من الافضل لقلب الاب ان يرى هذا الوغد ميتا لا حيا... وكان فالكا جانعا دائما، ونهما للملذات، وجسورا كالشيطان. وعلمته الحرب الحذاقة، فعرف ان الدم تفوح منه رائحة الحموضة و.. لا شيء آخر... واطلقت الثورة له العنان.

حطمت جلته الحديدية جليد احلام اولغا الوردية، واذا به هس الى درجة مروعة، بينما كانت تحلم بان تبني عليه هناك: الزواج، والحب، والاسرة، والبيت المستقر السعيد... وكانت الاغوار السحيقة تكمن تحت الجليد... فما ان تحلم حتى تفجرت الحياة، الفظة والمشبوبة، فاكتسحتها باواجها العكرة.

وتقبلت اولغا فيتشيسلافونا ذلك كما هو عليه: الصراع المسعور (حاولوا قتلها مرتين فلم يقتلواها، ولم تعد تخشى أي شيء الآن) والكراهية بكل ما في النفس من قوة، وكسرة الخبز لطعام اليوم، والقلق الرهيب من حب لم يتكشف بعد... تلك هي الحياة... كان يميليانوف يجلس بجوار سريرها، فتحشر هي الوسائد خلف ظهرها وتقبض باصابعها النحيلة على طرف البطانية، وتتحدث وهي تحلق في عينيه بثقة بريئة:

- كنت اتصور الحياة كالتالي: زوجي رجل اشقر محترم، وانا ارتدي بنوارا ورديا، ونجلس وصورقانا تنعكسان في ابريق القهوة النيكلي. ولا شيء اكثر... تلك هي السعادة، اوه كم امقت الان تلك الفتاة... كانت تنتظر السعادة، هذه الحمقاء الكسول، في قميص وردي، بجوار ابريق القهوة!... تلك الوغدة!...

اما يميليانوف فكان يجلس مرتكزا بقبضتيه على فخذه،

ويضحك من روايتها. ودون ان تدرك ذلك كانت اوليتشكا تجهد ان تندمج بكل كيائها فيه... لم تكن تراودها الآن سوى رغبة واحدة: ان تنتزع جسدها من فراش سرير المستشفى. وقصت شعرها. وحصل لها يميليانوف على معطف خيالة قصير، وعلى سروال ازرق بشريط احمر، وكما وعدنا، على حذاء انيق من جلد المعاز.

وفي نوفمبر خرجت اولغا فيتشيسلافونا من المستشفى. ولم يكن لديها في المدينة اقارب او معارف. كانت السحب الشمالية تمرق فوق الشوارع الخاوية والمتاجر الموصدة، وتهطل مطرا وثلجا. وراح يميليانوف يضرب بحدانيه في الوحل بهمة من حارة الى اخرى بحثا عن مسكن. وسارت اوليتشكا خلفه بخطوة وهي تجر قدميها، في معطف مبلل ثقيل وفي الحذاء المنزوع من قدمي تلميذ قتيل، وكانت ركبتها ترتعشان. بيدانه من الافضل ان تموت على ان تتخلف عن ديمتري فاسيليفتش. لقد حصل من النجدة التنفيذية على اذن سكن للرفيقة زوتوفا التي عذبا العرس الابيض، فاخذ يبحث عن مسكن غير عادي. واخيرا وقع اختياره على قصر كبير، باعمدة ونوافذ مرآوية، كان ملكا للتجار آل ستاروبوجاتوف الذين هجروه، فصادره. ومن النوافذ المحطمة لهذا البيت المهجور كانت الريح تتجول عبر صفوف الغرف ذات الاسقف المنقوشة والانات المذهب المزق. وكان رنين شك يصدر عن حبات البلور في الثريات، وفي الحديقة يتردد حفيف كنيب لاشجار الزيزفون العارية. وفتح يميليانوف الباب ذا المصراعين بضربة من قدمه.

- انظري، هؤلاء الملاعين قد تبرزوا على الارضية الباركيه مباشرة، كنوع من الاحتجاج...

وفي قاعة الاستقبال حطم ارغنا من البلوط - كان يمتد بطول العائط - وحمل خشبه الى غرفة بها كنبه، حيث اشعل في المدفأة نارا حامية.

• تدليل من الاسم الكامل: اولغا، المعرب.

- هنا يمكنك ان تضعي غلاية الشاي، المكان دافي، ومضيء... كانوا يعرفون كيف يعيشون، هؤلاء البرجوازيون... وجاء لها بغلاية شاي من الصفيح، وبجزر مجفف لتغلية بدلا من الشاي، وبجريش، وشحم خنزير وبطاطس، اي بكل التعيين الغذائي لاسبوعين، وبقيت اولغا فيتشيسلافوفنا وحيدة في المنزل المظلم الكبير، حيث كانت مداخن المدافئ تعوي برهبة، كأنها كانت اشباح التجار آل ستاروبوجاتوف تعول من الوحشة وهي جالسة على السقف تحت مطر الخريف...

كان لدى اولغا فيتشيسلافوفنا ما تشاء من الوقت للتفكير. فكانت تجلس على الكرسي وتحرق في النار حيث تبدأ غلاية الشاي في الصفير، وتفكر في ديمتري فاسيليفتش، ترى هل سيأتي اليوم؟ حسنا لو انه جاء، فلديها الآن بطاطس مسلوقة وكانت تسمع وقع خطواته من بعيد فوق الباركيه الداوي. وعندما كان يدخل - مرحا، رهيب النظرات - تدخل معه حياتها... وينزع المسدس وقنبلتين يدويتين، ويلقي بالمعطف المبلل، ويسألها هل كل شيء على ما يرام، الا تحتاج الى شيء.

- المهم ان يزول سعال الصدر والا يكون في البلغم دم... على رأس السنة سيكون كل شيء على ما يرام.

وبعد ان يرتوي من الشاي، ويلف لفافة ماخوركا، يروح يتحدثها عن الامور الحربية، ويصف لها معارك الخيالة في صور معبرة، ويأخذ الحماس احيانا حتى ليتملكها الرعب عندما تنظر الى عينيه الصقريتين.

يقول ماذا ساقبه وسط الغرفة ومستلا سيفه من غمده:
- الحرب الامبريالية حرب مواقع، حرب خنادق. ولكن الثورة انشأت جيش الخيالة... هل تفهمين؟ الحصان هو قوة طبيعية جامحة.. ومعركة الخيالة هي رفقة ثورية.. ها انذا امسك في يدي بسيف، وانقض مخترقا تشكيل المشاة، اندفع نحو وكر

* تبغ قوي رخيص. المعرب.

الرشاش... فهل يستطيع العدو ان يصمد امام منظري هذا؟ مستحيل... فيهرب في دعر، وانا امزق بسيفي.. وخلف كتفي جناحان... اتعرفين ما هي معركة الخيالة؟ سيل من الحمم ينقض على سيل دون اطلاق نار... ويرتفع الهدير.. وانت كالثمل.. ويصطدمان... ويبدأ العمل.. دقيقة، اثنتان لا اكثر... القلب لا يتحمل هذه الفظاعة... ويقف شعر العدو رعبا... ويدبر العدو اغناق الخيول.. وعندئذ فلتنقض عليه تمزيقا، ولتطارده... ولا اسرى...

كانت عيناه تلمعان كالفلواذ، وسيفه الفولاذي يصفر في الهواء... وتحرق فيه اولغا فيتشيسلافوفنا وقد اقشعر بدنهما من التوتر، معتمدة بكوعيهما على ركبتيهما، ضاغطة ذقنها في قبضتيها المضمومتين.. ويخيل اليها انه لو شق هذا النصل المصفر قلبها لصرخت من الفرحة.. الى هذا الحد كانت تحب هذا الرجل...

لماذا كان يشفق عليها؟ امن المعقول انه لم يكن لها الا الشفقة؟ اكان يعطف على هذه اليتيمة ككلب صغير التقطوه من الشارع؟ كان يخيل اليها احيانا انها اقتنصت نظرتة العابرة - نظرة سريعة يفلغها شعور ليس اخويا... فيندفع الدم الحار الى خديها، ولا تدري اين تخفي وجهها، ويسقط قلبها الخافق الى هوة سحيقة.. ولكن لا... ها هو يخرج من جيبه صحيفة موسكوفية، ويجلس امام النار ليقرأ بصوت مسموع مقالة هجائية - في اسفل الصفحة، حيث ينهالون بالشتائم المنتقاة ومن صميم القلب على البرجوازية العالمية... وكان يصيح وهو يدق الأرضية بقدميه من المتعة: «سنبلغ الهدف ان لم يكن بالرصاصة. فبالكلمة اللاذعة.. انظر كيف يكتبون.. يا لهم من شياطين!».

وحل الشتاء. وتحسنت صحة اولغا فيتشيسلافوفنا. وذات مرة جاءها يميليانوف مبكرا، قبل الفجر، وامرها ان ترتدي ملابسها، واخذها الى ميدان التدريب، حيث درس لها القواعد الاولى لركوب الخيل ومعاملة الحصان. وفي الفجر هطل ثلج ناعم، وركضت اولغا فيتشيسلافوفنا بالجواد في الميدان الأبيض، مغلفة وراها آثارا رملية من حوافر الحصان. وكان يميليانوف

يصيح بها: «تجلسين، يا بنت ال.. كالكلب على السور! لملمي مشطيك، لا تميلي!» ويراودها الضحك.. والهوا يصفر في اذنيها بالفرحة، ويشمل الصدر، وعلى رموشها تذب ندف الثلج.

- ٣ -

كانت قوة جبارة تكمن في هذه الفتاة الضعيفة، ولم يكن مفهوما من اين جاءت. فخلال شهر من التدريب في تشكيلات الخيالة والمشاة على ارض ميدان التدريب، اصبح عودها مشدودا كالوتر، ووردت الريح القارسة وجنتيها. وكان يميليانوف يقول: «لو نظرت اليها عن بعد لظننت انك لو نفتحها فستطير، ولكنها في الواقع شيطانة...» وكانت جميلة بدرجة شيطانية.. وعندما كانت تمر عبر دخان الماخوركا في الثكنات، بقامتها الدقيقة الطويلة، وتاج شعرها الاسود الجميل، وفي معطفها القصير المشدود بالسيور المتقاطعة، وهي متصلصل بمهازيها، كان الخيالة الشبان يرعشون انوفهم، اما المجربون منهم فيستفرقون في التفكير.

وعرفت يداها التحيلتان كيف توجهان الحصان بمهارة ورقة. اما ساقاها، اللتان، كان يبدو، انها لا تصلحان الا للرقصات البرجوازية وللتنورات الحريرية، فقد اتملتا وامتلاتا، وادهشت يميليانوف بصفة خاصة قصبتا.. كانتا كالحديد، شديديتي الحساسية، تقبض بهما على بطن الحصان كالقراة، ويستسلم لها الحصان كنعجة. وتعلمت استخدام السيف، فكانت تهوي به على الاهداف باقدام، ولكن ضربتها بالطبع لم تكن حقيقية، لأن قوة الضربة كلها تكمن في الكتف، وكانت كتفاها اثويتين.

وكانت نبية كذلك فيما يتعلق بالتحصيل السياسي. وكان يميليانوف قلقا على هذه «الجشاة البرجوازية»، فقد كان العصر حينها قاسيا. «يا رفيقة زوتوفا، ماهو الهدف الذي يسعى اليه جيش العمال والفلاحين الأحمر؟»، فتقفز اولغا فيتشيسلافوفنا، وتجيّب دون تلعثم: «الكفاح ضد الرأسمالية الدموية، وضد الاقطاعيين والقسس وقوات التدخل من اجل سعادة كل الكادحين على وجه الارض...». والحقت زوتوفا جنديا في الفصيل الذي

كان يقوده يميليانوف. وفي فبراير شحنوا الفوج في عربات القطار ودفعوا به الى الجبهة للمقاتل ضد دينيكن.

عندما وقفت اولغا فيتشيسلافوفنا ممسكة بلجام الحصان فوق تلج المحطة الملوثة بالروث، حيث كانت العربات تفرغ، ونظرت الى لهيب المغيب المظلم الأحمر كجمرات الفحم، والمائل الى الزرقة والملفح بالسحب الراكضة، واصغت الى هدير المدفعية البعيد.. استيقظ في روحها الماضي القريب كله اهانة لا تنسى وحقدا انتقاميا. ودوى صوت يميليانوف: «كفوا عن التدخين!.. الى الخيول!». واعتلت السرج بحركة خفيفة، وضربها السيف في فخذهما.. الآن لن تحاولوا ايها الاوغاد ان تمزقوا قميصي، وتهددوني بالجلة الحديدية، لن تستطيعوا سحبي من تحت ابطي الى القبو! الى الامام رمحا!»، وصر السرج، وصفرت الريح الرطبة، وحدقت العيون في ظلمة المغيب الدامية. وتذكرت كلمات صديقها الحبيب كاغنية مهددة: «لقد افلتت الخيول من عقالها، فلن نتوقف، اللهم الا عند المحيط... هكذا بدأت حياتها الحربية.

كان الجميع في الفصيل يدعون اولغا فيتشيسلافوفنا بزوجة يميليانوف. ولكنها لم تكن زوجته. وما كان احد ليصدق، بل ولمات ضحكا لو عرف ان زوتوفا عنراء. ولكنهما، هي ويميليانوف، اخفيا هذا الأمر. فان تعتبر زوجة لهو اكثر فهما وبساطة، فلم يحاول احد ان يمد يده اليها، اذ كان الجميع يعرفون ان قبضة يميليانوف ثقيلة، وقد اضطر عدة مرات الى اثبات ذلك، فاصبحت زوتوفا بالنسبة للجميع اخا صغيرا.

واملت واجبات زوتوفا عليها كجندي مراسلة ان تكون دائما بجوار قائد الفصيل. واثناء الحملات كانت تبني معه في غرفة واحدة وفي كثير من الاحيان، على سرير واحد، فكان يجعل رأسه من جهة وتجعل رأسها من الجهة الأخرى، ويتغلى كل منهما بمعطفه، وبعد المسيرات النهارية المرهقة، لخمسين كيلومترا، وبعد نزع عدة الحصان، وازدراد الطعام من القدر على عجل، كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تنزع حذاءها، وتفك ازرار رقبة القميص الخشن وتغيب في النوم ما ان تلامس الأريكة، او الفرن، او طرف

السريير... ولم تكن تسمع حركة يميليانوف وهو يآوي الى الفراش او عندما ينهض. كان ينام كالوحش، يوما قصيرا. وكأنها يصيخ السمع باحدى اذنيه الى الاصوات الليلية.

كان يميليانوف يعاملها بصرامة، دون ان يميزها بشيء عن بقية المقاتلين، بل ربما كان يتشدد معها اكثر مما مع الآخرين. ولم تدرك الا الآن قوة عينيه الصقريتين.. لقد كانت تلك نظرة قتال. لقد زالت عنه البشاشة وسلطة اللسان اثناء الحملات مع الشحم الزائد. وبعد جولة التفتيش الليلية، وبعد ان يجد الخيول على ما يرام، والجنود نائمين والحراس وتقاطع المراقبة في اماكنها، كان يميليانوف يدلف الى الدار مرهقا، تفوح منه بشدة رائحة العرق، فيجلس الى الأريكة لكي ينزع بآخر جهده حذاءه الممتنخ، وكثيرا ما كان يبقى جالسا هكذا مكثورا. بهذا نصف منزوع في احدى قدميه. ويقترب من السريير، فيحرق لدقيقة في وجه اولغا فيتشيسلافونا الملهب اثناء النوم، الملوغ، الانثوي والطفولي. وتغيم عيناه، وترسم على شفثيه ابتسامة رقيقة. ولكنه ما كان ليغفر لها هفوة.

كانت زوتوفا تنقل مظروفا الى اركان الفرقة. وفوق السهوب الخضراء تارة، والرمادية الفضية تارة عندما تنتشر اعواد الشيع، صدحت سماء مايو الصحو بغناء القبرات. وكان بطن الجواد يعلو وينخفض، وهو يسير بخبب ناعم كالرهبان. ومن حين لآخر كانت الجرذان الصفراء تقطع الطريق وهي تركض مسرعة. في صباح كهذا يمكن ان تنسى ان هناك حربا دائرية. وان العدو يضيق الخناق ويحاصر، وفرق المشاة تنسحب الى المؤخرة دون قتال بعد ان تحطم العربات، وفي المدن جوع، وفي القرى تمردات. اما الربيع فكان يزين الارض كسابق عهده، ويهيج المشاعر بالأمنيات، حتى الحصان، المتصيب عرقا من قلة الطعام كان ينفر بمنخاريه، ويقلب عينيه الليلكيتين، هذا الوغد، مستطلعا ما اذا كان يمكن ان يلهو ويمرح. سار الطريق بهذا بركة تكاد تحجبها اعشاب السعد وينعكس في مياهها جرف طباشيري ملىء بالتكسرات. وبدل الحصان خطوته وانحرف الى المياه. وترجلت زوتوفا، وفكت لجامه، فخاض في

العاء الى ركبتيه وراح يشرب، ولكن ما ان جرع جرعة حتى رفع بوزه العاري واطلق صهيلا عاليا قلقا وبدنه يرتجف كله. وعلى الفور تردد صهيل مجارب من خلف شجيرات صمصاف في طرف البركة. فأسرعت زوتوفا بتلجيم الحصان، وقفزت الى السرج. وشدت من وراء ظهرها غطاء البندقية وهي تدقق النظر وغاصت راسان بين شجيرات الصمصاف، وخرج الى الشاطئ، اثنان، فارسان وتوقفا. كانت تلك دورية. ولكن دورية من؟ دوريتنا ام دورية البيض؟

مد فرس احدهما عنقه الى اسفل ليترد الذباب عن ساقه، فانحنى الفارس ليلتقط اللجام، واذ بعلامة الاكتاف الذهبية تلمع على كتفه... «اهربي!» قالت اولغا فيتشيسلافونا لنفسها وضربت الجواد بقدم السيف وانحنت.. وطارت اغصان الشيع والاعشاب الجافة نحوها... وتناهى من خلفها وقع حوافر ثقيل يطاردها... طلقة... ونظرت بطرف عينها.. كان احد الفارسين يركض الى اليمين في نصف دائرة ليقطع عليها الطريق. وكان حصانه الأحمر، من خيول الدون، يعدو بوئبات كبيرة ككلب صيد... وطلقة اخرى من الخلف.. ونزعت بندقيتها من فوق ظهرها. وتركت اللجام. وكان الفارس على حصان الدون يركض على بعد حوالي خمسين خطوة منها. وصرخ بصوت رهيب: «قف! قف!» وهو يلوح بالسيف... كان ذلك هو فالكا بريكين. لقد عرفته، فضربت الحصان بالمهراز ومضت لملاقاته، وشرعت البندقية، فبرقت طلقتها بحقد لافح... وهز جواد الدون رأسه، وقفز واقفا على قائميه الخلفيتين، ثم انهار على الفور ساحقا الفارس تحته... وصاحت هي بوحشية وفرح «فالكا! فالكا!»، وفي تلك اللحظة انقض عليها من الخلف الفارس الآخر.. لم تر غير شاربيه الطويلين، وعينيه الواسعتين، المحملقتين في ذهول: «انها امرأة!». ورن سيفه بوهن على ماسورة بندقية اولغا فيتشيسلافونا. واندفع به الجواد مارا بها. ولم تعد البندقية في يدها - يبدو انها قدفته بها او سقطت منها (لم تستطع ان تحدد ذلك عندما روت الواقعة فيما بعد). واحست في يدها بثقل داع بطيء لحد السيف الذي استلته، وصرخ حلقها المخنوق واندفع الحصان الى المطاردة فادرك الفارس،

فأهوت بالسيف بكل قوة. وتمدد ذو الشارب على الحصان قابضا بكلتا يديه على قفاه.

وانطلق الحصان حاملا اولغا فيتشيسلافنا عبر السهوب الشحيحة وهو يتنفس بعمق. ورات انها ما زالت تشد يدها على مقبض السيف، فدسته في غمده بصعوبة ويدها ترتعش. ثم اوقفت الحصان. اصبح الجرف الطباشيري والبحيرة الصغيرة خلفها الى اليسار بمسافة بعيدة. وكانت السهوب خاوية، ولم يعد هناك من يطاردها، وتوقف اطلاق النار. وفي الزرقة الساطعة صدحت القبرات بأصوات عذبة حلوة، كما في ايام الطفولة. وامسكت اولغا فيتشيسلافونا بتلابيب قميصها، واطبقت بأصابعها على زورها وهي تحاول بهلع ان تتمالك نفسها، ولكنها لم تفلح.. فقد طفرت دموعها، وانخرطت في البكاء وجسدها كله يتنفض فوق السرج.

وبعد ذلك، وفي طريقها الى مقر اركان الفرقة، ظلت تمسح عينها غاضبة بهذه القبضة تارة، وبذلك تارة اخرى.

.....
اجبروها في الفصيل على اعادة رواية هذا الحادث مائة مرة. وكان الجنود يقهقون ويديرون رؤوسهم، ويتساقطون على الارض من شدة الضحك.

- انظروا يا جماعة! يا لها من مضحكة! امرأة قضت على رجلين! ..
- مهلا، اكملى.. اذن فقد هجم عليك من الخلف وفجأة صاح:
«امرأة!»

- وهل كانت شواربه طويلة؟

- حلق بعينه، اندهش.

- ولم يرفع يده بالسيف؟

- هذا مفهوم.

- فأهويت انت على قفاه.. آه يا اخوتي، ساموت من

الضحك.. ياله من فارس مغوار.

- ثم ماذا فعلت بعد ذلك؟

فكانت اولغا فيتشيسلافونا تجيب: - ماذا «بعد ذلك»؟

كالعادة.. مسحت السلا، واسرعت بالرسالة الى الفرقة.

.....

كان هناك شيء مزعج حقا في حياة القتال: ذلك الخجل الذي لم تستطع اولغا ان تتغلب عليه. وكانت تشعر بالاسى خاصة عندما يبلغ الفصيل في يوم حار نهيرا او بركة. فكان الجنود يندفعون الى الماء عرايا فوق ظهور الجياد المنزوعة سروجها وهم يقهقون ويتصايحون وسط اقواس قزح المنعكسة في رذاذ الماء. اما زوتوفا فكان عليها ان تبحث عن مكان منعزل، في مكان ما وراء خميلة، خلف اعواد الغاب فكانوا يصيحون بها:

- يا للفتاة الحقا، شدي على جسمك لفائف الاقدام وتعالى معنا.

كان يميليانوف صارما في متابعة النظافة والهندام. وكان يقول:
«اذا اصيب الخيال بدمل في اليته فليخرج من الصفوف، فهو ليس بمقاتل. على الخيال ان يحافظ اكثر ما يحافظ على طيه...
فاذا سمحت الظروف فلتصب الماء على جسمك عند البثر صيفا وشتاء، مع ربع ساعة من التمرينات الرياضية.

وكان صب الماء على الجسم عند البثر امرا معقدا بالنسبة لها كذلك: اذ كان عليها ان تنهض قبل الجميع، وتركض فوق الندى القارس والصبح ينبلج لتوه شقا احمر من بين ثنايا السحب والضباب. وذات مرة دلت ذراع البثر الذي صدر عنه صرير شك وسحبت دلوا بماء مثلج كريبه الرائحة، ووضعت على حافة البثر، ونزعت ثيابها وهي تنكمش من الرطوبة، فأحسرت وكانما من ظهرها شيء دون صوت.

والتفتت. كان يميليانوف يقف على فسحة الدرج وهو يحدجها بنظرة غريبة تاقية. عندئذ دارت ببطء فوقت وراء الجانب الآخر من البثر وجلست فلم يعد ظاهرا منها سوى عينها المحمقتين دون ان تطرفا. ولو كان الناظر اليها احدا آخر من رفاقها لصاحت فيه ببساطة:

«مالك تحملق ايها الشيطان، استدرا». ولكن صوتها جف في

حلقها من الخجل والاضطراب. وهز يميليانوف كتفيه، وضحك ضحكة قصيرة ساخرة وانصرف.

كانت تلك حادثة تافهة، ولكن كل شيء تغير منذ ذلك الحين.

اصبح كل شيء معقدا، حتى أبسط الامور. وتوقف الفصيل للمبيت في قرية محترقة. ولم يكن هناك سوى سرير واحد للنوم، كما حدث كثيرا من قبل. وفي تلك الليلة رقدت أولغا فيتشيسلافوفنا على اقصى طرف السرير، على حشية فاتحة منها رائحة الخيول، ولم تستطع طويلا ان تنام، رغم انها كانت تغمض جفניה بكل قوتها. ومع ذلك لم تسمع صوت يميليانوف عندما جاء. وعندما ايقظها صياح الديكة، وجدته نائما على الارض.. قرب الباب... لقد اخفت البساطة... وكان ديمتري فاسيليفتش يتجهج عندما يتحدث معها، ويحول نظراته عنها. وكانت تشعر في وجهه وفي وجهها بنفس التوتر، وبقناع من التظاهر. مع ذلك كانت تحيا تلك الفترة وهي تملأ بالسعادة.

وحتى ذلك الحين لم تشترك زوتوفا في معركة حقيقية. كان فوجهم يتراجع مع الفرقة نحو الشمال. واثنا المناوشات الخفيفة كانت دائما تتواجد بقرب قائد الفصيل. ولكن هاهو قد وقع مكروه كبير في مكان ما من الجبهة، فتناقلته الألسن بقلق ووجوم. وتلقى الفوج امرا باختراق خطوط العدو للخروج من الطوق، والسير عبر مؤخرته. ثم اختراق خطوطه مرة اخرى نحو اقصى جناح الجيش. ولاول مرة سمعت أولغا فيتشيسلافوفنا كلمة «غارة». وتحركوا على الفور. وكان فصيل يميليانوف في المقدمة. وبحلول الليل توقفوا في غابة دون ان ينزعوا اعنة الجياد ودون ان يشعلوا النيران. ونظر مطر دافئ على اوراق الشجر، ولو مددت ذراعك امامك لما رايتها. وجلست أولغا فيتشيسلافوفنا على جذل شجرة، واذا بيد حانية تستقر على كتفها. وخنمت يد من هذه، فتنهدت والقت براسها الى الورا. وانحنى ديمتري فاسيليفتش عليها وسألها:

- ان تخافي؟ حسنا، حسنا... فلتكوني على مقربة مني...

ثم صدر الأمر بصوت خافت، فامتطى الجنود خيولهم دون صوت. وانعطفت أولغا فيتشيسلافوفنا بالجواد جزافا فلمست بركابها يميليانوف. وساروا طويلا بالخطوة العادية للجياد. بقبق الوحل تحت حوافر الخيول، وتناهت من مكان ما رائحة الفطر. ثم ظهرت في الظلام الدامس شقوق مضيئة عكرة، اذا خفت كثافة الغابة. والى

اليمين، على مسافة قريبة جدا، اندفعت ابر نارية، وانداحت طلقات مدوية عبر الغابة السوداء. وصاح يميليانوف صيحة طويلة: «استلوا السيوف، مارش، مارش!» وضربت الاغصان المبللة الوجوه وتلاصقت الجياد وهي تشخر، واصطدمت الركب بجذوع الاشجار. وسرعان ما امتدت امام البصر فسحة رمادية، داخنة، منحدره الى اسفل، ورمحت فيها ظلال الخيالة. وانتهى الشاطئ فجأة. وغرزت أولغا فيتشيسلافوفنا المهماز في بطن الحصان فشد كفله واندفع الى النهر...

واخترق الفوج الى مؤخرة العدو. وركضوا في الظلام تحت السحب المنخفضة. وازت السهوب تحت سنايك خمسمائة حصان. ودوت صيحات النفير وهم يركضون متقطعة. ثم صدر الأمر بالترجل. ووزعت على الفصائل اشارات الاكتاف واغطية الراس. وجمع يميليانوف الجنود في دائرة. وقال مخاطبا:

- نحن الآن، ولاغراض التخفي، فوج مجمع تابع لجيش شمال القوقاز بقيادة الفريق البارون فرانجل. هل وعيتم هذا يا ابناء الفراخ؟ (وقهقه الجنود). من يضحك هناك، اغلق فمك، صمتا. انالم اعد بالنسبة لكم «الرفيق القائد» بل «صاحب السعادة السيد المقرب» (واشعل عود ثقاب فلمعت على كتفه شارة مذهبة بخط واحد). وانتم الآن لستم «رفاقا» بل «الرتب الدنيا». ينبغي ان تشدوا قاماتكم، وتؤدوا التحية وتتكلموا بصيغة الجمع. «أخرس! انتباه!» مفهوم؟ (وقهقه الفصيل كله، وراحوا يشدون قاماتهم، ويؤدون التحية، ويحشرون مع كلمة «صاحب السعادة» شتى الكلمات الشعبية) هيا ثبتوا اشارات الاكتاف، وخبثوا النجوم الحمراء في جيوبكم، والبسوا اغطية الراس فوق العمرات...

وركض الفوج المتخفي ثلاثة ايام في الخطوط الخلفية لجيش فرانجل. وكانت اعمدة الدخان الأسود تتصاعد في المرة، اذ كانت تشتعل قطارات السكك الحديدية والمخازن الحربية والمحطات، وتنفجر مضخات المياه ومخازن البارود. وفي اليوم الرابع تعبت الخيول وبدأت تتعثر، فتوقفوا للراحة نهارا في احدى القرى النائية. ونظفت أولغا فيتشيسلافوفنا جودها، وانهارت بقربه فنامت على التو فوق الدريس. واستيقظت على ضحكات نسائية..

كانت هناك فلاحة متوردة الخدين، في تنورة سوداء معقودة فوق
سمانتي ساقياها العاريتين، تشير بيدها الى زوتوفا قائلة لشخص ما:
«ياله من فارس جميل..» ومضت الفلاحة تنشر في الفناء شرائط
الجوارب المغسولة.

وعندما دخلت اولغا فيتشيسلافونا المنزل كان يميليانوف
جالسا الى الطاولة، مرحا، لم يفق من النوم، وكان الزعب عالقا
بشعره وقدماه عاريتين. اذن فقد غسلوا له شرائط جواربه.
وقال لاولغا فيتشيسلافونا:

- اجلسي، سيحضرون الحساء الآن. اتريدين فودكا؟
ودخلت نفس الفلاحة المتوردة حاملة قدر حساء، وهي تحول خدها
المتورد عن البخار المتصاعد العبق. ودقت بالقدر وهي تضعه
امام انف يميليانوف تماما، وهزت كتفها المليئة.

وقالت بصوت زفيغ ناغم:

- كنا في انتظارك، وهاهو الحساء... - كانت جريئة، ووجهة...

- غسلت لك شرائط جواربك، ستجف في غمضة عين... - ولعقت
يميليانوف بنظرة من عيني كلبه.

اما هو فكان يتنحج باستحسان وهو يجرع الحساء.. وكان في
هيئته كلها شيء من النعومة والذعة.

ووضعت اولغا فيتشيسلافونا الملعقة.. لقد لدغتها حية رقطاء
في قلبها.. فاصفرت كالاموات، ونكست رأسها. وعندما خرجت
الفلاحة من الغرفة. اسرعت فلحقت بها في المدخل، واسسكت بيدها
وفحت وهي تكاد تختنق:

- ماذا دهاك، هل تريدين ان تموتي؟..

فندت عن الفلاحة آهة، وجذبت يدها بقوة، وركضت مبتعدة.

ونظر ديمتري فاسيليفتش الى اولغا فيتشيسلافونا عدة

مرات مذهولا، وهو لا يدرك ماذا جرى لها؟ ولكن عندما امتطى

جواده رأى عينيها الضاريتين المعتمتين وفتح في انفها المتسعيتين.

وتلك الفلاحة البسيطة تطل من خلف ركن العظيمة مذعورة كالجرذ،

فأدرك كل شيء وقهقه ضاحكا، كما كان يضحك في السابق، كاشفا

صف أسنانه البيضاء كله، وعندما مر من البوابة لمس بركبته

ركبة اولغا وقال برقة غير متوقعة:

- يالك من عبيطة...

فكادت الدموع تطفر من عينيها.

في اليوم الخامس اكتشفوا ان فرقة قوزاقية كاملة تتعقب اثر
الفوج الاحمر المتنكر. اصبحوا الآن ينسحبون بأقصى سرعة،
تاركين الجياد المنهكة. وعندما حل الظلام نشبت معركة في مؤخرة
الفوج. وسلم علم الفوج للفصيل الاول. واندفعوا دون توقف
فاقتحموا قرية مظلمة، بلا اضواء. واخذوا يدقون بمقايض السيوف
على شيش النوافذ. وعوت الكلاب، وبدا كل شيء حولهم بلا حياة،
الا ان الناقوس دق في البرج ثم سكن.

واقترادوا فلاحين مشعثين كالغيلان وجدوهم مختبئين في كوم

قش. تطلعا الى الفرسان ومضيا يرددان جملة واحدة:

- يا اخوان، يا احباء، لا تقتلوننا...

وانحنى يميليانوف من السرج وصرخ:

- هل قريرتكم مع البيض ام مع الحمر؟

- يا اخوان، يا احباء، نحن لا نعرف... اخذوا منا كل شيء،
نهبونا، سلبوا كل شيء...

ومع ذلك استطاعوا ان يستخلصوا منهما ان القرية لم يحتلها

احد بعد، وانها في انتظار وصول قوزاق الجنرال فرانجل فعلا، وان

البلاشفة متخذقون وراء النهر، خلف جسر السكة الحديدية. وخلع

الفوج شارات الاكتاف، وعلق النجوم الحمراء، وعبر الجسر

منتقلا الى صفوف الجيش الاحمر. وهناك اتضح ان البيض يهاجمون

على الجبهة كلها كالمساعير، وقد صدر الامر بحماية هذا الجسر

حتى الموت، بينما لا يوجد هناك ما يحاربون به، فأشرطة الرصاص

ذات عيار مخالف لعيار الرشاشات، والقمل منتشر بين الجنود في

الخنادق، وليس هناك خبز، وقد انتفخت اجساد الجنود الحمر تماما

من اكل الحبوب المسلوقة، وما ان يأتي الليل حتى يتشتتوا، اما

الداعية السياسي فقد مات من الاسهال.

واتصل قائد الفوج بالقائد الاعلى عبر التليفون، فاتضح بالفعل

انه ينبغي الدفاع عن الجسر حتى آخر قطرة دم، الى ان يخرج
الجيش من طوق الحصار.

قال يميليانوف:

- لن نمضي من هنا احياء.

وملا قديرين من ماء النهر واعطى احديهما اولغا فيتشيسلافوفنا، وجلس بجوارها وهو يحدق في ملامح الشاطي، البعيد غير الواضحة. كانت هناك نجمة عكرة مائلة الى الصفرة تطل فوق النهر. وقد ظلت مدفعية فرانجل تدمر خنادق البلاشفة طول النهار بنيرانها الكثيفة. وفي المساء تلقوا امرا بعبور الجسر وطرده البيض بعيدا عن النهر واحتلال القرية.

وحدقت اولغا فيتشيسلافوفنا في اثر النجمة العكر الثابت المنعكس في صفحة النهر، الذي كان يبعث في النفس الوحشة.

وقال يميليانوف:

- حسنا، هيا يا اولغا. ينبغي ان ننام ساعة.

وكانت تلك اول مرة يناديها فيها باسمها مجردا.

من بين الخمائيل زحفت اشباح الجنود حاملة قدور الماء نحو الشاطي، الشديد الانحدار، فطول النهار لم ينق احد قطرة ماء لتعذر الوصول الى النهر. وكان الجميع قد علموا بالامر الرهيب الصادر اليهم. وبدا للكثيرين ان هذه الليلة هي الاخيرة.

وقالت اولغا فيتشيسلافوفنا بلوعة خافتة:

- قبلني.

فوضع القدر على الارض بحذر وجذبها نحوه من كتفها. وسقطت عمرتها من على راسها، وانغمضت عينيها، وراح يقبلها في عينيها وشفتيها وخديها.

- بودي لوتزوجتك يا اولغا، ولكن الآن مستحيل، اتفهمين...

صدت الهجمات الليلية. فقد حصن البيض الجسر ووضعوا عند طرفه الاسلاك الشائكة واطلقوا نيران المدافع الرشاشة على امتداده. لاح الفجر الرمادي فوق النهر الداخن، وفوق المروج الرطبة وكانت التربة تتطاير على كلا الشاطئين كل لحظة وكأنها خمائل سوداء تنمو. وعوى الهواء وصرخ، وتفجرت قنابل الشراپنل

سحابات كثيفة. ومن شدة القصف جن جنون الجنود. وتبعثرت جثث كثيرة بجوار الجسر مغروزة في الارض، مبسوفة الاذرع. عبثا ضاعت الجهود. ولم يعد في مقدور الجنود ان يعاودوا الهجوم تحت رصاص الرشاشات.

عندئذ تجمع ثمانية شيوعيين خلف الجسر الترابي للخط الحديدي رافعين علم الفوج. وبدا العلم الممزق المثقوب في ضوء الفجر بلون الدم. وامتطى جنود فصيلتين صهوة الجياد. وقال قائد الفوج: «علينا ان نستشهد يا رفاق» وسار بجواره بالخطوة العادية تحت العلم. وكان الثامن ديمتري فاسيليفتش. وامتشقوا السيوف ولكزوا الجياد بالمهاميز من وراء الجسر الترابي وركضوا بخطوات ثقيلة فوق الواح الجسر الداوية.

وتابعهم اولغا فيتشيسلافوفنا بنظراتها.. هاهو حسان احدهم يميل على حاجز الجسر، ويسقط الحصان والفارس في النهر من ارتفاع عشر اذرع - وبلغ السبعة منتصف الجسر. وهاهو واحد آخر يسقط من السرج كالنائم. وبلغ الاوائل نهاية الجسر فراحوا يقطعون الاسلاك الشائكة بالسيوف. وترنح حامل العلم الطويل القائمة فعال العلم، فاخطفه يميليانوف.. وعلى الفور سقط جواده. كانت الرصاصات تصفر بحرارة. وركضت اولغا فيتشيسلافوفنا بالجواد فوق الألواح ذات الشقوق على ارتفاع يدير الراس. ومن خلفها دوت وازت مفاصل الجسر الحديدية وصرخت مائة وخمسون حنجرة. وكان ديمتري فاسيليفتش واقفا، ممسكا بالعلم بين يديه وقد باعد بين ساقيه، ووجهه ميتا، والدم يسيل من فمه. وعندما حاذته اولغا فيتشيسلافوفنا راکضة انتزعت منه العلم، فترنح نحو الحاجز وجلس. ومن جواره مرقت الفصائل.. اعراف الخيول، والظهور المحنية، والسيوف البراقة.

اقتحموا الحواجز الى الناحية الاخرى وولى العدو هاربا وسكتت المدافع. وظل العلم الممزق اربا يغفق طويلا فوق اعصار الفرسان في الحقل، ثم اختفى وراء خمائل القرية. كان يركض به الآن جندي عريض الوجه، وهو يلکز الحصان بكعبيه العاريتين ويلوح بسارية العلم صائحا: «احصدهم، احصدهم، اضربهم!..»

التقطوا اولغا فيتشيسلافوفنا من الحقل فاقدة الوعي بسبب

السقطلة ومصابة بجرح خطير في فخذهما. ورتى لها رفاقها في
الفصيل بشدة وهم لا يعرفون كيف يخبرونها بمقتل يميليانوف.
وأرسلوا وفدا الى قائد الفوج لكي ينعم على زوتوفا بمكافأة على
بطولتها. وظلوا طويلا يفكرون بم يكافئونها؟ بعلمة سجانر معدنية؟
ولكنها لا تدخن. بساعة؟ ولكن ليس للنساء ان يحملن ساعات.
ووجدوا لدى احد الخيالة ديبوسا من الذهب الخالص في كيس
حاجياته، عبارة عن سهم وقلب. ووافق قائد الفوج على هذه
المكافأة دون تردد، الا انه كتب في الامر الصادر بالمكافأة
التحفظ التالي: «تكافأ زوتوفا على بطولتها بديبوس ذهبي به سهم،
اما القلب فينزع باعتباره رمزا برجوازيا...».

—٤—

كطير محلق في سماء عاصفة مجنونة، يهوي فجأة كالحجر على
الارض مكسور الجناحين كانت حياة اولغا فيتشيسلافوفنا كلها.
تمزق حبها المشبوب البريء وتحطم، وامتدت امامها ايام ثقيلة
كثيية لا لزوم لها. وتقلبت طويلا على اسرة المستشفيات، ورحلت
في عربات القطارات المتهاكمة، ولسعها البرد تحت معطفها البالي،
وذاقت مرارة الجوع. وكانت الوجوه حولها غير مالوفة، شريرة،
وكانت بالنسبة لهم مجرد رقم في سجل المستشفى، وفي الدنيا
كلها لا يوجد شخص قريب. اصبحت الحياة غثة، مظلمة، ومع ذلك
لم يستطع الموت ان يقبض روحها.

وعندما خرجت من المستشفى حليقة الشعر تماما، نحيلة الى
درجة انها كانت تخب في المعطف والحذاء الطويل وكانها هيكل
عظمي، توجهت الى محطة القطار حيث كانت تعيش وتموت مخلوقات
لا تشبه البشر. فالى اين تذهب؟ الدنيا كلها كحقل بري. فعادت
الى المدينة، الى مركز التوزيع باللجنة العسكرية، وقدمت
وثائقها والديبوس - السهم المكافأة، وسرعان ما استقلت القطار
الحربي الى سيبيريا لتقاتل.

دقات عجلات العربات، والصهد المتبعث من حديد المدافع
والملفع بالدخان الازرق، وآلاف الآلاف من الكيلومترات الطويلة

كالطريق نفسه، والأغاني، والروائح الكريهة وتلج الثكنات
الملوث بالروث، والحروف الزاعقة للملصقات الحربية وما لا
يعلمه الا الشيطان من اعلانات وافيشات.. مزق من الأوراق
تخشخس في الصقيع والاجتماعات العابسة بين الجدران الجذعية
في شبه ظلام يلف قنديلا داخنا.. ثم مرة اخرى الثلوج، وأشجار
الصنوبر، ودخان النيران، والصوت المألوف لقعقة السيوف
اثناء القتال، والزمهيرير، والقرى المحترقة، وبقع الدماء على
الثلج، وآلاف آلاف الجثث كأحطاب مبعثرة جلبتها الرياح... كل
ذلك اختلط في ذكرياتها وتجمع في شلة واحدة طويلة من
المصائب اللانهائية.

اصبحت اولغا فيتشيسلافوفنا نحيلة، سوداء، وكان في
مقدورها ان تجرع كحول الموتورات وتدخن الماخوركا وعندما
يستدعي الأمر، تطلق من السياب ما لا يقل بذاءة عن سياب
الآخرين. ولم يعاملها كامرأة الا القليلون، اذ كانت جد نحيلة
وشريرة كالأفعى. حدث ذات مرة ان دخل عليها الثكنة احد الأخوة
من مقاتلي الجبهة الذين فقدوا الماوى. وكان ذا شفيتين غليظتين
- ويدعوونه «ابو الشقايف» واراد ان يداعبها، فما كان منها الا
ان اهوت بالمسدس على ارنبة انفه بغل مباغت حتى انهم حملوا
هذا الاخ الى المستشفى. وقد واد هذا الحادث مجرد الرغبة في
التفكير بهذه «الأفعى»...

وساقتها المقادير في الربيع الى فلاديفوستوك. ولأول مرة
في حياتها ترى المحيط.. كان ازرق، قاتما، حيا. اندفعت نحو
الشاطئ أعراف مزبدة طويلة، وكانت الأمواج ترتفع وهي بعد في
الأفق، وعندما تصل، تضرب حاجز الموج وتتطاير سحبا خفيفة.
وارادت اولغا فيتشيسلافوفنا ان ترحل على سفينة... فقد
انبعثت في ذاكرتها صور كانت تراودها في احلام الطفولة: شواطئ
بأشجار لم تر مثلها، وقمم جبلية شاهقة، وشعاع شمس بين سحب
لا تحد، و أثر السفينة الوادع... وترحل مارة براس العواصف،
وتجلس حزينه ساهمة على حجر عند نهر زامبيزي... بالطبع كل
ذلك هراء. لم يأخذها احد على السفينة، ولكن في حانة سرية
بالميناء رآها مرشد عجوز فظنها مومسا، وذرف دموعا مخمورة

مشفقاً على شبابها الضائع، ووشم يدها برسم مرساة قانلا:
«فلتذكرى، هذا أمل في النجاة...»

ثم.. انتهت الحرب. فاشترت أولغا فيتشيسلافوفنا من السوق تنورة من قماش ستائر اخضر مخملي، وراحت تعمل في شتى المصالح: كاتبة على الآلة في اللجنة التنفيذية، سكرتيرة في مؤسسة الاخشاب، او هكذا، آنسة مكاتب، تنتقل مع مكتبها من طابق الى طابق.

لم تكن تبقى كثيراً في مكان واحد، وتتنقل طوال الوقت من مدينة الى اخرى مقتربة من روسيا. وكان يخطر ببالها: آه لو تمر بذلك الجسر، فوق ذلك الشاطئ، حيث جلس معها ديستري فاسيليفتش آخر مرة بعد ان ملاً قدره من النهر.. اذن لو وجدت تلك الخميطة وذلك المكان الذي جلسا فيه فوق العشب المدهوك...

لم تفارقها ذكرى الماضي. وعاشت في وحدة وصداقة. ولكن القوة العسكرية فارقتها شيئاً فشيئاً. وعادت أولغا فيتشيسلافوفنا امرأة مرة اخرى.

-5-

كان عليها في الثانية والعشرين من عمرها ان تبدأ الحياة للمرة الثالثة. وبدا لها كل ما يجري الآن أشبه بمحاولة تسريع الخيول الحربية في عربة جر. كانت البلاد التي هزتها الحرب ماتزال تكشر عن انيابها، والعيون المحترقة بالدم تبحث عما يمكن تدميره، بينما انتشرت في كل مكان اوراق المراسيم حائلاً بينهم وبين يوم الأمل، داعية الى الترميم والتعمير والبناء.

قرأت وسمعت عن ذلك، وبدا لها هذا اصعب من القتال. وكانت المدن التي عاشت فيها مهدمة بضرواة عنيفة، وكل ما فيها محطم متداع، وغطت اعشاب القراص اماكن الحرائق. ولم يكن الناس يلتحفون سوى بالخيش. كانوا يأكلون ويشربون، بينما تراوهم في الاحلام رؤى الحرب. وتجلى الابداع في انتاج مضارب الحمامات والاواني الفخارية، مثلما في العصور السحيقة.

كانت اوراق المراسيم تحض على التعمير والابداع. فبايدي

من؟ بنفس هذه الايدي، التي ماتزال معقوفة الاصابع كأظفار الطير الجارح... كانت أولغا فيتشيسلافوفنا تهوى التجول في المدينة في اوقات الغروب. فتروح تتأمل الوجوه المرتابة العابسة التي لم تفارقها تجاعيد الغضب والرعب والحقد.. كانت تعرف جيداً هذا التقلص في الفم، وهذا الحطام والفجوات بدلاً من الاسنان التي التهمتتها الحرب.. لقد خبروها جميعاً، صفاراً وكباراً. وها هم يجولون في المدينة الملوثة، في ملابس حمضية الرائحة مصنوعة من الخيش وستائر منازل البرجوازيين، وفي احذية مهترئة من لحاء الأشجار، مشعشع الهيئة، مستعدين في اية لحظة للبكاء او القتل...

كانت اوراق المراسيم تطالب بالحاح: الابداع، الابداع، الابداع... نعم، ان هذا اصعب من تدمير جسر بشحنة بيروكسيلين، او الاجهاز بالسيوف من فوق ظهور الجياد على اطقم المدافع، او تحطيم نوافذ مبنى المصنع بقنابل شراينل... كانت أولغا فيتشيسلافوفنا تتوقف امام ملصق مزركش عند سور متداع.. وقد شطب عليه احدهم بقطعة ملاط وخط كلمة بذيئة. كانت تتأمل الوجوه المرسومة، والتي لا وجود لها في الحياة، والرايات الخفاقة، والمنازل المؤلفة من مائة طابق، والمداخن، والدخان المتصاعد نحو الحروف المتراقصة: «التصنيع»... كانت شديدة التأثر كالعذارى، فتغيب مع الاحلام وهي واقفة امام الملصق الزاهي، وتثيرها عظمة هذا الكفاح الجديد.

ويدلهم المغيب وتخرق بقايا عنفوان الوانه السحب الرصاصية مشعلة شظايا الزجاج في المنازل الفاغرة الخاوية. ونادراً ما يخطر عابر وهو يقزقز اللب ويصق على وحل الشارع المخدد، حيث تتناثر جيف القطط النافقة. اللب، اللب... كان وقت فراغ الناس يملاً بحركة الفكين، بينما ينعس المخ في الغروب. وكان في اللب رجوع الى عصر الفأس الحجرية. فكانت أولغا فيتشيسلافوفنا تعصر قبضتها، اذ لم يكن في وسعها ان تسلم بالهدوء، وباللب، وبمضارب الحمامات، وبالخرائب الضخمة في الأقاليم المنسية...

وتمكنت من الحصول على مأمورية في موسكو. ووصلت الى هناك في تنورة خضراء من قماش ستائر مخملي، وكلها عزم ونكران ذات.

كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تنظر الى شظف الحياة نظرة هادئة، فقد خبرت ما هو اسوأ من ذلك. وكانت تاوي في الأسابيع الأولى من وجودها في موسكو الى اي مكان، ثم حصلت بعد ذلك على غرفة في شقة جماعية في «زارياي»، و بعد ملء الاستثمارات وتقديم طلبات لا حصر لها، واذ انكشيت على الفور بتأثير التعقيد البالغ لسير اجراءات اوراقها وضجيج المصالح المتعددة الطوايق، المليئة بالطنين كخلايا النحل، التحقت بالعمل في قسم الرقابة بمؤسسة المعادن غير الحديدية. وراودها احساس بأنها عصفور وقع في آلية ساعة برج بالف ترس. فطوت ذيلها. وكانت تذهب الى العمل في الموعد تماما. وتنتظر حولها وتشعر بالوجل، لأنها لم تستطع، رغم كل ما بذلت من مجهود عقلي، ان تحدد مدى الفائدة التي تقدمها بنسخها للأوراق. لم تكن ثمة حاجة هنا لمهارتها ولجسارتها المتهورة، لغلها الافعوانى. لم يكن هنا سوى دق الآلات الكتابية كالمطارق في الأذان اثناء هذيان حمى التيفوس، وحفيف الأوراق ودمدمة اصوات عملية في سماعات التليفون وشتان بين هذا وبين الحرب... هناك كل شيء واضح، محدد، وتحت ازيز الرصاص تمضى دائما الى الهدف المرثى...

وبعد ذلك تعودت بالطبع، وتاقلمت و «سوت شعر فروتها». ومرت الايام سريعا، ايام عمل، رتيبة، هادئة. ولكى لا تفوص حتى رأسها في هذا الركود المكتبي بدأت تأخذ على عاتقها مهام انشطة اجتماعية. فادخلت في نشاط النادي روح الانضباط ومصطلحات الخيالة. واضطروا الى كبح جماح اندفاعها الزائد.

تلقت اول وخزة من مساعد الرئيس، الجالس على مكتب مجاور عند الناحية الأخرى من الباب العزدي الى مكتب الرئيس. وقد حدث ذلك بسبب تدخينها الماخوركا. فقد قال لها مساعد الرئيس: - انتى مندهش لك يارفيقة زوتوفا. امرأة وسيمة عموما، ثم تنشرين رائحة الماخوركا الكريهة في المبنى كله...

اليس فيك انوثة... هلا دخنت سجائر «يافا»...

و يبدو ان هذه الملاحظة التافهة جاءت في الوقت المناسب. احست اولغا فيتشيسلافوفنا بالضيق، ثم بالآلم الى حد الرغبة في البكاء. وعندما انصرفت من العمل توقفت على بسطة السلم امام المرأة، ولأول مرة منذ سنوات، نظرت الى نفسها نظرة امرأة. «الشيطان يعلم ما هذا... مثل فزاعة الطيور». كانت التنورة المخملية المتآكلة مرفوعة من الامام، ومن الخلف انسلت خيوطها اذ مزقتها كعبا الحذاء، والحذاء رجالي، مع بلوزة رمادية من الشيت... كيف حدث هذا؟

ومرقت من جوارها فتاتان من العاملات على الآلات الكتابية في تنورتين مغريتين وجوارب وردية، ونظرتا الى زوتوفا الواقفة كالمتوحشة امام المرأة، وعندما بلغتا البسطة الأدنى انفجرتا بالضحك، ولم تسمع زوتوفا سوى عبارة «... الخيول ستخاف...». وتضرج وجه اولغا فيتشيسلافوفنا العجزي الرائع بالدم... كانت احدى الفتاتين تعيش معها في نفس الشقة في زاريادي. وكانت تدعى سونتشكا فارنتسوفا

بعد عدة ايام ذهلت النساء القاطنات شقة حارة بسكوف (في حي زاريادي) من تصرف اولغا فيتشيسلافوفنا الغريب. فعند ما دخلت المطبخ صباحا لتغتسل، ثبتت عينها البراقنتين كعيني الأفعى على سونتشكا فارنتسوفا التي كانت تطهو العصيدة. واقتربت منها و قالت مشيرة الى جوربها: «أين اشتريت هذا؟» ورفعت ذيل تنورة سونتشكا، وأشارت الى ملابسها الداخلية قائلا: «أين اشتريت هذا؟» كانت تسأل بغل، كأنما تهوى بالسيف.

خافت سونتشكا، الرقيقة بطبيعتها، من هذه الحركات العادة. وخفت روزا ابراموفنا لانقاذها، فأوضحت بصوتها الناعم وبالتفصيل ان اولغا فيتشيسلافوفنا تستطيع الحصول على هذه الأشياء من شارع «كوزنيتسكى موسست» وان الموضة الآن هي فساتين «شميميز»، والجوارب بلون البشرة، الخ، الخ...

كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تصغى وهي تهز رأسها وتردد

«تمام. نعم... مفهوم...». ثم قبضت على خصلة من شعر سونتسكا الاشقر رغم انها كانت خصلة من الحرير الناعم وليست عرف حصان. وسالت:

- وهذا... كيف تسرحينه؟

فمضت روزا ابراموفنا تقول بصوتها الناعم:

- لا بد من قصة يا روى... من الخلف قصير، ومن الامام بفرق على الاذنين...

وبعد ان دلف بيوتر سيميونوفتش الى المطبخ راح يصغى، واطلق غمزة، وصلعته تلمع كالعادة في خيلاء:

- تاخرت في التحول من الشيوعية الحربية يا اولغا فيتشيسلافوفنا...

فالتفتت نحوه باندفاع (وقال فيما بعد انها قضقت بانياها) وقالت بصوت غير عال ولكن بوضوح:

- وغد اقلت! لو وقعت في قبضتي في الميدان...

ارتبك جميع العاملين في مؤسسة المعادن غير الحديدية للوهلة الاولى عندما جاءت اولغا فيتشيسلافوفنا الى العمل في فستان حريري اسود بكمين قصيرين وجوارب بلون البشرة وحذاء لامع. وكان شعرها الكستنائي مقصوصا، يلمع كالغراء البنى - الاسود. جلست الى المكتب ودفنت راسها في الاوراق، بينما كانت اذناها ملتفتين.

اما مساعد رئيس القسم، وهو شاب فتى ساذج، فقد اتسعت عيناه وهو جالس الى تليفون یرن بجنون.

وصاح:

- يا للشيطان، من اين جاء هذا؟

وبالفعل، كانت زوتوفا صاعقة.. وجه رشيق بزغب اسمر على الخدين.. وعينان كالليل، ورموش طويلة.. ویدان نظفتها من الحبر.. وباختصار: نجمة سينما. حتى الرئيس نفسه اطل من باب مكتبه، عرضا، ووخر زوتوفا بنظرة رصاصية.

وقال فيما بعد عنها:

- فتاة طليعية!

وركضوا من الغرف الأخرى ليتفرجوا عليها. ولم يكن هناك من حديث غير الكلام عن تحول زوتوفا المدهش.

وبعدما مرخجل اللحظات الأولى احست بالراحة والحرية في جلدها هذا الجديد، كما كانت تحس في زمن ما وهي في فستان المدرسة او خوذة الخيال والمعطف المشدود بقوة والمهزاز. وعندما كان الرجال يخلقون فيها بشدة وهي تمر بجوارهم، كانت تسدل رموشها، كأنما تسد ابواب روحها.

في اليوم التالي، وفي الساعة الخامسة، عندما قطعت زوتوفا قطعة من ورقة النشاف وبللتها بلعابها ونظفت بقعة الحبر على كوعها، اقترب منها مساعد الرئيس ايفان فيودوروفتش بيدوتي، الشاب الفتى، وقال لها انه «ينبغي ان يتحدث معها في امر جدي للغاية». فرفعت اولغا فيتشيسلافوفنا قليلا خطي حاجبيها الجميلين، وارتدت القبعة. وخرجا.

قال بيدوتي:

- اسهل شيء ان نذهب الى بيتي، انه خلف الناصية.

هزت زوتوفا كتفها هزة خفيفة. وذهبها. كانت رياح حارة تحمل الغبار. وتسلقا الى الطابق الرابع، ودخلت اولغا فيتشيسلافوفنا غرفته قبله وجلست على كرسي.

وسالته:

- حسنا؟ عم تريد ان تتحدث معي؟

التي بحقيقته على السرير، ونكش شعره، واخذ يضرب الهواء الخائق في الغرفة بقبضته:

- يا رفيقة زوتوفا، نحن دائما نتناول الامر راسا، مباشرة.. بطريقة طبيعية.. الميل الجنسي هو حقيقة واقعية وحاجة طبيعية... آن الاوان لان نلقى في البحر بكل تلك الرومانسيات. حسنا.. اذن... لقد اوضحت لك كل شيء مبدئيا.. الامر كله مفهوم لك... و طوق اولغا فيتشيسلافوفنا من تحت ابطيها وشدها من الكرسي وضمتها الى صدره، حيث كان قلبه الجاهل يدق بجنون، وكأنه على حافة هاوية مجهولة. ولكنه احس على الفور بمقاومة زوتوفا، ولم يكن من السهل انتزاعها من الكرسي فقد كانت

نحيلة ومرنة. ودون ان ترتبك، وبصورة هادئة تقريبا، عصرت
اولغا فيتشيسلافوفنا كلتا يديه عند الرسغين، ولوتهما بقوة
جعلته يصرخ متاوها و يشدهما، ولكنها واصلت تعذيبه فصاح:
- تؤلميني، اتركيني، فلتذهبي الى الشيطان!
فقلت:

- لا تحاول ان تهجم دون استئذان، يا غبي.

وتركت يدي بيدوتي، وتناولت من علبة السجائر على الطاولة
سيجارة «يافا» ودخنتها، ثم انصرفت...

ظللت اولغا فيتشيسلافوفنا تتقلب في فراشها طول الليل...
وتنهض فتجلس قرب النافذة، وتدخن، ثم تدفن رأسها في
الوسادة ثانية...

وتذكرت حياتها كلها. واستفاق كل ما بدا قد خمد الى الأبد،
وعاودها الحنين... يالها من ليلة شيطانية... ما الداعي؟ ما الداعي؟
افلا يمكن ان تعيش باردة، كمياء النبع، بلا حمى الحب؟ واحست
وهي تختلج: رغم ان الحياة، فيما يبدو، قد طحنتها وهرستها في
مصحنها، فلم تخلصها من هذا الداء وسوف يبدأ «هذا» بالطبع...
ولا مهرب لها منه او خلاص...

وفي الصباح سمعت وهي ذاهبة الى المطبخ لتغتسل ضحكا هناك
و صوت سونتشكا فارنتسوفنا يقول:

- شيء مذهل الى أي حد تتغنج.. حتى مجرد النظر اليها
يشير التقزز.. ممنوع اللمس يا حضرة.. يا للانفة... عندما ملات
الاستمارة كتبت بحروف كبيرة: «آنسة» (ضحك، أزيز مواد
الكيروسين). أما الجميع فيقولون: كانت تتنقل معهم في الفصيلة..
اتفهمون؟ عاشرت كل الفصيلة تقريبا.

صوت ماريا افاناسيفنا، الخياطة:

- زهري أكيد، واضح من سحنتها.

صوت روزا ابراموفنا:

- اما نظراتها.. ولا البارونة روتشيلد.

صوت بيوتر سيميونوفيتش مورش الغليظ قليلا:

- كونوا معها على حذر، فانا ادركت كنه هذه الأفعى منذ
وقت بعيد... ستصنع لها مستقبلا.. في لمح البصر...

صوت سونتشكا فارنتسوفنا محتجا:

- انت دائما تتهور في الكلام يا بيوتر سيميونوفيتش...

اطمن، يمثل هذه الكفاءات لا يصنعون المستقبل...

دلقت اولغا فيتشيسلافوفنا الى المطبخ فصمتوا جميعا. وتوقفت
نظرتها على سونتشكا فارنتسوفنا ورسمت التجاعيد التي ظهرت عند
فمها أقصى درجات التقزز، حتى ان النساء احسنن بالغليان. بيد
انه لم تند اية صرخة في هذه المرة.

بعد الحادث الذي وقع لها مع بيدوتي واثار حقه عليها بكل
قوة كرامته الرجولية المهانة، احاط بزوتوفا عدا صامت من
النساء وموقف ساخر من الرجال. وكانوا يخشون الشجار معها.
ولكنها كانت تحس من الخلف بوقع النظرات الشريرة وهي
تشيعها. والتصقت بها نعوت «الأفعى» و «الموصومة» و «حشالة
الفصيلة»، وكانت تسمعها في الهمسات وتقرأها على ورق
النشاق. والشيء الغريب حقا انها كانت متألمة من كل هذا
الهراس... وكانا كان من الممكن ان تصرخ في وجوههم جميعا:
«انا لست هكذا!..»

كان ديمتري فاسيليفتش محقا عندما قال عنها في وقت ما انها
عجرية... لقد بدأت تلاحظ، بشقوق مبهم، ان الرغبات تستيقظ
فيها من جديد، ولكن بقوة ناضجة هذه المرة.. كانت عذريتها
تبدى سخطها... و لكن ما العمل؟ هل تستحم بالماء المثلج تحت
الصنوبر من قمة رأسها الى اخصص قدميها؟ كانت النار قد
لسعتها بشدة فأصبح الارتماء فيها ثانية شيئا مرعبا.. ولم يكن
هناك داع لهذا، كما كان ذلك رهيبا...

لم تنظر اولغا فيتشيسلافوفنا الى هذا الرجل اكثر من
دقيقة، ولكن جوارحها كلها قالت لها: انه هو... كان ذلك وبالا،
لا تفسير له، كالاصلطام بحافلة تبرز مقعقة من وراء الناصية.
كان الرجل واقفا على بسطة السلم، يقرأ جريدة الحائط، في

قميص من التيل على طراز قميص تولستوي، طويلا، بدا يميل فيما يبدو الى الامتلاء. وكان الموظفون يركضون بجواره من باب الى باب، والى اسفل والى اعلى على الدرج. وفاحت رائحة الغبار والتبغ. كان كل شيء عاديا. وكان الرجل يتأمل بابتسامة كسلى رسما كاريكاتيريا في وسط الجريدة يسخر من المدير الاقتصادي لمؤسسة التبغ (التي تقع في الطابق الذي يعلوهم مباشرة). ولما كانت اولغا فيتشيسلافوفنا قد توقفت هي ايضا بجوار الجريدة، فقد التفت نحوها وقال مشيرا الى الكاريكاتير (كان ساعده ثقيلًا، كبيرا، جميلا)

- اظن انك في هيئة التحرير يا رفيقة زوتوفا؟ (كان صوته قويا و غليظا). ارسمنى كما يحلو لكم، انا لا امانع... ولكن هذا لا يفيد احدا، انه شيء تافه بلا موهبة!

كان الرسم الكاريكاتيري يصوره ممسكا بكوب شاي، جالسا بين جهازى تلفون يرنان بشدة. وكانت النكتة تكمن في انه يحب شرب الشاي في وقت العمل مما يعود بالضرر على عمله...

- لقد خفتم ان تعضوا بقوة فنبحتم، كالخدم... حسنا، وماذا اذا كنت اشرب الشاي؟ في سنة تسع عشرة كنت اشرب الكحول بالكوكايين لكى لا انام...

حدثت اولغا فيتشيسلافوفنا في عينيه.. كانتا رماديتين، باردتين قليلا، بلون الصلب الكاوي، تذكرانهما الى حدما بتينك العينين الغاليتين اللتين انطفأتا الى الابد... ووجهه حليق بنظافة - وجه متناسق التقاطيع، كبير، بابتسامة كسلى، ذكية، ساخرة... وتذكرت انه في سنة تسع عشرة كان ديكتاتور التموين في سيبيريا، يعد الجيش بالموُن ويلقى اسمه الرعب في النفوس على امتداد عشرات الآلاف من الكيلومترات... وكان يخيل اليها ان امثال هؤلاء الناس يسرون و هاماتهم في السحاب... كان يفنط الأحداث والاعمار كشدة الكوتشينة. وبعد كل هذا، هاهو يقف حاملا حقيبة، بابتسامة، متعب، بينما تسير الحياة التي اوجدها مارة من جواره وهي تدفعه بكوعها... وعاد يقول:

- اذا تفهنا الامور بهذه الخراقة فمن الممكن تحويل الثورة كلها الى كاريكاتيرات رخيصة... واذن فقد ادى المعجزات واجبههم ولنلق بهم الى المزبلة... لقد قبضنا الراتب، ولنذهب لنتناول البيرة... ان الشباب جيد، ولكن من الخطورة الانفصال عن الماضي. لا يعيش على اللحظة الحاضرة سوى ذباب مايو فقط، تلك الفراشات التي لا تعيش الا يوما واحدا... نعم...

وانصرف. وشيعت اولغا فيتشيسلافوفنا بنظراتها قفاه العريض، وظهره القوي الصاعد ببطء على الدرجات الحجرية الى مقر مؤسسة التبغ، وخيل اليها انه يبذل جهدا كبيرا لكى لا ينحن تحت وطأة الأيام... واشفقت عليه لحد الالم... وكما هو معروف فان الشفقة...

انتهزت اولغا فيتشيسلافوفنا اول فرصة وصعدت بورقة من اللجنة النقابية الى غرف مؤسسة التبغ المعتمة ودخلت مكتب المدير الاقتصادي. كان يحرك الملاعقة في كوب الشاي، وعلى حقيقته استقرت كعكة دسمة. وبجوار النافذة مضت فتاة تدق على الآلة الكاتبة بحيوية. وكانت اولغا فيتشيسلافوفنا مضطربة الى درجة انها لم تلحظها، اذ لم تر سوى العينين الفولاذيتين. وقرأ الورقة التي قدمتها له، ثم وقعها. وظلت هي واقفة، فقال لها:

- خلاص يا رفيقة... انصرفي.

وبالفعل لم يكن ثمة شيء آخر. وعندما اغلقت اولغا فيتشيسلافوفنا الباب خلفها خيل اليها ان موظفة الآلة الكاتبة ضحكت ضحكة قصيرة. ولم يعد امامها الا ان تجن... فلن يضربها احد مرة ثانية بالجلة الحديدية، ولن يرميها احد بالرصاص في القبو، وهو لن يحملها من هناك على ذراعيه ولن يجلس بجوار سريرها، ولن يعدها بحذاء يخلعه من قدمي تلميذ قتيل...

قضت تلك الليلة في حالة يحسن الا تتذكرها. وفي الصباح تلصص سكان الشقة على غرفتها من ثقب المفتاح، وعندما اقترح بيوتر سيميونوفيتش مورش ان ينقخوا بانبوب ورقى حوالى عشرة جرامات من مسحوق اليودفورم. وقالوا في المطبخ «افعانا

جن جنونها». وضحكت سونتشكا فارتسوقا ضحكة غامضة، و غفت في عينيها الزرقاوين سكينه ثقة لا تترزعزع.

التغلب على الخجل اصعب من رهبة الموت. ولكن ليس عبنا ان تمرست اولغا فيتشيسلافوفنا في مدرسة القتال، فاذا كان ضروريا فلن تتوانى. اما ان تنتظر الصدفة والسعادة، وتصرف تصرفات صغيرة تافهة، كان تظهر ساقا بجورب من لون البشرة تارة، وتارة اخرى تخرج كتفها العارية من الفستان على عجل، فليس هذا من طبيعتها. لقد قررت ان تذهب اليه مباشرة و تخبره بكل شيء، فليفعل بها ما يشاء. اما العيشة هكذا فليست عيشة... ركضت خلفه على الدرج عدة مرات، لكي تقبض على ذراعه هنا، في الشارع وتقول له: «أنا احبك... انى اهلك...»، ولكنه في كل مرة يستقل السيارة دون ان يلاحظ زوتوفا وسط بقية الموظفين... وفي تلك الأيام اقلت بموقد الكيروسين المشتعل في وجه جورافليوف. وتشبعت الشقة الجماعية بشحنة العاصفة. وكانت سونتشكا فارتسوقا مضطربة الأعصاب، تغادر المطبخ ما ان تسمع وقع خطوات اولغا فيتشيسلافوفنا وتمكن فلاديمير لفوفتش بونيزوفسكى العايب من التسلل الى غرفة زوتوفا بمفتاح مناسب؛ ودس لها تحت المرتبة فرشاة ملابس، ولكنها نامت الليل دون ان تحس بشيء.

وأخيرا انصرف من العمل سيرا على الاقدام (كانت سيارته في التصليح). ولحقت به اولغا فيتشيسلافوفنا، وصاحت به في حدة وفظاظة... كان معها وحلقها جافين تماما. وسارا متجاورين وهي لا تجرؤ على رفع عينيها، وتسير بصورة خرقاء وقد باعدت كوعها. وامتدت اللحظة دهرا، واحست بالحى ورعشة البرد والرقة والغزل. اما هو فسار لا مباليا، بدون ابتسامة، وصارما... - المسألة ان...

فقاطعها على الفور باحتقار:

- المسألة ان الناس يحدوثوننى عنك من كل ناحية... اننى مندهش، نعم، نعم... انك تطاردىنى... ونواياك معروفة، ارجوك لا تكذبى، لست بحاجة الى شروح... فقط نسيت اننى لست من

رجال النيب». ولا يسيل لعابى لدى رؤية كل وجه مليح. لقد اظهرت صفاتك الطيبة في نشاطك الاجتماعى. ونصيحتى لك ان تلقى من دماغك الأحلام عن الجوارب الحريرية والبودرة و ما شابه ذلك... فمن الممكن ان تصبحى رفيقا جيدا...

وعبر الشارع دون ان يودعها، وعلى الرصيف المقابل، بجوار محل حلوى، تأبطت ذراعه سونتشكا فارتسوقا. وراحت تقول له شيئا ما وهي تهز كتفها وتبدي سخطها. وواصل امتعاضه المعبر عن الاحتقار، وخلص ذراعه منها، وسار خافضا رأسه الثقيل. وحجبتها عن انظار اولغا فيتشيسلافوفنا سحابة دخان بنزين محترق نفتتها حافلة.

وهكذا أصبحت سونتشكا فارتسوقا هي البطلة. وهي التي امدت المدير الاقتصادى لمؤسسة التبغ بمعلومات مفصلة عن ماضى وحاضر حثالة الفصيل زوتوفا واحست سونتشكا بنشوة الانتصار، ولكنها كانت مذعورة الى درجة رهيبة...

في صباح الأحد الذي سبق ان تحدثنا عنه، وعندما صر باب اولغا فيتشيسلافوفنا، هرعت سونتشكا الى غرفتها واجهشت بالبكاء بصوت عال لأنها احست بالمهانة الشديدة من العيش في خوف مستمر. وبعد ان اغتسلت اولغا فيتشيسلافوفنا قالت لسبب غير معروف «آه، الشيطان يعلم ما هذا»، وقالتها مرتين، مرة وهي في المطبخ، ومرة في غرفتها عندما عادت اليها، وبعد ذلك غادرت المنزل.

واجتمع السكان مرة اخرى في المطبخ: بيوتر سيميونوفتش في بنطلون يوم الأحد وفي عمرة جديدة بيضاء من اعلى. وفلاديمير لفوفتش، غير حليق ومرحاً من سكرة الأمس. وكانت روزا

• النيب اختصار لعبارة: (السياسة الاقتصادية الجديدة) - سياسة مؤقتة طبقت بعد الحرب الأهلية لتنشيط الاقتصاد المدمر، وسمحت بحرية امتلاك المشروعات الرأسمالية الخاصة فظهرت فئة من الأثرياء، خاصة في قطاع الخدمات والتجارة، ثم الغيت هذه السياسة فيما بعد. **المعرب.**

ابراموفنا تصنع مربى من البرقوق، وماريا افاناسيفنا تكوي بلوزة. وكانوا يشرثرون وينكتون. وظهرت سونتشكا فارنتسوفنا بعينين منتفختين.

وقالت وهي بعد في الباب:

- لا استطيع الاحتمال اكثر، اليس لهذا حد في النهاية... سوف تلقى علي ماء الفائر...

واقترح فلاديمير لفوفتش بونيزوفسكى ان يقصوا على الفور شعرا من فرشاة الملابس، ويضعوا منه كل يوم في فراش الأفعى، عندئذ لن تتحمل وتترك الشقة بنفسها. اما بيوتر سيميونوفتش مورش فاقترح وسائل دفاع كيميائي: فاما كبريتات الهيدروجين، واما اليودفورم اياه. ولكن ذلك كله كان خيال رجال. ماريا افاناسيفنا هي وحدها التي اقترحت شيئا عمليا. فقد سألت سونتشكا:

- رغم انك كتومة جدا يا لاليتشكا، لكن هيا اعترفي: هل علاقتك بالمدير مسجلة قانونيا؟

فاجابت لاليتشكا:

- نعم، كنا في مكتب تسجيل الزواج منذ ثلاثة ايام... بل انى اصرت على التكليل في الكنيسة، ولكن هذا غير ممكن بعد... فقال بيوتر سيميونوفتش بحسرة، ولمعت صلعته:

- من يعيش ير.

فهزت ماريا افاناسيفنا المكواة في يدها قائلة:

- اذن فلتلقى بقسيمة الزواج في وجه هذه الأفعى، مومس الجيوش هذه.

- اوه كلا... لا يمكن ابدا ابدا... انا خائفة جدا.. اشعر بنذير سيى.

- سنقف وراء الباب... لا تخافي شيئا...

وتغاف فلاديمير لفوفتش، السعيد من سكرة الأمس، كالخروف:

- سنقف وراء الباب مسلحين بأدوات الإنتاج المطبحي.

واقنعوا لاليتشكا.

.....

عادت اولغا فيتشيسلافوفنا في الساعة الثامنة مساء محنية الظهر من التعب، مربرة الوجه. واغلقت على نفسها الغرفة، وجلست على السرير، وقد اسقطت ذراعيها على ركبتها... وحدها، وحدها في حياة متوحشة معادية، وحيدة كما في ساعة الموت، لا احد بحاجة اليها... منذ يوم الأمس تملكتها حيرة غريبة. وها هي الآن ترى في يدها المسدس. ولم تذكر كيف نزعتة عن الجدار. جلست تفكر وهي تحقق في هذه اللعبة الحديدية القاتلة...

ودق الباب، فانتفضت اولغا فيتشيسلافوفنا بشدة. وازداد الطرق، فنهضت وفتحت الباب بقوة. وفي ظلمة الطرقة خلف الباب تراجع سكان الشقة وهم يتدافعون، وخيل اليها انهم يحملون في ايديهم فرشاً وبشاكير... ودلفت فارينتسوفنا الى الغرفة، شاحبة، مزمومة الشفتين... وقالت على الفور بصوت متحشرج يعيل الى الزعيق:

- منتهى قلة الحياء ان تطاردى رجلا متزوجاً... هذه قسيمة الزواج... الجميع يعلمون انك مصابة بالامراض الزهرية... وتريدين معها ان تصنعى لك مستقبلاً... وفوق ذلك عن طريق زوجي الشرعي! انت حقيرة!.. ها هي القسيمة...

نظرت اولغا فيتشيسلافوفنا كالعمياء الى سونتشكا الزاعقة... وها هي موجة الحقد المسعور المعروفة تصعد الى زورها، وتخفقها، وعضلاتها تتوتر كالصلب... وافلت من حلقها عويل... واطلقت اولغا فيتشيسلافوفنا النار - ومضت تطلق الرصاص على هذا الوجه الأبيض المتقلب امامها...

سنة ١٩٢٨

افضل، وتسقط عنهم كل الادران كما ينسلخ الجلد الميت اذ تحرقه الشمس، ولا يبقى في الانسان سوى النواة. وهي بالطبع قوية لدى البعض، ولدى البعض الآخر اضعف. ولكن حتى ذوو النواة الضعيفة يجاهدون، ويريد كل منهم ان يصبح رفيقا طيبا ومخلصا. لكن صاحبي يجور دريوموف كان، حتى قبل الحرب انسانا مستقيما صارما في استقامته، يكن لأمه ماريا بوليكاروفنا ولابيه يجور يجوروفيتش حبا واحتراما شديدين «كان ابي شخصا رزينا، معتزا بنفسه. وكان يقول لي: ستزى يا بني الكثير في هذه الدنيا، وستسافر الى بلدان اجنبية، فلتعتز بانك روسي...» وكانت لصاحبي عروس من نفس القرية الواقعة على الفولجا. وعندنا يقال الكثير عن العرائس والزوجات، خاصة اذا كانت الجبهة هادئة والبرد قارصا، بينما المصباح يرسل لهبه الأسود في الملجأ، وتقطط النار في المدفأة، وقد فرغ الجنود من عشائهم. في هذه الحالة يختلقون من الاقاويل ما يجعلك تصيخ كالابله. يبدؤون الحديث مثلا بسؤال: «ما هو الحب؟»، فيقول احدهم: «الحب ينشأ على اساس من الاحترام...» ويرد الآخرون: «هذا هراء، الحب هو عادة، فالانسان لا يحب زوجته فقط، بل اياه وامه، بل وحتى الحيوانات...» فيقول ثالث: «يا للغباء! الحب هو ان تحس بان كل ما في داخلك يغلي، وتسير كأنك تمل...» وتستمر الفلسفة ساعة او ساعتين، الى ان يتدخل الشاويش فيحدد بصوته الأمر لب القضية... ويبدو ان يجور دريوموف كان يخجل من ذكر هذه الاشياء، فلم يشر الى عروسه الا عرضا، قائلا انها فتاة طيبة، وما دامت قد وعدت بانها ستنتظرنى، فستظل تنتظر، ولو عدت اليها بساق واحدة... ولم يكن يحب ايضا الافاضة في الحديث عن بطولاته الحربية. «لا اجد رغبة في تذكر تلك الاعمال!» ثم يقطب حاجبيه ويشعل سيجارة. ولكننا علمنا بالاعمال الحربية التي قامت بها دبابتة من طاقم الدبابة، وخاصة من سائقها تشوفيليف الذي ادهش السامعين بروايته.

«... ما ان استدرنا حتى رايت دبابة من طراز «النمر» تخرج من وراء التل. فصحت: «ايها الرفيق الملازم، هناك نمر»

الفطرة الروسية

الفطرة الروسية!.. عنوان كبير حافل بالمعاني بالنسبة لقصة قصيرة ولكن ما العمل... انني اريد ان احدثكم عن الفطرة الروسية بالذات.

الفطرة الروسية! فلتحاول اذن ان تصفها...

هل اتحدث عن المآثر البطولية؟ ولكنها من الكثرة بحيث تحار أيها تختار. انقذني احد معارفي من هذه الحيرة بقصة قصيرة من واقع حياته. لن احدثكم عن قتاله ضد الالمان، مع انه يحمل وسام النجمة الذهبية وتغطي النياشين نصف صدره. انه انسان بسيط، هادى، عادى، فلاح من احدى قرى الفولجا بمقاطعة ساراتوف. ولكنك تستطيع ان تميزه بين الآخرين بجسده القوى المتناسق وبجماله. وعندما كان يخرج من برج الدبابة - كاله الحرب! - ثم يقفز منها الى الارض، وينزع الخوذة عن خصلات شعره المبللة، ويمسح بالخرقة وجهه المتسخ، ثم حتما يبتسم من صفاء نفسه... عندئذ لا يسعك الا ان تملى منه ناظريك. وفي الحرب، اذ يدور الناس دوما حول الموت، يصبحون

* يحملها الحائزون على لقب «بطل الاتحاد السوفيتي».

المعرب.

فصرخ بي: «الى الامام، باقصى سرعة!». فاخذت اراوغ بين شجيرات الشوح يمينا ويسارا... والنمر يدور بمدفعه كالأعشى، ثم اطلق فلم يصينا... عندئذ ضربه الرفيق الملازم في جنبه فطار منه الشظايا! ثم ضربه في البرج فرفع مدفعه كخرطوم الفيل. ثم ضربه للمرة الثالثة فتصاعد الدخان من جميع تقويه، واندفع اللهب منه الى ارتفاع مائة متر... فخرج افراد طاقمه من باب الطوارئ... وهذا فتح عليهم فانكا لابشين نار رشاشه فناموا على الأرض وارجلهم ترتعش. وهكذا نزلنا الطريق. وبعد خمس دقائق اقتحمنا القرية. وهنا ضحكت حتى وجعني بطني!.. فقد تفرق الفاشيون كل الى جهة. وكانت الأرض قدرة، أتدري، فترى الواحد منهم يخرج حافي القدمين الا من جورب، ثم يرتقى في الوحد، ويركضون كلهم نحو الحظيرة. فاصدر الى الرفيق الملازم أمرا: «هيا، دس الحظيرة»... وأدنا المدفع الى الخلف واقتحمت الحظيرة باقصى سرعة. يا الهى! راحت العروق والألواح وقوالب الطوب تترقع على جوانب الدبابة، وكذلك الفاشيون الجالسون تحت السقف... واخذت ادور بالدبابة فوق الحظيرة كما تدور بمكواة... فرفع الباقون ايديهم، وقل على هتار كابوت...».

هكذا ظل الملازم يجور دريوموف يحارب حتى وقعت المأساة. فخلال معركة كورسك* الرهيبة، عندما خارت قوى الالمان وبدأوا يتقهقرون، اصيبت دبابته بتذيفة وهي فوق رابية في حقل قمح، فقتل اثنان من افراد الطاقم على الفور، وجاءت الطلقة الثانية فاشعلت الدبابة. وعاد السائق تشوفيليف الذي قفز من الباب الامامى فتسلق الدبابة واستطاع ان يستخرج منها الملازم... كان فاقد الوعي، بينما أمسكت النيران فى افروله. وما ان سحبه، تشوفيليف بعيدا حتى انفجرت الدبابة بقوة اطاحت ببرجها وقذفته على بعد حوالى خمسين مترا. واخذ تشوفيليف يهيل حفن التراب الرخو على وجه الملازم ورأسه وملابسه حتى يخمد

* كلمة اصلها المانية وتعنى «النهاية او الهلاك» وكانت شائعة الاستعمال على لسان الجنود اثناء الحرب. **المعرب.**

النار. ثم سحبه من حفرة الى حفرة حتى نقطة الاسعاف. ويقول تشوفيليف: «لماذا سحبت ساعتها؟ لاننى سمعت قلبه ينبض...».

ونجا يجور دريوموف من الموت، و لم يفقد حتى بصره، الا ان وجهه احترق بشدة، حتى لاح عظمه فى بعض المواضع. ووقد فى المستشفى ثمانية شهور، اجروا له خلالها عملية تجميل تلو عملية، واعادوا له انفه وشفتيه وجفنيه واذنيه. وعندما رفعوا عنه الاربطة بعد ثمانية اشهر تطلع الى وجهه الذي لم يعد الآن وجهه. اما الممرضة التى اعطته مرآة صغيرة، فقد استدارت واجهشت بالبكاء. واعاد لها المرأة على الفور قائلا:

- احيانا يقع ما هو اسوأ... بهذا الوجه يمكننى ان اعيش. ولم يطلب من الممرضة مرآة بعد ذلك، ولكنه كان يتحسس وجهه. وكأنه يريد التعود عليه. واعتبرته اللجئة الطيبة صالحا للخدمة غير الميدانية. عندئذ ذهب الى الجنرال وقال له: «أرجو ان تسمحوا لى بالعودة الى الفوج». فرد الجنرال: «ولكنك عاجز». فقال: «أبدأ، اننى مشوه فقط، وهذا لن يعوقنى عن العمل، اما القدرة القتالية فسوف استعيدها» (وقد لاحظ يجور دريوموف ان الجنرال تجنب النظر الى وجهه اثناء الحديث، فازتسمت على شفتيه الزرقاوين المستقيمتين كجانبى شق ضيق ابتسامة ساخرة). وحصل على اجازة لمدة عشرين يوما للشفاء التام، فسافر ليزور امه واباه، و كان ذلك فى شهر مارس من هذا العام.

وظن فى المحطة انه سيستطيع ان يركب عربة، ولكنه اضطر الى السير على قدميه ثمانية عشر فرسخا. وكان الثلج لا يزال يغطى الأرض، والمكان رطبا خاويا، والريح القارسة تذرو طرف معطفه وتملا اذنيه بصفير الوحدة الموحشة. وهبط القرية مع الغسق. ها هى البئر بذراعها العالية التى كانت تتأرجح وتصر. والمنزل السادس بعده منزل والديه. وفجأة توقف عن السير ودس يديه فى جيبه. وهز رأسه. وانعطف منحرفا صوب المنزل. وغاص فى الثلج حتى ركبتيه ثم مال نحو النافذة فرأى امه فى ضوء المصباح الخافت وهي تعد المائدة للعشاء.

كانت ترتدى نفس المنديل الغامق، هادئة، ثنائية، طيبة. لقد
هرمت، برزت كتفاها النحيلتان... «آه لو كنت أدرى لكتبت لها
كل يوم عن أحوالي ولو كلمتين...». وأعدت مائدة بسيطة:
كوبا من اللبن، وقطعة من الخبز، وملعقتين وملاحة، ثم وقفت
أمام المائدة شاردة وقد عقدت يديها النحيلتين على صدرها...
وبينما كان يجور دريوموف يتطلع الى أمه عبر النافذة أدرك انه
لا يجوز أن يخيفها، وأن يجعل وجهها العجوز يرتعش ياسا.
فليكن! وفتح باب السور ودلف الى الفناء، ثم ارتقى الدرج
ودق الباب. وصاحت الأم من الداخل: «من بالباب؟» فأجاب:
«الملازم دريوموف بطل الاتحاد السوفييتي».

ودق قلبه بعنف حتى مال معتمدا بكتفه على جانب الباب،
كلا، لم تعرف أمه صوته. بل خيل اليه انه يسمعه هو نفسه
لأول مرة، فقد تغير بعد كل تلك العمليات وأصبح أبح مكتوما
غير واضح.

وسألت الأم:

- وماذا تريد يا ولدي؟

- جئت حاملا لماريا بوليكاروفنا التحية من ابنتها الملازم
أول دريوموف.

عندها فتحت الباب وارتمت عليه وامسكت بيديه.

- ولدى يجور حي؟ بصحة طيبة؟ ادخل يا بني، ادخل.

وجلس يجور دريوموف على الأريكة بجوار المائدة، في نفس
المكان الذي كان يجلس فيه عندما كانت ساقاه لا تصلان بعد
الى الأرض، وكانت أمه تسمح أحيانا على خصلاته المجددة
قائلة: «كل يا عصفوري» وراح يحكي لها عن ابنتها، أي عن نفسه،
بالتفصيل، فأخبرها كيف يأكل ويشرب ولا ينقصه أي شيء،
وهو دائما سليم ومرح، ثم حدثها باختصار عن المعارك التي
خاضها بدبايته.

وقاطعته وهي تنطلع الى وجهه بعينين معتمتين لا تريانه:

- قل لي، هل تشعرون بالرعب في الحرب؟

- طبعا يا أمي تشعرون بالرعب ولكننا تعودنا.

ثم جاء الأب يجور يجوروفيتش، الذي هزم أيضا خلال هذه

السنوات وابتضت لحيته كأنها رشت بالدقيق. ووقف على عتبة
الباب ينفض حذائه اللباد البالي متطلعا الى الضيف، ثم فك
التلفيعة بتزودة، ونزع المعطف القصير واقترب من المائدة وصافح
الضيف.. آه، نفس اليد الأبوية العريضة العادلة المعروفة. ولم
يسأل عن شيء، فقد كان واضحا سبب وجود هذا الضيف ذي
الأوسمة، فجلس وأخذ يستمع وقد أغمض عينيه نصف اغماضة.
و كلما طالت جلسة الملازم دريوموف دون ان يتعرفا عليه
وهو يتحدث عن نفسه وعن غيره... أصبح من المستحيل عليه ان
يفصح عن حقيقته فينهض ويقول: هيا اعرافني مشوها يا أبي
ويا أمي!.. لقد كان يحس وهو جالس الى مائدة الوالدين
بالراحة والألم.

- حسنا، فلنتعش سويا... قدمي شيئا للضيف يا أم. وفتح
يجور يجوروفيتش دولابا صغيرا قديما، حيث كانت في زاويته
اليمنى خطاطيف الصيد في علبة كبريت: و كانت لا تزال في
موضعها - وغلاية شاي ذات فم مكسور - وهي أيضا كانت في
موضعها الذي كانت تنبعث منه رائحة بقايا الخبز وقشر البصل
الجاف. وأخرج يجور يجوروفيتش دورقا به نبيذ لا يملأ الا
كأسين، وتنهى بحزن لاستحالة الحصول على المزيد. وجلسوا
الى العشاء كما كانوا يفعلون فيما مضى وعندئذ فقط لاحظ
الملازم أول دريوموف أن أمه تتابع باهتمام خاص حركة يده
بالمعلقة، فابتسم بمرارة، ورفعت الأم عينها وارتعش وجهها
بالم.

وتحدثوا في شتى المواضيع: كيف سيكون الربيع، وهل
سيقدر من بقى في القرية على بذر البذور، وانه من المنتظر ان
تنتهى الحرب هذا الصيف.

- وماذا تظن يا يجور يجوروفيتش انه من المنتظر ان
تنتهى الحرب هذا الصيف؟

فأجاب يجور يجوروفيتش:

- لأن الشعب غضب و مر عبر الموت، فلن تقف قوة أمامه
الآن. قل على الالمان كابوت.

وسألت ماريا بوليكاروفنا:

- ولكنك لم تقل لنا متى سيمنحونه اجازة ليأتي لزيارتنا.
لم نره منذ ثلاث سنوات. تراه الآن كبير وأطلق شاربه... كل
يوم يمشى والموت حوله، لا بد ان صوته اخشوشن؟ فقال
الملازم:

- حسنا، سيأتي، وربما لا تتعرفون عليه عندئذ.

وأعدوا له فراشا فوق الفرن، حيث كان يعرف كل حجر وكل
شق في الحائط الخشبي وكل عرق في السقف. وانبعثت من المكان
رائحة جلود الغنم والخبز، رائحة الجو المنزلي الاليف الذي لا
ينسأه المرء حتى في لحظة الموت. وكانت رياح مارس تصفر فوق
السقف. ومن خلف الساتر كان يتردد شخير الأب، أما الأم فأخذت
تتقلب وتتنهد وقد جافاها النوم. ووقد الملازم على بطنه، دافنا
وجهه في راحتيه، وفكر بينه وبين نفسه: «امن المعقول انها لم
تعرفني، امن المعقول؟ أمي، يا أمي...».

واستيقظ في الصباح على طقطقة الحطب، وكانت امه تمد
شيتها ما بحدز عند الفرن، وعلى الجبل المشدود تدلت جواربه
المغسولة، واستقام حذاؤه بجوار الباب نظيفا. وسألته:
- هل تحب شطائر القمح؟

ولم يجب من فوره، بل هبط من فوق الفرن وارتدى سترته
العسكرية وشد حزامه، وجلس على الاريكة حافي القدمين.
- خبريني، هل تعيش هنا كاتيا مالميشيفا، ابنة اندريه
ستيبانوفيتش مالميشيفا؟

- لقد تخرجت في العام الماضي من الدورة الدراسية، وهي
الآن مدرسة عندنا. هل تريد ان تراها؟

- طلب مني ابنك ان ابلغها تحياته والى علي.

وارسلت الام ابنة الجيران في طلبها، ولم يكده الملازم يرتدى
حذاءه حتى اقبلت كاتيا مهرولة. كانت عينها الرماديتان
الواسعتان تلمعان، وحاجبها مرتفعين في دهشة، وعلى خديها
حمررة الفرحة. وعندما أرخت منديل رأسها الصوفي على كتفيها
العريضتين تاوه الملازم في نفسه: آه لو استطيع تقبيل هذا
الشعر الدافئ الاشقر... لم يكن يتصورها على غير هذه

الصورة، يانعة، رقيقة، مرحة، طيبة وجميلة الى درجة ان المنزل
توهج كالذهب اذ هلت...

- هل جئت بالتحية من يجور؟ (كان واقفا وظهره الى النور
فأحنى رأسه اذ لم يستطع ان يتكلم) انني انتظره ليل نهار...
خبره بذلك.

واقتربت منه وتطلعت اليه فارتدت مذعورة وكأنها تلتقت
دفعه خفيفة في صدرها وعندئذ عقد امره على الرحيل... اليوم
دون ابطاء.

وأعدت الأم شطائر من دقيق القمح وقلتها في السمن.
وحكى لهم ثانية عن الملازم دريوموف، فتحدث هذه المرة عن
مآثره البطولية. كان يتكلم بصرامة دون ان يرفع عينيه الى كاتيا،
كيلا يرى على وجهها الرقيق انعكاس دمامته. وأراد يجور
يجوروفيتش ان يحصل له على حصان المزرعة ولكنه رفض ذلك،
فذهب الى المحطة سيرا على الاقدام كما جاء. وقد أضناه ما
حدث، حتى انه كان يتوقف، فيلطم وجهه براحتيه ويردد بصوت
أبع: «وماذا أفعل الآن؟».

وعاد الى فوجه الذي كان يرابط في اعماق المؤخرة لتعويض
الخسائر. واستقبله رفاقه في السلاح بفرحة صادقة، فانزاح عن
صدره ما كان يمنعه من النوم والاكل والتنفس. وقال لنفسه:
فلتجهل أمي ما اصابني اطول فترة ممكنة، اما فيما يخص كاتيا
فسينزع من قلبه هذه الشوكة.

وبعد حوالي اسبوعين تلقى رسالة من أمه:

«مرحبا يا ولدي العزيز. اننى أخاف حتى ان اكتب لك. ولا
ادري كيف أفكر. لقد جاءنا رسول منك، شخص طيب جدا، لكن
وجهه قبيح. وأراد ان يمكث عندنا ولكنه رحل فجأة. ومن يومها
يا ولدي لا انام الليل، ويخيل الي انك انت الذى زرتنا. ويجور
يجوروفيتش يوبخنى على هذه الافكار ويقول: لقد مسك الجنون
أيتها العجوز... لو كان هذا ولدنا لكشف لنا عن نفسه... وما
الذي يدعوه الى التخفى لو كان هو؟ الشخص الذي له وجه كهذا
يحق له ان يفخر به. واصدق كلام يجور يجوروفيتش، ولكن قلب
الام يصر على رايه! لقد كان هو... هو الذي زارنا! لقد قضى

ذلك الشخص ليلة عندنا، وبات على الفرن. وحطت معطفه الى
الفناء لانظفه فضمته الى صدرى وبكيت... انه هو، وهذا
معطفه! اكتب لي يا يجوروشكا* بحق المسيح خبرني بالحقيقة...
ام ترانى فعلا اصابنى الجنون...».

واطلعتني يجور دريوموف على هذه الرسالة وهو يروى لي
قصته، ومسح عينيه بكمه، فقلت له: «يا لهما من طبعين التقيا!
انك احق، اكتب الى امك بسرعة طالبا عفوها، لا تسبب لها
الجنون... اتظن انها بحاجة الى جمالك؟ انها ستحبك اكثر من ذي
قبل بهيئتك هذه».

وكتب لهما في نفس اليوم رسالة:

«والدي العزيزين ماريا بوليكاروفنا ويجور يجوروفيتش...
اغفرا لي قلة ادبي. نعم ان من كان في زيارتكم هو انا، ابنتكما...»
الخ... الخ... وملا اربع صفحات بحروف دقيقة، ولو كان ممكنا
لكتب عشرين صفحة.

وبعد مضي فترة كنت اقف معه في الميدان عندما اقبل نحوه
احد الجنود راكضا ثم قال: «هناك من يسال عنك ايها الرفيق
النقيت». ومع ان الجندي كان واقفا طبق الاصول العسكرية
تماما، الا ان وجهه كان يشى بتعبير من يستعد للشرب. فتوجهنا
الى القرية، وعندما اقتربنا من المنزل الذي انزل فيه انا
ودريوموف، نظرت اليه فوجدته منفعلا، يسعل بين الحين والحين،
ففكرت في نفسي: «حقا انه قائد دباية، ولكن اعصابه...». ودخل
المنزل قبلي فسمعتة يقول: «مرحبا يا امي ها انا ذا!» ورايت
عجوزا صغيرة الحجم ترتمي في احضانه وتضمه، وتطلعت فرايت
امراة اخرى. واقسم لكم انه قد يوجد مثلها حسناوات في مكان ما،
فليست هي وحدها الحسناء... غير اني لم ارهن.

وتخلص من عناق امه ثم اقترب من تلك الفتاة. وقد سبق
ان ذكرت انه كان بجسده الاسطوري يشبه اله الحرب. وصاح:
«كاتيا، كاتيا، لماذا جئت؟ لقد وعدت ان تنتظري ذلك الشخص
لا هذا الذي امامك...»

* تدليل من «يجور». المعرب.

و خرجت من الغرفة الى المدخل ولكني سمعت كاتيا الجميلة
تقول: «لقد قررت ان اعيش معك الى الأبد يا يجور. ساظل
احبك باخلاص، ساظل احبك جدا... لاتصدني عنك...»
نعم هذه هي الفطرة الروسية... يبدو لك الانسان بسيطا،
ولكن عندما تحل محنة تصيبة تتصاعد من اعماقه قوة عظيمة...
هي الجمال الانساني.

سنة ١٩٤٤

كراسنوبولسكي مكشوفة وعارية تماما. ولم يكن من السهل على الكاتب ان يسير ببطله الاناني الذاتي المحطم الى الصفاء الروحي، ذلك الصفاء الذي تمنحه الطبيعة للانسان، فالطبيعة بالذات تساعد كراسنوبولسكي في الخروج من عزلته الذاتية المهلكة. وبذلك يكمن مغزى مشاهد مكوث الامير في اوندوري. فالطبيعة تولد بلسما يجعل الانسان يتحسس ارتباطه بالجمال الشمولي الخالد. وليس من قبيل الصدفة ان الشخصيات النسائية في الرواية، وخصوصا كاتيا فولكوا النقية النضيرة، على ارتباط كبير بالطبيعة. في هذه الرواية، كما في سائر مؤلفات الكسي تولستوي خلال تلك الحقبة، تجسد نماذج النساء، اللواتي غالبا ما تعود ملامهن في اصولها الى تقاليد ايفان تورغينيف، المثل الاخلاقية السامية. واكثر ما يميزهن القدرة على الحب المتفاني حتى النهاية. و في هذه الرواية سنتنصر فكرة الآلام المطهرة و بلسمها الشافي - الحب الذي يغدو قربانا من اجل التكفير والتوبة. فان حماس التضحية ينبض في كل ابطال الرواية تقريبا. فالامير كراسنوبولسكي المسكين المعذب يزحف على ركبتيه ويقطع طريقا طويلا بهذه الصورة ليطلب الصفع والغفران من زوجته كاتيا. وتتحمل ساشا، تلك المرأة الطيبة الوديمة، العذاب والآلام في سبيل حبها للامير. والدكتور زا بوتكين بضميره الحي يهبط الى الدرك الاسفل ويدفع في آخر المطاف ثمنا باهظا يكلفه حياته مقابل حبه الذي لا يجد صدى في فؤاد كاتيا. ثم ان حياة كاتيا نفسها، حبا وزواجا، ضحية ملتبهة.

ويطور الكسي تولستوي في هذه الرواية تقاليد الواقعية الكلاسيكية، ومنها تقاليد دوستوفسكي. الا ان الكاتب نفسه احس بانه استنفذ موضوع النبلاء المحتضر. فقد تطلبت الحياة موقفا جديدا ومواضيع جديدة وابطالا جددا.

عيد العنصرة - من الاعياد الارثوذكسية. ويحتفل به في اليوم الخمسين بعد عيد الفصح.

تعليقات

ص - ٣

«الامير الاعرج»

صدرت هذه الرواية لأول مرة عام ١٩١٢. وبها تختتم سلسلة مؤلفات الكاتب المكرسة لتصوير حياة النبلاء الروس. وقال الكسي تولستوي بهذا الخصوص: «سرعان ما عثرت على الموضوع الذي اثار اهتمامي. وهو احاديث امي و اقربائي عن عالم النبلاء المحتضر الذي تبدد رصيده و فقد مصداقيته. وهو عالم عجيب مبرقش غاص بالسخافات. في ١٩٠٩ - ١٩١٠ على خلفية الرأسمالية الزاحفة قبيل الحرب تحولت روسيا بسرعة الى دولة استعمارية، ومثل اولئك النبلاء الغريبو الاطوار امامي بكل روعة نماذج عصر القنانة المحتضر. وكانت تلك لقية فنية حقا». لقد صور الكاتب «بصدق قاس»، على حد تعبير مكسيم غوركي، تحلل عالم النبلاء آنذاك اخلاقيا واقتصاديا.

تقدم هذه الرواية، بحكم ارتباطها الوثيق مع السلسلة السابقة لها من افاصيص الكسي تولستوي، نموذجا للنبلاء اكثر تعقيدا من حيث المعالجة السيكلوجية، وهو النموذج الاخير لهذه الطبقة، ونعني به الامير كراسنوبولسكي. الا ان الصورة التي يرسمها الكاتب لبطله متناقضة للغاية. فمن جهة نرى قبحه الروحي الواضح وولعه الساري بعذاب الآخرين وانعدام اي مرتكز حياتي فيه، ومن جهة اخرى نجد عنده الصدق غير المتكلف والميل الشديد الى الطهارة والخير والامل في حب بكر. ازدواجية

الكسي اورلوف - هو الكونت اورلوف من كبار جنرالات روسيا في اواخر القرن الثامن عشر.
ريوريك - هو، بموجب السجلات التاريخية، مؤسس سلالة الأمراء والقيصرة الروس الذين حكموا البلاد من اواخر القرن التاسع حتى القرن السادس عشر. وينتمي الى هذه السلالة بعض بطون النبلاء حتى مطلع القرن العشرين.

ص - ١٤٦

«طفولة نيكيتا»

الف الكاتب هذه القصة في المهجر بباريس عام ١٩٢٠ واهداها لابنه نيكيتا تولستوي الذي غدا فيما بعد عالما فيزيائيا شهيرا. ذات مرة، اثناء التنزه في باريس، سال نيكيتا الصغير اياه دون مقدمات: ماهي اكوام الثلج؟ دهش الاب، وهو الروسي القح، اشد الدهشة لأن ابنه لا يعرف شيئا عن اكوام الثلج الزغيبية الرائعة التي تتكسد في روسيا شتاء. ولذا اراد الكاتب ان يتحدث عن الطفولة كما هي في دياره الحبيبة.

وفيما بعد، عندما ذاعت شهرة الكاتب السوفييتي قال عن حالته في فترة تأليف القصة: كنت هائما في اوربا الغربية، في فرنسا والمانيا، وقد اشتد بي الحنين الى روسيا والى اللغة الروسية فكتبت «طفولة نيكيتا». ونيكيتا هو انا، صبي من ضيعة غير كبيرة في ضواحي سامارا. هذا الكتاب اعز علي من كل ما الفته من روايات ومسرحيات قبله.

كان تولستوي قد عنون قصته الطبعة الاولى «حكاية عن اشياء رائعة كثيرة». وبالفعل فالقصة تجسد روعة الطبيعة الروسية الهادئة وصداقة نيكيتا الصغير مع صبيان القرية وجبه الاول، الطفولي جدا، ليليا والحكاية السحرية للصورة القديمة المعلقة في الصالة المعتمة والنخ...

ويتميز السرد بالطلاقة واليسر وعدم التكلف. وتتهوى انفاس الكاتب هادئة غير مقيدة وهو يحكى قصة طفل بدأ يتعرف على العالم الكبير المحيط به.

«نيفا» - مجلة ادبية فنية مصورة «للمطالعة العائلية»، صدرت في بطرسبورغ اعتبارا من عام ١٨٧٠.
بيبين القصير (٧١٥ - ٧٦٨) - ملك الافرنج الجرمانيين اشتهر بقوته البدنية الخارقة وذكائه المفرط. في اجتماع الافرنج في سواسون عام ٧٦١ ارغم الناس على مبايعته ملكا للميرويجيين.

ص - ٢٥٨

«الكونت كاليوسترو»

فينيكس الشهير - كاليوسترو (اسمه الحقيقي جوزيه بالزامو، ١٧٤٢ - ١٧٩١) - ايطالي الاصل، مغامر، منوم مغناطيسي كان يدعي بأنه ساحر. كانت له علاقة بالماسونيين الالمان، وزار عدة بلدان اوروبية. وفي عام ١٧٨٠ زار بطرسبورغ باسم الكونت فينيكس، واستقبله عليه القوم في المدينة، وبسط حمايته عليه الامير بوتيومكين الذي كان ذا سطوة آنذاك. وفي قصة تولستوي اضيفت الى الوقائع الحقيقية لسيرة حياة كاليوسترو شخوصا واوضاع ولدت في الخيال الفني للكاتب.

ص - ٢٦٧

في عهد الفرعون امينخوزيريس... - ربما يقصد بهما الكاتب الفرعونين المصريين امنخوتب الثالث او الرابع (القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، اللذين قاما بحملات على النوبة وسوريا.

ص - ٣٢٢

«جوبلين ماري انطوانيت»

ريشه بوشيه العظيم صنع جوبلين ماري انطوانيت (١٧٥٥ - ١٧٩٣)، الذي حفظ في اعوام العشرينات بالقصر الاسكندري في «قرية القياصرة»، اعتمادا على لوحة الفنانة اليزابيت لويز فيجيه - ليبران (١٧٥٥ - ١٨٤٢). وقد ذكر الكسي تولستوي بأن

صاحب اللوحة هو ف. بوشيه (١٧٠٢ - ١٧٧٠)، ربما، من أجل
الا تكون لقصته علاقة بجوبلين معين.

ص - ٣٣٣

- ...أحد المتشردين من سارقي الخيول سابقا.

المقصود به غريغوري راسبوتين (١٨٦٤ - ١٩١٦). وكان
ابن فلاح معدم، ولم يتلق التعليم، واستطاع التقرب من البلاط
لامبراطوري واكتسب نفوذا لاحدود له على نيقولاي الثاني وقرينته
الكسندرا فيودوروفنا. ووفقا لأوامر راسبوتين كان يجري تغيير
وتعيين الوزراء وغيرهم من رجال ادارة الدولة والكنيسة. وقد
استغل سلطته من أجل الرشوة وسرقة أموال الدولة. قتل بنتيجة
مؤامرة دبرها الملكيون.

ص - ٣٣٧

«الافعى»

نشرت هذه القصة لأول مرة في مجلة «كراسنايا نوف» عام
١٩٢٨. ولها مكانة هامة بين مؤلفات الكسي تولستوى في العشرينات.
فقد ادرك المعاصرون فوراً انها تنطوى على تصميم اجتماعي كبير.
قالت الكاتبة السوفييتية المعروفة ماريتا شاهينيان: «من المستبعد
ان يكون لدى الكسي تولستوى شيء اقوى من هذه القصة.
فقد هيا للكثير من الناس متعة كبيرة للتعرف على انفسهم او
جيرانهم والتعرف من خلال انفسهم وجيرانهم على حقبة من العصر».

بطلة قصة «الافعى» اولغا زوتوفا تواجه بصورة مشددة،
لحد الفاجعة، الانتقال من الحرب الاهلية الى ايام العمل السلمى...
وتتجسد في صورتها بشكل ساطع رومانسية السنوات الاخيرة،
رومانسية فترة الكفاح ضد الدخلاء وقوات الحرس الابيض. زد
على ذلك ان الكسي تولستوى يؤكد في بطلته ميلا معيناً الى
المجازفة واللعب بالنار بل وحتى بالموت.

وبعد ان كافحت اولغا زوتوفا ببسالة ضد الحرس الابيض
لم تتمكن من العثور على مسلك يناسبها في ظروف حلت فيها

طلققة الآلات الكاتبة محل طقطقة الرشاشات. وفي اصطدام
البطلة بالابتدال تجلى بشكل حاد عدم فهمها للحاضر وما يلازمه
من تناقضات وتقلبات وتعرجات في الطريق الى المستقبل. ولم
تنتبه اولغا الى هبوطها التدريجي من القمة التي ارتقتها بفضل
مشاركتها في الثورة، وصارت في بعض الاحيان تقف على نفس
مستوى الابتدال المتجسد في جيرانها والذي تكرهه بكل جوارحها.
لقد جسد الكسي تولستوى في هذه القصة واحداً من
التناقضات الهامة للمرحلة الانتقالية، وهو التناقض المرتبط بضرورة
التخلي عن بعض اشكال النضال في سبيل الجديد (الاشكال
«الجهوية») والانتقال الى اشكال اخرى اكثر مرونة، بحيث تراعى
الوقائع المعقدة لذلك العصر. فالبطولات ضرورية الآن ايضا،
ولكنها بطولات من نوع آخر. ولم تفهم زوتوفا ذلك، وهذا هو
مبعث التعقيدات في طريقة استيعابها للحياة، والقساوة الجبهوية
لسلوكتها في ملابسات تتطلب مرونة. وهذا هو اصل النهاية
الفاجعة للبطلة.

ص - ٣٥١

في صيف عام ١٩١٨ اثار الفيلق التشيكوسلوفاكي الذي
تشكل من اسرى الحرب السابقين الذين كانوا متوجهين بسماح
من الحكومة السوفييتية عبر سيبيريا والشرق الاقصى الى اوربا
الغربية ضد السلطة السوفييتية في اواسط الفولغا وسيبيريا.

ص - ٣٨٦

«الفترة الروسية»

نشرت هذه الاقصوصة لأول مرة عام ١٩٤٤، وادرجت ضمن
مجموعة «اقاصيص ايفان سوداريف» التي ألفها الكاتب ايان
الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ - ١٩٤٥) ضد الفاشية.

ان الكسي تولستوى الذي كان شاهد عيان للبطولة والبسالة
المنقطعتي النظر اللتين ابداهما المواطنون السوفييت في
المعركة العظمى ضد الغزاة الفاشيست انما يرسم نموذجاً بطوليا

حقا. فان ايجور دريوموف يجمع بين صلابة المحارب ورقة القلب لدى انسان لا يريد ان يسبب الماروحيا للآخرين. واذا كان ايجور لا يريد ان يثقل على الناس الاعزاء عليه فانهم لا يتصورون امكان العيش بدونها مهما الحققت به الحرب من تشويه بدني.

تستند الاقصوصة الى حادثة فعلية عرف بها تولستوي من مراسلي الجبهة. وكتب اديب سوفيييتي آخر هو ك. ترينيف اقصوصة حول نفس هذا الحادث بعنوان «في العائلة». اما اقصوصة «الشكيمة الروسية» فهي آخر اقصوصة كتبها الكسي تولستوي.

ص - ٣٨٨

المقصود معركة كورسك (يوليو - اغسطس ١٩٤٣) التي هي من المعارك الحاسمة في الحرب الوطنية العظمى. وقد دحرت القوات السوفيييتية خلالها ٣٠ فرقة للعدو وحررت قسما كبيرا من الاراضي التي احتلها الفاشيون.

محتويات

٣	الأمير الاعرج
١٤٦	طفولة نيكيتا
٢٥٨	الكونت كاليوسترو
٢٩٨	السيدة الحسناء
٣٢٢	جوبلين ماري انطوانيت
٣٣٧	الأفعى
٣٨٦	القطرة الروسية